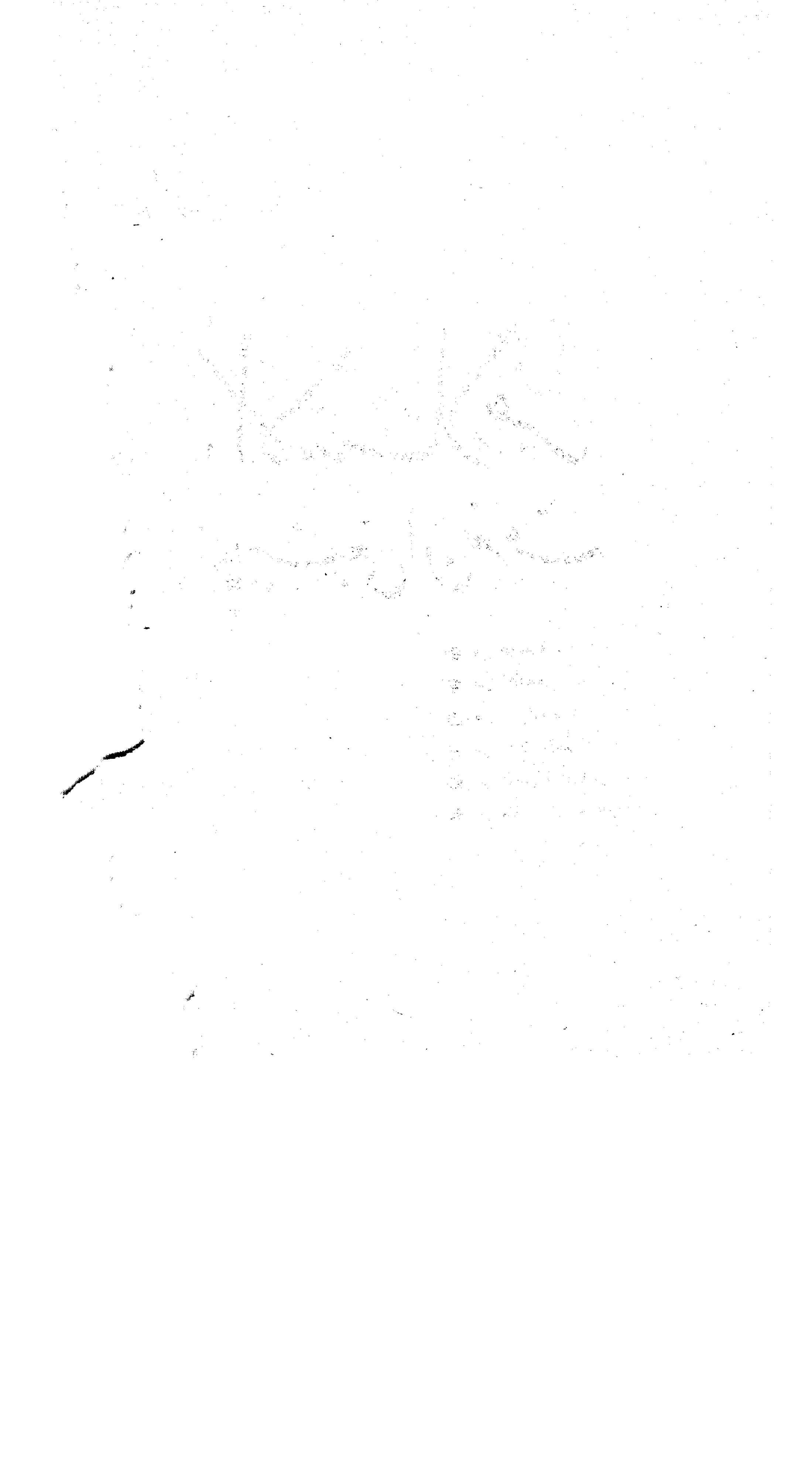
الدكتور محمد شامة

الإسلام

كما ينبغي أن نعرفه

- في العقيدة ..
- في الأخلاق ..
- في العبادات ..
- في مجال الأسرة ..
- في القضايا المعاصرة ..
- في مجال التيارات الفكرية ..



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن الشباب ومشكلاته ، اذ عقدت ندوات على مختلف المستويات ، وظهرت مقالات فى الصحف والمجلات ، وأخرجت المطابع نشرات وكتيبات ، وكلها تتناول مشاكل الشباب من جميع جوانبها : التعليمية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والدينية . غير أن من الملاحظ أن حجر الزاوية فى هذه المشكلة هو الفراغ الدينى ، فهو المؤثر الفعال فى سلوك الشباب واتجاهاتهم ، اذ من الملاحظ أن هناك مجتمعات متخلفة ثقافيا واقتصاديا ، ومع ذلك لم تظهر فيها هذه الظواهر السلوكية التى توحى بأن هناك مشكلة يعانى منها الجيل الناشىء . ذلك أن ما من مجتمع تعرض للتيارات الفكرية التى تطمس معالم الدين ، أو تمسخها ، الا وظهر فيها اتجاهان متنافران :

أحدهما : الانحلال التام بين أفراده ، حيث ينغمسون فى الملذات المادية ، ويجرون وراء كل ما من شأنه أن يجلب عليهم نشوة الجنس ، وسعادة الشهرة ، ولذة جمع المال وتكديسه ، ويتفننون فى خلق الظروف ، التى توصلهم الى أهدافهم فى هذه المجالات .

وأحيانا يهيىء لهم سماسرة الجنس ، ووسطاء المادة ، وتجار السياسة ، وعباقرة اللعبة الدولية ، الطريق الموصلة الى الانغماس فى هذا الخضم المائج ، بحيث لا يعترفون بدين ، ولا أخلاق ، ولا يصغون بآذانهم لأصوات الحق ، فهم صم بكم عن هذا النداء ، معرضون عن كل ما يذكرهم به ، ففى قلوبهم أكنة ، وفى آذانهم وقر ، وبينهم وبين ساحة الشريعة — حيث الفضيلة والشرف والأمانة — حجاب لا يدركونه ، وأن

أدركوه فى ساعة تفكير فى المصير والمآل ، فلا يستطيعون اختراقه ، أو حتى محاولة ازالته ، فيرتدون بعد هذه المحاولة الفكرية الى حيث تدور عجلة الزمن بآثامها وأوزارها .

ثانيهما : الهروب من مجالات الحياة ، والانطواء داخل النفس ، وهو يعتبر رد فعل للاتجاه الأول ، اذ تترك الظواهر اللاأخلاقية فى المجتمع أثرا على بعض الناس ، فيدفعهم ذلك الى الهروب منها ، اما لعجزهم عن مجاراتها ، أو ليقظة الضمير الدينى عندهم ، وسواء أكان السبب فى هروبهم هذا أو ذاك ، فهم لا يجدون لهم ملجا يحميهم من هذا الطوفان الجارف ، الا الدين ، فينصرفون عن الدنيا وملذاتها ، ويندفعون الى كتب الدين وعلمائه ، فى محاولة للحصول على ما يقيهم شر هذه الأمواج المتلاطمة حولهم ، غير أن واقع كثير من كتب الدين وعلمائه لا يساعدهم على سلوك الطريق الصحيح الذى رسمه الاسلام ، فنرى فريقا منهم يكتفى بترديد بعض كلمات ، يظن أنها ستحميه من قوارع هذا المجتمع المنحل ، وفريقا ثانيا يفهم الاسلام على نحو يجعله رافضا لكل ما فى الحياة من طيبات الرزق ، منكرا كل زينة فى المجتمع . وآخرون يميلون الى العنف سلاحا يحاولون به تغيير المجتمع ليأخذ شكل وهيئة الصورة التى فى أذهانهم عن الاسلام .

وكل هؤلاء مخطئون فى فهم طبيعة الاسلام ، اذ ليس هو الدين الذى يطلب من أتباعه أن يكونوا سلبيين ازاء ما يحدث فى المجتمع ، فمن يكتفى بترديد كلمات الاستغفار والتسبيح — وان كان ذلك مطلوبا لصفاء النفس وربطها بالجانب الروحى فى الاسلام — لا يكون اسلامه كاملا ، لأن الاسلام يطلب منه أن يكون ايجابيا فى مجالات العمل المختلفة ، فيتحمل المسئولية كاملة فى مجال اختصاصه ، قال عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ، ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته — قال :

وحسبت أنه قال : والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته »[1] •

فالحديث يدل على أن المسلم لا ينبغى أن ينطوى على نفسه مكتفيا بالصلاة والتسبيح ، لأنه مسئول عما يرعاه ، ومن مقتضيات هــذه المسئولية أن يعمل من أجل رعيتــه •

أما الفريق الذى حرم على نفسه ملذات الحياة وطيباتها ، فلا يمثل روح الاسلام ، لأن الله تعالى يقول : « **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيـا خالصــة يوم القيامة ، كذلك نفصــل الآيات لقوم يعلمون** »[2] • ويقول : « **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** »[3] •

فتحريم ما فى الحياة من طيبات رهبانية ، لم يكتبهــا الله على المؤمنين ، ولم يمارسها الأنبياء ، بل كانوا فى حياتهم بشرا سويا ، يأكلون ويشربون ، وينكحون النساء ، فمن يحرم ذلك من المسلمين على نفسه ، فقــد تنكب الطريق المستقيم ، الذى رسمه الاسلام للمؤمنين •

أما من يتخذ العنف طريقا للتغيير فى المجتمع ، فقد انحرف عن الأسلوب التربوى الذى رسمه لنا رسول الله ﷺ فى مجال الدعــوة الى الله ، حيث دعا الى الرحمة ، وحض على السلم ، وحث على التحلى بالحكمة ، والالتزام بالموعظة الحسنة ، اذ من الاساءة الى دعوة الاسلام ، والصد عنها ، أن يصير الاكراه طريقا من طرق الايمان بها ، لأن الإنسان اذا شعر أنه مكره على شىء ، •• انصرف عن تقديره ، واحترامه ، والتفكير فيه ، فضلا عن الايمان به • فأسلوب الاكراه فى مجال الدعوة الاسلامية مرفوض ، لأن الاسلام أعلنها صريحة أن لا اكراه فى الدين يقول الله تعالى : « **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** »[4] ••

---

(١) صحيح البخارى •
(٢) الاعراف : ٣١ ، ٣٢ •
(٣) المـائدة : ٨٧ •
(٤) البقرة : ٢٥٦ •

فظاهرة الافراط والتفريط فى المجتمع الاسلامى ترجع الى جهل الناس بروح التعاليم الاسلامية ، فهم ما بين منكر لها — لأنها فى نظره معارضة لمتطلبات النهضة فى مجالات الحياة المختلفة — وبين مفرط فيها بصورة تعمق الهوة بين الاسلام ، وبين من يرون ضرورة التمتع بما أنتجته الحضارة ، على اختلاف أنواعه وأشكاله .

ولهذا رأيت حين طلب منى أن أكتب أحاديث للبرنامج الموجه من اذاعة جمهورية مصر العربية ، أن أتناول القضايا التى تهم الانسان بصورة مبسطة ، لتكون فى متناول جميع المستويات الثقافية ، والتزمت فى ذلك منهجا يصلح لمخاطبة المسلم ، وغير المسلم ، لأن هذه الأحاديث كانت تذاع بأكثر من عشر لغات ، فسمعها المسيحى واليهودى والبوذى والبراهمى ، وغيرهم ممن يعتنقون أديان ومذاهب شتى .

كذلك آثرت أن تكون هذه الأحاديث وسيلة لتوضيح موقف الاسلام من كثير من قضايا العصر ، التى تثار التساؤلات حول موقف الاسلام منها ، فجاءت متنوعة فى موضوعاتها ومنهجها ، فهى فى العقيدة ، والأخلاق ، والعبادات ، وفى مجال الأسرة وقضايا العصر ، سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .

كما أنها تناولت أيضا موقف الاسلام من التيارات الفكرية المعادية .

وانى اذ أقدمها اليوم للقارىء كما قدمتها من قبل للمستمع ، فغايتى ومقصدى الاسهام فى مجال الدعوة الى الله ، لتصحيح المفاهيم فى المجتمع الاسلامى ، وتقديمها خالصة نقية لغير المسلمين ، لتقوم الحجة على هؤلاء وأولئك .

ألا هل بلغت .. اللهم فاشهد .

القاهرة فى ١٠ من جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ
٤ من أبريل سنة ١٩٨٢م

دكتور محمد عبد الغنى شامة

الفصل الأول

في العقيدة

١ ـ وجود الله

● اصطفى الله رسلا من خلقه ليبلغوا رسالته، ولكن كثيرا من الناس لم يصدقوهم ، لأنهم لم يكن عندهم الاستعداد ليؤمنوا بوجود الله ، ويشهد القرآن الكريم بذلك فيقول : **« وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله »**(١) ..

فما هى الأدلة التى ساقها الأنبياء للمعارضين المنكرين ؟

ـ اختلفت الأدلة حسب اختلاف الشعوب وطبيعة العصور ، كما انقسمت الأدلة الى جانبين :

أحدهما : للتدليل على صدق الرسول وأنه يوحى اليه من الله ،

والثانى : للتدليل على وجود الله لمن ينكر وجوده .

أما التدليل على صدق الرسول ، فكانت المعجزات التى ظهرت على يد كل رسول ، ليثبت للمنكرين أنه رسول من عند الله : فمعجزة موسى كانت السحر ، ومعجزة عيسى كانت احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص ، ومعجزة محمد هى القرآن الكريم .

● لماذا اختلفت المعجزات ؟

ـ لأن المعجزة لا تكون ملزمة الالزام الكافى، الا اذا كانت من جنس ما برع فيه القوم ، فالرسول يأتى بأشياء أكبر مما برعوا فيه ، ومن هنا يكون الاعجاز قد تحقق ،

فقوم موسى اشتهروا بالسحر ، فجاء موسى بما فاق ذلك .

وقوم عيسى برعوا فى الطب ، فأتى عيسى بأعمال فاقت كل ما أتوا به فى هـذا المجـال .

وقوم محمد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة ، فجاء محمد بما عجزوا عن الاتيان بأقل سورة منه وهو القرآن الكريم .

---

(١) الأنعام : ١١٦

أما الدليل على وجود الله لمن أنكر ذلك فجاء متشابها تقريبا فى كل الرسالات ، ذلك أنه اعتمد فيه على العقل والمشاهدات الطبيعية ، فركز على ما فى الكون من مخلوقات تتغير وتتحرك ، ووجه العقل الى التفكير فى ذلك ، ليصل بنفسه الى أن هذا الكون لابد له من خالق ، فقال تعالى :

« ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقـــوم يتقون »[٢] ..

وقال : **« هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه »**[٣] ..

وقال : **« قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض »**[٤] ..

وقال : **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهـــار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من الســـماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »**[٥] ..

وقال : **« قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون • قل أرأيتم ان جعل الله عليكمُ النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون • ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيـــه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »**[٦] ..

وحث الله الانسان على التفكير فى نفسه ، كى يهتدى الى خالقه :

« أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة »[٧] ..

وقال : **« فلينظر الانسان مم خلق • خلق من ماء دافق • يخرج من بين الصلب والترائب »**[٨] .

---

(٢) يونس : ٦ .
(٣) لقمان : ١١
(٤) فاطر : ٤٠
(٥) البقرة : ١٦٤
(٦) القصص : ٧١ — ٧٣
(٧) يس : ٧٧
(٨) الطارق : ٥ — ٧

كما حثه على التفكير فيما أنعم عليه من مخلوقات فقال : ((**أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون • وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون • ولهم فيها منافع ومشارب ، أفلا يشكرون**))[٩] ..

وقال : ((**وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا • لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا**)) [١٠] ..

ثم وجه القرآن الكريم الحديث لمن غفل عن النظر فى نفسه ، وفى ملكوت الله ، وفيما أنعم عليه من طيبات ما أخرجته الأرض ، وما سخره الله له من الحيوانات ، فتحداه أن يأتى بمثل ما أنعم الله به عليه ، أو يخلق أدنى الأشياء ، فقال : ((**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ،وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب**))[١١] ..

وقال : ((**والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون**))[١٢] ..

● لكن من الناس من يرى أن وجوده ووجود هذا الكون حدث بطريق الصدفة ، فكيف نثبت لهم خطأ اعتقادهم هذا ، ونبين لهم بالدليل الملموس أن للكون خالقا ؟

ـــ لقد أثبت العلم الحديث أن الفضاء الكونى فسيح جدا ، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها بسرعة خارقة ، بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى ، ومنها ما يتحرك فى شكل مجموعات • ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذى يدخل غرفتك من النافذة ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير فى الهواء ، فلو استطعت أن تتخيل هذا فى شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشىء عن السيارات والكواكب فى الكون،مع الفرق الهائل المتمثل فى أن ذرات الغبار

---

(٩) يس : ٧١ — ٧٣ .
(١٠) الفرقان : ٤٨ ، ٤٩
(١١) الحج : ٧٣
(١٢) النحل : ٢٠

تتحرك ويتصادم بعضها مع بعض ، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى ، ولا يقترب منه ، ولا يتصادم معه • فالعقل السليم حين ينظر الى هذا النظام العجيب والتنظيم الدقيق ، لا يلبث أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائما بنفسه ، بل ان هناك طاقة غير عادية هى التى تقيم هذا النظام العظيم ، وتهيمن عليه ، وتتحكم فيه ، وسيصل فى نهاية تفكيره أن هذه الطاقة عاقلة مريدة ، ولا تكون الا الله سبحانه وتعالى ، العليم ، الخبير ، فالق الكون وأسراره •

أضف الى هذا أن هناك أمورا كثيرة تؤكد وجود الله سبحانه وتعالى : وما كشفه العلم حتى الآن ، هو قليل من كثير ، وكل ما يمكن للانسان أن يعبر به عن آلاء الله ونعمه ، لا يكون سوى غاية فى النقص ، فمهما فصل وأسهب فى شرح أسرار الكون ، فلن يبلغ ذرة من محيط ، وصدق الله اذ يقول : « **ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** »(١٣) • •

وقوله : « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** »(١٤) • •

وقد شعر بوجود الله علماء كثيرون ، وصلوا الى ايمانهم عن طريق ما تكشف لهم من صفحة الكون ، فهذا عالم الطبيعة الأمريكى « جورج ايريل ديفس » يرد على هؤلاء الذين يزعمون أن الكون خلق نفسه فيقول : « لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فان معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ، وفى هذه الحالة سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الاله • •

وهكذا ننتهى الى التسليم بوجود اله ، ولكن الهنا سوف يكون عجيبا ، الها غيبيا وماديا فى آن واحد • اننى أفضل أن أومن بذلك الاله الذى خلق العالم المادى وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ، ومديره ، ومدبره بدلا من أن أتبنى هذه الخزعبلات » •

***

---

(١٣) لقمان : ٢٧ — (١٤) الكهف : ١٠٩

٢ — حقيقــة الــدين

ينبغى أن نتحدث عن كلمــة الدين ، ونبين معناها ، لأن فريقيــا من الناس يرى :

أن كل معتقد يسمى دينــا •

وآخرون يرون :

أن يقصر معنى الدين على الرسالات السماوية ، فيقولون :

الدين هو ما نزل من السماء كاليهودية والمسيحية والاسلام ، وما عدا ذلك فليس بدين ، وعندما فتحت القواميس لأبحث عن معنى كلمــة الدين ، لم أخرج منها بشىء مقنع ، ذلك أنى وجدتها تنص على أن الدين : هو الملة ، والملة : هى الدين •

وعليه فلو تتبعنا استعمالات كلمة الدين فى اللغة ، لوجدنا أنهــا متعددة المعانى : اذ يطلق الدين ويراد منه : الجزاء ، ومنه قوله تعالى : **« مالك يوم الدين »**[1] ••

أى يوم الجزاء وهو يوم القيامة •

ويطلق ويراد منه : الحكم والسلطان ، ومنه قوله تعالى : **« ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك »**[2] ••

أى ليأخذ أخاه فى حكم الملك وسلطانه •

كما يطلق على العادة ، كقول الشاعر :

تقول وقد درأت لها وضــينى   أهــذا دينه أبدا ودينى

أى عادته وعادتى •

وكذلك يطلق ويراد منه الطاعة والانقياد ، يقال : دان له دينــا وديانة ، أى خضع وأطاع •

ويطلق ويراد به ما يدين به الانسان ، يقال : دان بكذا ، أى اتخذه دينــا ، وتعبد به •

---

(١) الفاتحة : ٤   (٢) يوسف : ٧٦

فهذه استـــعمالات خمســـة وهي : العادة ، والطاعة ، والحكم ، والجزاء ، وما يدين به الانسان ، فاذا قلنا : ان الدين هو ما يدين به الانسان ، أى يعتنقه فليس معنى هذا : أن المعانى الأخرى غير داخلة فيه ، اذ لو تدبرناها لوجدنا أنها داخلة كلها فى هذا المعنى ، لأن من يدين بدين تصبح تعاليمه عادة له ، ويطيع من شرع هــذا الدين ، ويخضع لسلطانه ، ويرجو منه الجزاء ، فأنت ترى المعانى الخمسة هى عناصر لكلمة الدين ، بمعناها المشهور •

● فهل يكون كل اعتقاد ضم هــذه المعانى دينا ؟

— للاجابة على هذا السؤال ، ينبغى أن نتناول الموضوع من جانبين :

الأول : معنى الدين عند علماء الأديان ••

والثانى : بيان العنصر الذى يفصل الدين عن العقائد التى لا تسمى دينـــــا •

أما فى الجانب الأول ، فقد عرف بعض علماء الأديان الدين بأنه : وضع الهى سائق لذوى العقول — باختيارهم اياه — الى الصلاح فى الحال ، والفلاح فى المآل ، وهو يشمل العقائد والأعمال •• فهذا التعريف لا ينطبق الا على الأديان السماوية : كاليهودية ، والمسيحية ، والاسلام •

أما غيرها من المعتقدات التى لا صلة لها بالسماء ، واصطلح الناس على تسميتها دينا ، فلا يسميها هؤلاء العلماء دينا ، لأنها فى نظرهم تشريعات أرضية تنسب الى البشر ، ولا صلة لها بالله سبحانه وتعالى ، والدين لا بد أن يكون منزلا من الله العلى القدير •

ويرى فريق آخر من العلماء أن الدين : هو عبارة عن الايمــان والعبادة مهما كانا ، فايمان الوثنيين دين ، وايمان البوذيين دين ، وايمان البرهمانيين دين ، وكل عقيدة تشتمل على الايمان بقوة أو قوى ســائدة تحكم الأرض وتلزم أتباعها بالخضوع لهذه القوة وعبادتها فهى دين ، ومعنى هذا أن الدين عند هؤلاء يشمل الاديان السماوية ، وغير السماوية ، أى التى وضعها البشر ولا تمت الى الله بصلة • واســتدلوا بآيات من

القرآن الكريم كقوله تعالى : « **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** »[٣] ..

فقد أطلق الله فى هذه الآية الدين على العقائد الباطلة ، كما أطلق على ما كان عليه كفار قريش من الاعتقاد والاوثان دينا ، فقال تعالى موجها الخطاب لهم : « **لكم دينكم ولى دين** »[٤] ..

وأرى أنه لا يوجد خلاف جوهرى بين الفريقين ، ذلك أن الفريق الأول عندما حصر معنى الدين فى اليهودية والمسيحية والاسلام ، كانت نظرته الى كلمة الدين نظرة خاصة ، اذ أنه أراد بذلك الدين الموحى به من السـماء .

أما الفريق الآخر فينظر الى الدين نظرة عامة .. أى كل ما يشمل الاعتقاد فى قوة ، وخضوع لتلك القوة ، وعبادة لها ، سواء أكان مصدرها السماء ، أو كان منبعه الأرض .

وعندما يريد هذا الفريق تخصيص المعنى ، فانهم يقولون : هذا دين حق ، وهذا دين باطل ، فالكل عندهم دين ، لكن يضاف اليه ما يبين خصائصه ، من كونه دينا سماويا ، أو دينا وضعيا ، ويوضح الحكم عليه بكونه دينا حقا أو دينا باطـلا .

ويجب أن نضم الى العناصر المكونة للدين عنصر الاعتقاد بالذات الغيبية الروحية المتصلة معنويا بعابديها ، لنخرج المعتقدات فى الفكر الفلسفى المعاصر عن دائرة الدين ، فالشيوعية والوجودية وغيرهما من أنواع المعتقدات الفلسفية لا تسمى دينا ، لأنها لا تؤمن الا بالمشاهد المحسوسة ، والدين لابد فيه من الاعتقاد فى قوة غيبية غير مشاهدة .

نريد أن نقول : ان كل مذهب أو اتجاه عقدى لا يؤمن بالقـوة الغيبية لا يسمى دينا ، وبذلك يظهر أمامنا أنواع ثلاثة :

دين سـماوى ..

ودين وضـعى ..

ومـذهب حسى ..

---

(٣) آل عمران : ٨٥ .

(٤) الكافرون : ٦

فهذا الأخير ، وان أطلق البعض عليه عقيدة . الا أنه لا يدخل فى دائرة الدين ، فلا يسمى دينـــا •

● هناك كلمتان مرتبطتان بالدين ، وهما :

الملة والنحلة • ألست ترى معى أنه لا بد من بيان معناهما حتـــى تكتمل الفائدة ؟

— نعم : تطلق كلمة الملة ، ويراد بها — طبقا لما جاء فى معاجـــم اللغة — : الشريعة ، أو الدين ، كملة الاسلام والنصرانية واليهودية •

اذن فالملة تطلق على الأديان المنزلة ، فيقول الراغب الأصفهانـــى :

« الملة : اسم لما شرعه الله لعباده على لسان الأنبياء ، ليتوصلوا به الى جوار الله ، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف الا للنبى عليه السلام ، الذى تنسب اليه ، نحو قوله تعالى : **« ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم »**(٥) ••

وقوله . **« واتبعت ملة آبائى »**(٦) ••

ولا تكاد توجد مضافة الى الله ، ولا تضاف الى آحاد الناس ، ولا تستعمل أيضا الا فى جملة الشرائع ، دون آحادها ، فلا يقـــال : ملة الله ، كما لا يقال : ملتى أو ملة زيد،وبالعكس يقال : دين الله ، ودين زيـــد •

وتطلق النحلة ويراد بها : ما انتحل من الدعاوى ، فيقال : انتحل فلان كذا ، أى ادعاه وهو لغيره • ويتضح من هذا : أن مدلول الكلمة يشير الى الكذب والانتحال الذى لا أساس له من الصحة • وتلك هى طبيعة النحل والعقائد التى تتنكر لآيات الله وتكفر برسله ، فكل دعوة هذا شأنها يطلق عليها : نحلة ، لأن ما تدعيه من انكار لله ولرسله ، هو كذب وافتراء •

وقانا الله شر هذا الاتجاه وهدانا الى دينه الحق •• دين الاسلام•• انـــه ســـميع مجيب •

* * *

---

(٥) النحل : ١٢٣ (٦) يوسف : ٣٨

٣ — ما هو الاسلام

● ألاحظ أن كلمة الاسلام تستعمل فى عبارات وتراكيب لغوية مختلفة ، وأفهم من كل عبارة معنى لها يخالف معناها فى العبارة الأخرى ، فهل تدل كلمة الاسلام على معان متعددة ، بمعنى أنها تستعمل استعمالات مختلفة ، فيكون معناها فى استعمال يخالف معناها فى الاستعمال الآخر ، أم أن بين الاستعمالات المتعددة جانبا مشتركا ؟ .

— اذا أردت أن تبحث عن معنى كلمة ما ، فلا بد أن تلاحظ استعمال الفعل المشتق منها ، فالفعل من كلمة الاسلام هو : أسلم يسلم ، ومعناه : انقاد ، فتقول : أسلمت وجهى لله ، أى أطعت الله ، أو انقدت لأمر الله ، فالاسلام على هذا النحو هو : الانقياد والخضوع والطاعة لله سبحانه وتعالى ، يقول القرآن الكريم ، حكاية عن ابراهيم عليه السلام : « **ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين . اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين** »[1] .

● اذا فهم الاسلام على أنه الخضوع والانقياد والطاعة ، فلربما يتبادر الى الذهن أنه يدعو الى أن يكون المسلم متواكلا ، لأن معنى كلمة الانقياد : هو التسليم بما يجرى ويحدث ، دون الاعتراض ، ودون محاولة التأثير على مجرى الأحداث ، وهو ما يسمونه بالجبرية ، أى أن الانسان خاضع للمشيئة ، دون محاولة التأثير على مجرى الأحداث ، فهو كريشة معلقة فى الهواء ، اذ تسيرها الريح حيث شاءت ، فالمسلم قد استسلم للأحداث بانقياده ، فلا يتدخل فى تغييرها ، وذلك ما يلاحظ عند عامة المسلمين ، فهم متواكلون ، بل متكاسلون ، فاذا حاولت دفعهم الى العمل قالوا لك : « خليها على الله ، ما كان لك سوف يأتيك » ، ألا يكون سبب هذه السلبية ، هو ما يفهم من كلمة الاسلام من أنه هو الانقياد والخضوع المطلق ؟ .

---

(١) البقرة : ١٣٠ ، ١٣١ .

— يخطىء من فهم أن الاسلام يدعو الى الكسل أو السلبية ، فانه يحث على العمل والمثابرة ، يقول الله تعالى : **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسـوله »**(٢) ..

ويقول : **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »** (٣) ..

ولو أحصيت لك الآيات التى وردت فى القرآن الكريم فى معرض الحث على العمل ، وجزاء العاملين ، لضاق بنا الوقت ، وهذا يدل على أن الاسلام لا يحب أن يكون المسلم سلبيا ، بل يدفعه دفعا الى العمل ، ويعده بثواب على أعماله الطيبة .

● لا يوجد أدنى اختلاف على أن الاسلام يدعو المسلمين الى الاكثار من الأعمال الطيبة فى مجالات العبادات من ذكر وتسبيح وصلاة وغـير ذلك ، ولكن الخلاف فى الأعمال الدنيوية ، أى فى السعى الى ما يعـود على الانسـان بالخير المـادى ، فكثير من المسـلمين يلتزمون بـأداء العبادات ، ويتواكلون فيما يعود على المجتمع بالرفاهية ، والتقـدم الحضارى ، اعتقادا بأنهم سوف ينالون ذلك فى الآخرة ، أما فى الدنيا فلا بأس عليه أن يعيش فقيرا محروما ، ولذلك تسمع كثيرا منهم يقول : « لنا الآخـرة » أى أنه وان فاتته الدنيا بسبب كسله وتواكله ، فسينال فى الآخرة ما حرم منه فى الدنيا .

— هناك نقطتان ينبغى أن نلاحظهما جيدا وهما :

أولا : كما حث الاسلام على العمل فى مجال العبادة ، حث على العمل فى المجال الدنيوى فقال تعالى : **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »**(٤) ..

وقال : **« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقـه »**(٥) ..

---

(٢) التوبة : ١٠٥
(٣) النحل : ٩٧
(٤) الجمعة : ١٠
(٥) الملك : ١٥

وقال : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** »(٦) ..

وقال ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه »(٧) .

فهذه النصوص تدل على أن الاسلام ، وان كان معناه الخضوع والانقياد ، الا أنه خضوع لله فقط ، وليس خضوعا للظروف المادية التى تحيط به ، أى أن المسلم لا يجوز له أن يستسلم للعقبات التى تعترض طريقه فى الحياة الدنيوية ، بل عليه أن يتخطاها ، بالاجتهاد ، والمثابرة فى العمل ، الذى يدر عليه وعلى أولاده رزقا يعيشون منه ، وفى ذلك أيضا فائدة للمجتمع ، لأنه بانتاج أبنائه يقوى على مواجهة التيارات المعادية له .

النقطة الثانية التى ينبغى أن نلاحظها : هى أن الخضوع لله يتطلب تلقائيا العمل ، والجد فى الأعمال الدنيوية ، لأن معنى الخضوع لله أن تنفذ كل ما أمرك به ، وقد أمرك بالسعى على الرزق ، والعمل بجد فى مجال الانتاج لتقوى الأمة ، فمن يتكاسل فى عمله ، فقد فرط فى جانب رئيسى من جوانب خضوعه لله ، أى أن اسلامه يكون ناقصا ، لأنه لم يقم بما يتحقق به الاسلام .

● اذا كان معنى الاسلام هو الخضوع والطاعة ، فهل كل من خضع لله وأطاعه يعتبر مسلما ؟

ـــ نعم ! .. ولذا قال الله تعالى : « **ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما** »(٨) ..

أى أنه كان فى سلوكه منفذا ما أمر الله به ، طائعا له ، ولم يتبع ما أدخل على دين الله بواسطة الاحبار والرهبان ، فكل انسان سار على هدى الله ، ونفذ ما نزل به الوحى من عند الله يعتبر مسلما ، فيوسف

---

(٦) الأعراف : ٣٢
(٧) البخارى : باب الزكاة .
(٨) آل عمران : ٦٧

عليه السـلام يقول : **« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »**[٩] .

وبلقيس ملكة سبأ تقول : **« رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »**[١٠] ..

● اذن ، فمعنى الاسلام هو أنه دين الله من لدن آدم حتى الآن ؟ .

— نعم ! .. فمن لم يؤمن به ، فقد اتبع طريق الشيطان،وسارع الى ما شرعه له الرهبان والأحبار .

● ولكنى أرى أسماء عدة للدين ، فهذه : اليهودية ، وتلك:النصرانية، أليس هذان الدينان أيضا من عند الله ، واذا كان كذلك ، فلماذا سميا بهذين الاسمين ، ولم يسميا الاسلام ؟ .

— دين الله هو الاسلام ، لكن اليهود حرفوا فيه ، فجاءت النصرانية على لسان عيسى لتصحح — وهما فى الأصل دين الله الذى هو الاسلام — ولما حرفت النصرانية ، نزل الوحى على سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، ليبلغ الناس دين الله ، **الذى هو الاسلام** . فمن لم يؤمن به ، لم يكن مسلما ، وبالتالى لا يكون مطيعا له . يقول الله تعالى : **« ان الدين عند الله الاسلام »**[١١] ..

أى هو ما نزل على محمد ﷺ ، لأنه هو الدين الوحيد ، الذى سلم من التحريف والتبديل ، فهو دين الله من لدن آدم حتى محمد ﷺ .

***

(٩) يوسف : ١٠١
(١٠) النمل : ٤٤
(١١) آل عمران : ١٩

٤ ـ ما هـو الايمـان

● تحدثنا عن الاسلام ، فبينا أنه هو الخضوع والانقياد والطاعة لله ، وشرحنا أن هذا المعنى لا يكون سببا فى أن يتواكل المسلم أو يتكاسـل ، لأن الاسلام يحث على العمل ، سواء أكان فى مجال العبادة ، أو كان متعلقا بالمسائل الدنيوية ، من تجارة ، وزراعة ، وصناعة ، وغير ذلك • ولكن بقى جانب آخر يبدو غير واضح ، وهو أنه ورد فى الحـديث الشريف أن النبى ﷺ قال : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا اللهوأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » •• فهل اذا فعل المسلم هذه الاركان الخمسة فقط يعتبر مسلما ؟ •

ـ نعم ! •• لأن هذه الأركان ، اذا أديت تدفع بمن يؤديها الى أن يفعل الخير ، ويتجنب كل أعمال الشر ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكـر ، والزكاة تربى فى المسلم غريزة حب الخير والعطف على المحتاجين ، والصوم يهذب أخلاق المسلم ، فيحرره من غرائز الشهوات الجسمانية ، والحج يعمق فى قلوب المسلمين الشعور بالوحدة ، وفوق هذا كله فالشهادة تحرر المسلم من سيطرة البشر عليه فهو لا يخضع الا لله •

● اذا كان المسلم يتصف بهذا كله ، أو تنفيذه لهذه الأركان يؤدى الى أن يكون مسلما مطيعا لله ، منفذا تعاليمه ، فلماذا قال الله فى كتـابه الكريم ردا على الأعراب الذين جاءوا يعلنون ايمانهم للنبى ﷺ ، بأنهم ليسوا مؤمنين بل مسلمين فقال : **« قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »** [1] • •

فهل الايمان غير الاسلام ؟

ـ يجب أن نعرف أن الاسلام هو الخضوع والانقياد الظاهرى ، فان صاحبه تصديق بالقلب ، يكون اسلاما صحيحا لأن الايمان هو التصديق

---

(١) الحجرات : ١٤

بالقلب ، والتعبير عنه باللسان — كأن ينطق المرء بالشهادتين ، أو يتلو القرآن — أو بالعمل — كأن يقوم بأداء العبادات — انما هو علامة على ما فى القلب من الايمان ، فان كان هذا التعبير صدى لما فى القلب من ايمـان ؛ كان اسلاما حقيقيا ، والا فيكون تظاهرا فقط ، كما كان حال المنافقين ، فقد تظاهروا بالاسلام ، ولم يدخل الايمان قلوبهم ، كما هو الحال مع الأعراب الذين تحدثت عنهم الآية ، فقد جاءوا خاضعين ، ولكن لم يكن الايمان قد دخل فى قلوبهم بعد .

ولهذا لا يمكن الحكم على انسان أنه مؤمن أو غير مؤمن ، لأن ذلك الأمر يتعلق بالقلب ، ولا يطلع عليه الا الله سبحانه وتعالى ، وانمـا نقول : فلان مسلم .. وهذا هو السبب فى شيوع استعمال كلمة : « المسلمون » وقلة استعمال كلمة : « المؤمنون » فاطلاق الايمان على المسلمين ، لا يكون الا من الله الذى يعلم ما فى القلوب . ومن هنا جاء تعبير « **الذين آمنوا** » فى القرآن الكريم . أكثر من مائتى مرة ولم يأت تعبير « **الذين أسلموا** » الا مرة واحدة حيث يقول الله « **انا أنزلنا التوراة فيها هـدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسـلموا للذين هادوا** [٢] ..

أى يحكم بها الذين أطاعوا الله ، ولم يسيروا وراء شريعة وضعها البشر للمجتمع اليهـودى .

● اذن ، فالايمان هو تصديق بالقلب ، والاسـلام نطق باللسان ، وعمل يقوم به العبد تنفيذا لمـا جاء به القرآن الكريم . وقد يكون هذا العمل ظاهريا فقط ، كما كان حال المنافقين ، أى تظاهروا أمـام المؤمنين بأنهم آمنوا ، ولم يدخل الايمان قلوبهم ، وقد يكون معبرا تعبيرا صادقا عما فى القلب من ايمان ، فكيف نفرق بين العملين ؟

— من الصعب جدا التفريق بين عملين : عمل قام به صاحبه تظاهرا ، وآخر نابع حقيقة من القلب ، فذلك لا يقدر عليه الا العليم بأسرار

---

(٢) المـائدة : ٤٤

القلوب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، لكن المرء غالبا ما يلحظ — ان واتته الظروف ، أو كان ملازما للشخص فى جميع الأوقات — صدق العمل الذى يقوم به صاحبه ، وذلك اذا كان سلوك الشخص طبقا لما يظهره ، من تقوى ، وحرص على تأدية العبادات •

وتوضيحا لهذين المعنيين للاسلام والايمان ، وصف ما يتعلق بالقلب بأنه الايمان ، وما يظهر على الجوارح بأنه الاسلام ، فيقول الله تعالى فى وصف المؤمنين : « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** » (٣) ••
لأن التصديق لا يتحقق فى هذا الا بالقلب ، فسمى ايمانا •

أما ما له جانب ظاهرى فقد وصف بالاسلام ، فقد جاء فى حديث رسول الله ﷺ ، حين سأله جبريل عن الاسلام قوله : « الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » ، فالنطق بالشهادة له جانب ظاهرى ، وكذلك الصلاة والصوم والزكاة والحج •

اذن ، فالاسلام هو ما يتعلق بالظاهر ، والايمان : هو ما يتعلق بالقلب ، وان كان الاسلام لا يكون صحيحا الا اذا كان مصاحبا للايمان بالقلب ، فان انتفى الايمان بالقلب أصبح العمل الظاهرى نفاقا ، وليس اسلاما ، ولا يطلع على هذا الا الله ، لأنه أعلم بالقلوب ، ولذلك لا يصح أن ننفى الايمان عن مسلم التزم بأداء الاعمال الظاهرية ، فنصفه بالكفر ، أو النفاق ، لأن هذا خارج عن قدرتنا ، والأولى أن نطلق عليه وصف مسلم فقط •

أما وصف المؤمن فندعه لله سبحانه وتعالى ، فهو وحده الذى يعلم ما فى قلبه •



---

(٣) البقرة : ٢٨٥

٥ ـ الوحـــــى

حدثنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ، اذ أقبل رجل ، شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، ما يرى عليه أثرا لسفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فأقبـل حتى جلس بين يـدى رسول الله ﷺ وركبته تمس ركبته ، قال : يا محمـد •• أخبرنى عن الاسلام ! فقال رسول الله ﷺ : « تشـهد أن لا الـه الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » ، قال : صدقت •• فتعجبنا من سؤاله وتصديقه • ثم قال : فما الايمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وحـده وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، وبالقدر : خيره وشره » • فقال : صدقت • ثم قال : فما الاحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » قال:صدقت • قال : فأخبرنى عن الساعة ! فقال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » • قال : صدقت • قال : فأخبرنى عن أماراتها ! قال : « أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى العراة الحفاة ، رعاء الشاة ، يتطاولون فى بنيان المدر » ؛ قال : صدقت • ثم انطلق ، فلبثنا مليا ، ثم قال رسول الله ﷺ : « ياعمر •• هل تدرى من الرجـل » ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم • قال : « ذاك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم ، وما أتانى فى صورة الا عرفته فيها ، الا فى صورته هـذه » [1] ••

فهذا الحديث يشتمل على أربع مسائل ، وهى : الاسلام ، والايمان ، والاحسان ، وأمارات الساعة • وقد تحدثنا عن اثنتين منها ، وهمـا الاسلام ، والايمان •• ولا أريد أن نتحدث الآن عن الاثنتين الباقيتين ، وهما : الاحسان وأمارات الساعة ، لأن الحديث عن الاحسان ، سيأتى عندمـا نتحدث عن الأخلاق ، وحديث الساعة سيأتى عندما يحين الكلام عن السمعيات ، ولكن ما أريد معرفته الآن هو : من هو جبريل ؟ •

---

(١) البغوى جـ ١ ص ٩ •

جبريل لفظ سريانى معناه : عبد الرحمن ، أو عبد العزيز ، فيما رواه ابن عباس ، وهو الملك الذى وكله الله بابلاغ الوحى الى أنبيائه ورسله عليهم السلام ، وقد ورد اسمه فى القرآن الكريم فى ثلاث آيات ، هى قوله تعالى : **« قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه »**(٢) ..

وقوله : **« من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين »** (٣) ..

وقوله : **« وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين »** (٤) ...

ويقول العلماء : ان جبريل هو كبير الملائكة ، ولذا فوض الله اليه تبليغ وحيه الى رسله .

● فما معنى الوحى ؟ :

ـ الوحى فى اللغة : «الالهام» ، ومنه قوله تعالى : **« وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا »** (٥) .. أى ألهم ربك النحل ، بأن يتخذ من الجبال بيوتا .

وقوله : **« واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى »** (٦) أى ألهمتهم الى الايمان .

كما جاء فى قوله : **« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى »** (٧) ..

أى ألهمناها ، بأن ترضعه وتلقيه فى اليم . أما المعنى الاصطلاحى للوحى : فهو ما أنزل على الأنبياء والرسل من تشريعات ليبلغوها الى أقوامهم .

---

(٢) البقرة : ٩٧ .
(٣) البقرة : ٩٨ .
(٤) التحريم : ٤
(٥) النحل : ٦٨ .
(٦) المائدة : ١١١
(٧) القصص : ٧ .

فيقول الله مخاطبا محمدا ﷺ : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده »**(٨) . أى أنزلنا اليك تشريعا ، كما أنزلنا الى نوح والنبيين .. وعليه فالقرآن الكريم : هو الوحى الذى نزل به جبريل من الله ، الى محمد ﷺ ، ليبلغه للناس ، والتوراة : هى الوحى الذى نزل به جبريل من عند الله ، على موسى عليه السلام ، ليبلغه لبنى اسرائيل ، والانجيل : هو الوحى الذى نزل به جبريل على عيسى عليه السلام ليبلغه لبنى قومه ، والزبور هو الوحى الذى نزل على داوود ، وغير ذلك كثير ، لم يقصصه القرآن الكريم علينا ، فقد قال الله لنبيه : **« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله »**(٩) ..

فالوحى هو ما أنزله الله على رسوله بواسطة جبريل عليه السلام ، وأمره بتبليغه ، كما قال الله تعالى : **« قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد ، قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون »** (١٠) . .

وقوله : **« واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك »** (١١) ..

● ألا يدخل فى معنى الوحى رؤيا الأنبياء التى كانوا يرونها قبل أن يأتيهم الملك بوحى الله ؟

— لا تدخل الرؤيا فى معنى الوحى بمعنى أن الأنبياء لم يؤمروا بتبليغ شىء رأوه فى المنام ، كذلك لم تكن الرؤيا طريقا للتشريع ، وانما كانت ارهاصا فقط بقرب الوحى ، فالأنبياء كانوا يرون رؤى قبل تكليفهم بالتبليغ ، وكانت الأحداث تأتى مصدقة لما رأوه ، وهذه فترة تسبق مجىء الوحى الى الرسول . فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ،

---

(٨) النساء : ١٦٣ .
(٩) غافر : ٧٨ .
(١٠) الأنعام : ١٩ .
(١١) الكهف : ٢٧ .

فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء،فكان يخلو بغار حراء ، يتعبد فيه الليالى ، حتى جاءه الملك وهو فى الغار ، فقال : اقرأ •• قال : ما أنا بقارىء • قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال : اقرأ •• فقلت : ما أنـا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ •• فقلت : ما أنا بقـارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : **« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم »**(*) •فالحديث يخبر بحالتين• الأولى: الرؤيا الصادقة،ولم يبلغنا الرسول ﷺ بما رآه،وبالتالى لم نلتزم بشىء جاء عن طريق الرؤيا ، وان عدت من بواكير الوحى • أما الحالة الثانية : فهى ظهور جبريل له ، واقراؤه أول آية نزلت من القرآن الكريم ، وهذه بلغها النبى ﷺ لأنه مأمور بتبليغ ما جاء به الملك جبريل عن الله سبحانه وتعالى •

اذن ، فالوحى : هـو ما نزل به جبريل من الله الى النبـى ﷺ وأمر بتبليغه ، ومن هنا يطلق على القرآن الكريم بأنه وحى الله ، لأنـه جاء به جبريل عليه السلام ، الى النبى ﷺ وأمره بتبليغه •

فجبريل هو الواسطة بين الله وبين رسله ، وهو حامل الوحى الـى الأنبياء ، تارة يأتى على صورته كملك ، وأخرى يأتى على صورة انسان ، كما جاء فى الحديث السـابق • ويسـمى « الروح » ، قال تعالى : **« نزل به الروح الأمين • على قلبـك لتـكون من المنـذرين • بلسان عربى مبين »** (١٢) •

كما يسمى أيضا روح القدس قال تعالى : **« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا »** (١٣) ••

● هل هو الروح القدس المعروف لدى النصارى ؟ •

— نعم •• ولكن النصارى يعتبرونه أحد أجزاء التثليث ، اذ يعتقدون أنه ظهـر للتلاميذ ، وأوحى اليهم ، ولم يكونوا أنبياء ، ويظهر للباباوات ،

(*) العلق : ١ — ٣ •
(١٢) الشعراء ١٩٣ — ١٩٥
(١٣) النحل : ١٠٢ •

وقد يظهر لأفراد أخرى ، وليسوا بأنبياء ، أما جبريل الذى أطلق عليـــه أيضا : الروح القدس فى الاسلام ، فهو : ملك خلقه الله كما خلق غيره ، فهو من مخلوقات الله وعباده وقد تحدث القرآن عن الملائكة فقال : **« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون »** (١٤) • •

وقال : **« ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون »** (١٥) • •

وقال : **« وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمـــد ربهـــم »** (١٦) • •

فهم عباد الله ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ولم يظهر جبريل الا لنبى يوحى اليه ، وما يزعمه النصارى من ظهـــوره لأفراد غير أنبياء ، لا أساس له من الصحة • •

* * *

---

(١٤) النساء : ١٧٢ • (١٥) النحل : ٤٩ •
(١٦) الزمر : ٧٥ •

٦ — التفرقة بين المؤمن والكافر والفاسق

● من الكلمات ، التى تتردد كثيرا ، فى مجال الحكم على الانسان ، من جانب سلوكه الدينى ، كلمتا : الكفر والفسوق ، ومشتقاتهما ، فاننا نسمع كثيرا من الناس يحكمون على عمل بأنه كفر ، بينما نرى آخرون يطلقون على نفس العمل فسقاً •• فهل هناك فرق بين الكلمتين ؟•

— لكى يتضح معنى هاتين الكلمتين ، يجب علينا أن نضم اليهما : كلمة الايمان ، فالشىء يتميز بضده ، وقد عرفنا أن الايمان ، هو : الاعتراف بوجود الله ، والاقرار والطاعة له ، ويدخل فى هذا تصديق رسـله والتسليم بأن له ملائكة ، وأنه أنزل كتبا على رسله وأنبيائه ، وأنه خلق الجنة والنار ، وأنه سيحاسب الناس على أعمالهم التى مارسوها فى حياتهم ، فمن عمل خيرا ، ادخله الجنة ، ومن عمل شرا ، فسيقذف به الى النار ، ويجمع هذا كله قوله تعالى : **« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحـد من رسله »** [1] •

والكفر : ضد الايمان ، أى من لم يؤمن بالله ، أو أشرك معه الها آخر فهو كافر ، ومن لم يؤمن بالرسل ، فهو كافر ، ومن لم يؤمن بالملائكة أو الكتب المنزلة على رسله ، أو باليوم الآخر ، فهو كافر ، يقول الله تعالى : **« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضـلالا بعيـدا »** [2] • •

وقد وردت كلمة الكفر والكافرين فى القرآن الكريم فى آيـات عدة ، وكلها تدور حول من لم يؤمن بالله ، أو كذب رسولا من رسله ، أو لم يتبع ما أنزل على رسله ، من عبادات ، وتشريعات ، أو أنكر البعث ، والحساب ، أو الجنة ، أو النار •

● هناك نقطتان تحتاجان لتوضيح ، وهما : الأولى : من آمن برسول،

---

(١) البقرة : ٢٨٥ . (٢) النساء : ١٣٦ •

وكفر بآخر ، فهل يكون كافرا ؟ • والثانية : اختلف المسلمون فى فهم النصوص الاسلامية فتكونت فرق متعددة نتيجة لهذا الاختلاف ، فهل يصح لفريق أن يحكم على آخر بأنه كافر ، أى يرميه بالكفر ، لمجرد أنه يخالفه الرأى ؟ •

— أما ما يتعلق بالنقطة الأولى،فاعلم أن من آمن برسول،وكفر بآخر، فهو كافر ، وقد نص القرآن الكريم على هذا فى قوله تعالى :

« والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » ، أى لا نفرق بين الرسل فى وجوب الايمان بهم جميعا ، فمن آمن بالاسلام لا يكون ايمانه صحيحا ، الا اذا آمن بكل الرسل السابقين على الاسلام ، ممن أخبر بهم القرآن الكريم ، فمن آمن بمحمد ﷺ ، يجب عليه أن يؤمن بعيسى ، وموسى ، وابراهيم ، ونوح ، وكل الأنبياء ، الذين ذكروا فى القرآن الكريم ، لأنه اذا كفر بواحد منهم ، فيكون قد أنكر نصا من نصوص القرآن الكريم ، ومن ينكر حرفا منه ، فهو كافر •• وعليه أيضا فمن يؤمن بموسى ، ولا يؤمن بمحمد ، أو يؤمن بعيسى ولا يؤمن بمحمد فهو كافر ، لأنه أنكر القرآن كله •

وما يتعلق بالنقطة الثانية وهو : الحكم على طائفة من المسلمين بالكفر لمجرد أن لها رأيا ومفهوما يخالف الآخرين ، فلا يصح هذا الحكم الا اذا كانت هذه الطائفة تنكر أصلا من أصول الدين ، كأن تنكر القرآن أو الحديث الصحيح ، أو لا تعترف بفرضية الصلاة ، أو الزكاة ، أو الحج • وما عدا هذا فلا يصح وسمها بالكفر ، بل يمكن أن يطلق عليها لفظ الضلالة ، أو الانحراف عن المفهوم الذى عليه الجمهور ، ان كانت آراؤها متطرفة •

معنى هذا : أن هناك أسسا فى الدين ، تفصل بين الكافر والمؤمن ، وهذه الأسس هى : الايمان بألفاظ القرآن الكريم ، فمن أنكر حرفا ، فقد كفر •• والايمان بحديث رسول الله ، ومعنى ذلك أنه اذا ثبت عن طريق القطع أن الحديث قد قاله رسول الله ﷺ ، وأنكره جماعة لمجرد الانكار ،

فهذا كفر ، لأنه تكذيب لرسول الله ﷺ ، أما اذا أنكرت طائفة الحديث بحجة أنه لم يصح اثبات أن الرسول قد قاله ، فلا تكون كافرة بهـذا الانكار ، لأنها لم تكذب رسول الله ﷺ ، بل كذبت الرواة ، ولهذا لا يصح وصف من ينكر الحديث لعدم صحة سنده بأنه كافر ، كذلك لا يكون كافرا من اعترف بالنص ، وخالف الفهم أو التفسير ، ولذلك يقول الأصوليون عن القرآن الكريم : « قطعى النص ظنى الدلالة » ، أى أن نصه مقطوع به ، فمن أنكر حرفا منه فقد كفر ، وظنى الدلالة أى أن دلالته تختلف من شخص لآخر ، ومن هنا جاء الاختلاف فى التفسير والتأويل • وعليـه فكل طائفة داخلة فى دائرة الايمان ، ما لم تخرج خروجا واضحا عـن الاسـلام ، ولا يكون هذا الا بانكار نص صحيح ، أو الحكم بابطال شىء معلوم من الدين بالضرورة ، كفرضية الصلوات الخمس ، ووجوب الجهاد فى سبيل الله ، وغير ذلك من الأحكام المجمع عليها بالتواتر ، وما عدا ذلك فالكل مسلم ، وان اختلفت آراؤهم فى التفسير •

وبعد أن أوضحنا كلمة الكفر ، نعود الى كلمة الفسق : ما هى ؟ ومتى تطلق ؟ • وعلى من تطلق ؟

ـ اعلم أن هذه الكلمة وردت فى القرآن الكريم فى ثلاث آيـات ، هى قوله تعالى : **« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهـل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السـبع الا ما ذكيتم ومـا ذبح على النصب وأن تستقسـموا بالأزلام ، ذلكم فسق »**[٣] ••

وقوله : **« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق »** [٤]••

وقوله : **« قل لا أجد فى ما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسـقا أهل لغير الله بـه »** [٥] ••

---

(٣) المائدة : ٣ .
(٤) الأنعام : ١٢١ .
(٥) الانعام : ١٤٥ .

فنلاحظ أنها وردت فى الآيات الثلاثة فى وصف الأكل مما حرم الله ، أى أنها أطلقت على فعل معصية — أى أن من يفعل ذلك فانه فاسق وان فى الوقت نفسه يؤمن بالله ، وهذا يجعلها محصورة فى دائرة المعصية ، فهى وان أطلقت فى الآية الأولى على من يذبح على النصب ويستقسم بالأزلام — وهما من أعمال من لم يؤمن بالله — الا أنه روعى فيها الجانب العملى ، لا الجانب الاعتقادى ، أى أنها تطلق على الانحراف فى السلوك ، فمن يقترف اثما ، يعد عمله هذا فسقا ، فالعاصى يطلق عليه فاسق •

فلو تتبعنا كلمة الفاسق ، التى وردت فى القرآن الكريم ، لوجدنا أنها تأتى غالبا عقب بيان الانحراف فى السلوك ، ومن هنا وصف الله المنافقين بها ، فقال : « **يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون** »[٦] •

وقوله : « **نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون** »[٧] ••

لأن سلوك المنافقين فى تظاهرهم بالالتزام ، بما أمر الله به كان سلوكا منحرفا ، أما اذا وصف الكافرون بالفسق ، فيكون من باب التلازم ، اذ يلزم من كفرهم فى الغالب الأعم انحراف سلوكهم ، لأنهم لم يلتزموا بضوابط تمنعهم من الانحراف فى السلوك •

اذن ، فالفسق فى الغالب ، وصف للمعصية ، فمن يؤمن بالله ويعصاه ، فهو مؤمن فاسق ، وقد يطلق لفظ الفسق على الكافرين ، باعتبار أن كفرهم يبعدهم فى الغالب عن الالتزام بقواعد السلوك التى فرضها الله على المؤمنين •

● وردت فى القرآن الكريم ثلاث آيات مضمونها واحد ، وهو عدم الحكم بما أنزل الله ، غير أن وصف من لم يحكم بما أنزل الله جاء مختلفا فى الآيات الثلاث ، فهو كافر مرة ، وظالم أخرى ، وفاسق فى الثالثة ، وهذه الآيات هى قوله تعالى : « **انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما**

---

(٦) التوبة : ٨ .   (٧) التوبة : ٦٧ .

استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شـــهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » [٨] •

وقوله : « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون • وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين • وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »** [٩] ••

فلماذا اختلف الحكم ، مع أن العمل واحد فى الثلاثة ، وهو عـــدم الحكم بما أنزل الله ؟ •

— ليس العمل فى الآيات الثلاث واحدا كما تصورت ••

اذ أن الآية الأولى : تتحدث عمن ينكر ما أنزل الله ، بدليل أنـــه قال : « **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا** » ، أى لا تنكروا ما أنزل الله ، ابتغـــاء عرض زائل •

أما فى الآية الثانية : فالأمر يتعلق بارتكاب معصية ، اذ الحاكم مؤمن بما أنزل الله ، ولكنه حاد عن الطريق العدل ، فلم يجعل الســـن بالسن والعين بالعين •• الخ فهو لم ينفذ مبدأ من مبادىء القوانين ، بل حكم بشىء آخر ، فخرج بذلك عن اطار العدالة الالهية ، ولهذا كان ظالما فى الحكم ، ولم يكن كافرا لأنه آمن بالتوراة كتابا من عند الله ، وترك تطبيق ما جاء فيها من أحكام •

أما الآية الثالثة : فتتعلق بالسلوك ، ذلك أنه ذكر فيهـــا الهدى والنور والموعظة ، وكلها أمور أقرب الى السلوك منها الى الاعتقـــاد ،

---

(٨) المائدة : ٤٤ •   (٩) المائدة : ٤٥ — ٤٧

ومن ينحرف في الحكم علي السلوك يعد فاسقا ، مثل من ينحرف فى السلوك نفسه ، ومن يستحسن المعاصى يعد فاسقا ، مثل من يرتكبها ، فوصف من لم يحكم بما فى الانجيل ، بأنه فاسق جاء من ناحية أن الانجيل جاء بمواعظ وأخلاق ، ولم يأت بأحكام ، لأن ما فى التوراة كان ملزما ، لمن يؤمن بالانجيل ، فمن لم يطبق ويجعل ما فى الانجيـــل مقياسا للحكم على السلوك ، فهو فاسق •

* * *

— ٨٢ —

بل اذا رأيتم الرجل يمشى على المـــاء ، ويطير فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تعرضـــوا أمره على الكتـــاب • أى أن مدار تقييم المؤمن ، هو السلوك الطيب ، والعمل الصالح ، لا ما يظهر على يديه من شىء ، قد يكون من عمل الشيطان ، مما يمارسه بعض أدعياء الولاية ، من سلوك أقرب الى البله منه الى سمت التقوى ، وصفات الصلاح ، وهو ليس من الدين فى شىء ، وما يردده بعض الناس ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : اطلعت على أهل الجنة ، فرأيت أكثر أهلها البله ، فلا يصح عن رســـول الله ﷺ ، ولا ينبغى نسبته اليه ، فان الجنة انما خلقت لأولى الألبـــاب ، الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم ، الى الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر •

وقد ذكر الله أهل الجنة ، وأوصافهم فى كتابه ، فلم يذكر فى أوصافهم البله ، الذى هو ضعف العقل •

وخلاصة القول : ان الكرامة ليست خارقا يظهره الله على يـــد انسان، وانما هى تكريم الله للعبد ، بأن يوفقه الى الخير فى الدنيا والآخرة •

* * *

٧ ــ علم الله وارادتـــه

ذكرنا عند الحديث عن العناصر ، التى تميز الدين عما عداه ، من المعتقدات ، والايديولوجيات ، أنه لا بد فيه من الاعتقاد فى قوة غيبيـــة ، لهـــا اتصال معنوى بعابديها •

هذا فيما يتعلق بالدين عموما •

أما ما يتعلق بالاسلام خاصة ، فينبغى على المؤمن : أن يؤمن بأن لله صفات الكمال كلها ، فمما يجب الايمان به :

الاقرار بأن الله قديم أزلى ، وأن له البقاء وحده ، كما نص على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : **« هو الأول والآخر »**[1] ••

وقوله : **« كل من عليها فان • ويبقى وجـــه ربك ذو الجـــلال والاكرام »**[2] ••

كما ينبغى أن يؤمن بأنه : « سميع بصير » •• يقول الله تعالى : **« ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير »** [3] ••

« وأنه عليم » •• يقول الله تعالى : **« وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، ان الله بكل شىء عليم »** [4] ••

وأنه مريد • يقول تعالى : **« انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »**[5] ••

ويقول : **« ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد »** [6] ••

فاذا كان الاله فى بعض الأديان من جنس الطبيعة ، أو كان قـــوة انقطعت صلتها بالعالم ، أو كان عاجزا عن ادراك ما يجرى فى الكون ، فان الاله فى الاســـلام هو : الله ، خالق الكون ، ومدبره ، ومتصـــل بـــه

---

(١) الحديد : ٣ .
(٢) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) الحج : ٦١ .
(٤) التوبة : ١١٥ .
(٥) يس : ٨٢ .
(٦) البقرة ٢٥٣ .

اتصـــال تدبير ورعاية ، وهو متصف بكل كمال ، فهو : قادر ، عليم ، سميع ، بصير ، مريد ، وليس اتصافه بهذه الصفات يجعله شـــبيها بالانسان •

لا •• فهو ليس كمثله شيء •

اذ من الأمور المسلم بها ، أنه لا يوجد تشابه بين الله والانسان ، فان وصف بصفة وصف بها الانسان ، فليس معنى هذا أنه شبيه له ، أو مثيل ، لأن صفة الله غير صفة العبد ، فصفة الله : هى الكمال ، وصفة العبد : شيء ممنوح من الله للعبد ، ليستعين به على مواجهة الحياة ، غير أن هناك صفتين تحتاجان الى توضيح ، لأن لهما اتصال بعمل العبد ومسئوليته ، وهاتان الصفتان هما :

العلم والارادة •• أو المشيئة •

فعلم الله علم كامل شامل ، يحوط ما فى الكون من مخلوقات ، سواء أكانت جمادا ، أو نباتا ، أو حيوانا ، لأنه خالقها ، فلابد أن يعرف دقائق ما خلق • وذلك أمر مسلم به فى الحياة العادية ، فان من يخترع آلة لا يشك أحـــد فى أنه يعرف كل جزء فيها ، مهما كانت معقدة ومتشابكة فى تشغيلها ، فان كان هذا هو الشأن فى العلم المكتسب ، لأن المخترع اكتسب القدرة على الابداع فى مجال تخصصه ، عن طريق الدراســة والتفكير والتجربة ، والخبرة الطويلة ، فما بالك بمن علمه صفة لازمة له ، وخلق الكون من غير مثال ، ولا نموذج يحاكيه • وانما هو من قدرته وعلمه، فلا بد من التسليم بأنه يعلم كل جزيئة من جزيئات هذا الكون مهما صغرت • • أو توارت عن الأعين فى طيات الملايين من مثيلاتها •

وقد أخبرنا الله عن احاطة علمه بالكون ، فى القرآن الكريم فى آيات عدة نذكر منها قوله تعالى : « **قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ، وهو السميع العليم** »[٧] • •

وقوله : « **ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ، ان ذلك فى كتاب ، ان ذلك على الله يسير** »[٨] ••

---

(٧) الأنبياء : ٤ •

(٨) الحج : ٧٠ •

وقوله : **« قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض »**[٩] ..

وقوله : **«قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله»**[١٠] ..

وقوله : **« ان الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون »**[١١] ..

وقوله : **« يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أين ما كنتم ، والله بما تعملون بصير »** [١٢] ..

وقوله : **«ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض»**[١٣] ..

وقوله : **« يعلم ما فى السموات والأرض »** [١٤] ..

وغير ذلك من الآيات التى توضح : أن علم الله محيط بالكون كله ، فهو يعلم ما يجرى فى السماء ، وما يحدث فى الأرض ، وما يسر به الانسان ، وما يدور خلف الكواليس ، والحواجز ، مما يدل على أن علمه ، لا يخضع للقوانين البشرية المعروفة ، بل هو فوقها ، لأنه هو الذى خلقها .

ولهذا فهو وحده يعلم الغيب ، اذ لم يمنح أحدا القدرة على علم الغيب اطلاقا الا ما أخبر به أنبيائه .

وقد نص على هذا فى القرآن الكريم حيث يقول : **« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا »** [١٥] ..

ومن الآيات الدالة على علمه الغيب ، سواء أكان فى صدور الناس ، وفى نفوسهم ، أو كان مطويا فى باطن الأرض ، أو محجوبا بين الكواكب العلوية قوله تعالى : **« قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »**[١٦] .

---

(٩) الفرقان : ٦ .
(١٠) النمل : ٦٥ .
(١١) الحجرات : ١٨ .
(١٢) الحديد : ٤
(١٣) المجادلة : ٧ .
(١٤) التغابن : ٤ .
(١٥) الجن : ٢٦ — ٢٨ .
(١٦) البقرة : ٣٣ .

وقوله : « **ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأنّ الله علام الغيوب** » [١٧] ..

وقوله : « **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة** » [١٨] ..

وقوله : « **ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء** »[١٩] ..

وينبغى أن نضع نصب أعيننا هذه الآيات ، وخاصة ما يتعلق منها باستئثار الله بعلم الغيب ، ذلك أن كثيرا من الناس قد ينساها أو يهملها ، عندما يقابل شخصا يدعى له أنه يقرأ الغيب ، أو يكشف المستور فى مستقبله ، اذ ما يلبث المرء ازاء هذا الموقف ، أن يصدقه ، فيستمع اليه ، وينسى أن الله لم يعط علم الغيب لأحد على الاطلاق ، كما جاء فى القرآن الكريم ، الا أن يكون نبيا ، وحتى النبى لا يطلعه على الغيب كله ، بل بمقدار ما أمر بتبليغه فقط .

اذن ، فمن يدعى علم الغيب فهو كاذب !!! .

● ولكننا نرى أن بعض الناس ، يخبر بشىء حدث فى مكان آخر ، ألا يعد هذا اخبارا بالغيب ؟ .

ـــ يجب أن نفرق بين شيئين : حدث وقع بالفعل ، ولكنه فى مكان آخر ، بعيد عن المخبر به ، وهذا ممكن لبعض الناس ـــ الذين أوتوا قدرة روحية خاصة ـــ الاخبار ببعضه ، وليس كله ، أو الاخبار بأجزاء متناثرة منه ، لا تعطى صورة كاملة عنه ، وهذا ما يسمونه : « التخاطر » ، ومعناه : اتصال روح بأخرى ، بطريقة ما ، خارجة عن النطاق العادى ، ويطلقون عليه : « التلباثى » وهذا لا يسمى اخبارا بالغيب ، لأن الحدث وقع فعلا ، والمخبر لا يستطيع اخبارنا بجزئياته ، وانما يعطى اشارات عنه ، ويحتمل أن تكون خاطئة ، حتى وان كانت صحيحة فهى لا تعطى صورة كاملة عن الحدث ، أما الاخبار بما سيحدث ، فلا يمكن لأحد

---

(١٧) التوبة : ٧٨ .
(١٨) الرعد : ٨ ، ٩ .
(١٩) ابراهيم : ٣٨ .

مهما كانت قدرته الروحية ، أن يخبر به ، لأن ذلك مما استأثر الله بعلمه ، فلم يمنح أحد القدرة عليه •

اذن ، فمن يخبر بالمستقبل فهو كاذب ، ومن يدعى الاخبار بما حدث فى مكان آخر ، فلا يؤخذ كل ما يقوله على أنه صورة طبق الأصل لما حدث ، لأنه ان كانت روحه تقدر على ذلك ، فلن تقدر على نقل صورة كاملة للحدث ، والأولى ألا نصدقه لأن كثيرا من الدجالين يمارسون هذا العمل للكسب عن طريق الحرام •

وما يعرف فى عالم الفلك بالتنبؤات الجوية ، فليس من الاخبار بالغيب ، لأنه استنتاج لظواهر طبيعية مترتبة على ظواهر أخرى ، موجودة فعلا ، ومعروف بالتجربة ما يترتب عليها ، ونكتفى بهذا القدر •• على أن نعود الى الحديث مرة أخرى لنستكمل بيان ما بقى ، وهو علاقة الارادة الالهية بأفعال العباد •

* * *

٨ — عمل الانسان وعلاقته بعلم الله وارادته

بعد أن انتهينا فى الحديث السابق ، الى أن علم الله كامل ، يشمل ما حدث وما سيحدث ، يجب أن نبين أيضا أن مشيئته كاملة ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فاذا علم الله بأن شيئا سيحدث ، أراده ، واذا أراده فلابد من وقوعه ، اذ لا يتخلف شىء عن علم الله وارادته ، ولا يقع فى هذا الكون الا ما يريده الله سبحانه وتعالى ، وهناك آيات كثيرة تدل على هذا مثل قوله تعالى : « **وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين** »[1] ..

وقوله : « **ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله** »[2] ..

وقوله : « **ولو شاء ربك ما فعلوه** »[3] ..

وقوله « **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا** »[4] ..

وقوله : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** »[5] ..

وقوله : « **ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم** »[6] .

وقوله : « **من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم** »[7] ..

فمشيئة الله يترتب عليها وقوع الفعل لا محالة ، فلا يتخلف شىء أراده الله .

لكن لا يصح أن يحتج أحد بهذا لتبرير أعماله ، كما احتج الكفار بذلك فى قوله تعالى : « **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا** »[8] ..

---

(١) التكوير : ٢٩ .
(٢) الأنعام : ١١١ .
(٣) الأنعام : ١١٢ .
(٤) يونس : ٩٩ .
(٥) الأنعام : ١٢٥ .
(٦) هـود : ٣٤ .
(٧) الأنعام : ٣٩ .
(٨) الأنعام : ١٤٨ .

وقوله : « **وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء** »[٩] ..

وقوله : « **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم ، ان هم الا يخرصون** »[١٠] .

لأن الله ذمهم فى موقفهم هذا ، وأنكر عليهم احتجاجهم بمشيئة الله على ارتكابهم المعصية ، كما ذم ابليس حيث أضاف الغواية الى الله ، حيث قال : « **رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين** »[١١] ..

وقد خاض كثير من الناس فى هذا الأمر ، فاحتجوا بأن علم الله مشيئة لا تتخلف ، ولذا لو أردت أمرا وأراد الله غـيره ، فلن يقع ما أردته ، لأن ما أراد الله واقع لا محالة ، فلا ذنب لمرتكب المعصية ، ولا ينبغى أن يلام من اقترف السيئات ، لأنه منفذ لعلم الله وارادته ، ولم يكن فى مقدوره أن يفعل شيئا آخر .

اذن ، فلا ذنب له ، لأن الله قدر ذلك وأراده ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ويتمادى بعضهم أكثر من هـذا فيقول : ان الله أراد الكفر من الكافر ، والمعصية من العاصى ، ولو لم يكفر الكافر ، ويعصى العاصى ، لتخلفت ارادة الله ، وهذا مستحيل .

وتلك مغالطة لو آمن الناس بصحتها لهدم الدين ، ولارتفع التكليف ، لأن من لم يؤد ما عليه من واجبات ، سيأخذها حجة ضد من يوجه اليه اللوم ، اذ سوف يقول له : لقد أراد الله هذا ، وما أنا الا منفذ لارادته ، وتلك حجة يتعلل بها الزنادقة والجهال ، اذا أمروا بشىء أو نهوا عن شىء آخر ، وقد حدث أن احتج سارق على عمر رضى الله عنه ، بأن الله شاء أن يسرق ، فهو منفذ لمشيئة الله ، فهذا قدر مكتوب عليه ولابد له من تنفيذه ، فليس له اختيار فيه ، فقال له عمر : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره ، فقد شاء الله أن تسرق ، وشاء الله أن أقطع يدك .

---

(٩) النحل : ٣٥ .
(١٠) الزخرف : ٢٠ .
(١١) الحجر : ٣٩ .

ولتوضيح ما يلتبس على الناس من العلاقة بين مشيئة الله ، ووقوع الفعل ، وبيان أن علم الله ومشيئته ليسا سببا فى وقوع الفعل ، نسوق هذا المثل : لو فرضنا أنك كنت فى زيارة أحد أصدقائك ، وبينما كنتما جالسين سمعته يحذر ابنه من الخروج ، واللعب فى الشارع ، والا فسوف ينزل به العقاب ، وعندما دخل الابن الى البيت ، وأصبح فى مكان بعيد عن أبيه وعنك ، أسر أبوه اليك ، بأنه — أى الطفل — لا يمكن أن يستقر فى البيت أبدا ، فهو يميل دائما الى الخروج واللعب فى الشارع ، لأنه متعلق بالأطفال خارج البيت ، وأنا متأكد تمام التأكد أنه سوف يخرج بعد دقائق معدودة ، وفعلا لم تمر الدقائق ، الا وخرج الطفل ، فهم أبوه بتوقيع العقاب عليه •

فهل يجوز للطفل أن يحتج بأن أباه يعرف — نظرا لخبرته بميول الأطفال — أنه سوف يخرج ، فهو ينفذ هذا ، حتى لا تتخلف معرفته بهذه الناحية التربوية ، فمعرفته بمثابة أمر له بتنفيذ هذا العمل ، ولهذا لا يجوز له أن يعاقبه ؟

بالطبع لا •• لأن علم أبيه بخروجه لا يكون أبدا أمرا له بالخروج ، ولا سببا لخروجه •

فهذا المثل يوضح : أن علم الله ومشيئته ، ليسا أمرا من الله باتيان الفعل ، وليسا رضاء منه عما يقوم به الانسان من كفر ومعصية ، وانما ينظر اليه من ناحية أن علم الله كامل ، فهو لا يتخلف ، وقد علم الله أزلا ، أن هذا العبد سيكون من الصالحين المؤمنين ، وأن ذاك العبد سيكون من الكافرين العاصين ، وعلم ما سيفعله كل منهما ، فأراده ، وكتبه ، وبقى الانسان حرا ، له مطلق الاختيار ، لأنه لا يعلم ما كتب عليه ، ولهذا لم يكشف الله له عما أراده حتى لا يتأثر اختياره ، فهو حر مائة فى المائة ، فيما يختار ، غاية الأمر أن الله علم مسبقا ما سوف يختاره العبد •• لأن علمه كامل يشمل ما هو كائن وما سوف يكون •

ولقد عاب الله على المشركين ، الذين احتجوا على شركهم ، بأنه أمر

شاءه الله لهم ، لأنهم لم يطلعوا على هذه المشيئة ، فحين اختاروا الكفر ، كانوا أحرارا فيما اختاروا ، فلم يجبرهم الله عليه ، غاية الأمر أنه كامل فى علمه ، والكمال فى العلم يقتضى معرفة ما سيحدث ، والا كان ناقصـــا •

وخلاصة القول : ان علم الله كامل • فهو يعلم ما سيحدث ، ومن ضمن ما سيحدث ، أعمال الناس فأرادها وكتبها ، لأنها لن تتخلف ، وحجب ذلك عن الناس ، حتى لا يتأثروا فى اختيارهم ، فاختاروا فى جو من الحرية أعمالهم ، ولهذا سيعاقبون ، ان ارتضوا الكفر ، ويجازون ، ان اختاروا الايمان ، وعملوا عملا صالحا •

❋ ❋ ❋

٩ — التوكـل والتواكـل

أثر مبدأ الايمان بالقضاء والقدر فى الاسلام على بعض الناس ، ففهموا أنه يؤدى الى الاعتقاد ، بأن الانسان مجبر لا مخير ، وظنوا أن المسلم كالريشـة المعلقة فى الهواء ، تقلبها الريح ، كيفما تشـاء ، فلا اختيار له فى قول أو فعل ، بل كل ما يباشره هو قضاء وقدر ، وما قدرته الا آلة فى يد القضاء والقدر ، آلة لا حول لها ولا قوة ، فهى خاضعة لقوة أخرى تسيرها ، كما تخضع الآلة لقوة التيار الكهربائى . وهذا فهم خاطىء لمعنى القضاء والقدر ، ذلك أن الانسان فى الاسلام حر فيما يفعل ، مريد لما يباشر من أعمال ، وما يترك من سـلوك واتجاهات .. يشهد بذلك قول الله تعالى : « **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد** »[1] .

وقوله : « **من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صـالحا فلأنفسـهم يمهدون** »[2] ..

ولا تكون هذه المسئولية الا اذا كان حرا فى تصرفاته ، لا يخضع لأى تأثير خارجى عنه عندما يختار الكفر ، أو يفضل الايمان ، والعمل الصـالح .

والايمان بالقضاء والقدر من أهم الاسباب ، التى تدفع المؤمن الى مواصلة العمل ، وتحثه على الجد والاجتهاد ، سواء أكان ذلك فى مجال العبادات ، أو فى آفاق الحياة الدنيوية ، ذلك أن الانسان لا تخلو حياته من كبوات ، فاذا كان مؤمنا بالقضاء والقدر ، دفعه ايمانه الى مواصلة السير ، ومحاولة الاستمرار فى العمل ، بدل أن يجلس نادبا حظـه « مولولا » على ما فاته ، ملقيا اللوم على هذا أو ذاك ، لأن المطلوب منه — طبقا لهذا المبدأ من الاعتقاد فى القضاء والقدر — أن يؤدى واجبه كاملا ، فاذا أخفق ، استمر فى سيره ، لا يلتفت الى وراءه ، الا بقصد معرفة مواطن الخطأ ، حتى يتفاداها فى المستقبل ، وصدق من قال :

---

(١) فصلت : ٤٦ .

(٢) الروم : ٤٤ .

« على أن أسعى وليس على ادراك النجاح » ، أى أن الواجب على المؤمن هو السعى الجاد ، أما ضمان النجاح فذلك موكول الى الله تعالى ..

ولبيان الفرق بين من يؤمن بالقضاء والقدر ، ومن لا يؤمن نســوق هــذا المثل :

لو أن هناك شخصين يعملان فى مجال ما ، وأخفقا ، أى لم يوفقا فى الوصول الى هدفهما ، أو أصيبا بنكسة ، منعتهما من تحقيق غايتهما ، فان من لم يؤمن بقضاء الله وقدره ، يظل واقفا فى مكانه ، يندب حظه مرددا : لو كنت فعلت كذا ، لكان كذا ، ولو لم أفعل كذا ، ما حدث هذا ، ولو لم يتدخل هذا أو ذاك ، لمـا وقعت فى هذا المأزق ، ويظل على هذا الحال مدة ، قد يصاب فيها باليأس النفسى ، فيعتريه شلل يمنعه عن مواصلة العمل ، أو محاولة استئناف مسيرة الحياة .

أما من يؤمن بقضـــاء الله وقدره منهما فيرى أنه فعل ما عليه ، وما أصابه لم يكن فى مقدوره تجنبه ، وعليه أن يواصل السير مرة أخرى نحو هدفه ، وبذلك يكون قد عاد الى نشاطه ، ونفض عن نفسه الآثار النفسية ، التى خلفتها الأحداث السيئة .

وعليه فيكون الاعتقاد فى القضاء والقدر ، دافعا الى العمل لا مثبطا له وقد عبر عن هذا المعنى الامام محمد عبده حيث يقول : « الاعتقـــاد بالقضاء والقدر ، اذا تجرد عن شناعة الجبر ، يتبعه صــفة الجرأة ، والاقدام ، وخلق الشــجاعة والبســالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود ، وتنشق منها مرارة النمور ، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الأحوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج عن كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح والتخلى عن نضرة الحياة . كل هذا فى سبيل الحق ، الذى قد دعاها الى الاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله ، يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، واعلاء كلمة

أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر من ينفق من ماله ، فى تعزيز الحق ، وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الالهية ، وأصول الاجتماعات البشرية ؟ .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد ، مع بيان فضله فى قول الحق : **« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم»** [٣] .

فهذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم ، أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم »[٤] ..

ويرتبط الاعتقاد بالقضاء والقدر بالتوكل ارتباطا وثيقا ، ذلك أن المؤمن به يعمل ما يجب عليه ، ويتوكل على الله فيما يرمى اليه من أهداف ، معتقدا أن الله معه ، يوفقه ويؤيده ، يقول الله تعالى : **« ومن يتوكل على الله فهو حسبه »**[٥] ..

ويقول : **« ان الحكم الا لله ، عليه توكلت ، وعليـه فليتـوكل المتوكلون »**[٦] ..

فالتوكل على الله : هو الاعتماد عليه ، والتوكل على الله ، ليس كلمة ينطق بها المؤمن ، طالبا العون من الله ، وانما هو قبل كل شىء ، اتباع الطريق المستقيم الذى جاء به الوحى فى القرآن الكريم ، راسما الحدود ، التى ينبغى على المسلم الالتزام بها ، أى أنه هو تنفيذ الوصايا ، والأوامر ، التى جاءت فى القرآن الكريم ، واجتناب ما نهى الله عنه ،

---

(٣) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٤) تاريخ الامام : ج ٢ ص ٢٥٩ وما بعدها نقلا عن : « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للدكتور محمد البهى ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٥) الطلاق : ٣ .

(٦) يوسف : ٦٧ .

فاذا لم يقم المرء بما يجب عليه ، صار توكله تواكلا وهو مـذموم فى الاسـلام •

فمن الخطأ البين ، ما يفهمه كثير من المسـلمين اليوم ، من أن التوكل : هو القاء المسئولية فى مجال السعى على الرزق ، وفى العمل فى مجالات الحياة المتعددة على الله ، ثم يقعد المتوكل ، دون أن يعمل ، معتقدا أن الله كافيه ، ورازقه ، وهو لم يؤد ما فرضه الله عليه فى القرآن الكريم ، من المشى فى مناكبها ، والبحث ، والتنقيب عما يقيم أوده ، وينشر السعادة عليه ، وعلى أمته الاسلامية •

يقول الله تعالى : **« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »**[٧] ••

ويقول : **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »**[٨] ••

أى ابحثوا فى الأرض عما تفضل الله به ، فوضعه فيها لتأكلوا منه •

ان التوكل بهذا المعنى ، وهو القعود عن السعى ، والكسـل ، والتراخى فى العمل ، لم يأت به القرآن الكريم ، ولم يجر على لسان الأنبياء والمرسلين مع قومهم ، لأنه بهذه الصورة ، يكون تواكلا ، وكسلا ، وركودا فى الحياة الانسانية ، وحاشا لله أن يأمر بشىء يصيب الحياة فى المجتمع بالشلل ، والتوقف •

فالانسان خلق ليعمل ، ويسعى ، خلق ليتحرك يمينا أو شمالا ، خلق ليقاوم ويكافح عوامل الفناء فى هذا الكون ، خلق ليقيم حياة على هذه الأرض ، ولا تكون حياة الا بالسعى ، والعمل ، والمقاومة •

فمن يعمل ، يحق له أن يطلب المعونة من الله ، أى يتوكل عليه ، وهو موقن أن سيعينه •

أما من يترك العمل ، فلا يحق له أن يتوكل •

أما من يهمل فيما طلب اليه من واجبات ، فلا يمكن أن يكون الله حسبه ، لأن الله حسب من يتوكل عليه ، والمتوكل عليه منفذ لكل ما أمر به •

---

(٧) الملك : ١٥ .　　(٨) الجمعة : ١٠ .

ومن ضمن ما أمر به ، العمل ، والسعى ، فلا عون من الله لمن لا يعمل ، ولا تأييد منه لمن يتواكل ، أى يقعد عن العمل ، ويطلب المعونة من الله ، ولهذا كانت اجابة النبى ﷺ للأعرابى ، الذى سأله ، وهو واقف على باب المسجد ، أيعقل ناقته ، أم يتركها ويتوكل ، قوله ﷺ : « اعقلها وتوكل » ..

أى ان تركها بدون عقال هو تواكل لا توكل ، لأنه لم يأخذ بأسباب المحافظة عليها ، كمـا يدل على ذلك القـرآن الكريم وروح التشريع الاسلامى ، فعقلها واجب ، ثم ما يلى ذلك ، يكون الاعتماد فيه على الله ، لأنه ما دام قد أدى ما عليه ، وهو عقلهـا ، فطلب المعونة من الله ، بحفظها ، فى ذلك الوقت تصرف سليم ، أما اذا تركها بدون عقال فقـد فرط فيما طلب منه ، وعليه فيكون التوكل فى غير محله .

فعلى المسلم أن يؤدى ما عليه ، من الجد ، والسعى فى العمل ، ولا يفرط ، ولا يتهاون ، ويتوكل على الله ، أى يسأله التوفيق فى الوصول الى الهدف ، فان أخفق فلا يمنعه اخفاقه من مواصلة السير ، لأن ما حدث ، لا دخل له فيه ، فهو قضاء وقدر ، وعليه أن يحاول مرة ومرات ، لعل الله يوفقه فى الوصول الى هدفه المنشود فى هذه الحياة .

***

١٠ — الخير والشر فى حقيقتهما ونظرة الانسان اليهما

تضاربت الآراء قديما وحديثا ، حول تحديد الخير ، والشر ، ما هما ؟ وما مصدرهما ؟ وهل يوجد مقياس واحد للخير والشر ، على اختلاف العصور ، والأزمان ؟ وهل يصلح مقياس تقييم الخير ، والشر ، لكل الشعوب ، على اختلاف أجناسها ، وألوانها ، وعقائدها ؟ •

ومن أوضح الخلافات التى تثار حول هذه المشكلة ، هو الخلاف المتعلق بمركز الخير وقيمته • فهل للخير وجود مطلق ؟ أو هل هناك خير بالمعنى العام ؛ أو هو دائما نسبى ، تبعا لرضا فرد معين ، أو تفضيله ، فما هو خير عند هذا ، لا يكون خيرا عند ذاك ، وما تعارف عليه الناس فى القديم ، بأنه خير ، ينظر اليه المعاصرون على أنه شر ؟ •

ورغم هذا الاختلاف فى الرأى ، فقد ذهب كثير من العلماء ، الى وجود معيار واحد للخير ، والشر ، وهو صحيح منذ الأزل ، وهو الذى ينبغى أن يسرى على البشر أجمعين ، هذا المعيار لا يسرى على نحو عالمى شامل فحسب ، بل انه أيضا لا يرتبط بالعصر ، ولا بالموقع الجغرافى ، ولا يخضع للتقاليد الاجتماعية المعروفة ، ولا يتأثر بالاعراف القانونية الموضوعة • ذلك هو ما وضعه الله ، وأنزله على أنبيائه ورسله ، فلو آمن الناس باله واحد ، كما أمرتهم الرسل ، وصدقوا ما جاء به الوحى ، واتبعوا ما أنزل على الرسل ، لأصبح حكمهم على الاشياء بالخيرية ، وعدم الخيرية واحدا ، ولصارت نظرتهم فى تقييم السلوك البشرى متطابقة •

وما يظهر من اختلاف فى الحكم على الأشياء ، بين أصحاب العقيدة الواحدة لا يرجع الى تضارب فى مصدر التقييم الالهى للأشياء ، وانما يرجع الى اختلاف المؤمنين فى فهم النصوص الدينية ، لأن الله لا يمكن أن ينزل الا قانونا أخلاقيا عاما ، ليس فيه اختلاف ولا تباين ، ولا يعتريه تضارب ، أو تناقض ، وعليه فيكون تباين الحكم على الاشياء ، واختلاف وجهات النظر فى الخير والشر من مكان الى مكان ، ومن عصر

الى عصر ، لا يمكن أن يكون راجعا الا الى الجهل بارادة الله ، المعبر عنها فى النصوص الدينية ، فلو كان الناس جميعا يعرفون الارادة الالهية ، لكان لهم جميعا قانون أخلاقى واحد ، ولوصف الجميع نفس الأشياء ، بأنها « خيرة » ، ونفس الأعمال بأنها صالحة .

وما دامت الرسالات السماوية ، هى مرجع الحكم على الافعال ، والأشياء بالخيرية وعدم الخيرية ، فيمكن أن نقول : ان الخير هو البناء ، والعمل ، والانتاج والعمل على ترقية الحياة ، وحب الناس بعضهم لبعض ، وتعاونهم فى سبيل التغلب على مصاعب الحياة ، وتواصيهم بما يعود عليهم بالنفع ، فى الحياة الدنيا ، وما يؤدى بهم الى نيل الثواب فى الآخرة . والشر هو ضد ذلك ، فهو الهدم ، والكسل والتراخى فى الانتاج ، ومحاولة اعاقة التقدم فى الحياة ، وهو أيضا ، كره الناس بعضهم لبعض ، وعدم التعاون فيما ينفع ، واقتراف ما من شأنه أن يدمر الحياة الانسانية ، ويتسبب فى تفكيك الاسرة والمجتمعات ، ويؤدى الى التشاحن والبغضاء بين الأمم والشعوب ، وفى داخل الاسرة ، والتجمعات الانسانية .

ولما كان الله لا يرضى الا بالخير ، ولا يأمر الا بما يعود على الانسان بالنفع والفائدة ، فقد خلق الانسان ، وأودع فيه حب الخير ، فمن طبيعة الانسان الميل الى النمو ، والتطور ، ومحاولة الاسهام فى بناء الحضارة الانسانية ، والترقى بأساليب الحياة البشرية ، ففى النفس الانسانية قوى كامنة تميل للبناء ، وهى تلتمس الظهور فى العمل الصالح ، وتسعى نحو التغيير ، عما هو كائن فيها من الجوانب الحسية والانفعالية ، والجسمية والذهنية ، وكل هذا مصدره خير ، تصديقا لقول رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » . أى على الخير كما جاء فى قوله تعالى : **« وانه لحب الخير لشديد »**[1] ..

ولكن قد يحدث فى بعض الاحيان ، أن يلتقى هذا النزوع البشرى نحو الخير ببعض القوى الخارجية ، التى تحول دون انطلاقه ، وسرعان

(١) العاديات : ٨ .

ما تستحيل طاقة البناء الخلاقة ، الى طاقة حيوانية هدامة ، فيميـل الانسان الى الشر ، ويسـير فى طريقه الى أن تطغى معـالم الشر المكتسبة ، على ما عنده من قوى خيرة • ومعنى ذلك أن الانسان لا يولد شريرا بالفطرة ، وانما يصبح شريرا ، عندما تتعطل قوى الخير عنده عن الظهور ، فتطمس التيارات الشريرة الخارجية ، على ما عنده من نزوع نحـو الانتاج ، فيقع ضحية للمرض النفسى ، أو للميول العدوانيـة الهدامة فيصبح شريرا •

أى أن ما يحول الانسان الى الشر ، ليس كامنا فى ذاته ، وانمـا هو طارىء عليه من الخارج ، من البيئة ، ومن أساليب التربية والتعليم ، ومن وسـائل الثقافة التى يتلقاها ، من أبويه ، وأصدقائه ، وجيرانه ، ومجتمعه ، وصدق رسول الله ﷺ حين يقول : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه •• أو ينصرانه •• أو يمجسانه » ••

أى أن الانسان يولد بطبيعة خيرة ، ويكتسب الشر من مجتمعه ، الذى يعيش فيه ، فالخير هو أصل الوجود فى الانسان ، والشر مظهر طارىء يحاول اعاقة الطاقة البناءة فى الانسان ، ولا تقتصر المحاولة على الاعاقة ، بل تحولها الى نوازع هدامة ، تغرس فى نفسه بطريق التلقى والمعاشرة ، فيقترف السيئات ، ويرتكب الاعمال الشريرة ، ويصبح الميل الى الشر متمكنا منه ، حتى يصير كالجزء منه ، أى يصير كنفسه ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : **« أن النفس لأمارة بالسوء »**(٢) • •• وهى النفس التى اكتسبها من البيئة ، فما فى الوجود من تنافر وتشاحن ، واضطراب ، يرجع فى حد ذاته الى وسوسة هذه النفس التى تدفع صاحبها الى نشر الانقسـام والخصام ، وتغليب الحرب على السـلام •

وهذه النفس المكتسبة من البيئة توجه صاحبها الى التفنن فى خلق ضروب التعذيب والايلام ، فمتى اكتسب الانسان صفات الشر من البيئة ،

---

(٢) يوسف : ٥٣ •

استمر فى هذا الطريق مشيعا الاضطراب بين القيم ، ومحاولا توطيد دعائم الخلاف بين المعايير الأخلاقية ، لأنه نسى المعيـــار الأخـــلاقى الصحيح ، نسى ما أنزل الله ، أنسته اياه تلك الصفات التى اكتسبها من أصحاب السوء ، فما يرتكبه من أعمال الشر ، نابع من هذه النفس : **« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك »**(٣) .

.. لأنها هى التى أغوتك ، ودفعتك الى ارتكاب المعاصى المهلكـــة ، واقتراف السيئات التى تعود عليك ، وعلى من حولك ، وما يحيط بك بالدمار المخيف .

ولكى يحفظ المجتمع ، بعيدا عن هذه الشرور والآثام ، ينبغى العناية بمصادر الثقافة والمحافظة على الأساليب الصحيحة فى حيـــاة الأسرة ، ولمـــا كانت النظم البشرية ، والعادات الأسرية ، تتأثر بنوازع شريرة ، ولا يخلو مجتمع من المروجين لها ، فقد وجب علينا أن نتمسك بما أنزل الله ، ولا نفرط فى شىء منه حتى نقى أنفسنا ، ومجتمعاتنا من عوامل الهدم ، والتخريب . وأول ما يجب علينا : هو الايمان بالله .

يقول الله تعالى : **« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم »**(٤) ..

فمن الخير أن نؤمن به ، ولا نعبد سواه ، حتى لا نتخبط بين شرائع وقوانين ، لا يعرف الصحيح فيها من الفاسد ، ولا يبين حقها من باطلها ، فالايمان بالله وبما أنزل على محمد ﷺ ، هو خير للأمة وللبشرية : **« ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم »**(٥) ..

فالايمان خير ، والكفر شر ، قال تعالى : **« أن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون »**(٦) ..

والعدل والاحسان ، وصلة ذى القربى ، سواء أكانت قربى جوار ، أو قربى نسب خير .

---

(٣) النساء : ٧٩ .
(٤) النساء : ١٧٠ .
(٥) آل عمران : ١١٠ .
(٦) الأنفال : ٥٥ .

والفحشاء والمنكر شر ، قال تعالى : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى** »[٧] ..

ويمكن اجمال القول ، بأن كل ما أمر به الله سبحانه وتعالى خير ، وما نهى عنه شر ، فمن لم يمتثل لأمر الله ، فهو انســان يســعى لنشر الفساد فى الأرض ، والله لا يحب المفسدين • فالمفسدون عليهم لعنة الله فى الأرض ، ولهم سوء العذاب يوم القيامة • يقول الله تعالى : « **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون** »[٨] ..

ويقول : « **والذين ينقضــون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم ســوء الدار** »[٩] •

***

(٧) النحل : ٩٠ .
(٨) البقرة : ٢٧
(٩) الرعــد : ٢٥ .

١١ ـــ أعمال الانسان فى الدنيا والجزاء عليها

خلق الله الانسان ، وأودع فيه جملة من الغرائز والصفات ، طبعته بطابع ، متعدد الميول والرغبات ، ومن هذه الصفات : ميله الى تحصيل أكبر قدر ممكن من المنافع ، سواء أكانت مادية ، أم معنوية ، ولذا نراه يسعى فى مجالات الحياة المختلفة ، للوصول الى هذا الهدف ، فهو يجد ويجتهد لتحصيل المال ، أو الجاه والسلطان ، أو لاشباع رغبات نفسية عنده ، ترنو الى الشهرة وحب الظهور •

ولكن الذى يحكم عقله ، فى هذا الخضم الهائل ، من التيارات الجارفة ، فى مجالات الحياة المختلفة ، يهتدى دائما الى سلوك الطرق التى تضمن له استقرارا نفسيا دائما ، وجزاء لا يعقبه ندم ، أو يؤدى به الى هلاك • ولذا نرى العقلاء وأصحاب الرغبات المعتدلة يلتزمون فى حياتهم بما تمليه عليهم ضمائرهم الحية ، من عدم الخروج على التقاليد الاجتماعية التى تعارف الناس على ضرورتها فى الحياة الاجتماعية ، وعدم مخالفة القانون ، الذى ينظم العلاقات بين الناس ، وكذلك الالتزام ، بتأدية ما يعود على الفرد والأمة ، بالخير والسعادة •

ولمـــا كان الوحى السماوى ، هو المصدر الوحيد ، لتنظيم المجتمع ، وتقعيد القواعد ، التى يجب على كل فرد الالتزام بها ليؤدى دوره السليم والصحيح فى البناء الاجتماعى ، فقد وجب على المؤمن ، عدم الخروج عليه ، فى كل مجالات حياته فهو حين يؤدى ما أمره الله به ، ويكف عما نهاه عنه ، فقد سار على الطريق الصحيح ، الذى يؤدى به الى اشباع رغبته للحصول على أكبر نفع فى الدنيا والآخرة ، وسوف يجنبه سلوك هذا الطريق عثرات الدهر فى الدنيا ، ويخلصه من العذاب الأليم فى الآخـــرة •

ذلك أن الله يثيب كل من عمل عملا صالحا يقول تعالى : **« من عمل صـــالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »**[1] ••

---

(١) النحل : ٩٧ •

ويقول : ((**وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عنـدنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون**))(٢) ..

ولا يثيب الله المؤمن على عمله فى الآخرة فقط ، بل يجزيه فى الدنيا ، ويثيبه فى الآخرة ، يقول الله تعالى : ((**وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ، قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين · جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزى الله المتقين**))(٣) ..

ويقول : ((**قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حسـاب**))(٤) ..

ويقول : ((**وما كان قولهم** (أى قول المؤمنين ، الذين ثبتت أقدامهم فى الجهاد فى سبيل الله) **الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين · فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين**))(٥) ..

وكما بشر الله المؤمنين بالجنة ، توعد الكافرين بالنار ، فقال تعالى : ((**والذين كفروا وكـذبوا بآياتنا أولئك أصـحاب النـار ، هم فيهـا خالدون**))(٦) ..

وقال : ((**ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد**))(٧) ..

وقال : ((**وبشر الذين كفروا بعذاب أليم**))(٨) ..

وما يشاهد فى هذه الحياة الدنيا ، من امتلاك الكفار والعصاة كثيرا من أسباب المتع المـادية ، ليس دليلا على استحسان الله لموقفهم من الايمان ، بل ان هذه الظاهرة تحدث عنها القرآن الكريم ، فبين أنها من

---

(٢) سـبأ : ٣٧ .
(٣) النحل : ٣٠ ، ٣١ .
(٤) الزمر : ١٠ .
(٥) آل عمران : ١٤٧، ١٤٨
(٦) البقرة : ٣٩ .
(٧) آل عمران : ٤
(٨) التوبة : ٣ .

باب املاء الله للكافر ، ليظهر الوجه الحقيقى لنفسه الأمارة بالســوء ، لأن هذه النفس تطغى ، وتستمر فى طغيانها ، اذا أحست أنها تملك القوى المــادية . يقول الله تعالى : « **كــلا ان الانســان ليطغى . أن رآه استغنى** »[٩] ..

ولذا يقول الله تعالى مبينا الحكمة فى حصول بعض الكفار على المــال والجاه : « **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا اثما ، ولهم عذاب مهين** »[١٠] ..

ويقول : « **قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار** »[١١] ..

فمحور الثواب والجزاء فى الآخرة ، هو الايمان ، فمن آمن ، وعمل صالحا ، يثاب على عمله ، بل يضاعف له الثواب فى الآخرة ، واذا أساء فيعاقب بمثلها فقط ، أى أن الله يشبع رغبة الانسان فى الحصول على جزاء ما يعمل ، فيعطيه أكثر من عمله اذا كان صالحا ، ويعاقبه بمثــل اساءته فقط ، فالله أخبرنا بأنه يجازى على الحسنة بخير منها ، ويعاقب على السيئة بمثلها ، فيقول فى كتابه العزيز : « **من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون** »[١٢] ..

وقد وصلت الزيادة فى الثواب على الحسنة الى عشرة أضعافها ، يقول الله تعالى : « **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون** »[١٣] ..

أى لا يظلمون حين يعاقبون على السيئة بمثلها ، أما ما يثيبهم الله على الحسنة بعشر أمثالها ، فهو تفضل منه سبحانه وتعالى ، تكريما لهم ، لأنهم آمنوا أولا ، وأضافوا الى ايمانهم عملا صالحا .

وقد يكفر الله سيئات المؤمن ، اذا التزم بالعمل الصالح ، ويدخل

---

(٩) العلق : ٦ ، ٧ .
(١٠) آل عمران : ١٧٨ .
(١١) الزمر : ٨ .
(١٢) القصص : ٨٤ .
(١٣) الأنعام : ١٦٠.

ذلك فى باب العفوّ عن السيئات ، اذا كان الطابع العام لسلوكه حسنا ، يقول الله تعالى : « **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته** »(١٤) .

هذا اذا كانت السيئة تتعلق بحق الله تعالى فقط ، كأن يفعل الانسان شيئا سيئا لا يتعلق به ضرر لأحد من الناس . أما اذا تعلقت السيئة بحق العبد ، كأن يكون العمل سببا مباشرا ، أو غير مباشر لضرر انسان ، كالسرقة منه ، أو الحاق الأذى له بأى صورة من صور الاساءة فلابد من رد المسروق ، وعفو من وقع عليه الايذاء ، كشرط من شروط غفران الله له هذه السيئة ، كذلك اذا كان العمل فيه ضرر للمجتمع ، كسرقة المــال العام أو اتلافه ، فلابد من رد المــال واصلاح ما تلف ، كى يكون الأمل كبيرا فى عفو الله له هذه السيئة .

فالعمل الصالح سبب من أسباب تكفير السيئة ، اذا وقعت عفوا دون اصرار أو استمرار ، فمن يؤمن ويعمل صالحا ثم يعتريه ضعف فى بعض الأوقات فيقع فريسة الغواية ويرتكب معصية ، فان تذكر الله ورجع اليه ، فأقلع عما وقع فيه وتراجع عن التمادى فى هذا الطريق المعوج فسأل الله الغفران ، فلسوف يغفر الله له هذه الزلة ، لأنها طارئة ، وقع فيها فى فترة غفلة من أوامر الله سبحانه وتعالى ، وهذه منحة من الله للمؤمن فقط ، أما الكافر فلن يغفر الله له اطلاقا ، يقول الله تعالى : « **ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** »(١٥) ..

فمهما يقدم الكافر من أعمال صالحة فلن تكون سببا فى نجاته من النار ، يقول الله تعالى : « **ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب اليم وما لهم من ناصرين** » (١٦) ..

ويقول : « **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب** »(١٧) ..

---

(١٤) التغابن : ٩ .
(١٥) النساء : ٤٨ .
(١٦) آل عمران : ٩١ .
(١٧) النور : ٣٩ .

وخلاصة القول : ان الثواب فى الآخرة لا يكون الا لمن آمن وعمل صالحا فيثاب على ايمانه ، وعلى ما قدم من عمل صالح ، وقد يصل هذا الثواب الى عشرة أضعاف ما قدم من الأعمال الصالحة ، أما اذا اقترف سيئة فيعاقب بمثلها ، وقد يغفرها الله له ، اذا كانت عارضة ، أى اذا حدثت مرة ثم أسرع فرجع عنها ، واستغفر الله ، ورد ما عليه ، اذا كان الأمر يتعلق بالفرد أو المجتمع .

أما الكافر فليس له جزاء على كفره الا النار ، أما عمله الصالح فلا أثر له ، أى لا ينقذه من دخول النار ، وان كان يخفف عنه عذابها ، بمعنى أن الكافر ، الذى يعمل فى الدنيا عملا صالحا لبنى وطنه ، أو لمجتمعه الانسانى ، فسوف يكون عذابه أقل وأخف من عذاب الكافر ، الذى لا يعمل صالحا فى الدنيا ، فكما أن الجنة درجات فالنار درجات أيضا ، أسفلها وأشدها عذابا لمن كفر ولم يعمل صالحا فى حياته ، وأخفها من كفر وقدم من الأعمال الصالحة ما انتفع به بنو وطنه ، أو ما خفف آلما عن الانسانية .

فاذا نال المؤمن خيرا فى الدنيا ، حمد الله ، وان أصابه مكروه صبر ، لأن ذلك ابتلاء واختبار ، لمدى قوة ايمانه بالله ، يقول الله تعالى : **« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »**(١٨) ..

فان رأى الكافر ينعم بنعمة هو محروم منها ، فليعلم أن ذلك لحكمة يعلمها الله تعالى ، وليتذكر أن ذلك ربما يكون اختبارا له أيضا ، لتظهر النفس على حقيقتها ، ولولا ضعف النفس الانسانية ، وعدم قدرتها على تحمل مثل هذه الفتنة لزاد الله فى مال الكافر ، يقول الله تعالى **« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين »** (١٩) .

---

(١٨) العنكبوت : ٢-٣ .   (١٩) الزخرف : ٣٣ — ٣٥ .

أى أن الله لم يعط الكافر هذا ، حتى لا يصبح الناس كلهم كافرين ، لأن النفس ضعيفة تنهار أمام هذه المغريات المـادية بسرعة ، فعلى المؤمن أن يدرك هذه الحقيقة . ويعلم أن العاقبة خير وأبقى . ومع ذلك لا ينبغى أن يكون هذا المعنى سببا فى تقاعس المؤمن عن عمله ، وتكاسله فى تحصيل المـادة من طرقها المشروعة ، لأن التكاسل سـيئه يعاقب عليها ، والجد والعمل فى مجالات الحياة المختلفة عمل صالح يثاب عليه ، فليجد ويجتهد ، حتى يكون فى زمرة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأولئك لهم الدرجات العلى .

* * *

١٢ — الهداية الى السعادة فى الدنيا والآخرة

يسعى الناس جميعا الى سلوك الطرق التى تؤدى بهم الى أن يعيشوا سعداء ، غير أن مفهوم السعادة ، يختلف من شخص لآخـر ، فبينما يرى بعض الناس ، أن سعادتهم لا تتحقق ، الا بالحصول على قدر أكبر من المـال ، أو بتقلد المناصب الكبرى ، التى تضفى عليهم سلطانا ، وجاها ، وشهرة بين الناس ، يرى آخرون السعادة ، فى الدفاع عن المبادىء السامية ، أو فى القيام بمساعدة الضعفـاء ، ومعاونة المحتاجين ، وفى دعوة الناس الى حب الخير لبعضهم ، وحثهم على الالتزام بالمبادىء الأخلاقية ، حتى يعيش الناس فى أمان واطمئنان ، وحب ووئام ، يساعد بعضهم بعضا ، فيحمى الأخ أخاه ، ويحنو الجار على جـاره ، ويحول المواطن دون وقوع الشر على أخيه المواطن ، وتتساند الشعوب والأفراد جنبا الى جنب ، فى مواجهة تقلبات الدهر وأعاصير الحياة .

ورغم اختلاف الاتجاهات والمشارب ، فى تفسير معنى السـعادة ، وطرق الحصول عليها ، فان هناك معنى عاما للسعادة ، يكاد يجمع عليه الناس جميعا ، ألا وهو أنها تكمن فى اطمئنان النفس ، وراحة الضمير ، وصفاء القلب ، وخلوه من الغل ، والحقد ، والقلق على المستقبل ، ولذا ذكر الله هذه الصورة فى معرض الامتنان على المتقين ، فقال : **« ان المتقين فى جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقـابلين . لا يمسـهم فيهـا نصب وما هم منهـا بمخرجين »**[١] ..

ذلك أن الجو النفسى ، المحيط بالشخص يؤثر تأثيرا بالغا على جميع أعصابه ، فاذا ساده التوتر ، والقلق ، والخوف ، انعكس ذلك على الأعصاب ، فيهتز بنيانها ، ويضطرب عملها ، فيصاب الانسان بشعور لا يستطيع تفسيره ، ولا يدرك له سببا مباشرا ، يمكنه ازالته ، وساعتئذ لا ينفعه مال ولا بنون ، ولا ينقذه جاه ولا سلطان ، بل قد تصبح هذه النعم المادية ،

---

(١) الحجر : ٤٥ — ٤٨ .

من العوامل التى تضاعف من علته وتؤخر شفاءه ، أو قد تكون هى سبب هذه العلة ، عندما يسيطر عليه حب المال والجاه ، فيسلك طرقا يرى أنها توصله الى هدفه ، بينما هى تزيد من علته ، وتضاعف من أمله ، لأنه يحقد على من يفوقه فى هذا المجال ، ويسعى الى وضع العقبات فى طريقه ، أو تدبير المؤامرات لسلب ما فى يده من مال ، أو لاقصائه عن مركزه ليتقلده هو ، وسواء نجح فى هذا ، أو أخفق ، فهو يعيش حياته كلها فى قلق مستمر ، يخشى أن تفشل خططه فى الوصول الى الهدف ، أو يخاف ضياع ما حقق من أهداف ، عندما تصبح فى يده ، لأنه يظن أن غيره يكيد له المكائد ، كما فعل هو مع غيره ، ويسعى الى سلب ما بيده ،كما صنع هو مع من سبقه .

فالمال والجاه ليسا سببين من أسباب السعادة فى حد ذاتهما ، وانما هما وسيلة فقط ، لتخفيف عبء الحياة المادية عن الانسان ، فهما سلاح ذو حدين ، أى أنهما قد يكونان سببا من أسباب سعادة المؤمن ، اذا اتبع فى الحصول عليهما الطرق التى رسمها الله تعالى ، فلا يظلم أحدا ، ولا يحقد على أحد امتاز عنه بكثرة المال ، أو فاقه فى تقلد المناصب ، أو نال مكانة سامية بين بنى قومه ، فان فعل ذلك اطمأنت نفسه ، فرضيت بما قسمه الله لها ، وفى ذلك سعادة بالغة ، لا يراها الا من يعيش فى ظلها ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا حيث يقول الله تعالى : **« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى »** (٢) . .

فالنفس لا تطمئن الا اذا رضيت بما قسم الله لها ، وتمنت للناس الخير كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ حيث يقول : **« لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »** .

فالايمان بالله ، والالتزام بالطرق المشروعة فى مجالات الحياة المادية ، وحب الأخ لأخيه ، وعدم تمنى زوال ما عند الغير من نعمة ، هى معالم الطريق التى تؤدى الى السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة .

---

(٢) الفجر : ٢٧ — ٣٠ .

أما الحقد ، فهو مدمر للنفس والبدن ، وهو السبب الرئيسى ، الذى يدفع الانسان الى ايذاء أخيه ، وهو غافل عن ادراك أن هذا هو ايذاء لنفســه أيضا ، لأنه يضفى على حياته القلق النفسى والتوتر العصبى ، فلا تتحقق له سعادة ، فهو لا يهنأ بحياة ، لأن الشعور باللذة الحقيقية قد فقد ، وسيطر عليه الايحاء بأنه سينتصر بهـذا على ما يظنهم أعداءه ، بينما يسوقه هذا العمل الى الدمار والهلاك ، ولن يدرك ذلك الا بعـد فوات الأوان ، وساعتئذ لا يلومن الا نفسه ، يقول الله تعالى حكاية عن هذه النفس : **« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء »**[٣] ..

ويقول : **« وما أصابك من سيئة فمن نفسك »** [٤] ..

والحد الثانى للمال ، هو استعماله لالحـاق الضرر بالنـاس ، أو تحصيله من طرق غير مشروعة ، كالسرقة ، والغش ، فى المعاملات التجارية ، أو المغالاة فى الأسعار ، لتحصيل أكبر ربح ممكن ، على حساب الضعفاء والمساكين ، وفضلا عن أن هذا العمل سيعاقب عليه المرء فى الآخرة ، فهو أيضا سبب من أسباب الشقاء فى الدنيا ، لأن من يتبـع هذا الاسلوب غير الشرعى فى تحصيل المال ، فهو لا محالة ، قد سيطر عليه حب الثروة ، على نحو يجعله غير مطمئن الى ما فى يده ، وغير راض بما حصله ، وتلك حالة تفقده السعادة ، وتجعله يعيش قلقا بالليل والنهار ويخشى أن يضيع ما بيده ، ويخاف من عدم الوصول الى المزيد .

وخلاصة القول : ان المـال لا يكون سببا من أسباب السـعادة ، الا اذا التزم المرء بالطرق المشروعة فى تحصيله ، وأدى ما عليه من زكاة ، يقول الله تعالى : **« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »** [٥]..

ويقول : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضـاعف لمن يشـاء واللــه واسع عليم . الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا**

---

(٣) يوسف : ٥٣ .   (٤) النساء : ٧٩

(٥) التوبة : ١٠٣ .

منـا ولا أذى لهم أجرهـم عنـد ربهـم ولا خوف عليهـم ولا هم يحزنون »[٦] ..

فالايمان وتحصيل المال من طرقه المشروعة ، واعطـاء الفقراء حقهم منه ، يضمن السـعادة لأن الله وعد من يلتزم بذلك بالأمان والاطمئنان فى الدنيا ، وبالأجر والثواب فى الآخرة .

أما اذا فقد الايمان ، فلا تكون سعادة ، بل حقد على الغير ، وخوف منه ، وركض وراء المال فى كل الطرق ، وفى كل ذلك تدمير للنفس ، وهلاك للبدن ، وفضلا عن ذلك ، فمآله الجحيم والعذاب فى الآخرة ، يقول الله تعـالى : **« فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون »[٧] ..**

كذلك من عوامل السعادة ، الرضا بما قسم الله ، لقد جـاء فى الحديث القدسى أن الله يقول :

« عبدى .. انك تريد وأنا أريد ، فان رضيت بما أريد ، أعطيتك ما تريد ، وان لم ترض بما أريد أتعستك فيما تريد ، ولا يقع فى ملكى الا ما أريد » ..

فلا ينبغى لانسان أن يتطلع الى ما فى أيدى الناس ، بل عليه أن يجتهـد فى عمله ، فان وصل الى مركز ، حمد الله عليه ، واستمر فى عمله ، ولا يحقد على من تميز عنه فى مركز ، أو جاه ، لأن ذلك معصية ، وفى المعصية فقدان للسعادة فى الدنيا والآخرة .

فطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، ينحصر فى الايمان ، والعمل الصالح ، سواء أكان هذا العمل يتعلق بالعبادات ، أو بالمعاملات .. ففى العبادات ، ينبغى أن يحرص المؤمن على تأدية الفرائض فى أوقاتهـا ، والالتزام بالفضائل التى رضى الله بها .

أما فى المعاملات فعليه أن يكون سعيه الى تحصيل المـال من طريق

---

(٦) البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢ .
(٧) التوبة : ٥٥ .

حلال ، وأن ينفقه فيما يعود عليه وعلى أسرته وأمته بالخير ، وأن يلتزم فى معاملته للناس ، بالمبادىء الاسلامية التى تدعو الى حــب الأخ لأخيــه ، وعطفه عليه ، ومساعدته له ، فان ذلك يحقق السعادة للجميع •

ولا تكتمل السعادة فى الأمة ، الا بالتواصى بالحق ، وذلك بأن يوجد فى المجتمع ، من يدعو الناس الى الخير وينهاهم عن الشر يقول الله تعالى : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »**(٨) ••

فالدعوة الى الله ، تحقق السعادة للداعى ، الذى يرى فى قيامــه بهذا العمل ، اشباعا لنزعة دينية عنده ، وارضاء لله ، كما يؤدى بالأمــة ، الى السعادة حيث يسود الايمان ومظاهره ، ويختفى الضــلال وآثاره ، وبذلك يكتب الله لهم جنات عدن فى الآخرة ، جزاء ما قدموا فى الدنيا ، فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

* * *

---

(٨) آل عمران : ١١٠ •

١٣ — ضرورة بعث الرسل

لو نظر الانسان حوله ، وتمعن فى مظاهر الحياة ، وأمعن التفكير فى ملامح كل واحد من الناس ، لأدرك اختلافات شتى ، ومشارب متعددة ، وأمزجة متنوعة ، وآراء مختلفة ، تصل الى حد التناقض ، والتضارب ، بل والتطاحن المزمن الذى يودى بالمجتمع الى هاوية الانحدار ، أو الهلاك •

وهذا الاختلاف والتناقض ، يشمل ناحيتى الانسان : الفسيولوجية والروحية ، فشكل كل انسان وملامحه ، يختلف عن شكل الآخر ، حتى ولو كان أخا شقيقا ، كذلك تنوعت الأفكار ، لدرجة أن من النادر — بل يكاد يكون من المستحيل — أن تتطابق أفكار اثنين تطابقا كليا ، وما نسمعه من حين لآخر ، من التشابه بين اثنين فكريا ، أو جسمانيا ، فليس ألا فى الغالب الأعم ، أى فى معظم الملامح ، أو فى غالبية الأفكار ، أما التطابق الكلى فهو مستحيل •

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الظاهرة ، فى قوله تعالى : **« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين »**(١) • •

فالاختلاف ، وتعدد الافكار والاتجاهات ، صفة لازمة للمجتمعات والأفراد ، ويعلل العلماء ذلك ، بأن الانسان ابن بيئته ، ولما كانت البيئات مختلفة ومتعددة ، فلابد أن يأتى تكون الناس متباينا ومختلفا ، حتى الأفراد الذين يعيشون فى بيئة واحدة ، يظهر عليهم بعض الاختلافات ، لأن البيئة تحتوى على عناصر متعددة ، وقابلية الانسان تميل الى عنصر ، قد لا يميل اليه آخر ، ومن هنا جاء الاختلاف بين أبناء المجتمع الواحد ، بل بين أعضاء الأسرة الواحدة •

وعليه •• فلا يمكن أن يلتقى الناس على مبدأ فكرى واحد من تلقاء أنفسهم ، أو يتفقوا على نظام واحد فى حياتهم ، أو يهتدوا بعقولهم الى

---

(١) هود : ١١٨ •

أسلوب واحد فى حياتهم الاجتماعية ، ويجمعوا على أنه هو الذى يضمن لهم الحياة السعيدة ، أو يجنبهم الذلل فى معاملاتهم ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، وحوادث التاريخ الماضى والحاضر تؤكد لنا هذا المعنى ، فقد حدثنا التاريخ ، وتنبئنا الأحداث التى نشاهدها كل يوم ، عن آراء شتى ، ومذاهب فكرية متعددة ، واتجاهات سياسية لا حصر لها ، يدعى أصحابها أنهم قد جاءوا بالنظام الأمثل ، والأحسن ، والأوفق للمجتمع الانسانى ، ويزعم صاحب كل مبدأ ، أن ما عنده هو الصحيح ، وما عند غيره باطل ، لا يصلح لتسيير دفة سفينة الحياة البشرية ٠

ووسط هذه الادعاءات المتنافرة ، والأصوات المتناحرة ، لا يمكن للانسان بقدرته العقلية المحدودة ، أن يفضل رأيا على رأى ، أو يطمئن بصورة لا تقبل الشك ، الى صحة اتجاه دون آخر ، بل من المستحيل أن يوفق اتجاه ما ، الى الصواب فى جميع مجالات الحياة ، لأن أصحابه وواضعيه بشر ، يخضعون فى تكوينهم العقلى ، الى بيئات ثقافية معينة ، اذن ٠٠ فليس من الممكن أن يهتدى عقل الانسان ، الى كل ما ينفع البشرية بنفسه ، لأنه خاضع لظروف معينة ، يعجز عن مجاوزتها ٠

ولهذا كان ارسال الرسل لازما ليبينوا للناس ما عجزوا عن فهمه ، وليوضحوا لهم ما غاب عنهم ، بسبب قصورهم البيئى ، وليرشدوهم الى الطريق المستقيم ، وليكشفوا لهم جانب الضلال فيما توصلت اليه عقولهم العاجزة فى العقائد والمعاملات ، وبذلك تستقيم عقائدهم ، وتسير حياتهم على نحو مستقيم ، يقول الله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم** » (٢) ٠٠

أى ليظهر لهم ما هم فيه من ضلال ، ويأمرهم باجتنابه ، وليبلغهم وحى الله ويوصيهم باتباعه ٠

فارسال الرسل لازم ، لبيان ما اختلف عليه الناس ، ولاخراج من اتفق منهم على الضلال ، من دائرة الضلال ، الى نور الايمان ، ولهداية

---

(٢) ابراهيم : ٤ ٠

من ضل فى تفسير الرسالات السابقة ، ومن سلك طرقا ملتوية لجـذب النصوص الدينية ، وتأويلها تأويلا يخدم ميوله المتمردة على الحق ، تأويلا يشبع هواه المتردى فى مدارك الهوى والشهوة ، يقول الله تعالى : « **كان الناس أمة واحدة** (أى فى انحرافهم وبعدهم عن الحق) **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** »(٣) .

فارسال الرسل هو لهداية العقل البشرى العاجز ، الى طريق لا يعتريه الخطأ ، لأنه من العليم الحكيم ، ولابلاغ الناس الحكم الصحيح ، فيمـا اختلفوا فيه ، ولاخبارهم أن من اتبع طريق الله الذى رسمه الوحى ، المنزل على الرسل ، فسيكون ثوابه الجنة ، ومن خالفه فمصيره النار . يقول الله تعالى : « **وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين** » (٤)..

وهـو أيضـا لقيـام الحجـة على الناس ، يقـول الله تعـالى : « **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنـاس على الله حجـة بعد الرسل** » (٥) . .

ويقول : « **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا** »(٦) ..

فلا عذر لمن جحد الايمان ، وتمادى فى الكفر ، ولا لمن ضل ، فاتبع هواه ، ولا لمن عجز عقله عن الوصول الى الطريق المستقيم ، وركن الى عجزه ، فلم يسلم قياده لمن نزل عليهم الوحى من الرسل والأنبيـاء ، فهم وحدهم ، الذين وضحوا للناس ، كل ما يتعلق بالايمان ، وبينوا لهم طريق الهدى ، ولهذا فلن يستجاب لمن أنكر رسالتهم ، عندما يستجيرون ، وهم فى عذاب النار يوم القيامة ، ولن يلتفت الى صراخهم وعويلهم ،

---

(٣) البقرة : ٢١٣ .
(٤) الأنعام : ٤٨ .
(٥) النساء : ١٦٥ .
(٦) القصص : ٥٩ .

عقابا لهم على موقفهم من الرســـل فى الدنيا ، يقول الله تعالى : **« وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب • قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ، قالوا بلى ، قالوا فادعوا، وما دعـــاء الكافرين الا فى ضـــلال »** (٧) • •

ويقول : **« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق • ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله ، انه قوى شديد العقاب »** (٨)••

وخلاصة القول : ان اختلاف البيئات الطبيعية والثقافية ، كان سببا فى اختلاف الناس فى ميولهم وأفكارهم ، مما جعل المجتمعات البشرية تعج بالاتجاهات الفكرية المختلفة ، حيث يعجز العقل البشرى عن معرفـــة الصحيح من الخطأ ، ولهذا بعث الله الرسل ليبينوا لهم ذلك ، حتى ينقذوهم من التطاحن المدمر ، والتشاحن المهلك ، فيحيون حياة سعيدة فى الدنيا ، ويلقون جزاء حسنا فى الآخرة ، وصدق الله اذ يقول : **« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »** (٩) • •

لأن اختلاف الأفكار وتطاحنها ، وعدم القدرة على معرفة ما ينفع منها وما يسىء ، هو موات للمجتمعات والأفراد ، فاذا جاءهم من يدعوهم — وهم الرسل — الى اتباع ما ينقذهم من هذه البلبلة الفكرية ، فينبغى عليهم أن يستجيبوا له ، لأن فى ذلك حياة لهم •

* * *

---

(٧) غافر : ٤٩ ، ٥٠ .   (٨) غافر : ٢١ ، ٢٢ .
(٩) الأنفال : ٢٤ .

١٤ ـ خواطر داعية حول بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم

كان العالم فى القرن السادس الميلادى فى ظلام دامس ، وليل حالك ، اضياع نور الحقيقة الالهية ، بين ظلم الأكاسرة وطغيانهم ، وبين فساد الرومان ، نتيجة انحرافهم عن تعاليم المسيح عليه السلام ، ولم يستطع الكهان بيان الحقيقة للناس ، لأن ما لديهم لم يكن سوى أفكار مجموعة من البشر ، حاولت الوصول الى كنه الرسالة السماوية فعجزت ، لأن الانسان لم يستطع الوصول الى ذلك ، الا عن طريق الوحى المنــزل من الســماء •

أما من كان خارج تلك الدولتين الكبريين آنذاك ، فلم يكونوا أحسن حالا فى علاقتهم بدين الله الواحد القهار ، اذ صنعوا أحجارا بأيديهم ، وأقاموها بجوار بيت الله فى مكة ، يعبدونها من دون الله ، وكان أمرهم عجبا ! يعبدون أصناما فى بيت الله،ويقدسون أحجارا صماء بجوار الكعبة الشريفة • تركوا تعاليم آبائهم التى علمهم اياها ابراهيم واسماعيــل عليهما الســلام ، واتبعوا طريق الشيطان فهم يئدون البنات خشية الفقر، ونسوا أن الله هو الرزاق ، ويقتل بعضهم بعضا استجابة لنزعة عصبية ، واشباعا لرغبة الحمية الجاهلية •

● كانت هذه هى حالة المجتمع الانسانى قبل بعثــة محمد ﷺ •

● فى فارس ظلم واستعباد وعبادة للنار !

● وفى الروم فساد وتطاحن بين المذاهب ، يصحبه سفك الدماء ، وتشريد الأطفال •

● وفى جزيرة العرب عبادة أحجار ، وتقديس أصنام ، يحيط بها عصبية قبلية ، ونعرة جاهلية ، وفساد فى الاخلاق ، أدى الى بعد عن الفضيلة ، والتنكر لمبادىء العدالة الاجتماعية •

فكان هذا ايذانا ببعث رسول ينقذ البشرية من الضلالة ، ويهديهــا

الى الصراط المستقيم ، فأرسل الله محمدا ﷺ ، هاديا ومبشرا ونذيرا :
« يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » (١) ..

تبشر من اتبعك : بالجنة وثوابها .. وتنذر من خالفك : بالنـــار وعذابهـــا ..

تبشر من آمن بك رسولا : برضوان الله وجنته ، وتنذر من أنكر نبوتك : بغضب الله وعقابه .

تبشر من صدقك : بالأمن والأمان فى الدنيا والآخرة ، وتنذر من كذبك : بالخزى فى الدنيا والخسران فى الآخرة ..

تبشر من أطاع الله : بالجزاء فى الدنيا والآخرة ، وتنذر من عصاه : بالخسران المبين فى الدارين .

تبشر من امتثل لأوامر الوحى : بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وتنذر من خالف شرع الله : بنار وقودها الناس والحجارة أعدت للظالمين لأنفسهم ، بمعارضتهم لشرع السماء ، والظالمين لغيرهم بسلبهم حقوقهم المشروعة ، التى أوصى الله بأدائها لهم .

لقد بعث رسول الله ﷺ رحمة للعالمين جميعا : **« وما أرســلناك الا رحمة للعالمين »** (٢) .

رحمة لهم ، لأنه أنقذ المستضعفين من ظلم المستكبرين ، وحرر المستكبرين من سيطرة نفوسهم الأمارة بالسوء على أفعالهم ، فرحمهم من تحمل وزر ما يرتكبون من آثام .

كانت بعثته نورا وهداية للجميع ، وتهذيبا وتكريما لكافة الناس ، وصدق رسول الله ﷺ حين يتحدث عن نفسه قائلا : « انما أنا رحمة مهــداة » ..

حقا كان رحمة مهداة الى ذلك العالم التائه فى بيداء الجهالة ، المتخبط فى بحر الظلمات . جاء اليه محمد ﷺ فأحيــاه بعد ممات :
« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (٣) ..

---

(١) الأحزاب : ٤٥ .
(٢) الأنبياء : ١٠٧ .
(٣) الأنعام : ١٢٢ .

جاء اليه محمد ﷺ ، فهداه بعد ضلالة ، وأعاد اليه رشده بعد فقده ، ورد اليه كيانه بعد انهياره .

أعطاه حقوقه فى التفكير والحياة ، فلم يفرق بين الكبير والصغير ، ولا بين الغنى والفقير الا بالتقوى : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » (٤) ..

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل فى حق الحياة سواء

بعث محمد ﷺ ، فحرر العقول ، والأبدان ، وأنار القرى والبلدان ، وشع ضوؤه من الجزيرة العربية ، بعد أن أشعل القلوب بروح الله ، وحرك المشاعر بتعاليم القرآن الكريم ، ومزج العقول بوحى السماء ، وقضى على الأوهام والمهاترات ، فانطلق أصحابه فى العالم :

- مصابيح تنير .
- وأعلاما تهدى .. كما قال ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ..
- وقناديل تكسح الظلام ..
- وفرسانا تقضى على الفساد والظلم ..

فملكوا زمام العالم ، وطهروه من الأوثان والأصنام ، وحولوا البلاد الى بحار من العلم والمعرفة ، وغرسوا الأخلاق الحميدة ، والصفات الفاضلة ، وأصبحوا — وهم أعداء الأمس — اخوانا متحابين ، يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وصدق الله اذ يقول : **« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »** (٥) ..

* * *

(٤) الحجرات : ١٣ .

(٥) آل عمران : ١٠٣ ، ١٠٤ .

١٥ ـ الأنبيـاء والرسـل

ميز الله الانسان بالعقل على سـائر الكائنات الحية ، وكان ذلك سببا فى تسخير كل ما فى الوجود المشاهد له ، يقول الله تعـالى : **« وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار • وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار »**(١) ••

ويقول : **« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض »** (٢) ••

ويقول : **« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »**(٣) ••

واستخدم الانسان عقله فى الانتفاع بما فى الكون ، غير أنه لم يستطع الوصول بنفسه الى حقيقة الوجود ، والى معرفة ما يحـدث للانسان بعد الموت ، كذلك عجز عقله عن التوصل الى نظام ثابت للحياة ، يحفظ المجتمعات من التفكك والانهيار ، ولذا اصطفى الله من عبـاده أناسا ، أنزل عليهم وحيه ، ليبلغوه للناس ، ويأمروهم باتباع ما جـاء به من أوامر وتجنب ما تضمنه من نواهى ، ان هم أرادوا السعادة فـى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، يقول تعالى : **« الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »**(٤) ••

ويقول : **« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم »**(٥) ••

ويقول : **« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجـاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء »** (٦) ••

ويقول : **« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم »** (٧) ••

---

(١) ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣ •
(٢) الحج : ٦٥ •
(٣) الجاثية ١٢ ، ١٣ •
(٤) الحج : ٧٥ •
(٥) النساء : ١٧٠ •
(٦) الشورى : ٥١ •
(٧) آل عمران : ١٦٤ •

فالرسول شخص اصطفاه الله من الناس ، ليبلغهم ما يريد الله تبليغهم اياه .

وقد يطلق عليه نبى أيضا ، يقول الله تعالى : **« يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »** [٨] . .

ويقول : **« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »** [٩] . .

ويقول : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده »** [١٠] .

ويقول : **« يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا »** [١١] . .

غير أن هناك رأى يقول : ان النبى هو ما نزل عليه وحى ، ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول هو ما نزل عليه الوحى ، وأمر بتبليغه ، فهو نبى أيضا ، أى أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا ، لأنه ، ان لم يؤمر بالتبليغ ، فهو نبى فقط ، فان أمر كان رسولا بالاضافة الى أنه نبى بمجرد نزول الوحى عليه ، وهذا تفسير غير سليم ، والدليل على ذلك ، أن الله أمر كل الناس بالدعوة الى الله ، ونهاهم عن كتمان الحق ، وحذرهم من عدم تبليغه ، فقد قال تعالى محذرا من لم يبلغ أمر الله : **« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيينه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون »** [١٢] . .

أى أنكم تقترفون اثما كبيرا ، اذا فعلتم مثلهم ، فكتمتم أمر الله ، ولم تبلغوه للناس ، فالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر واجب على كل مؤمن ومؤمنة ، يقول الله تعالى : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »** [١٣] .

ويقول : **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »** [١٤] . .

---

(٨) التوبة : ٧٣ .
(٩) البقرة : ٢١٣ .
(١٠) النساء : ١٦٣ .
(١١) الأحزاب : ٤٥ .
(١٢) آل عمران : ١٨٧ .
(١٣) التوبة : ٧١ .
(١٤) آل عمران : ١٠٤ .

ويقول حكاية عن وصية لقمان لابنه : « **يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر** » (١٥) •

ومن هذا يتبين : أن من واجبات المؤمن أن يبلغ شرع الله للناس ، ويعلمهم أحكامه ، ويأمرهم باتباعه ، وينذر من غفل منهم عن أمر الله •

فاذا كان التبليغ واجبا على كل الناس ، أفلا يكون واجبا على النبى الذى نزل عليه وحى الله !! فالقول بأن النبى هو من نزل عليه وحى ، ولم يؤمر بتبليغه خاطىء من ناحيتين :

الأولى : أنه عطل مبدأ من مبادىء الدين ، وهو التبليغ ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لأن التبليغ ، اذا كان واجبا على كل مؤمن ، فهو على النبى أكثر الزاما ، بل هو أول شىء يجب عليه القيام به •

والثانية : التى يتضح منها خطأ هذا الرأى :

أنه اذا كان قد نزل عليه وحى ، فكيف لا يؤمر بتبليغه ؟ ان هذا أمر يتنافى مع العقل ، بل هو عبث ينسب الى الله تعالى وهو محال ، اذ كيف ينزل الله وحيا على انسان اصطفاه ثم لا يأمره بتبليغه • اذا كان الأمر كذلك — وهو ما تنزه الله سبحانه وتعالى عنه — فما الفائدة من تنزيل هذا الوحى ؟ ! •

اذن ، فليس هناك فرق بين نبى ورسول ، فالرسول نبى والنبى رسول ، أى أنهما لفظان مترادفان ، بل ان لفظ النبى أدق ، لأنه لا يطلق الا على من اصطفاهم الله ، أما الرسول فقط فيطلق على غيرهم ، اذ شاع بين الناس قولهم : رسول الملك ، أو رسول الحكومة ، أو رسول القوم • ولا يقال : نبى الملك ، أو نبى الحكومة • فالنبى لفظ خاص بمن اصطفاه الله من الناس ، وأوحى اليه ، وأمره بتبليغ هذا الوحى لهم ، ويجوز اطلاقه بدون اضافة الى لفظ الجلالة ، فاذا قيل : نبى أو النبى ، فهم منها أنه نبى الله •

أما كلمة رسول ، فاذا كانت بدون « الـ » ، فلا تستعمل الا مضافة

---

(١٥) لقمان : ١٧ •

الى لفظ الجلالة ، فيقال : رسول الله ، فان قيل : رسول فقط ، بدون اضافته الى لفظ الجلالة ، فيحتمل أن يكون المراد رسول الله ، أو رسول غيره من الناس .

كذلك تتضمن كلمة نبى : الانباء بالغيب ، ولايكون هذا الا لمن اصطفاه الله من عباده ، بخلاف كلمة « رسول » ، فانها لا تتضمن ذلك بلفظها ، بل بما يفهم منها ، من أنها تطلق — اذا أضيفت الى لفظ الجلالة — على من أنزل عليه الوحى ، وما دام ينزل عليه الوحى ، فقد ينبئه الله بغيب يبلغه للنـــاس .

وقد أرسل الله أنبياء — ورسلا — عديدة ، أخبرنا ببعضهم فـــى القرآن الكريم ، ولم ينبئنا بالبعض الآخــر ، يقـــول الله تعـــالى : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينـــا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما »** (١٦) . .

ويقول : **« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليـــك ومنهم من لم نقصص عليك »** (١٧) . .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم أسماء الأنبياء ، الذين اقتضت حكمته أن يبلغنا بهم ، وهم آدم ، وادريس ، وهود ، وصالح ، وابراهيم ، ولوط ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، ويونس ، وداوود ، وسليمان ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم ، وخاتمهم : محمد صلى الله عليه وسلم .

ويجب الايمان بهم جميعا ، فمن كفر بواحد منهم لا يكون مسلما ، لأن من شروط صحة الاسلام ، أن يؤمن الانسان بما نزل من الوحى على محمد ﷺ ، وقد نزل الوحى عليه ، مخبرا بأنهم أنبياء ، فمن لم يؤمن

---

(١٦) النساء : ١٦٣ ، ١٦٤ . (١٧) غافر : ٧٨ .

بواحد منهم ، فقد أنكر نصا من القرآن الكريم ، ومنكر نص القرآن الكريم كافر ، يقول الله تعالى : **« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »** (١٨) .

خلاصة القول : ان الله اصطفى من عباده من أنزل عليه الوحى ، وأمره بتبليغه للناس ، وسماه نبيا ، كما سماه رسولا ، فكل نبى رسول ، وكل رسول نبى ، فهما لفظان مترادفان ، يطلقان على من اصطفاهم الله ، وخصهم بوحيه ، وأمرهم بتبليغه ، وأنه قد قص علينا بعضهم فى القرآن الكريم ، وشاءت حكمته ، ألا يقص علينا البعض الآخر ، وأنه يجب الايمان بهم جميعا ، فمن أنكر واحدا منهم ، فقد كفر ، ومن كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلنفسه ، وما ربك بظلام للعبيد .

* * *

---

(١٨) البقرة : ٢٨٥ .

١٦ — المعجزة والكرامـــة

لقد بينا فى حديث سابق ، أن الانسان لا يستطيع بفعله ، أن يتوصل الى نظام للحياة ، يحفظ كيان الفرد والمجتمع ، ويضمن للناس السعادة ، والأمن ، والطمأنينة ، ولهذا كان لا بد من ارسال رســل ، يبينون لهـما عجز عقله عن ادراكه ، ويوضحون له ما خفى عليه •

وقد ادعى كثيرون لنفسهم هذه الصفة •• فزعموا أنهم مرسلون من الله ، وكانوا كاذبين فيما ادعوا ، حاولوا خداع الناس ، ليتبوأوا بينهم مركزا ، وينالوا جاها ، وليستغلوهم فى الأموال ، والأغراض ، ولكى يظهر الصادق من الكاذب ، ويتبين حقيقة المرسل حقا من الله ، من المدعى زورا وبهتانا ، أيد الله من أرسله بمعجزات ، تدل على أنه صادق فيما يقول ، وتوضح أنه مبلغ من الله فيما يخبر •

فالمعجزة : هى أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد من أرسله للناس ، كدليل على أنه صادق ، وقد سماها القرآن الكريم آية ، أى أنها علامة ، ودليل على صدق الرسول ، فيما يخبر به عن الله سبحانه وتعالى ، يقول الله فى كتابه العزيز : **« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون »**(1) ••

ويقول تعالى : **« وقال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين • حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل • قال ان كنت جئت بآيـــة فأت بهـــا ان كنت من الصـــــادقين »** (2) •

أى ان كنت جئت بمعجزة ، تدل على أنك صادق ، فبينها لنا ان كنت صادقا فى دعواك النبوة ••

« فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين • ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين » (3) •

---

(1) البقرة : ١١٨ •
(2) الأعراف : ١٠٤ — ١٠٦ •
(3) الأعراف : ١٠٧ ، ١٠٨ •

ولكى تكون المعجزة ملزمة للقوم ، فقد ظهرت على يد كل نبى آية من جنس ما برع فيه قومه ، ونبغوا فيه ، واشتهروا به ، لأن من يعرف أسرار العلم ، ويدرك جزئياته ، ثم يرى أن هناك من يستطيع الاتيان بظواهر خرجت عن قدرة أرباب هذا المجال ، يدرك أنه أمام ظاهرة تفوق قوة البشر ، ظاهرة لا يستطيع الاتيان بها الا من كان مؤيدا ، ممن يملك الكون كله ، ويسيطر عليه ، ولهذا آمن السحرة ، حين رأوا عصاموسى تلقف ما صنعوه من سحر ، لأنهم عرفوا أنهم أمام عمل ، لا يقوى عليه انسان ، يقول الله تعالى ، مخبرا رسوله عن هذه الحادثة : **« فجمع السحرة لميقات يوم معلوم • وقيل للناس هل أنتم مجتمعون • لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين • فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين • قال نعم وانكم اذن لمن المقربين • قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون • فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون • فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون • فألقى السحرة ساجدين • قالوا آمنا برب العالمين • رب موسى وهارون »** (٤) •

آمن السحرة وصدقوا بأنه رسول من الله ، لأنهم أدركوا ، أن ما قام به ليس سحرا ، فهو خارج عن طاقة أى ساحر ، ولا يكون ذلك الا بتأييد من الله ، فهو صادق فيما يخبر به عن الله ، من أنه رسول ، أرسل الى الناس ، ليبين لهم طريق الهدى ، ولينذرهم اذا هم ضلوا ، أو سلكوا طريق الشيطان •

كذلك كانت معجزة عيسى من جنس ما اشتهر به قومه ، وهو صناعة الطب ، فقد برعوا فيه ، وظنوا أنهم عرفوا كل صغيرة وكبيرة فى جسم الانسان ، فجاء عيسى عليه السلام ، وأظهر الله على يديه فى هذا المجال ، ما أفحمهم وأعجزهم عن الاتيان بمثله ، رغم أنهم أساتذة فيه ، فكانت ولادته من غير أب معجزة لهم ، يقول الله تعالى: **« قالت أنى يكون لى غلام**

---

(٤) الشعراء : ٣٨ — ٤٨ •

ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا • قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا » (٥) • •

وكان كلامه فى المهد معجزة ، يقول تعالى : **« فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا • يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا • فأشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا • قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا »** (٦) •

كذلك أبرأ الأكمه ، والأبرص ، وأحيا الموتى باذن الله ، يقول الله ، تعالى ، فى معرض الاخبار عن هذه المعجزة : **« قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون • ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل • ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين »** (٧) • •

ويقول : **« اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى »**(٨) ••

وما يشاهد من ظهور عجائب على يد السحرة ، والكهان ، فليست من جنس الآيات التى أيد الله بها رسله ، بل هى عجائب ، بالنسبة لمن لم يعرف سرها ، لأنها قد تكون راجعة الى خفة اليد ، التى لا يراها الشخص العادى ، وقد تكون راجعة الى استخدام الساحر ، لأناس لا يبصرهم المشاهدون ، وقد تكون هناك خدعة بصرية ، أو ربما تكون راجعة الى

---

(٥) مريم : ٢٠ ، ٢١ • (٦) مريم : ٢٧ — ٣٠ •
(٧) آل عمران : ٤٧ — ٤٩ • (٨) المائدة : ١١٠ •

تمتع بعض الأشخاص بقوى جسمية وروحية خارقة ، تمكنه من الاتيان بمثل هذه العجائب ٠

ومهما كان مصدرها ، فهى قوى محدودة ، لا يتمكن صاحبها من الخرج عن اطارها المحدود لها ، ولا يعرف حدود هذه القوى ، الا من أوتى شيئا منها ، ولهذا عندما يفاجأ بعمل ، يتعدى الاطار المألوف لمن برع فى هذه الناحية ، فسرعان ما يدرك أنه أمام قوة تفوق قوة من يستعين بهم ، أو فى مواجهة قوة تطغى على امكاناته الخاصة ، التى تميز بها عن غيره ٠ ومهما أتى هؤلاء من عجائب فان أكثرها كذبا وبهتانا ، يقول الله تعالى : « **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ٠ تنزل على كل أفاك أثيم ٠ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون** » (٩) ٠ ٠

كذلك ما يأتى به الكاهن ، لا يدل على أنه صادق فيما يدعيه ، فقد افترى الكهان على الله ، وادعوا ما لم ينزل من السماء ، وكذبوا فيما أخبروا به ، فلا ينبغى أن يصدقهم المؤمن ٠ فقد ثبت فى الصحيح ، أن النبى ﷺ سئل عن الكهان ، فقيل له : ان منا قوم يأتون الكهان ، قال : « فلا يأتوهم » وثبت عنه أنه قال : « من أتى عرافا فسأل عن شىء ، لم تقبل صلاته أربعين يوما » ٠

فمعجزات الأنبياء ، تختلف عما يأتى به الساحر والكاهن ، فالساحر لـه طاقات محدودة ، أما ما يظهر على يد النبى ، فلا حدود له ، لأنه من الله ، ذى القدرة المطلقة ، وأكثر ما يخبر به الكاهن كذب ، لأن الله لا يطلع على غيبة أحدا ، الا أن يكون رسولا ، وفى حدود ما يريد الله ابلاغه للناس ، يقول الله تعالى :

« **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ٠ الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ٠ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم واحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا** »(١٠) ٠

فاذا كانت معجزات الأنبياء السابقين ، آيات مادية وقتية ، لا تلزم

---

(٩) الشعراء : ٢٢١ — ٢٢٣ ٠ (١٠) الجن : ٢٦ — ٢٨ ٠

الا من يراها ، فان معجزات محمد ﷺ ، آية خالدة ، باقية يدركها الناس جميعا ، على اختلاف العصور والأوطان ، فهى فى متناول كل انسان ، تلك هى القرآن الكريم ، الذى أنزله الله على محمد ﷺ ، تصديقا له فى دعواه يقول تعالى : **« أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »** [11] ٠

ويقول : **« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »**[12] ٠٠

بقيت نقطة أخرى تتعلق بخوارق العادات ، ألا وهى الكرامة ، التى اشتهر بين العامة أنها أمر يظهره الله على يد تقى تكريما له ، وحقيقة الأمر فى هذه المسألة ، أن كل من أدى الفرائض ، ونفذ الوصايا ، وسلك بين الناس مسلكا يرضى الله ورسوله ، فهو ولى ، لقوله تعالى : **« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠ الذين آمنوا وكانوا يتقون »**[13] ٠٠

ولا يكون تكريمه ، باظهار خوارق العادات على يديه ، لأنها خصائص النبوة ، ولم تظهر على يد الأنبياء الا عند الحاجة الى الزام المعارضين ٠ فلم تكن عادة يومية ٠ فاذا كان هذا وضعها بالنسبة للأنبياء ، فكيف نؤمن بظهورها على يد انسان عادى ، لم يقع عليه الاختيار ، ليبلغ رسالة عن الله ، فهو ليس بحاجة الى ما يؤيد صدقه ، انما تكريمه يكون بتوفيق الله له الى العمل الصالح ، وهدايته الى طريق النجاح ، فى مجالات الحياة المختلفة ٠

فان ظهر على يد انسان شىء غير مألوف ، فلا يعد هذا دليلا على تقواه ، قال موسى بن عبد الأعلى الصدفى : قلت للشافعى : ان صاحبنا الليث كان يقول : اذا رأيتم الرجل يمشى على الماء فلا تغتروا به ، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة ٠ فقال الشافعى : قصر الليث رحمه الله،

---

(١١) النساء : ٨٢ ٠ (١٢) الاسراء : ٨٨ ٠

(١٣) يونس : ٦٢ ، ٦٣ ٠

بل اذا رأيتم الرجل يمشى على المـــاء ، ويطير فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تعرضـــوا أمره على الكتـــاب • أى أن مدار تقييم المؤمن ، هو السلوك الطيب ، والعمل الصالح ، لا ما يظهر على يديه من شىء ، قد يكون من عمل الشيطان ، مما يمارسه بعض أدعياء الولاية ، من سلوك أقرب الى البله منه الى سمت التقوى ، وصفات الصلاح ، وهو ليس من الدين فى شىء ، وما يردده بعض الناس ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : اطلعت على أهل الجنة ، فرأيت أكثر أهلها البله ، فلا يصح عن رســـول الله ﷺ ، ولا ينبغى نسبته اليه ، فان الجنة انما خلقت لأولى الألبـــاب ، الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم ، الى الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر •

وقد ذكر الله أهل الجنة ، وأوصافهم فى كتابه ، فلم يذكر فى أوصافهم البله ، الذى هو ضعف العقل •

وخلاصة القول : ان الكرامة ليست خارقا يظهره الله على يـــد انسان، وانما هى تكريم الله للعبد ، بأن يوفقه الى الخير فى الدنيا والآخرة •

* * *

١٧ — وضع المعجزات الحسية فى الاسلام

فضل الله الانسان على سائر المخلوقات الحية ، فوهبه عقلا ، يستعين بـــه على مواجهة ما يقابله من عقبات على مسرح الحياة ، وليكون هاديا له الى طريق الحق ، ومرشدا الى ما ينبغى أن يعمله ، سواء أكان ذلك فى مجالات الحياة المادية ، أو فيما يتعلق بالجانب الروحى فى حيـــاة البشرية ، كالاهتداء الى العقيدة الدينية ، ومعرفة ما يتعلق بها من ايمـــان بالخالق ، وتصديق بالبعث والحساب ، ويقين بالثواب والعقاب ، ان عاجلا أو آجلا •

غير أن العقل وان أثبت مقدرته فى كثير من الجوانب العلمية ، التى تتعلق بمظاهر الطبيعة ، الا أنه عجز عن ادراك ما وراءها • كذلك لم يستطع أن يهتدى الى ما يصلح المجتمع فى جميع جوانبه ، بل انه أدرك بعض النواحى الاصلاحية ، وعجز عن ادراك كثير منها ، أى أنه كان جزئيا فى نظرته ، الى ما يصلح حياة الفرد والجماعة •

ولهذا أرسل الله رسلا ، بينوا له المنهج الشامل ، الذى يقـــود المجتمعات الى مافيه صلاحها فى جميع جوانب الحياة ، ووضحوا لـــه الأسلوب الذى ينبغى اتباعه ، حتى لا يضل فى ساحات لا تعرف لهـــا حدود ، ولا يهوى فى أودية لا يدرك لهـــا قرار ، ولا يتردى فى قفـــار خاوية ، لا يصيبه منها الا الهلاك والدمار ، غير أن الناس من كثرة سماعهم لأصوات مختلفة ، تدعى الاصلاح ، ورؤياهم لرجال يلبسون ثياب المصلحين ، أنكروا على الرسل دعواهم ، لأنهم ظنوا أنهم مثل غيرهم ممن سلكوا هذا الطريق ، سعيا وزاء شهرة ، أو طمعا فى الحصول على المال أو الجاه ، أو رغبة فى الوصول الى السلطة لاشباع غريزة التحـــــكم والسيطرة •

ومن هنا كان لا بد من تأييد الرسل بمعجزات ، تميزهم عن هؤلاء حتى لا يختلط أمرهم بمن يدعون هذه الصفة كذبا وبهتانا ، وكذلك لاقامة الحجة على المنكرين ، حتى لا يكون لديهم ما يتعللون به لانكارهم ، كما أنها — أى المعجزة — أيضا :تبيت لايمان من آمنوا ، واطمئنان لقلوبهم ،

وسكن لنفوسهم ، حتى لا يكون للشيطان منفذ اليها أو للعقبات التى تعترض طريق الدعوة تأثير فيها •

وقد أيد الله رسله بمعجزات حسية مختلفة ، فجعل معجزة كل رسول من جنس ما نبغ فيه قومه ، حتى تكون ألزم للخصم ، لأنها اذا كانت من جنس ما برعوا فيه ، ومع ذلك فاقت قدرتهم ، كان ذلك أدعى الى الاعتراف بأن هذا العمل لا يقدر عليه بشر • ويقص القرآن الكريم بعضا من هذه المعجزات التى أيد بها رسله ، فيقول عن معجزة موسى : **« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين • قال نعم وانكم اذن لمن المقربين • قال لهم موسى ألقوا ما انتم ملقون • فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون • فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون • فألقى السحرة ساجدين • قالوا آمنا برب العالمين • رب موسى وهارون »**[1] • •

وكانت معجزة عيسى عليه السلام فى الميدان الذى اعتقد قومه أنهم أصحابه ألا وهو الطب ، يقول الله تعالى : **« اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين »** [2] • •

وهناك كثير من المعجزات الحسية التى أيد الله بها رسله ، كانفلاق البحر لموسى عليه السلام ، وانفجار العيون من الحجر ، بعد أن ضربه بعصاه ، ونزول المائدة من السماء لعيسى عليه السلام ، بل ان ولادته من غير أب لهى أكبر معجزاته الحسية ، فقد كانت تحد لأهل الطب فى عصره ، ولا زالت حتى اليوم •

غير أن المعجزات الحسية ليس لها تأثير اقناعى ، الا على من رآها وشاهدها بعينه ، أما من سمع بها ولم يرها ، فان نفسه تحدثه بعدم

(١) الشعراء : ٤١ — ٤٨ •   (٢) المائدة : ١١٠ •

تصديقها ، فيزعم أن رواتها غير صادقين فى نقل ما حدث ، بل ان بعض من رآها لم يصدقها ، زاعما أنها سحر ، وليست معجزة تؤيد صدق الرسول ، كما حدث مع عيسى عليه السلام ، اذ قال الذين كفروا منهم «ان هذا الا سحر مبين»[٣] ، وكما حدث مع موسى عليه السلام حين غلب السحرة ، اذ قال فرعون : « **انه لكبيركم الذى علمكم السحر** »[٤] ..

لهذا كانت معجزة محمد ﷺ هى القرآن الكريم ، لأنه للبشر قاطبة فى كل زمان ومكان ، فلا يتسنى للجميع رؤية المعجزة الحسية ، لو كانت هى الدليل على صدقه ، فالقرآن حجة على من رأى محمدا ﷺ ، ومن لم يره ، لأنه لا زال بيننا ، فيستطيع القاصى والدانى أن يقرأه ، ويدرك جوانب الاعجاز فيه ، فهو أبلغ من أى معجزة حسيه ، لأنه لا يرد عليه ما ورد على المعجزة الحسية من أنه سحر ، فهو بيان وقواعد تشريعية ، لو طبقتها المجتمعات لاستقام أمرها ، ولا ينكر ذلك الا مأفون ، وهو لا وزن له فى عالم الرأى .

ولا مجال للتشكيك فى خبره ، كما هو الحال عند نقل المعجزة الحسية لمن لم يرها ، فهو أمامه بعناصره وقواعده ، لا يحتوى على ما يوهم بالشطحات الخيالية ، أو يوحى بالأخيلة البعيدة عن الواقع ، اذ لا يضم بين دفتيه صورة تخالف الواقع ، ولا خبرا يدل على أن محمدا ﷺ قد ظهرت على يديه معجزة حسية ، وما ذاك الا لأن الاسلام ركز على الجوانب العقلية فقط فى اقناع المخالفين ، لعموميتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

وما ورد فى الحديث من نبع الماء من بين أصابعه ، وبكاء الجذع الذى كان يخطب مستندا عليه ، ورد عين قتادة ، وغير ذلك من المعجزات الحسية ، فليست من الأخبار المجمع على صحتها ، ويزيدها ضعفا أنه لم يرد فى القرآن الكريم ما يماثلها ، مما يدل على أن المعجزات الحسية لا تعتبر عنصرا أساسيا فى مجال الدعوة الى الاسلام ، بل يجب الاقتصار على القرآن الكريم فقط ، فهو المعجزة الأولى والأخيرة ، وهو أبلغ حجة يعتمد عليها الداعية المسلم فى عصرنا الحاضر .

---

(٣) المائدة : ١١٠ .   (٤) الشعراء ٤٩ .

١٨ — عصمة الأنبياء وتنزيههم عما لا يليق

ان من الحقائق المسلم بها أن الانسان ، اذا أراد أن يبعث برسول ، أو يكلف شخصا بالقيام بعمل ما ، فانه يحاول أن يختار الأمين الصادق ، حتى يؤدى رسالته على وجهها الأكمل ، بدون تحريف أو تبديل أو تغيير . ولا يوجد انسان على وجه الأرض يسلك غير هذا المسلك ، فى اختيار رسله ، وممثليه ، والا كان قاصر الفكر ، عاجزا عن ادراك المبادىء الأولية فى فهم طبائع الاشياء ، فاذا كان هذا هو الحال مع البشر فى اختيار من يمثلهم — وهم لم يبلغوا درجة الكمال فى الوجود — فما بالك مع الله ، المطلق الارادة ، الكامل فى ذاته وصفاته ، فمن يقع عليه اختياره ، فلا بد أنه يمتاز بصفة الصدق والأمانة ، ويتحلى برداء العفة ، والشرف ، ويمتاز بخلقه الطيب ، وصفاته الحميدة ، وبعده عن مواطن الشيطان ، وأماكن السوء ، فليس للشيطان عليه سبيل ، ولا يجد أعوان السوء عنده طريقا ، فهو محصن ، ضد كل ما من شأنه أن يخل بالشرف ، أو يخدش الكرامة ، أو يحط من الفضيلة ، ويطمس الأمانة ، أو ينتقص من الهيبة ويهز المكانة السامية فى نفوس الناس .

فاذا استعرضنا تاريخ من اصطفاهم الله من عباده ، وأرسلهم ليبلغوا رسالته ، لوجدنا أنهم كانوا أخيار البشر ، قبل الرسالة وبعدها ، سواء من ناحية السلوك ، أو من ناحية التكوين البشرى ، خلقا ، وهيئة ، فلم يكن فيهم من يعانى من علة خلقية ، أو يتصف بصفة تنفر الناس منه ، كذلك كان سلوكهم متميزا عن بنى قومهم ، فلم يشاركوهم فى ارتكاب المعاصى ، ولم يجاروهم فى عاداتهم ، التى تتنافى مع توحيد الله وتوقيره ، ولم يظهر على سلوكهم ما يشين ، أو يعيب ، يقول الله تعالى ، مخاطبا نبيه ﷺ : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (١) ..

ويقول : « **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** »(٢) .. ويبين الله لنا أن الأنبياء جميعا من طبقة مصطفاة ، خالية من الشرور ،

---

(١) القلم : ٤ .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

والآثام ، فيقول : « **ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين • ذرية بعضها من بعض** »[٣] • •

ويقول : « **ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم** »[٤] ••

ويقول : « **يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين** » [٥] • •

ويقول : « **واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار • انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار • وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار • واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل ، وكل من الأخيار** » [٦] • •

فهذه الآيات ، تبين أن الرسل هم خيار خلق الله ، خلقا ، وسلوكا ، وهيئة ، وأنهم مفضلون على من عداهم ، والا اختار الله من يمتاز عليهم •

فاذا كان سلوك المصطفين قبل البعثة متميزا عن بنى قومهم ، فى جميع مجالات الحياة ، لأنهم أصدق الناس قولا ، وأحسنهم خلقا ، وأكثرهم عطاء ، وأوفرهم سخاء ، وأشدهم جرأة ، وأشجعهم فى ميدان القتال والنزال ، وأشدهم صلابة فى التمسك بالحق ، وعدم النزول عنه ، أو الرضا ببديل له ، وأبعدهم عن مواطن الشبه ، وأماكن اللهو والفسوق ، فلم يرتكبوا كبيرة ، ولم يميلوا الى اقتراف صغيرة ، بل كانوا أناسا عملهم يعتبر قدوة ، فكلامهم حكمة ، ورأيهم سديد يجب الأخذ به ، ونصيحتهم مبدأ ينبغى الالتزام به •

اذا كان هذا شأنهم قبل البعثة ، فهم بعد أن اصطفاهم الله ، وكلفهم بتبليغ رسالته ، أحرى أن يكونوا المثل الأعلى فى الفضائل كلها ، والنموذج المحتذى فى كل ما يجب على المرء عمله ، أو اجتنابه ، فعملهم

---

(٣) آل عمران : ٣٣ ، ٣٤ • (٤) البقرة : ٢٤٧ •
(٥) الأعراف : ١٤٤ • (٦) سورة ص : ٤٥ — ٤٨

بعد البعثة ، مؤيد من الله ، وتحت رقابته ، لأنهم كما يبلغون عن الله أوامره بالقول ، فهم يرشدون الناس أيضا الى ما ينبغى عمله بالفعل ، فكل أعمالهم تبليغ من الله لعباده ، ولذلك يقول الله تعالى : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر »** (٧) ..

ويقول : **« قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه »** (٨) ..

ولهذا كانوا معصومين من الخطأ ، عصمهم الله منه ، كى يبلغوا أوامره لعباده دون تغيير ، أو تحريف ، فلا يرتكبون خطيئة ، ولا يقترفون معصية . ولا يميلون الى شر أبدا ، ولا يرضون بشىء يتنافى مع الشرف ، والكرامة ، والفضيلة ، لأنهم أمناء على وحى الله ، فالأمانة شرط التكليف بالتبليغ ، لأن التبليغ لا يكون صحيحا ، الا اذا كان النبى معصوما من الخطأ ، حتى لا يختلط خطؤه بما أمر بتبليغه ، فالأنبيـــاء معصـــومون من الخطــأ ، كى يصل الوحى سليما الى الناس .

وما يقال من أن النبى ﷺ جانبه الصواب فى بعض ما أشار به ، وما اتخذه من اجراءات ، فلم يكن سوى تشريع أراده الله ســبحانه وتعالى ، وبيان ذلك : أنه لما نزل بالمدينة رأى أهلها يأبرون النخل ، أى يلقحونه ، فقال لهم : لم تفعلون ذلك ؟ .. اتركوه فان شاء الله أثمر ، وان لم يشأ لم يثمر ، فترك الناس عملية التلقيح ، بناء على هذه النصيحة ، فلم يثمر النخل فى هذا العام ، فأتوا رسول الله ﷺ يسألونه ، أهو وحى أم رأى ؟ أى هل كان ما أشار به عليهم من وحى الله ، أمره بتبليغه اياهم ، أم هو اجتهاد شخصى ؟ فقال لهم : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » أى أن ما يتعلق بمثل هذه الأمور من زراعة وصناعة وغير ذلك من شئون الحياة ، هى من الأمور التى تركها الله للعقل ، يبدع فيها بقدر ما يستطيع ، ولا يتدخل الدين فيها ، الا بقدر المحافظة على كيان الفرد والأمة ، وعليه فلن يكون هذا الأمر الا لبيان ما ينبغى عمله فى مثل هذه الأشياء ، التى تتعلق بالتقدم والرقى ، فقد أشار الاسلام عن طريق هذه الحادثة ، الى أنـــه أعطى الحرية فيها للفكر ، يبتدع فيها ما شاء خياله ، بشرط ألا يقترف اثماً ، أو يهدد كيان المجتمع الانسانى .

(٧) الأحزاب : ٢١ .   (٨) الممتحنة : ٤ .

ومن هذا يتبين ، أن الله أراد بهذا التصرف من النبى ﷺ تشريعا ، وتقنينا لأسلوب الحياة ، فى مثل هذه المجالات •

والحادثة الأخرى ، التى يستدلون بها ، على أن النبى ﷺ خالف الأولى ، وهى مسألة أسرى بدر ، وقد روى أن رسول الله ﷺ استشار أصحابه ، فيما ينبغى عمله مع هؤلاء الذين وقعوا أسرى فى يد المسلمين ، فى معركة بدر ، فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله •• اضرب أعناقهم •• فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس ان الله قد أمكنكم منهم ، وانما هم اخوانكم بالأمس » فقام عمر فقال : يا رسول الله •• اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد النبى ﷺ فكرر عليهم ما قاله ، فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فقال : يارسول الله •• أرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء •

فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ، ما كان فيه من الغم فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء ، فنزل قول الله تعالى : « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم • لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** » (٩) ••

فلم يكن هذا سوى تشريع لمن يأتى بعده من حكام المسلمين ، اذ يؤخذ منه ، أن على الحاكم أن يستشير أهل الرأى فى مثل هذه الحالات ، فلا يستبد برأيه ولا يتخذ قرارا ، دون الرجوع الى من هم فى موقع المشورة ، ثم عليه أن يتخذ ما يراه صالحا للمسلمين ، ويتمثل هذا فى عصرنا الحاضر فى رأى الأغلبية ، فهو أولى بالاتباع من رأى الفرد ، مهما كان مركزه فى الدولة ، ومن رأى الأقلية ، وان كان العقل يميل اليه ، لأن استطلاع الرأى ، اذا سار فى قنواته الطبيعية ، وبعد عن التهديد ، والتلويح ، والبطش ، والتنكيل ، كانت نتيجته معبرة عن المصلحة العامة ،

---

(٩) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ .

لأنه لا يمكن أن تكون الأكثرية خاضعة لهوى ، او واقعة تحت مؤثرات شيطانية ٠

وخلاصة القول : ان الأنبياء هم صفوة الخلق ، فقد كان سلوكهم قبل البعثة قويما ، وبعد البعثة مطيعا لأوامر الله ، فلم يرتكبوا معصية ، ولم يقترفوا اثما ، ولم يتصرفوا الا طبقا لوحى الله ، وما بدا مخالفا لهـذا ، فهو تشريع للناس ، وبيان لهم بهذا الاسلوب الذى ارتضاه الله لحكمة يعلمها هو ، قد تكون للتعليم ، وقد تكون لبيان أن المنزه تنزيها مطلقا هو الله ، أما الأنبياء فهم تحت رعاية الله وحفظه ، فان فعلوا ما ليس مطلوبا نزل الوحى بتصحيح عملهم ، وقد يكون غير ذلك ، وما يجـب علينا الايمان به : هو أنهم معصومون من الخطأ ، حفظا لوحى الله ، ووقاية لشرعه ، يقول الله تعالى : **« انا نحن نزلنـا الذكر وانـا لـه لحافظون »**[١٠] ٠ ٠

أى أن الله حفظ الوحى من التغيير والتبديل ، حتى وصل الـى عباده ، ٠ ٠ فالملك الذى هو أمين عليه ، لا يعصى الله فيما أمر به فهو ممن قال الله فيهم : **« لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »** [١١] ٠ ٠

ومن نزل عليه الوحى ، وأمر بتبليغه ، ـ وهم الأنبياء والرسل ـ أناس ميزهم الله عن بقية عباده بالخلق الطيب : والصفات الحسنة ، وحفظهم من الوقوع في مدارك الهوى ، ومسالك الشيطان ، وعصمهم من الخطأ ، فأدوا أمانته للناس كاملة ، وعلموهم وحيه بصدق وأمانة ، فرضى الله عنهم ، ورضوا عنه ٠ والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فهو بكل شىء عليم ٠

* * *

(١٠) الحجر : ٩ ٠

(١١) التحريم : ٦

١٩ — موقف كل رسول مما سبقه من الرسالات

خلق الله الانسان فى أحسن تقويم ، فميزه على سائر المخلوقات ، بالقدرة على التفكير ، أى منحه عقلا يفكر به فيما حوله • ومن شأن العقل ، الذى يحاول فهم الأشياء المحيطة به ، واخضاعها له لينتفع بها ، ويسخرها لنفسه ، أن تقوده هذه الديناميكية الفكرية ، فيما يحيط به ، الى الوصول الى مصدر الخلق ، وتهديه أبحاثه الى الاعتراف بأن هناك خالقا مسيطرا على جميع هذه المخلوقات ، ولكن العقل بما عرف عنه من عجز ، وتقصير ، لا يصل فى كل الحالات الى هذه النتيجة ، ومن هنا أرسل الله ، من يهديه الى الطريق المستقيم ، فاختار أناسا من عباده ، ليحملوا وحيه الى هذا الانسان ، الذى عجزت قدرته الفكرية عن الوصول الى الحق ، فكانت مهمة الرسل بيان التوحيد ، وتبليغ الناس قواعد الدين وأحكامه وشرائع الله ووصاياه ، كى يسيروا على طريق يهديهم الى السعادة فى الدنيا ، والفلاح فى الآخرة •

ولما كانت حياة كل رسول محدودة بزمن ، فقد اقتضت الظروف أن يحمل أمانة كل رسول أناس ، تفرغوا لهذا العمل ، فكانت مهمتهم تبليغ الأجيال اللاحقة ، ما أوحى الى الرسول ، وتعليمهم اياه وشرحهم لهم ، وبيان ما غمض عليهم منه ، وتأويل ما تدعو الظروف الى تأويله ، فهؤلاء هم الذين اصطلح على تسميتهم برجال الدين ، أى هم الذين وهبوا حياتهم لخدمة الرسالة وصيانتها من الضياع ، أو التبديل ، والتحريف •

غير أن هذه الطائفة لم تسلم من عوائد الزمن ، وتقلب الدهور ، ولم تنج من مؤامرات المنحرفين ، وضلالات المخادعين ، فاندس فى صفوفهم أناس ، لبسوا مسوح الدين ، وارتدوا رداء الكهانة ، ولكنهم كانوا أبعد الناس عن شريعة الله ، بل كانوا أشدهم فتكا بها ، وأكثرهم ضررا بتعاليمها ، وأبعدهم عن روح التشريع ومضمون الرسالة ، فطفقوا يبدلون ثوبها ، ويشوهون وجهها ، ويمحون ملامحها الأصيلة ، تارة بالتبديل والتحريف ، وأخرى بالتأويل البعيد عن منطوقها ومفهومها ،

وساعدهم على ذلك بعد الزمن ، الذى نزل فيه الوحى على الرسول ، وتآمر أصحاب السوء ضد الدين ، وتكالب العامة على الشهوات والملذات ، وازدياد عدد من يعرضون عن الدين ويتنكرون له ، كل هذا جعل الديــن فى المجتمع غريبا ، وصير المتمسكين به ، يتوارون عن أعين الناس ، لأنهم شعروا بالغربة ، فاستولى عليهم اليأس ، وظنوا أن العـــالم أصـــبح قاب قوسين أو أدنى من الهلاك ، وأن الأمل فى اصلاحه بات بعيدا جدا ، اللهم الا أن يرسل الله رسولا ليجدد رسالته ، ويمحو ما ران عليها ، من ضلالات المنحرفين من رجال الدين ، والمتآمرين على الأخلاق من الماديين ، وأصحاب المصالح الدنيوية •

فاذا وصل الأمر الى هذا الحد ، أرسل الله رسولا ، ليصحح للناس ما حرف ، وليوضح لهم ما غمض عليهم تفسيره ، وليبين لهم الصواب فيما اختلفوا فيه ، فكانت رسالة كل رسول ، هى تصحيح الأخطاء التى ظهرت فى المجتمع ، عقب رحيل الرسول الذى سبقه ، ولهذا كان موقف كل رسول مما قبله ، هو اعادة تبليغ الناس بالوحى ، الذى نزل على من سـبقه ، اذ أن كل الرســـالات واحـــدة • يقـــول الله تعـــالى : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الـــى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا »** [1] ••

ويقول : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينـــا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيــه »**[2] ••

فما أوحى الى الرسل واحد •• وما شرع لأقوامهم متطابق •

ومن هنا كان موقف كل رسول مما قبله ، هو تأكيد رسالته ، وتجديد ما نزل عليه ، وتصحيح الأخطاء التى وقع فيها الأتباع ، بعد رحيل الرسول الذى سبقه فى هذه الحياة ، ولهذا أمر كل رسول أتباعه بأن

---

(١) النساء : ١٦٣ • (٢) الشورى : ١٣ •

يؤمنوا برسالة من قبله ، لأنها رسالته ، ومن لم يؤمن بها ، لا يصبح فى عداد المؤمنين به ، فمن كفر بأحد الرسل السابقين ، يكون كافرا ، لأن الايمان بالرسل السابقين،ركن أساسى،من أركان الايمان،يقول الله تعالى.
« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » (٣) • •

فمن كان على دين رسول ، وأدركه آخر ، فلا بد أن يؤمن به ، كذلك من آمن برسول ، فيلزمه الايمان بكل الرسل الذين سبقوه ، فاليهودى الذى أدرك المسيح عليه السلام ، يلزمه الايمان به ، فان لم يؤمن فهو كافر ، والنصرانى الذى أدرك محمدا ﷺ ، مكلف بالايمان به ، فاذا لم يؤمن به ، فهو كافر ، كذلك على النصارى ، الذين وجدوا قبل مبعث محمد ﷺ ، الايمان بكل نبى سبقهم ، فان أنكر واحد منهم رسولا ، فهو كافر •

كذلك المسلم مكلف بالايمان بكل الرسل السابقين ، الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، فمن أنكر واحدا منهم ، فليس مسلما •

يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »** (٤) •

فاذا أنكر الرسول ما بقى فى أيدى الناس من بقايا الوحى ، الذى نزل على الرسل السابقين ، فليس هذا انكارا لمن سبقه ، وانما هو بيان للناس ، أن ما يتمسك به هؤلاء ، لم يأت به رسول ، وانما هو تحريف للوحى ، الذى أنزله الله على رسله ، وصورة ممسوخة للرسالة ، التى تركها الرسل السابقون • ومهمته تصحيح ما حرف ، وتقويم ما اعوج ، وبيان ما اختلف فيه الناس ، بعد رحيل رسلهم عنهم ، واخبارهم بأصل الرسالة ، كما نزلت على رسله ، وبوحى الله ، كما بلغه الله لهم ، ليعلموا الناس ، ويرشدوهم ، الى الطريق المستقيم ، يقول الله تعالى :

---

(٣) البقرة : ٢٨٥ •   (٤) النساء : ١٣٦ •

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفـــون من الكتاب ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ٠ يهدى بـــه الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (٥) ٠ ٠

ويقول : **« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصـــدقا لمـــا بين يديه من الكتاب »**(٦) ٠ ٠

فالقرآن الكريم مصدق لما سبقه من كتب ، أى يعترف بأنها كانت وحياً سماوياً من الله ، وشريعه يجب اتباعها ، غير أن الأجيال ،التى أعقبت رحيل الرسل ، بدلوها وحرفوها ، فأرسل الله رسلا لتصحيحها ، فلو فرض أن الرسالات السابقة لم تحرف، لوجدنا تطابقا بين ما فى أيدى أتباع الرسل السابقين ، وبين القرآن الكريم ، ولربما — وهذا مجرد فرض — لم ينزل ، لأنه لم يكن هناك داع لنزوله ، ولهذا كانت رسالة محمد ﷺ آخر الرسالات ، لأن الله حفظها من التحريف والتبـــديل ، فقـــال تعـــالى : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »**(٧) ٠٠

فلم تعد هناك حاجة الى ارسال رسول بعده ، لأن ما يريد الله تبليغه لنا لازال بين أيدينا،كما أنزل على محمد ﷺ،لم يدخله تحريف ولم يصبه تغيير ٠

ومن هذا كله يتبين : أن كل رسول معترف برسالة من سبقه ، ومؤمن بما أنزل عليه من تعاليم وأحكام ، وأن الايمان بمن سبقه ، من رسل شرط أساسى فى تعاليمه التى ينادى بها ، ويطلب من الناس الاعتراف بها ، وتطبيقها فى حياتهم ، وما يبدو من المخالفة ، بين ما نزل عليه وبين ما فى أيدى الناس ، من تعاليم دينية ، فمرجعه أن الناس قد حرفوا رسالة من سبقه وغيروها ، ولهذا ، فهو يدعوهم الى الايمان بما نزل عليه ، لأنه تصحيح لما فى أيديهم من أحكام دينية ، وشرائع يدعون أنها من الله ،

---

(٥) المائدة : ١٥ ، ١٦ ٠ (٦) المائدة : ٤٨ ٠
(٧) الحجر : ٩

ولست سوى تحريف لرسالات السماء ، جاء الاخبار عنه ، فى قولـه تعالى : **« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعناً فى الدين »**[٨] ..

وقوله : **«فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا »**[٩] ..

وقوله : **« وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »**[١٠] ..

* * *

---

(٨) النساء : ٤٦ .

(٩) البقرة : ٧٩ .

(١٠) آل عمران : ٧٨ .

٢٠ — الكتب المقدسة وكيف وصلت الينا

أرسل الله رسله الى الناس ، ليبلغوهم رسالات ربهم ، ويعلموهم شرائعه ، وأحكامه ، وليبينوا لهم طريق الهـدى ، ويأمروهم باتباعه ، وطرق الضلال ، ويطلبون منهم اجتنابه ، وقد قص القرآن الكريم كثيرا من أخبار تلك الرسل مع قومهم ، ولكنه لم يخبرنا بكل ما يتعلق برسالات الله الى الناس • يقول الله تعالى : **« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك »**[1] •

ومن مقتضيات كل رسول أن ينزل عليه الوحى ، الذى يتضمن كل التعاليم المكلف بتبليغها لبنى قومه ، ولكى لا تضيع بعد رحيله عن هذه الحياة ، فقد دون كل رسول ما نزل عليه من الوحى ، ليكون المرجع لمن يأتى بعده من أجيال ، وليصبح المصدر الرئيسى لتشريعاتهم وقوانينهم ، وأطلق عليه « الكتاب المقدس » ولم يخبرنا القرآن الكريم الا عن كتب أربعة من الكتب السابقة وهى : صحف ابراهيم التى جاء ذكرها فـى قوله تعـالى : **« ان هـذا لفى الصـحف الأولى •• صحف ابراهيـم وموسى »**[2] ••

وتوراة موسى كما أخبر عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : **« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور »**[3] ••

وزبور داوود ، حيث جـاء فى كتابه العزيز : **« وآتينا داوود زبـورا »**[4] ••

وانجيل عيسى الذى تحدث عنه القرآن الكريم ، فقال : **« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لمـا بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور »**[5] ••

وآخر ما نزل من وحى الله لعباده هو القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : **« ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين**

---

(١) غافر : ٧٨
(٢) الأعلى : ١٨ ، ١٩
(٣) المـائدة : ٤٤
(٤) النسـاء : ١٦٣
(٥) المـائدة : ٤٦

يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا • وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما »[٦] •

غير أن أصول الكتب المقدسة ، التى نزلت قبل القرآن الكريم قد فقدت ، فتناقل الناس تعاليمها شفاها ، أى أن روايتها للأجيال اللاحقة كانت عن طريق السماع ، وهو أمر فتح الباب على مصراعيه ، لدخول أفكار فيها ، لا تمت الى الوحى بصلة ، واختلاط تعاليم غريبة عن رسالات السماء بوحى الله ، واستمرت رواية الصحيح والدخيل ، تنتقل من جيل الى جيل ، حتى عصر متأخر جدا من عصر نزولها على الرسل ، ثم دونت بما علق بها من تحريفات وتغييرات • فلو ألقينا نظرة على ما بين أيدينا اليوم ، من كتب مقدسة ، لوجدنا أنها تنحصر فى اثنين وهما : العهد القديم والعهد الجديد •

ويضم العهد القديم كتب موسى الخمسة : وهى : التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية ، وهى معروفة باسم التوراة • وقد أضيفت اليها أسفار أخرى ، حتى بلغ جميع عدد أسفار العهد القديم ٣٩ سفرا ، عدا بعض الأسفار التى اختلف فى نسبتها الى هذا الكتاب المقدس ، وقد كتب كثير من علماء الأديان فى أسانيد العهد القديم ، فذكروا اختلاف النصوص ، وتضاربها ، وضياع النسخ الأصلية •

ولما كان وقت هذا الحديث يضيق عن شرح هذه المسألة المعقدة ، فسوف نكتفى بما قاله « أدموند جاكوب » اذ يشير فى أبحاثه الى أنه فى بداية تدوين هذه الأسفار ، لم يكن هناك نص واحد فقط • بل كان هناك تعدد فى النصوص ، ففى القرن الثالث قبل الميلاد كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبرى للتوراة ، ثم ظهر اتجاه فى القرن الأول قبل الميلاد ، الى تدوين نص واحد ، ولكن تدوين نص الكتاب المقدس ، لم يتم الا فى القرن الأول بعد الميلاد • ثم يضيف قائلا : ان أقدم نص عبرى موجود الآن يرجع عهد تدوينه الى القرن التاسع بعد الميلاد •

---

(٦) الأسراء : ٩ ، ١٠ •

وهذا يدل على أن أسانيد ما جاء فى العهد القديم غير متواترة ، فلا تعتبر دليلا قاطعا على أنها وحى من الله سبحانه وتعالى ، كذلك الحال أيضا بالنسبة للانجيل ، اذ لم يصلنا شىء مما أنزله الله على عيسى عليه السلام ، وانما الموجود بين أيدينا اليوم ، هو تعبير عن وجهات نظرأولئك الذين تصدوا لكتابة الأحداث التى باشرها عيسى ، وقد تم تدوينها فى عصر متأخر عن حياة عيسى عليه السلام • وقد عبر « موريس بوكاى » عن هذا فقال : ان الأناجيل التى أصبحت رسمية فيما بعد ، لم تعرف الا فى عصر متأخر ، على الرغم من أن تحريرها قد تم فى بداية القرن الثانى ، وطبقا للترجمة المسكونية ، فقد بدأ ذكر الروايات التى جاءت فى هذه الأناجيل فى نحو منتصف القرن الثانى ، ولكن يكاد يكون من العسير معرفة ما اذا كانت هذه الاستشهادات قد تمت بعد الرجوع الى النصوص المكتوبة ، أو أنهم — أى الكتاب — قد اكتفوا بذكر أجزاء من التراث الشفهى ، اعتمادا على الذاكرة •

أضف الى هذا ، أن كثيرا من الكتاب كتبوا أناجيل ، بلغ عددها أكثر من مائة ، ولكن الكنيسة لم تعترف الا بأربعة فقط ، وهم : متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وقد ذكر النقاد أن لوقا ومرقس لم يكونا من تلاميذ المسيح عليه السلام ، كما شكوا فى نسبة انجيلى متى ويوحنا اليهما ، ومما قاله النقاد بعد بحث نصوص الأناجيل الموجودة بين أيدينا الآن أن دراستهم قادتهم الى أنهم لم يعودوا متأكدين على الاطلاق من أنهم يقرأون كلمات السيد المسيح فى هذه الأناجيل ، وأن من الخطأ الاعتقاد ، بأن الاناجيل قد شكلت — بمجرد تدوينها — الكتب المقدسة الاساسية للمسيحيين ، وأنه كان يعتمد عليها فى بيان رسالة المسيح اعتمادا أساسيا ، لأن السلطة لم تكن لهذه النصوص فى ذلك الوقت ، بل كانت للتراث الشفهى ، الذى كان ينقل أقوال المسيح وتعاليم الحواريين ، ولم تأخذ الأناجيل الصفة الرسمية فى الاعتماد عليها الا بعد عام ١٧٠ م •

هذا هو حال الانجيل ، فلم يختلف عن حال التوراة فى صحة

الأسانيد وتواترها • كذلك لم نسمع عن وجود نص موجود لصحف ابراهيم ، ولم تحدثنا الروايات عن زبور داوود ، اللهم الا ما ورد فى أسفار العهد القديم ، تحت اسم مزامير داوود • وصحة نسبتها اليه لا تختلف عن صحة نسبة التوراة الى موسى عليه السلام ، وعليه •• فليس هناك كتاب مقدس من الكتب التى نزلت قبل الاسلام ، يعتمد عليه ، لأن رواياتها مشكوك فيها ، فلم يبق صحيحا غير القرآن الكريم ، فروايته تختلف عن رواية كل الكتب السابقة عليه ، اذ ثبت أن الوحى كان يكتب بمجرد نزوله على النبى ﷺ ، فكان يكتبه من يستطيع الكتابة من الصحابة ، أو من اختاره رسول الله ﷺ منهم لكتابته ، نذكر منهم على سبيل المثال : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، والزبير ، ومعاوية ابن أبى سفيان ، وحنظلة بين انربيع الأسدى ، وهم جميعا من المهاجرين ، كانوا يقومون بكتابة ما ينزل من القرآن الكريم ، اما وقت نزوله فـــى حضرتهم باملاء رسول الله ﷺ ، واما بعد ذلك باملاء رسول الله من حفظه ، اذا كان نزوله فى غير حضرتهم ، وقد انضم الى هؤلاء الكتبة المهاجرين ، كتبة آخرون من الأنصار بعد هجرته ﷺ الى المدينـــة ، فشاركوهم فى كتابة ما كان ينزل عليه ﷺ من القرآن فى المدينة ، نذكر منهم : أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وآخرين ممن بلغ بهم عدد كتبته ﷺ على أكبر الروايات احصاء : ٤٣ كاتبا •

كذلك تميزت عقلية العرب بحفظ النصوص ، اذ كانت مدربة بحكم ظروفها على ذلك ، لأنهم كانوا يحفظون الشعر ، ويتناقلونه شفاها ، فساعدهم ذلك على حفظ نصوص القرآن الكريم ، ونتيجة ذلك أن رسول الله ﷺ حين لحق بالرفيق الأعلى كان القرآن جميعه محفوظا فى الصدور بأحرفه ، ومدونا جميعه على الوضع الذى نزل به على رسول الله ﷺ ، دون زيادة أو نقص ، أو دون تغيير أو تبديل ، أو تحريف •

وبعد انتقال الرسول ﷺ الى الرفيق الأعلى،هيأ الله للقرآن الكريم وسيلة حفظه الى الأبد ، فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه ، كلف زيد بن ثابت بجمع القرآن الكريم ، فجمعه من صدور الرجال ، ومما كتب

فيه ، ثم وضعت النسخة الكاملة عند أبى بكر ، حتى توفاه الله ، ثم كانت عند عمر مدة حياته ، ثم كانت عند حفصة رضى الله عنها ، ويدل هذا العمل، على العناية البالغة التى ظفر بها جمع القرآن الكريم فى عهد أبى بكر ، فقد كان زيد بن ثابت ذا مواهب وخصائص لم تجتمع فى غيره ، اذ أنه كان من كتاب الوحى ، ومن حفاظ القرآن الكريم ، وكان معروفا برجاحة عقله ، وأمانته ، وشدة ورعه ، وتفوقه فى الكتابة ، وكان مساعدوه فى هذا العمل من خيرة الصحابة ، علما به ، وحفظا له ، ومن أشدهم تقوى ، وورعا وصـــلاحا .

ومن هذا يتبين : أن الكتاب المقدس الوحيـــد الـــذى سلم من التغيير والتبديل ، **هو** القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : **((انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون))**[7] ..

فهو المرجع الصحيح لوحى الله ورسالته ، فينبغى على كل انسان أن يرجع اليه ، مستلهما طريق الهدى ، ومستخرجا القوانين والشرائع ، التى يتخذها المجتمع دستورا له ، يحميه من تقلبات الدهر ، وعواصف الأفكار البشرية الضالة .

***

---

(٧) الحجر : ٩ .

٢١ — هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من كتب مقدسة

بينا فى حديث سابق ، أن أصول الكتب السماوية التى نزلت قبل القرآن الكريم قد فقدت ، وما يوجد الآن بيننا لم يدون الا فى عصور متأخرة عن الأزمان التى نزلت فيها على الرسل عليهم السلام ، ولهذا فقد ضمت فى نصوصها أفكار كاتبيها ، والتصورات الدينية التى كانت فى عصور تدوينها ، وقد اختلطت هذه الأفكار بالوحى ، بحيث أصبح من المتعذر على المفكرين الدينيين ، تمييز الوحى فيها من الدخيل عليه ، بل يكاد يكون من المستحيل ، الجزم بأن هذا النص وحى ، وذاك فكر انسانى لحق بالوحى على امتداد العصور .

وقد اهتم كثير من علماء الأديان ، والباحثين فى علوم اللاهوت ، بدراسة الكتب المقدسة السابقة على القرآن الكريم ، من الناحية التاريخية ، والمنهجية ، وتوصلوا فى أبحاثهم الى أن هذه الكتب ليست وحيا كلها ، لأنها تضمنت معلومات تاريخية غير صحيحة ، واشتملت على أخلاقيات تتنافى مع روح الوحى الصحيح ، ومن المستبعد أن يخبر النبى بشىء مخالف للواقع ، لأنه يتلقى من الله ، وهو بكل شىء عليم ، كما أنه من المرفوض عقلا ، أن يبلغ الناس أحكاما لا تتفق مع روح الدين ، أو يرتكب أعمالا تتعارض مع المبادىء الدينية .

ولهذا أخبر القرآن الكريم ، بأن هذه الكتب قد فقدت حجيتها ، لأنه اختلط فيها الحق بالباطل ، فيقول الله تعالى : « **يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** »[١] .

ويقول : « **وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** » [٢] . .

ويقول : « **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه** » [٣] . .

---

(١) آل عمران : ٧١ (٢) آل عمران : ٧٨
(٣) المـــائدة : ١٣

غير أن بعض الناس يزعم أن القرآن الكريم قد شهد بصحة التوراة والانجيل ، ويستدلون على هذا الزعم بقوله تعالى : **« كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين »**[٤] ..

وقوله : **« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله »**[٥] ..

وقوله : **« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه »**[٦] ..

فيقولون : ان هذه الآيات تدل على أن ما فى التوراة والانجيل صادق ، ويجب اتباعه .

وغاب عن هؤلاء اخبار القرآن الكريم فى أكثر من آية ، أن التوراة والانجيل قد دخلهما تحريف وتبديل ، ولبيان ما قد يبدو بين هذه الآيات التى تدعو الى تنفيذ ما فى التوراة والانجيل من أحكام ، وبين الآيات التى تخبر بأنهما محرفين من غموض نقول :

لا شك أنه قد ثبت بالدليل القاطع ، أن التحريف قد أصاب هذين الكتابين المقدسين ، كما أخبر القرآن بذلك ، ولكن ليس معنى هذا أن كل ما فيهما محرف من الألف الى الياء ، فهذا لا يقول به قائل ، وانما اختلط المحرف بالصحيح ، بحيث أصبح من المتعسر التمييز بينهما ، فاذا أخبر القرآن الكريم ، بأنهما محرفين فهو صادق ، لما نرى من أدلة واضحة ، وقاطعة على هذا التحريف ، واذا أشار فى بعض آياته الى أن فيهما هدى ونور ، أو أنه يجب على اليهود والنصارى الالتزام بما فيهما من أحكام ، وتطبيق ما فيهما من قوانين شرعها الله ، فانما يقصد القرآن بذلك ، تلك الفقرات التى لم يعتريها التحريف ، أو يلحقها تغيير أو تبديل .

ولما كان التمييز بين كلا النوعين عسيرا — أى أن معرفة المحرف من غير المحرف ليس فى طاقة البشر ، مهما بلغت قدرته فى مجال العلوم الدينية — فقد أصبح من اللازم ، الرجوع فى ذلك الى مصدر لا يرقى

---

(٤) آل عمران : ٩٣

(٥) المائدة : ٤٣

(٦) المائدة : ٤٧ .

اليه شك ، ويكون له من المكانة ، ما يجعله قادرا على القيام بهذا العمل دون أدنى شك ، ولا يتحقق ذلك الا فى القرآن الكريم ، فهو وحى الله الذى سلم من التحريف ، والتغيير •

وعليه فما وافق القرآن الكريم من فقرات التوراة ، والانجيل ، فهــو صــحيح ، وما ظهر أنه مخـــالف لما فى القرآن الكريم ، فهو الذى دخله التحريف ، أى أن القرآن الكريم يعتبر بمثابة الأصل الذى يراجع عليه ما فى التوارة والانجيل ، لنتبين الصحيح ، والمحرف فيهما •

وهذا هو مفهوم هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من كتب مقدسة ، ذلك أن رسالة الله واحدة فى كل العصور والأزمان •

فاذا جاء القرآن بشىء ، ولم يوجد ما يقابله فى التوراة والانجيل ، فمعنى ذلك أنه حذف ، أو أهمل وترك ، فلم يذكر فى نصوصهما •

واذا ثبت فى القرآن شىء يخالف ما فى التوراة والانجيل ، فمعنى ذلك أن ما فيهما قد حرف وبدل ، وهذا هو ما أشار اليه القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : **« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لمـا بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق »**(٧) •

أى وأنزلنا اليك القرآن الكريم ، مصدقا لمـا ســبقه من كتب مقدسة ، وهى التوراة والانجيل ، ومهيمنا عليهما ، أى أنه صاحـــب هيمنة ورقابة وحجية ، بحيث يكون ما فيه هو الفيصل ، اذا كان ما فى التوراة والانجيل يخالفه •

ولهذا فاحكم يا محمد بين أهل الكتاب بما أنزل عليك ، أى بالقرآن ، ولا تتبع أهواء أهل الكتاب ، وهو ما ينسبونه الى التوراة والانجيل ، فهو يختلف عما نزل به الوحى فى القرآن حقا وصدقا ، وعليه فينبغى أن يكون القرآن وحده ، هو الركيزة الأولى فى الرقابة والهيمنة على هــذين الكتابين ، ويكون هو وحده المرجع فى الحكم ، لأن ما يقرره هو وحى

---

(٧) المـــائدة : ٤٨

الله ، الذى لم يلحقه تغيير ، ولا تبديل ، فلم يختلط فيه وحى السماء بأفكار الأرض •

فهيمنة القرآن الكريم على الكتب المقدسة ، ترجع الى أنه المصدر الوحيد للوحى الذى سلم من التحريف ، أو التغيير والتبديل ، فكان بذلك المرجع لكل ما فى أيدى رجال الدين من اليهود ، والنصارى • يصحح ما حرف ، ويفصل فيما بينهم من خلاف ، اذ هو يمثل رسالة الله الصادقة ، فمنزلته من الكتب السابقة هى منزلة الرقيب ، وهى منزلة المرجع الذى يصحح ما فى أيدى الناس من كتب سماوية قيل انها من عند الله ، فهو الفيصل فى جميع المسائل التى اختلف أهل الكتاب فيها • ولذلك يقول الله تعالى : **« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين • يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم »**(٨) •

وخلاصة القول : ان الكتب السماوية السابقة على القرآن الكريم ، قد أصابها التحريف والتبديل ، وأن رجال الدين اختلفوا فيما بينهم حول النصوص المقدسة ، وما تدل عليه من أحكام وتشريعات ، ولم يكن هناك مخرج من هذا النزاع الا أن يرسل الله رسولا ، ويوحى اليه وحيا ، يبين للناس ما حرف ، ويوضح لهم الحكم الصحيح فيما اختلفوا فيه ، فكان القرآن الكريم ، وأصبح بذلك مهيمنا على ما سبقه من كتب مقدسة أى مصححا لها ومبينا للناس ما حرف منها وما بدل،فصارت له اليد العليا على ما عداه من كتب مقدسة ، يهيمن عليها بالتصحيح والبيان ، ويهدى البشر الى ما فيه صلاحهم ، وفلاحهم • يقول الله تعالى : **« ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون • وانه لهدى ورحمة للمؤمنين • ان ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم »**(٩) •

***

---

(٨) المائدة : ١٥ ، ١٦ (٩) النمل : ٧٦ — ٧٨ •

٢٢ — موقف الاسلام من العقائد السابقة وأهلها

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ، أن يبعث الى كل أمة رسولا ، يبلغهم وحيه ، فيأمرهم بطاعته ، ويحذرهم من معصيته ، فكانت رسالة كل رسول خاصة الى بنى قومه ، يقول الله تعالى :

« والى عاد أخاهم هودا »(١) ..

« والى ثمود أخاهم صالحا »(٢) ..

« والى مدين أخاهم شعيبا »(٣) ..

ويقول : **« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله »**(٤) ..

ويقول : **« واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم »**(٥) ..

حتى جاء خاتم الرسل محمد ﷺ ، فكانت رسالته عامة للناس جميعا ، يقول الله تعالى : **« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا »**(٦) ..

ويقول رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى » وذكر من هذه الخمسة : أن كل رسول كان يبعث الى قومه خاصة ، وبعث هو الى الناس كافة .

ولهذا وجه الله النداء فى القرآن الكريم ، الى الناس جميعا فقال : **« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »**(٧) ..

وقال : **« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم ، وان تكفروا فان لله ما فى السموات والأرض ، وكان الله عليما حكيما »**(٨) ..

---

(١) الأعراف : ٦٥ — (٢) الأعراف : ٧٣
(٣) الأعراف : ٨٥ — (٤) ابراهيم : ٥
(٥) الصف : ٦ — (٦) سبأ : ٢٨
(٧) الأعراف : ١٥٨ — (٨) النساء : ١٧٠

فكل انسان بلغته الدعوة ، وجب عليه الايمان ، والا أصبح من الكـافرين •

وأول ما يجب الايمان به ، وحدانية الله سبحانه وتعالى ، فهى أساس كل الرسالات ، اذ دعا كل نبى قومه الى الايمان بالله الواحد لا شريك له • يقول الله تعالى : **« أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابرأهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون »**[٩] ••

ويقول : **« وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون »**[١٠] ••

فالتوحيد هو أصل الايمان ، فمن أشرك مع الله الها آخر ، أو أنكر وجود الله فهو مشرك أو ملحد •

والركن الثانى من أركان الاسلام : الاعتراف بأن محمدا ﷺ رسول الله ، ويتضمن هذا الاعتراف ، الايمان بأن القرآن الكريم وحى الله ، يجب تنفيذ ما جاء به من أوامر ، والابتعاد عما نهى عنه ، وقد عرف هذين الركنين بالشهادتين ، اذ ذكر فى الحديث المروى عن رسول الله ﷺ : أن أركان الاسلام خمسة ، وبدأ بهذين الركنين ، معبرا عنهما ، بقوله : « شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله » ، فهما وان ذكرا فى الحديث على أنهما ركن واحد ، الا أنه ينبغى أن نعتبرهما هنا ركنين ، لأن من الناس من يعترف بأن الله واحد ، وينكر رسالة محمد ﷺ ، فيقف الاسـلام منه موقفا يختلف عن موقفه مع أولئك الذين ينكرون الاثنين ، فـلا يعترفون بالله — أو يشركون مع الله آلهة أخـرى — ولا يؤمنون بأن محمدا رسول الله •

فالناس بالنسبة للاسلام ثلاثة أصناف :

صنف ينكرون وجود الله ، وهؤلاء يطلق عليهم : « الملحدون » ••

والصنف الثانى : يشرك مع الله الها آخر أو آلهة أخرى ويعرفون : بـ « المشركين » •

---

(٩) البقرة : ١٣٣   (١٠) التوبة : ٣١

وصنف ثالث : يؤمن بوحدانية الله ، لأنهم يعترفون برسالة أحد الأنبياء السابقين على بعثة محمد ﷺ ، ولكنهم لا يعترفون برسالة محمد ﷺ ، وهؤلاء يطلق عليهم : « أهل الكتاب » والمراد ، من يعترف بالتوراة أو الانجيل ، أى اليهود والنصارى .

ولما كانت رسالة محمد ﷺ عامة لجميع البشر ، فقد بلغ دعوته لجميع الناس ، على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم ، فطلب من الملحد أن يكف عن الحاده ، ويعترف بوجود الله ، وأمر المشرك أن يخلص العبادة لله وحده ، فأن أبيا فلا مكان لهما فى المجتمع الاسلامى ، فعليهم أن يرحلوا عنه ، لأن الاسلام لا يقبل أن يكون فى دولته من ينكر وجود الله ، ويدعو الناس الى هذا الاتجاه ، كما نصح أهل الكتاب بالدخول فى الاسلام ، لأنه وحى الله ، الذى نزل على أنبيائه جميعا ، يقول الله تعالى : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب »**(١١) .

ويقول : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »**(١٢) ..

وكانت دعوته للجميع سلمية ، فلم يكره أحدا على تغيير عقيدته ، ولم يجبر أحدا بطريق مباشر ، أو غير مباشر ، على الدخول فى الاسلام ، بل أسمعهم وحى الله ، وتركهم يقررون بمحض اختيارهم ما ترتضيه نفوسهم ، حتى تتحق العدالة فى الثواب والعقاب ، فالرضا بالاسلام دينا ، ينبغى أن ينبع من ذات الشخص نفسه ، بعد أن تظهر أمامه حقائق الأشياء واضحة .

يقول الله تعالى **« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »**(١٣) ..

ويقول : **« من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها »**(١٤) ..

---

(١١) النساء : ١٦٣ — (١٢) الشورى : ١٣
(١٣) البقرة : ٢٥٦ — (١٤) الاسراء : ١٥

وعليه فالاسلام لا يجبر أحدا على تغيير دينه ، ولا يستعمل السلاح لحمل النـــاس على اعتناق مبادئه ، بل يتركهم أحرارا فى عقائدهم • يقول تعالى : **« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شــيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »**[١٥] ••

غير أنه لا يسمح لأحد ، بأن يصد الناس عن ذكر الله ، أو يمنع أحدا من سماع كلمة الله ، فان منع أحد دعاة الاسلام من تأدية مهمتهم ، فى مجال التبليغ ، فعلى المسلمين أن يتصدوا له بكل وسيلة ممكنة ، ليؤمنوا وصول كلمة الله ، الى الناس جميعا ، فان اقتضى الأمر القتال ، فلا يكون لحمل أحد على الدخول فى الاسلام ، وانما لمنع من يتصدى للدعاة ، ويمنعهم من تبليغ كلمة الله للناس •

وان جرد أحد أصحاب هذه العقائد السلاح ضد المسلمين ، فعليهم مقاومته ورد عدوانه عنهم ، ولم يخرج الاسلام فى اباحة القتال فى مثل هـــذه الأحوال عن الطبيعة الانســـانية ، ذلك أن الانســـان يمتاز عن الحيوان بالقدرة على التفكير ، ومن خصائص هذا التفكير ، ميل الانسان الى الحرية فى التعبير عن آرائه ، وفى اعتناق ما يراه موافقا لطبيعته ، فاذا منع من هذا بقوة السلاح ، فان من الطبيعى أن يدافع عن رأيه ، بالوسائل التى يقابله بها من يريد كبت حريته ، فاذا أراد أحـــد أن يفتن آخر عن عقيدته ، مستعملا الدعاية والمنطق دون اللجوء على حمله على ترك عقيـــدته بالقوة ، لم يكن للمؤمن أن يدافع عن عقيـــدته ، الا بالحجة ، والمنطق •

أما اذا أجبر بقوة السلاح ، لم يكن له من سبيل ، الا حمل السلاح أيضا ، للدفاع عن عقيدته ، لأنهـــا أثمن شىء عند من يفهمون معنـــى الانسانية ، فهى أثمن من المـــال والجاه ، بل أغلى من الحياة نفسها ، وقد أدرك المسلمون الأولون هذا المعنى ، فدفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن عقيدتهم ، وتلك سنة الله فى خلقه •

---

(١٥) آل عمران : ٦٤

يقول الله تعالى : « **ولولا دفـــع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** »[١٦] ..

ويقول : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا** »[١٧] ..

فان سلك أصحاب العقائد الأخرى أسلوبا حضاريا تجاه الاسلام . فتركوا دعاته يعرضون الدعوة ، واقتصرت معارضتهم للاسلام على المجادلة بالحسنى ، تركهم الاســلام يعتنقون ما يشاءون ، ولكنـــه لا يسمح لملحد أو مشرك أن يقيم فى المجتمع الاسلامى ، ويظهر الحاده علانية ، فان كف عن هذا ، واكتفى بالجدل العلمى ، ترك وشأنه ولكنــه لا يتولى مناصب لها أثر فى مجال التوجيه الثقافى فى المجتمع ، وعليه أن يلتزم — هو وغيره ممن لا يعتنقون الاسلام دينا — أن يلتزموا بكل ما تقرره الدولة الاسلامية من أحكام ، وما تتخذه من اجراءات ، وأهل الكتاب أحرار فيما يعتقدون ، وفيما يمارسون من طقوس وعبادات ، ولا يتدخل الاسلام فى تصرفاتهم ، الا بمقدار ما يحفظ طابع المجتمع الاسلامى ، ويصون حرية الفكر ، وابداء الرأى .

وفيما عدا ذلك ، يعيشون مع المسـلمين ، لهم مالهم ، وعليهم ما عليهم ، لا يضارون فى معيشة ، ولا يضيق عليهم فى رزق ، ما داموا ملتزمين ، بما آمنت به الأغلبية من قوانين وتشريعات لا تمس عقيدتهم ، ومنفذين ما تراه الأغلبية حفاظا للمجتمع من التفكك والانهيار ، وصونا للأمة من الضعف والانحلال .

وخلاصة القول : ان الاسلام لجميع الناس ، ولا يكره أحدا على اعتناقه ، ومن يأبى الدخول فيه صنفان : مشرك ، أو ملحد ، وهؤلاء لا يسمح لهم باظهار الحادهم ، أو شركهم علانية ، فان أبوا الا ظهور شركهم والدعوة له ، فعليهم أن يرحلوا من المجتمع الاسلامى ، أما الصنف الثانى : فهم أهل الكتاب وهؤلاء مسموح لهم أن يعيشوا فى المجتمع الاسلامى ، ويمارسوا عبادتهم بحرية ، بشرط أن يلتزموا بما تقرره الأغلبية من قوانين وتشريعات ..

---

(١٦) البقرة : ٢٥١ (١٧) الحج : ٤٠

٢٣ — حكم الاسلام فى من لم يؤمن به

أرسل الله محمدا ﷺ الى الناس كافة ، ليبلغهم رسالة ربه ، ومن مقتضيات التبليغ ، الزامهم بالايمان بالله ربا ، وبه رسولا ، والاعتراف بأن القرآن هو وحى الله ، الذى أنزل عليه ، والتصديق بمـا فيه من أخبار عن الأنبياء السابقين ، وعن أحوال الآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب • كما أنهم ملزمون بعد هذا ، بتنفيذ ما جاء فيه من أوامر ، واجتناب ما تضمنه من نواهى ، فان فعلوا ذلك كله ، فهم مسلمون تجرى عليهم أحكام الاسلام •

ومن تبلغه الدعوة ، ويأبى الدخول فى الاسلام أصناف :

صنف يؤمن برسالة سماوية ، كاليهود والنصارى ، فهؤلاء يتركون وشأنهم امتثالا لقول الله تعالى : ((**قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**))[١] •

فان أقاموا فى مجتمع اسلامى ، فهم مطالبون بالحفاظ على أمن المجتمع وسلامته ، فلا يتآمرون مع عدو من أعداء الاسلام ضد الدولة ؛ ولا يباشرون أعمالا تؤذى شعور المسلمين ، أو تكون سببا فى اشـاعة الفاحشة والفساد بين أفراد الأمة ، وعليهم أن يؤدوا الجزية ، بمعنى أن يدفع القادر منهم قدرا من المـال فى مقابل الدفاع عنه ضد المعتدين •

فليست الجزية احتقارا لأهل الكتاب ، كما أنها ليست اغتصابا من المسلمين لأموال اليهود والنصارى ، وانما هى تنفيذ لعقد اجتماعى ؛ وبمقتضى هذا العقد ، يقوم المسلمون بالدفاع عن الوطن فى سـاحات القتال ، ويدفع أهل الكتاب جزءا من مالهم ، ولا يكلف بدفع هذا المـال ، الا القادر منهم ماديا • فأيهما المغبون فى هذا العقد — ان كان هناك مجال للحديث عن غبن وقع على أحدهما — أهم المسلمون الذين يضحون بحياتهم فى ساحات القتال ، أم أهل الكتاب الذين يدفعون جزءا بسيطا من أموالهم ، فى سبيل أن يشعروا بالطمأنينة والأمن ، وهم قابعون

---

(١) آل عمران : ٦٤

فى ديارهم ، يتمتعون بالراحة على وسـائدهم اللينة ، ويستطعمون غذاءهم على موائدهم العامرة بأصناف الطعام والشراب ، بينما المسلمون المجاهدون فى ساحات القتال ، ينامون على الثرى ، ويكتوون بشظف العيش ، تحت أشـعة الشمس المحرقة ، وزمهرير الليـل القارس ؛ ولا يشعرون براحة فى نومهم ، ولا بلذة فى تناول طعامهم ، كتلك التى يتمتع بها أولئك الذين يدفعون الجزية ، فى مقابل اعفائهم من هـذا العمل الشـاق ؟ .

ولا تقف سماحة الاسلام مع أهل الكتاب عند هـذا الحد ، فقـد أعطاهم الحرية الكاملة فى ممارسة عباداتهم ، وتأدية طقوسهم الدينية . فلا يضيق عليهم فى معابدهم ، ولا يؤذون فى مشاعرهم الدينية ، كما أنه منحهم حقوق المواطن كاملة فى تحصيل أرزاقهم ، وممارسة هواياتهم الاجتماعية ، ما دام ذلك فى اطار الشرعية . وفى حدود قانون الدولة ، وسوى بينهم وبين المسلمين فى مجال العمل ، فيحدثنا التاريخ : أن من أهل الكتاب من بلغ منصب الوزارة فى الدولة الاسلامية ، وهذه ظاهرة لم توجد فى أى دولة فى العصور القديمة — حيث كان الفكر الدينى هو المسيطر على مقاليد الحكم — ، اذ لم يحدث أن وصل أحد من الأقليات الدينية ، الى منصب مرموق ، فضلا عن منصب الوزارة ، فوجود هذه الظاهرة فى المجتمع الاسـلامى دليل على سماحة الاسلام مع أهل الكتاب ، الذين أبوا أن يعترفوا برسالة الاسلام .

فان لم يلتزم أهل الكتاب المقيمون فى المجتمع الاسلامى بتنفيذ ما يقتضيه حق الجوار ، ومما تتطلبه أنظمة الدولة ، بأن ارتكبوا أعمالا ، من شأنها جرح الشعور الدينى للمسلمين ، أو الحاق الضرر بنظام الدولة العام ، فعلى الحاكم محاسبة المذنب منهم بالطرق القانونية ، وتوقيع العقوبة عليه طبقا للأحكام المقررة فى الدستور ، والمنصوص عليها فى التشريع الاسلامى ، ولا يعاقب جميع أفراد الطائفة ، بذنب ارتكبه فرد واحد منهم ، كما أنه لا يجوز للمسلمين أن يردوا الاعتـداء على مقدساتهم بأسلوب يؤدى الى اشعال الفتنة ، لأن هذا عمل يسىء الى

الاسلام ، ويعطى الفرصة لأعدائه للنيل منه وتصويره بصورة تنفر المجتمع الدولى منهم ، بل عليهم أن يسلكوا فى وقف الاعتداء على حرماتهم الدينية أسلوبا ينفى عنهم شبهة اضطهاد أهل الأديان الأخرى ، ويحافظ على الصورة المشرفة ، التى انفرد بها الاسلام على امتداد التاريخ فى معاملة من يعيشون فى مجتمعه من أصحاب العقائد التى لا تتفق معه فى بعض المبادىء والاتجاهات •

فقد عامل الاسلام أهل الكتاب ، على أنهم جزء من الرعية الاسلامية ، مع احتفاظهم بعقيدتهم ، وعليه •• فلم تعقد الدولة الاسلامية معاهدات مع الدول الأخرى ، الا وكان المسلمون ، وأهل الكتاب ممثلين فيها معا ، على اعتبار أنهم مواطنون فى أمة واحدة ، فقد روى أبو يوسف فى كتابه « الخراج » : « لما صالح عبد الله بن أبى السرح ملك النوبة تقرر فى الصلح أنه أمان وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ، مما جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين ، وأهل الذمة ، وأخذ النوبيون على أنفسهم العهد بحماية من نزل بلدهم ، أو طرقه من مسلم أو معاهد » ، أى أن أهل الكتاب داخلون فى هذه المعاهدة ، مثل المسلمين سواء بسواء •

فان كان أهل الكتاب لا يعيشون فى الدولة الاسلامية ، فان الاسلام يجيز للمسلمين أن يتعاملوا معهم ، على أساس حسن الجوار الدولى ، ان لم يظهروا العداوة للاسلام ، كأن يستهزئوا به وبتعاليمه ، أو يمنعوا الدعاة من تأدية واجبهم ، أو يدبروا المؤمرات ، للاغارة على الدولة الاسلامية ، فان فعلوا ذلك ، فلا يجوز لمسلم أن يتخذهم أصدقاء ، امتثالا لقول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين** » (٢) • •

فان أعلنوا الحرب ضد الاسلام ، فليس للمسلمين من سبيل ، سوى الرد عليهم بمثل ما مالوا اليه ، وهو الحرب والقتال ، أينما وجدوا ،

---

(٢) المائدة : ٥٧

وبأى كيفية متاحة لهم ، يقول الله تعالى : **« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون »**(٣) ••

وقوله : **« فمن اعتدى عليــكم فاعتدوا عليــه بمثل ما اعتدى عليــكم »**(٤) ••

ولا ينبغى أن تؤثر حالة الحرب بين الدولة الاسلامية ، وبين دولة مسيحية على معاملة المسلمين لأهل الكتاب الذين يعيشون فى المجتمع الاسلامى ، فلا يؤخذون بذنب ارتكبه أبناء ملتهم فى الدولة المعادية ، ما داموا محافظين على الدولة التى يعيشون فيها ، ويستظلون بظلها ، فان خان أحدهم العهد ، واتصل بالدولة المعادية فعلى الحاكم أن يطبق عليه حكم من رفع السلاح فى وجــه المسلمين ، دون أن يتجاوز عقابه الى من التزم بالعهد منهم ، فلا يؤخذ أبناء ملته بجرمه ، ولا ينقص عهدهم مع المسلمين ، ما دامت الخيانة التى ارتكبها المذنب منهم عملا فرديا ، أى لم تأخذ صورة التآمر الجماعى •

أما الصنف الثانى : ممن بلغته الدعوة الاسلامية ، ولم يؤمن بها ، فهم المشركون مع الله الها آخر ، وهؤلاء لا مكان لهم فى المجتمع الاسلامى ، فلا يسمح لهم باقامة شعائر ولا بتشييد معابد ، بل ولا يقيمون بين المسلمين فى الدولة الاسلامية ، ما داموا مصرين على اظهار عقيدتهم بأى صورة كانت ، يقول الله تعالى : **« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المســجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين • كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون »**(٥) •

---

(٣) الممتحنة : ٨ ، ٩
(٤) البقرة : ١٩٤
(٥) التوبة : ٧ ، ٨

وبقوله : ((**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين • ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم**))[٦] ••

والصنف الثالث : هم الملحدون ، الذين ينكرون وجود الله ، فهم اعداؤه ، ولا مكان لمن يظهر العداوة لله فى المجتمع الاسلامى ، ولا فى قلوب المؤمنين ، يقول الله تعالى ((**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعـــدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل • أن يثقفوكم يكونوا لكم أعـداء ويبســطوا اليـكم أيديهم وألســنتهم بالســوء وودوا لو تكفرون**))[٧] •

فلا يجوز لمسلم أن يتخذ عدوا الله وليا له • بل يجب عليه قتالهم ، امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى ، حيث يقول : ((**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**))[٨] ••

ويجب على المسلمين تنفيذ هذه الاحكام فى الأصناف الثلاثة ، ان أظهروا عقيدتهم سافرة ، أما ان أخفوها ، فليس لأحد القدرة على حساب شخص على ما فى قلبه ، فذلك متروك حسابه لله تعالى ، فهو يحاسبهم فى الآخرة على انكارهم رسالة الله وعلى ما اقترفوا من سيئات تتعلق بالعقيدة ، فان شاء عفا عنهم ، وان شاء أذاقهم عذاب الجحيم ، غير أنه أخبرنا فى كتابه، أنه وان وسعت مغفرته المذنبين كلهم، فلن يغفر للمشركين أبدا ، يقول تعالى : ((**ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشــاء**))[٩] ••

ولا شك أن ذنب الملحد فوق ذنب المشرك ، وليس دونه ، فهو داخل مع أولئك الذين لن يغفر الله لهم أبدا •

* * *

(٦) التوبة : ١٤ ، ١٥
(٧) الممتحنة : ١ ، ٢
(٨) التوبة : ٢٩
(٩) النساء : ٤٨ ، ١١٦

٢٤ ـ خواطر داعية حول « الهجرة »

لن أحدثك اليوم عن قصة الهجرة ، وما حدث فيها من معجزات ، دلت على أن محمدا رسول الله حقا ، فهذه أمور معروفة ، ويستطيع كل مسلم أن يطلع عليها فى كتب السيرة النبوية ، بل سأحدثك عن معان ، تدور فى الذهن عند ذكر هجرة الرسول ﷺ من مكة الى المدينة ، معان لا يستطيع ادراكها الا من أوتى بصيرة فى فهم الرسالات ، وعرف أنها لا توجد فى أى دين من الأديان على الاطلاق الا الاسلام ، ولم يعرفها أى نظام ظهر فى المجتمعات البشرية حتى الآن ، لأن تلك المعانى تسمو فوق طاقة البشر ، ويعجز عن التفكير فيها عقل الانسان ، ولا ينتبه اليها أى فرد مهما كانت قدرته فى الذكاء والابداع ، فهى من توجيه العليم الخبير بالنفس الانسانية ومطالبها ، وبالطبيعة البشرية ومتطلباتها ، وبما تحتاجه المجتمعات البشرية من جهاد لتحرر النفس ، وروابط تجمع الشمل ، ومبدأ عام يلتف حوله الناس •

لقد كانت الهجرة حدا فاصلا بين عهدين متميزين فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، بين عهد ملىء بالخوف والرعب والايذاء النفسى والبدنى ، بالنسبة لصاحب الرسالة محمد ﷺ وصحابته الأول الأقلاء رضوان الله عليهم ، وعهد استقرت فيه النفس واطمأنت ، وكثر عدد المسلمين ، وقويت شوكتهم •

كانت هجرة الرسول وصحابته من مكة الى المدينة ، خاتمة لمرحلة كفاح ، من أجل الحق وهو كلمة التوحيد ، اعتمد فيها المسلمون فى دعوتهم الى الله على الصبر ، فتحملوا الأذى •• وصبروا على المشاق فى توصيل كلمة الحق الى هؤلاء الذين استكبروا ، فلما لم تظهر عليهم أى بادرة تدل على تحولهم الى الاسلام ، أمر الله نبيه ﷺ وأصحابه بالهجرة الى المدينة ليتحرروا من الايذاء المادى والنفسى الذى كانت قريش تصبه عليهم صبا ، وليبدأوا مرحلة جديدة فى الكفاح لنشر دين الله ، مرحلة غلبت فيها قوة العدد والعدة عن ذى قبل ، بجانب قوة الايمان المستمر التى لم تفارق الكفاح من أجل هذا الحق حتى

انتصر ودخل النـــاس فى دين الله أفواجا ، وبفضل هــذا الكفـــاح والايمان القوى ، وصف المؤمنون المهاجرون : بأنهم أصحاب درجة عظمى عند الله ، يقول الله سبحانه وتعالى : « **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى ســبيل الله بأموالهم وأنفســهم أعظم درجة عنــد الله ، وأولئك هم الفائزون** »[١] •

فالهجرة عنوان للكفاح فى ســبيل الله ، وراية لتحرير الانســان من ظلم أئمة الكفر والفسق فى مكة ، وســبيل يحتذى ، ان كان لابد منه ، لتطوير حركة الدفاع عن الاســلام •

وستظل الهجرة تمثل مرحلة يهتدى بها كل من استضعف ، فعليه أن يهاجر الى أرض يستطيع أن يمارس فيها شعائره الدينية ، ويتمكن منها من ضرب الطغاة الظالمين •

أما المعنى الثانى فى الهجرة : فهو وحــدة الأمة •

لقد كانت الهجرة حدثا ، وضح للمسلمين بصورة لا تقبل الشك ، أنهم جميعا اخوة فى الله ، لا تباغض ، ولا تناحر بينهم ، ولكن تآلف ومحبة ، يقول الله تعالى : « **وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين • وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعــا ما ألفت بــين قلوبهم ولكن اللــه ألف بينهم ، انــه عزيز حكيم** »[٢] •

فقد أثمرت الهجرة — فيما أثمرت — وحدة القلوب بين المهاجرين ، الذين هاجروا بايمانهم وبرسالتهم من مكة الى المدينة وبين الأنصار ، وهم المؤمنون من سكان المــدينة الذين آووا ونصروا أولئك المكيين المهاجرين عندما وصلوا اليهم •

أثمرت تماسكهم وترابطهم ، أثمرت لقاءهم فى طريق واحد ، وعزمهم على الوصــول الى الهدف الواحد ، أثمرت رفع ما كان بينهم من روح العصبية القبلية ، وازالة ما كان بينهم من خصومة أوجدها

---

(١) التوبة : ٢٠

(٢) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣

الصراع ، الذى كان يســود حياة القبائل العربيــة الى قيام الدعوة الاســلامية •

لقد كان التآخى بين المهاجرين والأنصار مثلا فريدا من نوعه فى العالم ، يدل على أن علاقة العقيدة الاســلامية أقوى من كل رباط بين البشر ، وكان — ولا يزال — يذكر المسلمين بأن الوضع الطبيعى للعلاقة بينهم ، أن يكونوا اخوة متحابين ، يســاعد بعضهم بعضا ، لأن هــذا هو طريق القوة ، وسبيل العزة ، ووسيلة التماسك القوى ، للوقوف أمام أعداء الاســلام •

أما المعنى الثالث للهجرة : فيؤخذ مما فعله عمر رضى الله عنه حين أراد أن يجعل للتاريخ العربى نقطة بداية ، اذ هداه الله الى أن يجعل الهجرة بدايته ، وكان من الممكن أن يجعل ميلاد محمد ﷺ بدءا له ، كما هو الحال فى جميع الأديان التى ربطت تاريخها بمولد مؤسسيها ، وهذا الالهام من عمر رضى الله عنه يذكرنا بأن الاسلام لا يرتبط بشخص مخلوق ، حتى ولو كان النبــى ﷺ نفســه ، بل يرتبط بالمبادىء •• والهجرة من أســمى المبادىء فى التاريخ الاسلامى لأنها فصلت بين عهــدين ، وكانت بداية لانتصار الاســلام الذى لم يتوقف حتى بلغ أقصى الأرض •

* * *

٢٥ ــ الهجــــرة

تموج المجتمعــات الانسانية منــذ القدم بتيارات مختلفــة ، واتجاهات متعارضة ، وأفكار متنافرة ، غير أن من الممكن تصنيف ميول الانســان ، الذى هو مصدر هــذه الاتجاهات ، ومنبع تلك الأفكار الى عنصرين رئيسيين وهما : الخير والشر ، فالنفس الانسانية تتأرجح بــين هذين العنصرين ، اذ أن عمل الانســان وسلوكه فى المجتمع ، اما أن يتسم بسمات تجعله يميل ناحية الخير ، واما أن تسيطر عليــه عوامل تجذبه الى طريق الشرور والآثام •

والناس مختلفون فى تحديد أوصاف الخير والشر ، ولذا فهم فى صراع مستمر حول ما يجب أن يلتزمه الفرد ، ليكون صالحا لنفســه ولمجتمعه ، وفى نزاع دائم حول تحديد معالم الشر ، الذى ينبغى أن يبتعد عنه الانســان ، فهناك مبادىء عديدة •• يختلف تقييمها من شخص لآخر ، فبينما يرى واحد أنها خيرة وصالحة للمجتمع ، يذهب آخر الى أنها تسبب أضرارا للحياة الاجتماعية ، ويتضح هــذا الاختلاف فى تاريخ الأنبياء مع قومهم ، اذ بينما دعوهم الى ما فيه صلاحهم فى الدنيــا وفلاحهم فى الآخرة ، كان رد قومهم عليهم هو الانكار والمعارضة التى بلغت أحيانا حد الايذاء البدنى ، لأنهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليــه هو الصحيح الذى يجب على المجتمع المحافظة عليــه ، وعدم التفريط فيه • أما ما جاءهم به أنبياؤهم ، فهو الأمر الذى لا خير من ورائه ، اذ هو بدعة ، لا يعرفون عنها الا الجانب الذى ســوف يجلب عليهم الخراب والدمار •

ولــا كان الأنبياء مطالبون بتبليغ رسالتهم ، مهما قوبلوا بالمعارضة والانكار ، استمروا فى دعوة قومهم للايمان بما جاءوا به من عند الله ، فآمن بهم قلة ضئيلة من الناس ، كانوا هدفا لايذاء المنكرين والمعارضين • ومن أشد صور المعارضة التى عرفت فى تاريخ الأنبياء معارضة أهل مكة للإسلام ، فقد تفننوا فى ايقاع الأذى بمن آمن بالاسلام فضربوهم ،

وعذبوهم بأقصى صورة يمكن أن يتخيلها الانسان فى مقاومة الدعوات ، مما دفع رسول الله ﷺ أن يأمر المعذبين بالهجرة الى الحبشة ، لأنهم كانوا قلة مغلوبة على أمرها ، تتلقى كل يوم من كفار قريش ضربات لا هوادة فيها ولا رحمة ، وصفعات من السخرية ، لا أدب فيها ولا عفة ، فلم يكن أمام النبى ﷺ ازاء هذا الوضع غير المتكافىء ، الا أن يأذن بالهجرة لينطلق المؤمنون فى آفاق الأرض ، علهم يجدون من يسمع نداء الله ، فيرق قلبه ، ويستجيب لدعوة الله ، فيكون فى ذلك انتشار الدعوة الاسلامية •

فالهجرة هى الوسيلة الوحيدة للقلة المستضعفة ؛ لأنه وان كان ايمانها بدعوتها يعطيها من القوة ما تستطيع به أن تتحمل صنوف الأذى ، ومن اليقين ما يجعلها تصمد أمام ألوان البطش والارهاب ، ومن الرجاء فى رضاء الله ومغفرته ما يدفعها الى التضحية بأرواحها وأموالها ، الا أن هؤلاء المؤمنين ، الذين يتعرضون للايذاء صباح مساء بشر ، لهم طاقة احتمال محدودة ، ومن هنا كان الحل الوحيد أن يهاجروا الى حيث يجدون الأمن على حياتهم ، والحرية فى ممارسة ما تلزمهم به عقيدتهم •

ولما اقتضت ارادة الله أن تسير الدعوة الاسلامية فى طريق عادى يخضع للأسباب التى رسمها الله لتحويل المجتمعات الانسانية ، لم يحل — وهو القادر على كل شىء — بين المسلمين المستضعفين فى مكة ، وبين أذى الجبابرة من قريش ، بل ترك الصراع يسير وفقا لسنة الحياة ، حتى يكون السابقون الأولون مثلا يحتذيه الخلف فى الدفاع عن عقيدتهم • وحين اشتد أذى قريش للمسلمين ، أذن الله للمسلمين بالهجرة الى المدينة ، فكانوا يخرجون خفية ، وبعيدا عن أعين الرقباء ، حتى لا يؤذون ، أو يمنعوا من مواصلة الهجرة ، الى حيث أمرهم رسول الله ﷺ •

ومما يدل على أن الله سبحانه وتعالى ترك عملية الهجرة تسير طبقا لسنن الحياة دون أن يتدخل بمعجزة تمنع وصول الأذى اليهم ، أن من كان من المسلمين ذا بطش وقوة ، خرج جهارا نهارا أمام أعين

كفار قريش ، بل تحداهم أن يتعقبوه ، ويتمثل ذلك فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد روى أنه خرج شاهرا سلاحه ، وهو يقول : « من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجه ، فليتبعنى وراء هذا الوادى » •• فلم يستطع أحد أن يخرج وراءه ليمنعه من الهجرة •

كذلك أخذت الترتيبات ، التى اتخذها رسـول الله ﷺ فى هجرته ، طابع الحرص الشديد ، والتخطيط المحكم ، وذلك ليعلم المسلمين أن الأمور لا تؤخذ اعتباطا ، وانما لابد من الدراسة الواعية ، والتخطيط السليم ، والتنفيذ المتقن ، فقد خطط لهجرته تخطيطا دقيقا ، اذ عندما علم أن قريشا تريد قتله قبل أن يخرج مهاجرا الى يثرب ، أمر عليا بن أبى طالب أن ينام فى فراشه ، ليوهم القوم أنه لازال فى بيته ، فلا يتعقبونه ، وبذلك يكون عنده فسحة من الوقت لتنفيذ الخطة التالية ، وهو اختفاؤه فى الغار •

وكان اختياره للغار دليلا أيضا على دقة الخطة بصورة تجعل المرء يقف مبهورا أمام هـذا العقل الذى اختار جهة غـير جهة المدينة امعانا فى تضليل من يتعقبونه ، ولا يملك الا أن يسلم بأنها كانت بوحى من الله لأن رسـول الله ﷺ كان أميا ، لم يتدرب على مثل هـذا التمويه ، الذى لا يعرفه الا أناس عرفوا من قراءة التاريخ صـورا من الحيل أكسبتهم قدرة على رسم مثل هـذه الخطة المحكمة •

واستكمالا للخطة ، لم ينس أن يكلف عبد الله بن أبى بكر أن يتسمع الأخبار فى منتديات قريش ، وارسال « أسماء » بها اليه ، فلم يذهب هو اليه بهـا خوفا من أن ترصده قريش ، فتتعرف عن طريق تعقبه مكان الرسول ﷺ . كما كلف عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر أن يمر بالأغنام ، ليخفى أثر « أسماء » ، كذلك كان يمده وصاحبه باللبن اللازم لغذائهما •

ويمكث رسول الله ﷺ وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام حتى تهدأ قريش ، وتيأس من العثور عليهما ، فيأتى اليهما عبد الله بن الأريقط بالراحلتين — طبقا للخطة المرسومة — ويخرجان متوجهين الى المدينة • ومع احكام الخطة ، ودقة التنفيذ كانا يطلبان العون من الله سـبحانه

وتعالى ، فكان الله يرعاهما ، ويحافظ عليهما فنصرهما على من طلبوهما ، وصدق الله اذ يقول : « **الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم** »[1] ..

وعندما وصل رسول الله ﷺ ، الى المدينة ، قابلته مشكلة من أعقد المشاكل الاقتصادية ، ذلك أنه وجد نفسه أمام مجتمع مؤلف من أهل يثرب المستقرين فى ديارهم ، ومعهم أموالهم ، ومن مهاجرين تركوا ديارهم وأموالهم فى مكة ، وخرجوا منها صفر اليدين ، ليس معهم ما يساعدهم على كسب ما يقتاتون به ، فماذا يفعل ؟ .

أيصادر أموال الأغنياء من أهل يثرب ويوزعها على المحتاجين ؟

لم يفعل ذلك ..

لأن المفروض أن ما يفعله سيكون تشريعا يجب على المسلمين اتباعه فى مثل هذه الظروف ، ولما كان الله عالما بما ينفع المجتمعات ، فقد ألهمه ألا يفعل ذلك ، لأنه ليس هو الحل الأمثل . وقد أثبتت حوادث التاريخ فشل هذا الاتجاه فى حل المشاكل الاقتصادية فى المجتمعات الانسانية .

أيطلب من الفقراء المعدمين الصبر على هذه الظروف ، حتى يأذن الله بالفرج ؟ .

لا .. لم يفعل ذلك ..

ولو فعله لكان أمرا بالخضوع والاستكانة أمام الأزمات الاقتصادية ، فضلا عن أنه رضاء وتقرير للظروف الاجتماعية ، التى يكون فيها أغنياء يتمتعون بأموالهم وممتلكاتهم ، ويعيشون فى بحبوحة من العيش ، بينما هناك اخوان لهم فى المجتمع يتضورون جوعا ، لأنهم لا يجدون ما يقتاتون به ، وليس هناك ما يلزم الأغنياء بتقديم المعونة لهؤلاء المحتاجين .

---

(١) التوبة : ٤٠ .

ولهذا أرسى قاعدة فريدة من نوعها فى التاريخ البشرى ، ألا وهى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . أى أن كل أنصارى كان يتخذ أخا له من المهاجرين ، ومن متطلبات الأخوة المساعدة لاجتياز مرحلة الأزمة .
ولم يحدد الرسول ﷺ نوع المساعدة . بأن يشاطره ، بماله ، أو بأكل المهاجر من دخل الأنصارى ، والا لكانت نوعا من التأميم أيضا ، بل تركها لضمير المسلم وظروف الأخوين ، ولذا وجدنا صورا من الحوار بين الرسول ﷺ وبين الأنصار ، وكذلك بين المهاجرين والأنصار ، وضحت لنا الهدف الأول لهذه الأخوة ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال للأنصار : « ان اخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا اليكم » .. فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله ﷺ « أو غير ذلك » ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمار » أى تسندون اليهم الأعمال فى المزارع ، على أن يأخذوا نصف ثمارها .

وحدث أن أنصاريا عرض على أخيه المهاجر أن يقاسمه ماله ، فيأخذ نصفه ليعيش منه ، فرفض المهاجر هذا العرض ، وقال : بارك الله لك فى مالك ، ولا أطلب منك سوى أن تعرفنى الطريق الى السوق ، لأباشر عملا أقتات منه .

فلم تكن المؤاخاة ، سوى وسيلة لمد يد العون والمساعدة الى هؤلاء الذين أتوا الى المدينة بدون مال ، وتختلف الظروف حسب كل شخص ، فتارة تكون باعطائه فرصة العمل ، وتارة بمساعدته فى التعرف على طرق كسب العيش فى المدينة ، وأخرى باعطائه جزءا من المال يستطيع به بدء حياته ، وبهذا يعيش المجتمع أسرة واحدة يتعاونون فيما بينهم على السراء والضراء ، فيحس الأخ بما يعانيه أخوه ، فيعمل قدر المستطاع على تخفيف العبء على كاهل الضعفاء والمساكين ، وان اقتضى الأمر التنازل عن بعض ما يملك لهم ، وهذا هو ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم ، كمثل

الجســد الواحد ، اذا اشــتكى منه عضو تداعى له ســائر الأعضاء بالسهر والحمى » ••

وجملة القول : ان الدروس التى يجب أن يعيها المسلمون من الهجرة كثيرة ، تناولنا ثلاثة منها فى هــذا الحديث وهى :

أولا : لا يكلف الاســلام الا بما يتحمله الانســان ، فعندما طلب من المسلم الصبر على الأذى فى ســبيل تبليغ الدعوة ، لم يكن القصد الاستمرار على هــذه الحالة حتى الموت ، بل أمره بالهجرة عندما لم يكن هنــاك أى أمل فى دفع هــذا الأذى ، وتلك قضية يجب أن يعيها المسلمون فلا يتعرضون لتيارات المقاومة الى درجة الانتحار الجماعى ، بل عليهم أن يبحثوا عن طريق أخرى لتوصيلهم الى الهدف بأقل تضحية ممكنة ، ولا يلجأون الى التضحية الا عندما تسد جميع الطرق السلمية المؤدية الى الهدف •

ثانيا : يجب على المسلمين ألا يتركوا الأمور تسير سيرا عشوائيا ، بل عليهم أن يخططوا تخطيطا سليما ، ويلتزموا الدقة فى التنفيذ ، كما علمهم رســول الله ﷺ ، فى تخطيطه للهجرة ، وعليه •• فما شاع عن المسلمين ، من أنهم ارتجاليون فى أعمالهم ، ومتواكلون فى سلوكهم ، فليس من الاسلام فى شىء ، بدليل أن نبيهم ﷺ وهو المؤيد بالوحى ، لم يفعل ذلك حين هاجر من مكة الى المدينة ، وما ذاك الا ليضرب لهم المثل فى كيفية التصرف فى مثل هــذه المواقف •

ثالثا : فرض الاسلام على الأغنياء أن يمدوا يد المســاعدة لاخوانهم الفقراء ، فلو فعلوا ذلك لقضوا على أكبر مشــكلة تواجه المجتمع ، ألا وهى الفقر ، فاذا قضى على الفقر اختفى حقد الفقراء على الأغنياء ، وتلاشت نزعة تعالى الأغنياء على الفقراء ، فيعيش الكل اخوة متحابين متعاونين ، وتلك هى غاية ما تتمناه المجتمعات البشرية •

* * *

٢٦ ــ الموت ليس نهاية للانســان

شغلت مسألة ما يحدث للانســان بعــد الموت حيزا كبيرا فى الفكر الانسانى على جميع مستوياته ، فتغلغلت فى حياته الشخصية ، وفى معتقداته الباطنية ، لدرجة أنه اهتم بها اهتماما فاق كل ما عداها فى جميع مجالات الحياة ، فانشغل بها الفلاسفة على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم ، وتناولتها الأديان ــ على اختلاف تصوراتها للحيــاة ــ بالشرح والبيان ، واحتلت المقام الأول فى قائمة الأســئلة ، التى يبحث الانســان عن اجاباتها ، سواء أكان فى تأملاته الذاتية ، أو فى مساجلاته الأدبيــة وأحاديثه الاجتماعية • بل أصــبح نجاح كل مذهب فلسفى ، أو اتجاه فكرى متوقفا على موقفه من هــذه المسألة ، ولهذا حاولت كل المذاهب الفلسفية توضيح ما أسمته بقضية استمرارية الحياة بعــد الموت ، فتعددت اتجهاتها ، واختلفت مواقفهــا من هــذه القضــية •• وتتلخص هــذه الاجتهادات الفكرية فى ثلاث صور :

فالصورة الأولى :

هى ما أطلق عليها الاستمرار البيولوجى ، ومعناه أننا نبقى بعد موتنا فى أشخاص أبنائنا ، وأبناء أحفادنا ، خلال الأجيال المختلفة •

ولمــا كان هــذا الرأى يقتصر على استخدام المفاهيم البيولوجية ، فانه يؤكد أن كل كائن عضو حى ، ليس الا مستودعا مؤقتا لبذور الحياة ، وما حياة الفرد الا وديعة تسلم عند وفاته لأبنائه وبناته •

والصورة الثانية :

هى ما سميت بالبقاء الاجتماعى ، بمعنى أن استمرار وجودنا بعد الموت ، ينحصر فى ذكريات أسرتنا وأصدقائنا ، اذ أن الأفراد الذين يقدمون للمجتمع أكبر الخدمات ، هم الذين يقدر لهم بقاء اجتماعى أطول ، فبقاؤنا يتوقف على مقدار جدارتنا ، أى على كوننا قد أسهمنا فى المجتمع بنصيب يستحق أن تخلد ذكراه بعد موتنا • وفى كل حالة من الحالات يظل كل ما فعلناه من خير ورحمة باقيا بعد مماتنا ، وسوف يعمل من انتفعوا من ارادتنا الخيرة على حفظ ذكرانا عطرة ، والاشادة ببركتنا •

وأطلق على الصورة الثالثة من صور استمرارية الحياة : الخلود الأخلاقى ، ويرى أصحاب هـذا التصور أن هناك صراعا بين الخير والشر فى عالم الانســان ، فالفرد الذى يتنازل عن فرديته وهويته الشخصية ، فيكافح الشر . فان جهوده فى هــذا المجال سوف تسفر عن ازالة قطعة من الشر ، واحلال أخرى من الخير ، فكأنها تظل نصبا تذكاريا يخلد ذكراه ، ويشيد بمجهوده فى هــذا المجال ، وهكذا يرى أنه على الرغم من ضياع شخصيته — لم يعش حياته عبثا ، فحياته قد اكتسبت بفضل هذا النصيب الذى أسهمت به مكانة وغاية تنأى به عن العقم ، وترتفع به الى مستوى انسانى بالمعنى الصحيح ، له مغزاه ، ودلالته الباقية ..

غير أن هــذه التصورات لم تعط اجابة شافية للانسان الذى لا يفتأ يتسأل نفســه ، ويستفسر ممن حوله ، عما اذا كان هناك بقاء بعد الموت أم لا ؟ ! اذ يرى أن الاستمرار البيولوجى ، أو البقاء الاجتماعى ، أو الخلود الأخلاقى ، وان كان حقيقة لا تنكر ، الا أنها أشــكال هزيلة من صور البقاء بعد الموت ، لا تستحق التفكير فيها ، فما لم يكن وجودنا بعد الموت وجودا ، تظل فيه الفردية والشخصية باقية ، وينطوى على استمرار فى الغاية والمسعى ، فان هــذا الوجود لن يكون بقاء بأى معنى معقول .

ولم يتناول بقاء الشخصية بعد الموت ، ببيان يرضى الناس — على اختلاف درجاتهم الثقافية ، ومستوياتهم الاجتماعية — الا الأديان ، فهى التى بينت للناس أن الموت ليس نهاية لهم ، وانما هو انتقال من مرحلة الى مرحلة أخرى ، أو من عالم دنيوى الى عالم آخر ، يختلف فى قوانينه وأحكامه عن هــذا العالم الذى يعيشون فيه ، ولسوف يستمرون فى الحيــاة بعد الموت بوصفهم أفرادا متميزين ، وستكون لهم آمال وأفعال كريمة ، مشابهة الى حد بعيد لمــا كان لهم وهم أحياء فى هــذه الدنيا .

ذلك أن ما يشاهد على مسرح الحياة الدنيا من سلوك الناس المتباين والمتضاد وأسلوبهم فى تطبيق مبدأ الجزاء والعقاب ، يحمل الانسان

على الاعتقاد اعتقادا جازما ، بأنه لابد من حياة أخرى ، يكون ميزان العدل فيها غير خاضع لهوى ، ولا متأثر باتجاهات طبقية أو عرقية ، ولا واقع تحت اغراء الجاه والسلطان . ولا ميال الى زخرف الحياة الدنيا ومتعها . من تحصيل المال . والاستمتاع بالشهوات والملذات ، لأنه لو خلت حياته من هذا الامل . لأصيب باحباط قاتل . ويأس مدمر . وقنوط يشل حركته عن الاسهام فى دفع عجلة التطور والتقدم . وما ذاك الا لأنه يرى أمام عينيه صباحا ومساء عذابا يصب فوق رؤوس الأخيار . ونعيما يرفرف فى أرجائه الأشرار والقتلة . ومصاصو الدماء . ويشاهد كل يوم عقابا ينزل بالأبرياء ، ونياشين وأوسمة تعلق على صدور من ارتكبوا أبشع الجرائم وأفظعها فى حق الأفراد والجماعات ، ويدرك بأحساسيسه المتعددة أن كثيرا من الناس يحصلون على الأموال الطائلة بطرق غير مشروعة ، دون أن يبذلوا أدنى جهد ، بينما يكتوى آخرون بنار المعاناة فى سبيل الحصول على ما يسدون به رمقهم .

فلو لم توجد حياة أخرى ترد فيها الحقوق الى أصحابها ، ويعاقب فيها كل من ظلم أو جار على حق أخيه ، ويثاب فيها كل من قدم خيرا لمحتاج ، لخيمت الكآبة على هذه الحياة ، ولأصبحت أشبه بغابة : يفترس فيها القوى الضعيف ، دون أن يردعه الخوف من سلطان العدل الالهى .

فالايمان بأن كل انسان سيحاسب بعد الموت على ما قدم فى هذه الحياة الدنيا ، يساعد على استقرار الحياة فى المجتمع ، ويضفى ثوب الاطمئنان على نفوس الأفراد ، عندما يدركون أن من عمل خيرا فجزاؤه خير ، ومن اقترف اثما فسيعاقبه الله ، ان عاجلا أو آجلا فيما بعد الموت ، يقول الله تعالى **« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون »**[1] ..

---

(١) البقرة : ٨١ ، ٨٢ .

ويقول : ((**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون**)) [٢] ..

وليس لمن ينكر الحياة بعد الموت دليل على رأيه ، وانما انكاره مبنى على ظن ، والظن لا يمكن أن يستند عليه رأى ، ولا يجوز الالتفات الى اتجـاه يتخذ الظن دليلا له ، خاصة اذا ترتب عليه ضرر بالفرد والحياة الاجتماعيـة .

وقد بينا أن الايمان بالحياة بعد الموت ضرورى ولازم للفرد والمجتمع ، فمن ينكره فانه ينكر أمرا حيويا لاستمرار الحياة . ولهذا لا يقام لهذا المنكر وزن ، ومما يزيده ضعفا ، أنه لا يعتمد الا على الظن ، الذى لا يصـلح أساسا للاتجاهات الفكرية التى تمثل جانبا هاما فى حيـاة الناس ، وصدق الله اذ يقول : ((**وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون**)) [٣] ..

ومن يستدل على انكاره الحياة بعد الموت ، باستحالة عودة الأجسام الى حالتها الأولى ، بعد أن تتحلل فى التراب ، فقد نسى قدرة من أنشأها أولا من العدم ، يقول الله تعالى فيمن جاء الى النبى ﷺ — وفى يده بعض العظام — يسأله عما اذا كان من الممكن أن يحيى الله هذه العظام بعد ما وصلت الى هذه الحالة : ((**وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم**)) [٤] ..

أما من يؤمن بتناسخ الأرواح ، بمعنى أن من يموت تحل روحه فى مولود جديد ، فلا يستطيع بناء على هذا الاعتقاد أن يفسر لنا ظاهرة ازدياد عدد السكان فى العالم ، لأنه اذا كانت هذه النظرية صحيحة ، فلا يمكن أن يزيد عدد السكان ، اذ أن كل انسان يموت ، تحل روحه فى انسان يولد ، فمن أين تأتى الزيادة المستمرة ؟

---

(٢) الجاثية : ٢١ .　　(٣) الجاثية : ٢٤ .
(٤) يس : ٧٨ ، ٧٩ .

فهذا دليل واضح على بطلان هذه العقيدة ، وتأكيد على أن الله هو الذى يزيد فى خلقه ما يشاء ، وقد أخبرنا على لسان نبيه ﷺ أن من مات سيبعث بعد الموت ليثاب من عمل صالحا ، ويعاقب من ارتكب اثما ، يقــول الله تعالى : « **يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شىء شهيد** » (٥) ..

* * *

(٥) المجادلة : ٦ .

٢٧ — العقائد الدينية فى أحوال الميت فى قبره

اتفقت معظم الأديان على مبدأ الجزاء بعد الموت ، فمن يعمل صالحا فى هذه الحياة ، سيجازى بعد موته ، ومن يعمل شرا ، سيعاقب بحسب ما ارتكب من سيئات وأخطاء ، غير أنها اختلفت فى صورة الثواب والعقاب ومكانهما •

فالأديان التى ليس من مبادئها الاعتراف بحياة أخرى غير هذه الحياة الدنيوية تصور الثواب والعقاب تصويرا مرئيا ، أى أنه يقع فى هذه الحياة الدنيوية ، فالبرهمانية والبوذية وغيرهما من الأديان التى تقول بتناسخ الأرواح ، أى بانتقال روح الميت الى مولود جديد ، ترى أن الصالح ستحل روحه فى طفل تكون حياته سهلة ، ووضعه فى سلم الحياة الاجتماعية أرقى من الوضع التى كانت فيه •

أما من ارتكب الخطايا فستحل روحه فى جسم أقل درجة من الجسم الذى ارتكب هذه الخطايا ، وتصنيف الدرجة يأتى بحسب نوع الخطايا التى ارتكبها وكميتها ودرجتها ، ولا شك أن هذه العقيدة بهذا المفهوم فى فلسفة العقاب ، تهمل الجسد ، فلا يقع العقاب عليه ، وانما يقع على الروح فقط ، وهذا يتنافى مع العدل ، اذ أن الجسد قد استمتع أيضا مع الروح فى الحياة ، فلابد أن يناله جزء من الثواب والعقاب ، ومن المعروف أن العقيدة التى تخالف هذا المبدأ البديهى تكون قد تجنبت طريق الصواب •

كذلك من الأديان — كاليهودية — من أغفل ذكر ما بعد الموت ، فالدارس للكتب الاسرائيلية يرى أنها لم تذكر شيئا عن البعث واليوم الآخر ، بل ان الكتاب المقدس نفسه يعد الحياة الدنيا وحدها عالم الانسان ، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك فى بعث وجنة ونار •• وهذا تحريف لرسالة الله ، الذى أخبرنا بأن هناك بعثا وجنة ونارا وحياة بعد الموت •

فليس فى هذه الأديان — التى أهملت ذكر ما بعد الموت من حياة أخروية — ذكر لأحوال الميت فى قبره ، اذ أنها لا تعترف بها ضمنا ،

غير أن من الطبيعى وطبقا لمفهوم العدل أن يكون هناك جزاء لما قدمه الانسان فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يكون الجزاء كامل الصورة ، الا اذا وقع على كلا العنصرين اللذين يتكون منهما الانسان وهما : الروح والجسد ، وهذا هو ما أخبرنا به القرآن الكريم فقال الله تعالى : **« ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »**(١) ••

فالبعث حق ، لأن الله أخبرنا به ، وهو تحقيق لعدل الله ، لأن الحياة مليئة بالأشرار الذين يسلبون حق الأخيار ، ويفلتون من عقاب الدنيا ، فليس من العدل أن يتركوا بدون عقاب •

وطبقا لمفهوم العقاب فى الاسلام ، فالميت فى قبره بمثابة المحجوز للفصل فى أمره ، وبالتعبير القانونى : هو محجوز على ذمة التحقيق ، ومن الطبيعى أن تختلف أحوال المحجوزين ، فمن عمل صالحا يفسح له فى قبره ، ومن عمل سوءاً يضيق عليه فى قبره ، فقد روى عن أم بشر أنها قالت : دخل على رسول الله ﷺ وهو يقول : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » فقلت : يا رسول الله •• أو للقبر عذاب ؟ قال : « انهم يعذبون فى قبورهم عذابا تسمعه البهائم » •

أما اذا كان صالحا فيوسع له فى قبره ، ويبقى فى جو من الراحة ، حتى يبعث يوم القيامة ، فقد روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ان المؤمن فى قبره لفى روضة خضراء ، فيرحب له قبره سبعين ذراعا ، وينور له كالقمر ليلة البدر » •• وروى : « القبر أول منزلة من منازل الآخرة ، فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وان لم ينج فما بعده أشد » •

فكل من مات ، وهو مستحق للثواب أو العقاب ، ناله نصيب منه قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع ، أو أحرق ، أو أغرق فى البحر ، وصل الى بدنه من الثواب والعقاب ، ما يصل الى الميت الذى دفن فى قبر تحقيقا لمبدأ العدل الالهى •

* * *

---

(١) الحج : ٦ ، ٧

٢٨ ــ الصلة بين الأحياء والأموات

لا يشك أحد من الناس ــ سواء أكان ملحدا أو متدينا ــ فى وقوع الموت ، لأنه ظاهرة عامة يراها الناس جميعا كل يوم ، غير أن ما بعد الموت هو المسألة التى اختلفوا فيها ، فالملحدون يرون أنه نهاية الانسان ، فلا حياة بعد الموت ، ويعبر القرآن الكريم عن رأيهم مبينا أنه لا يقوم على أساس علمى ، بقوله تعالى :**« وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، أن هم الا يظنون »**(١) ..

فأحوال الميت بعد انتقاله من هذه الحياة المشاهدة مجهولة للأحياء ، فليس لديهم أى دليل يؤدى بهم الى معرفة ما يحدث له بعد انتقاله من هذه الحياة الدنيوية ، الا ما أخبرنا به الوحى ، لأن الله استأثر بعلم هذا الجانب ، فلم يعط للانسان القدرة على كشفه ، وانما أخبره بشىء عنه عن طريق الوحى الذى أنزله على رسله ، ومن بين ما جاء فى هذا المجال ، امكانية وجود صلة بين الأموات والأحياء .

من الملاحظ أنه لا توجد صلة عضوية بين الميت والحى ، وما يوجد من ظواهر الصلات الروحية التى تأتى للأحياء على هيئة رؤى يرونها وهم نائمون ، فليس هناك ما يبين لنا حقيقة هذه الظاهرة . وعليه فلا يمكن انكارها انكارا باتا ، كما أنه ليس لدينا أدلة واضحة على ثبوتها ، فقد تكون حقيقة ، وقد تكون أعراضا نفسية تظهر فى صورة أحلام ، ولهذا ينبغى على المسلم أن يؤمن بوجودها كما هى ، أى لا يحاول تفسيرها على أنها نوع من الصلة بين الحى والميت ، لأن هناك من الآيات ما ينفى الصلة بينهما .

يقول الله تعالى : **« حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون »**(٢) ..

---

(١) الجاثية : ٢٤ (٢) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ .

فقد قال المفسرون : ان البرزخ هو الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ، وما ورد عن النبى ﷺ أنه قال : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » •• فلا يفيد وجود صلة عضوية ، أو روحية بين الميت والحى ، وانما هو بيان لاستمرارية ثواب ما غرس الميت فى حياته من أعمال صالحة ، فمن أوقف شيئا كأرض أو عقار ، أو غير ذلك مما يدر ربحا مستمرا على أى وجه من وجوه الخير ، كالفقراء والمساكين ، أو على جانب من الجوانب الاجتماعية فى الدولة ، فعمله مستمر ، وثوابه متصل ، ما دام هذا المنبع يفيض على أهل الحاجة ، ولا يتوقف الثواب بعد موته ، بل تكتب له الحسنات حتى بعد مماته ••

كذلك من ترك انتاجا علميا ينتفع به الناس ، يستمر حصوله على الثواب مدة دوام هذا العلم بين الناس وانتفاعهم به ، كما أنه يستفيد أيضا من عمل ابنه الصالح ، لأن حسن تربيته لابنه يعتبر غرسا صالحا له ، فطالما بقى الابن على قيد الحياة ودعا له يتقبل الله منه هذا الدعاء ، فالصلة التى يتحدث عنها الحديث ليست صلة عضوية ولا روحية بين الميت والحى ، وانما هى بيان أن عمله الصالح يعود عليه بالنفع حتى بعد مماته •

وما يشاع بين الناس من أن الميت جاءه فى المنام ، وأمره بفعل شىء ما ، أو تركه ، أو أنه غاضب عليه ، لأنه تصرف على هذا النحو أو ذاك ، فليس هناك دليل من القرآن أو السنة على صحة هذه الصلة بين الأحياء والأموات ، وأبسط ما يقال فيها :

انها ترجمة لما يدور فى العقل الباطن ، لمن رأى هذا الحلم ، فلا يعول عليه كدليل يعتمد عليه فى ثبوت مثل هذه الصلة •

* * *

٢٩ ــ البعث

تحتل كلمة العدل مكانة سامية لدى الناس جميعا ، على اختلاف مستوياتهم الحضارية ، وتباين مكانتهم الاجتماعية ، وتباعد درجاتهم الثقافية ، اذ عندما تذكر كلمة العدل فى أى نزاع ، أو خصومة ، نجــد اجماعا من المتخاصمين على الرضوخ لمــا يحقق العدل والعدالة بينهم ، فلا يستطيع الاعتراض على مبدأ تطبيق كل ما من شــأنه أن يحقق العدل بينهم •

غير أن أسلوب وطريقة الفصل فى المنازعات لا تحقق العدل فى كل الأحوال ، كذلك قد تطمس معالم العدل بين الناس ، فلا يجد المظلوم من يأخذ له حقه من الظالم ، ولا توجد الوسائل والاجراءات التى تحد من غلواء من يستغل الناس ويسلبهم حقوقهم ، ولهذا كان من حكمة الله أن أعطى الناس مهلة فى هذه الحياة الدنيا ، ليفعلوا ما يشاءون بمحض ارادتهم ، ثم يبعثهم بعد الموت ، ليحاسب كل على ما قدمت يداه •

يقول الله تعالى : **« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ، فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصــيرا »**(١) ••

فالايمان بالبعث بعد الموت ضرورة اقتضتها حكمة الله لتحقيق العدل بين الناس ، فمن قدم خيرا ، فجزاؤه خير ، ومن فعل غير ذلك ، عوقب على ما قدمه فى الدنيا ، فهو ركن من أركان الايمان ، من كفر به ، فليس مسلما • يقول الله تعالى : **« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخــر** (وهو يوم البعث) **والملائكة والكتاب والنبيين »**(٢) ••

فمن لم يؤمن بالبعث ، فقد ضل سواء السبيل ، يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله**

---

(١) فاطر : ٤٥ (٢) البقرة : ١٧٧

والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »[٣] ..

وسوف يلقى الله سبحانه وتعالى ، بمن يكفر بالبعث فى النار ، لما روى أن رجلا من كفار قريش أتى النبى ﷺ بعظام ، وقال له : يا محمد .. أترى الله يحيى هذا بعد ما رم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « نعم .. ويبعثك ويدخلك النار »

ثم نزل قوله تعالى : « **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم »[٤] ..**

فثبوت قدرة الله على الخلق ابتداء ، دليل على امكانية اعادة الخلق ، لأن الاعادة أقرب الى التحقيق من الخلق ابتداء ، ويضاف الى هذا الدليل ، أن الانسان يحب العدل ويكره الظلم ..

ومما لا شك فيه أن الخالق أكمل من المخلوق ، فعدل الله أكمل من عدل الانسان ، فان كان عدل الانسان يأبى التسوية بين الظالم والمظلوم ، والقاتل والمقتول ، والمطيع والعاصى ..

فمما لا شك فيه أن العدل الالهى من باب أولى يأبى التسوية بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، يقول الله تعالى : « **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »[٥] ..**

* * *

---

(٣) النساء : ١٣٦
(٤) يس : ٧٨ ، ٧٩
(٥) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨

٣٠ — الحســاب

من المبادىء الأساسية ، التى تقوم عليها الأديان ، عقيدة الحساب ، أى أن كل انسان سيحاسب على ما قدم فى حياته ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشرا ، غير أنها اختلفت فى كيفية المجازاة والعقاب ، فبعضها يرى أن ذلك ، سيكون فى الدنيا ، فى صورة حياة أخرى للروح بعد فناء الجسد ، يتحدد على أساسها عقابها أو ثوابها ، والبعض الآخر جعل الجزاء فى الدنيا فى صورة قحط وهلاك لمن عصى الله ، ورغد فى العيش وعزة فى ظل دولة قوية لمن أطاعه واتبع تعاليمه .

أما الاسلام ، فقد بين للناس أن هناك يوما للحساب ، سيكون بعد أن يحشر الناس من قبورهم ، يقول الله تعالى : **« ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينـا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شـيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون »**(١) ..

فالايمان باليوم الآخر شرط أساسى فى صحة الاسلام ، اذ الايمان : أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وهو يوم القيامة ، حيث تعود الأرواح الى الأجساد ، فيقوم الناس من قبورهم حفاة عراة ، وتنصب الموازين لتوزن بها أعمال العباد ، يقول الله تعالى : **« فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون »**(٢) ..

وفى يوم الحساب تنشر الدواوين ، وهى الصحف التى كتبت فيها أعمال العباد ، أى الكتب التى كتبتها الملائكة ، وأحصوا فيهـا ما فعله الانســان من ســائر أعماله القولية والفعلية ، يقول الله تعــالى : **« واذا الصحف نشرت »**(٣) ..

---

(١) يس : ٥١ — ٥٤
(٢) المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣
(٣) التكوير : ١٠

أى اذا الصحف التى فيها أعمال العباد ، نشرت للحساب ، فيأخذ كل كتابه أو صحيفته ، يقول الله تعالى : **« فأما من أوتى كتابه بيمينه • فسوف يحاسب حسابا يسيرا • وينقلب الى أهله مسرورا • وأما من أوتى كتابه وراء ظهره • فسوف يدعوا ثبورا • ويصلى سعيرا »**(٤) ..

وروى أحمد والترمذى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس ثلاث عرضات ، فعرضتا جدال ومعاذير ، وعرضة تطاير الصحف ، فمن أوتى كتابه بيمينه ، وحوسب حسابا يسيرا دخل الجنة ، ومن أوتى كتابه بشماله دخل النار » ..

وعليه فيجب الايمان بالبعث والنشر من القبور ، كما يجب الايمان بيوم الحساب وهو اليوم الذى تعرض فيه أعمال العباد على الله ، فيتقرر مصير كل بناء على ما قدم فى الدنيا ، فان كان قد فعل خيرا ، أخذ كتابه بيمينه ، ودخل الجنة ، وان كان قد فعل شرا أخذ كتابه بشماله ودخل النار •

ومن أنكر شيئا من هذا فهو كافر ، لأنه أنكر أمرا ثبت بنص القرآن الكريم ، فقد جاءت آيات كثيرة تثبت وجود اليوم الآخر والحساب فيه ، فمنها قوله تعالى : **« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ،** (والمراد بطائره : ما طار عنه من عمله من خير وشر فهو يلزم به ، ويجازى عليه) **ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا • اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »**(٥) ..

وقد أقسم الله بهذا اليوم ، فقال تعالى : **« لا أقسم بيوم القيامة »**(٦) ..

وأخبرنا بما يجرى فيه فقال : **« ينبؤا الانسان يومئذ بما قدم وأخر »**(٧) ..

---

(٤) الانشقاق : ٧ — ١٢
(٥) الاسراء : ١٣ ، ١٤
(٦) القيامة : ١
(٧) القيامة : ١٣

وقال : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة** (وهى يوم الحساب) **شىء عظيم • يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** »[٨] ••

* * *

(٨) الحج : ١ ، ٢

٣١ — الشــفاعة

اتفقت المذاهب الاسلامية على أن الله لن يظلم أحدا عند حسابه يوم القيامة ، لأن الظلم منقصة ، والله منزه عن النقائص ، كما تواترت الأدلة والبراهين بصورة ترفع الخلاف فى هذه المسألة ، منها قوله تعالى : **« ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحــدا »**(١) ..

وقوله : **« ان الله لا يظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجــرا عظيما »**(٢) ..

وورد فى أحاديث متعددة وعيد الله للظالمين ، وانكاره للظلم ، واخبار النبى ﷺ المسلمين بأن الله لا يظلم أحدا من خلقه .

ولكنه قد يتجاوز عمن أساء فى حقه ، فيغفر لبعض المؤمنين . يقول الله تعالى : **« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشــاء »**(٣) ..

فغفران الذنوب ، تفضل من الله على العبد ، والتفضل من شيم الكرام ، وعلى هــذا الأساس نشأت بين العلماء قضية عقدية ألا وهى أن وعيد الله يتخلف . بمعنى أن الله قــد يتنازل عن وعيده بتعذيب العاصى ، فيغفر له ذنوبه ، وهذا هو رأى أهل الســنة ، أما المعتزلة والخوارج فينكرون ذلك ، مستندين الى أن العاصى قد ارتكب اثما ، فيجب أن يأخذ عقابه ، والا أفلت مذنب من العقاب على ما ارتكب .

وتفرع من هذه القضية مسألة الشفاعة يوم القيامة ، فجميع المذاهب متفقة على أنه لا شفاعة لكافر ، لكنهم اختلفوا فى شأن عصاة المؤمنين ،

---

(١) الكهف : ٤٩ — (٢) النساء : ٤٠

(٣) النساء : ٤٨ ، ١١٦

فذهب المعتزلة والخوارج الى انكارها ، مستدلين على ذلك بقوله تعالى :
« ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »(٤) ..

وقوله : **« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون »**(٥) ..

أما أهل السنة ، فقد أثبتوا الشفاعة لأهل الاخلاص ، وقالوا انها مقيدة بأمرين : اذن الله للشافع بأن يشفع ، ورضاه عن المشفوع له ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : **«من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه»**(٦) .
وقوله : **« ولا يشفعون الا لمن ارتضى »**(٧) ..

وردوا على الآيات التى استدل بها المعتزلة على رأيهم فى نفى الشفاعة ، بأنها وردت فى حق الكفار ، ومعلوم أن الجميع متفقون على أنه لا توجد شفاعة للكافر .

وعليه .. فأهل السنة يثبتون الشفاعة لمن يأذن الله لهم من المؤمنين ، كما يثبتون الشفاعة للنبى ﷺ ، فذكروا أن له شفاعات عدة منها : شفاعته فى أهل الموقف حتى يقضى بينهم ، وهى المعروفة بشفاعته العظمى ، لتعجيل الحساب ، واراحة الناس من هول الموقف ، وهذه خاصة به دون سائر الأنبياء .

وشفاعته فى عصاة الموحدين ، الذين يدخلون النار بذنوبهم ، يشفع فيهم لاخراجهم منها ، وشفاعته لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجتهم ، وشفاعته فى قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم فيدخلون الجنة ، وشفاعته فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عنهم العذاب ، وهذه خاصة بأبى طالب .

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن الشفاعة ما هى الا صورة من صور الوساطة التى تمارس فى المجتمعات الانسانية ، اد بواسطة من له علاقة بمن بيدهم الأمر ترتكب مخالفات دون محاسبة ، ويتجاوز

(٤) غافر : ١٨
(٥) البقرة : ٤٨
(٦) البقرة : ٢٥٥
(٧) الأنبياء : ٢٨

عن معاقبة المذنب ارضاء لصاحب الأمر فتطمس معالم العدالة — وحاشا لله أن يقبل أمرا يمس تطبيق العدالة بين الناس — ولذا فهم ينكرون الشفاعة ، ويؤولون الآيات التى وردت فى شأنها ، كما فعل ذلك المعتزلة فى صـــدر الاســـلام •

غير أن حقيقة الشفاعة تخالف هذا المفهوم الذى توصلوا اليه ، ألا وهو أن الله عندما يريد العفو عن مسىء ، لبادرة قام بها فى حياته ، أو لتصرف حميد فى ناحية ما ، ويريد فى الوقت نفسه تكريم عبد فانه يحرك هذا العبد ليشفع فيمن أراد الله أن يغفر له ، فالحقيقة أن الله سيغفر لهذا العبد سواء شفع له الشافع أم لم يشفع ، غاية الأمر أن الله أراد أن يكرم الشافع فوجهه الشفاعة فى أمر قد تقرر قبوله ، وبهذا المعنى تختلف الشفاعة عن ظاهرة الوساطة الموجودة فى عالمنا الانسانى ، بدليل أن الشفاعة لا تقبل فيمن كفر بالله ، كما لا تقبل فيمن سلب حقوق الآخرين حتى يؤدى ما عليـــه باعطائهم من حسناته ، فان لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئاتهم ووضعت فى حسابه ، وليس هناك شفاعة لمن ارتكب الكبائر •

كل هذا يبين أنها تكريم للشافع ، فيمن أراد الله العفو عنه ، وليست وسيلة لضياع الحقوق ، أو براءة من أذنب فى حق الآخرين ••

* * *

٣٢ ـ حقائق المصطلحات التى وردت عن الآخرة

وهب الله الانسان العقل ، وألهمه التفكير فيما حوله من مظاهـر الطبيعة ، بل انه استنكر على من ألغى عقله هذا الاتجاه ، فقال تعالى : **« أو لم يتفكروا فى أنفسهم »**[١] ..

وقال : **« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء »**[٢] ..

وقد استخدم الانسان عقله ، فأجرى بحوثا عديدة بغية الكشف عن أسرار الطبيعة ، غير أنه ــ على الرغم من التقدم الهائل فى مجال البحث العلمى ــ لم يستطع أن يتوصل الا الى القليل من أسرار الطبيعة ، ذلك أن عقل الانسان محدود بقدرة معينة ، لا يستطيع أن يتجاوزها .

فاذا كان هذا حاله فى مظاهر الطبيعة المحيطة به ، فمن باب أولى هو أشـد عجزا فى مجال البحث عما خفى عليـه ، أعنى فيما وراء الطبيعة ، اذ ما يتعلق بها لا دخل للعقل فيه ، لأنه يعجز عن التوصل اليه وانما مصدره السماع فقط ، أى ما يخبر به الوحى عن طريق نبى يوحى اليه ، ولهذا سمى هذا النوع فى العقيدة الاسلامية بالسمعيات . ومما ورد فى السمعيات الاخبار بالميزان والصراط والحوض وغيرها .

أما الميزان .. فقد جاء ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : **« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة »**[٣] ..

وقوله : **« فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية »**[٤] ..

غير أن العلماء اختلفوا فى تحديد هيئته وصورته ، فقال أهل السنة : انه بعامود وكفتين ، والموزون فيه صحف الأعمال ، أو مثالات يخلقها الله تعالى ، ويزنها على قدر أجور الأعمال ، ومما يتعلق بها من ثوابها

---

(١) الروم : ٨ — (٢) الأعراف : ١٨٥

(٣) الأنبياء : ٤٧ — (٤) القارعة : ٦ ــ ٩

وعقابها ، أما المعتزلة فقد أنكروا هذا التصور للميزان ، وأولوا الوزن على اعتبار الحسنات ، وقالوا : « وزن كل شيء بما يليق به » •

أما الصراط •• فقد وردت آيات عدة فى القرآن الكريم ، تتحدث عن الصراط المستقيم ، وهداية الله الانسان اليه ، كما وردت آية تتحدث عن صراط الجحيم ، ويفهم من هذه الآيات أنه هو الطريق الصحيح فى الهداية والرشاد ، فمن اهتدى فقد سلك الصراط المستقيم الذى رسمه الله لعباده فى قوله تعالى : **« وأن هــذا صراطى مستقيما فاتبعوه »**[٥] ••
ومن ضل فقد تنكب الطريق المستقيم ، ومال الى طريق جهنم • كما قال الله تعالى عنه : **« احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون • من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم »**[٦] ••

غير أن هناك أحاديث تخبر عن صراط الآخرة ، ويفهم منها أنه جسم ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون ، كما ورد فيهــا أنه أدق من الشعرة ، وتكون سرعة الناس عليه قدر أعمالهم • وقد أنكر ذلك المعتزلة ، وأولوا الصراط بطريق الجنــة ، وبالأدلة الواضــحة ، وبالعبادات كالصلاة والزكاة وغيرهما من الأعمال التى تقرب العبد من الله سبحانه وتعالى •

أما الحوض •• فلم يرد له ذكر فى القرآن الكريم اطلاقا ، وانما ورد فى الأحاديث ، منها ما رواه مسلم عن أنس أنه قال : بينما رسول الله بين أظهرنا اذ غفى اغفاءة ، ثم رفع رأسه متبسما ، فقلنا : ما أضــحكك يا رسول الله ؟ فقال : « أنزلت على آنفا سورة •• فقرأ : **« أنا أعطيناك الكوثر »**[٧] ، ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : انه نهر وعدنيه ربى ، عليه خير كثير ، وهو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب •• انه من أمتى • فيقال : أما تدرى ما أحدثوا بعدك » ؟ ••

---

(٥) الانعام : ١٥٣
(٦) الصافات : ٢٢ ، ٢٣
(٧) الكوثر : ١

ويرى بعض المحدثين أن الايمان بما جاء فى القرآن الكريم عن أحوال يوم القيامة واجب ، ويدخل فى ذلك الايمان بوجود الميزان وغيره .

أما حقيقة المصطلحات التى وردت عن أحوال اليوم الآخر ، فيجب التوقف فيها عند النص ، بمعنى أننا نؤمن بوجود الميزان يوم القيامة ، أما هيئتـــه وكيفية الوزن ، فذلك خارج عـــن قدرة عقولنا ، فينبغى ألا نخوض فيه ، ونتبع هذا فى كل ما ذكره الوحى أو الحديث الصحيح عن أحوال الآخرة كالصراط والحوض وغيرهما .

***

٣٣ — الجنـة والنـار

أمر الله أنبياءه ورسله بأن يبلغوا عباده بأنه أعد للمتقين جنات النعيم ، وللعصاة نار الجحيم ، وذلك تحقيقا للعدالة فى مجال الثواب والعقاب ، فقال تعالى : « **وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضـها السموات والأرض أعدت للمتقين** »[١]

ويقول مخبرا عما أعده للعصـاة : « **قل للذين كفروا سـتغلبون وتحشرون الى جهنم ، وبئس المهاد** »[٢] ..

ويقول : « **ان جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لابثين فيها احقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . الا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . انهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا** »[٣] ..

وقد وردت فى القرآن الكريم عدة أسماء للجنة منها : دار السلام . يقول تعالى : « **لهم دار السلام عند ربهم** »[٤] ..

ويقول : « **والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم** »[٥] ..

وأطلق عليها : دار الخلد . لأن نعيمها باق لا يفنى ، يقول تعالى : « **ان هذا لرزقنا ما له من نفاد** »[٦] ..

ويقول : « **أكلها دائم وظلها** »[٧] ..

ويقول : « **وما هم منها بمخرجين** »[٨] ..

كما اشتهرت باسـم الفردوس ، أو دار المقامة . يقول تعالى : « **الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** »[٩] ..

---

(١) آل عمران : ١٣٣
(٢) آل عمران : ١٢
(٣) النبأ : ٢١ — ٣٠
(٤) الانعام : ١٢٧
(٥) يونس : ٢٥
(٦) سورة ص : ٥٤
(٧) الرعد : ٣٥
(٨) الحجر : ٤٨
(٩) المؤمنون : ١١

ويقول : « **جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيهــا حرير • وقالوا الحمــد لله الذى أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور • الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** »[١٠] ••

كذلك أطلق على النار أسماء عدة منها : سقر ، يقول الله تعالى : « **يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر** »[١١] ••

ويقول : « **سأصليه سقر • وما أدراك ما سقر • لا تبقى ولا تذر • لواحة للبشر • عليها تسعة عشر** »[١٢] ••

كما أطلق عليها : السعير • يقول تعالى : « **ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** »[١٣] ••

ويقول : « **وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنــذر يوم الجمع لا ريب فيــه ، فريق فى الجنــة وفريق فى السـعير** »[١٤] ••

كذلك اشتهرت بالنار ، وجهنم ، والجحيم ، وغيرها من الأسماء التى لا يتسع المقام لحصرها كلها •

وقد اختلف العلماء فى خلق الجنة والنار قبل يوم القيامة ، فأنكره جماعة من المعتزلة ، زاعمين أنه لا فائدة من خلقهما قبل يوم الثواب والعقاب ، وحملوا قوله تعالى « **أعدت للمتقين** »[١٥] •• على أنه من باب التعبير عن المستقبل بالمــاضى لتحقق وقوعه •

وذهب أهل السنة الى أن الجنة موجودة مخلوقة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون** »[١٦] •

---

(١٠) فاطر : ٣٣ — ٣٥
(١١) القمر : ٤٨
(١٢) المدثر : ٢٦ — ٣٠
(١٣) فاطر : ٦
(١٤) الشورى : ٧
(١٥) آل عمران : ١٣٣
(١٦) آل عمران : ١٦٩

فقد روى أن ابن مسعود سأل عن هذه الآية فقيل له : « انه لما أصيب اخوانكم فى أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد فى أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب فى ظل العرش » •

كذلك روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغلقت أبواب النار ، وصفدت مردة الشياطين » ••
فهذه وغيرها من الآيات والأحاديث تثبت وجود الجنة والنار الآن •

غير أن بعض العلماء سئل عن ذلك فقال : « السكوت عن هذا أفضل » •• وهذا جواب سديد في هذا المقام ، لأن ذلك من الغيبيات التى لا يستطيع العقل البشرى أن يبحث فيها ، بل عليه أن يسلم بالنص كما هو ، دون أن يحاول شرحه أو التعليق عليه ، لأن ذلك فوق طاقته •

* * *

٣٤ — الملائكـــة

من الغيبيات التى لا يتم ايمان المسلم الا بها ، الايمان بوجود الملائكة ، لقوله تعالى : « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته** »[١] ••

فمن لم يؤمن بوجود الملائكة فهو كافر ، لأنه أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة •

غير أن العلماء اختلفوا فى طبيعتهم ، فذهب الجمهور الى أنهم مخلوقون من النور ، اعتمادا على حديث ورد فى صـــحيح مسلم ، وفى مسند الامام أحمد بن حنبل ، وذهب آخرون الى أن النور لا يمكن أن يجسد لأنه أثر للنار ، وعليه فالملائكة مخلوقة من النار ، واعتمدوا فى ذلك على قوله تعالى : « **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** »[٢] ••

فقالوا : ان الله خلق طبيعتين : الانسان من الطين ، والجان من النار ، وفسروا الجان ، بأنه ما جن ، أى استتر ، ولـــا كانت الملائكة مستترة لا ترى بالعين ، فهى من الجان •

ولكن لم يلق هذا الرأى قبولا بين المسلمين ، وظل الرأى السائد هو أن الله خلق الملائكة من نور ، كما خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، والجان هم الجن الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله تعالى : « **قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا • يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنـــا احـــدا** »[٣] ••

ولا يعقل أن يكون هؤلاء ملائكة ، لأن الملائكة مفطورون على العبادة فلا يحتاجون الى رسالة •

وعليه •• فيجب الايمان بالطبيعة الثالثة ، الذين خلقهم الله من نور ، كما يجب الايمان بأن الله فضل بينهم ، فمنهم الملائكة المقربون وهم :

---

(١) البقرة : ٢٨٥ (٢) الحجر : ٢٧
(٣) الجن : ١ ، ٢

جبريل ، وهو الموكل بابلاغ الوحى الى الأنبياء والرسل ، كما قال تعالى . **« نزل به الروح الأمين »**[٤] ...

وميكائيل ، لأنه ذكر فى قوله تعالى : **« من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين »**[٥] ..

واسرافيل ، وهو الموكل بالنفخ فى الصور يوم القيامة .

كما يجب الايمان بمالك خازن النار ، لقوله تعالى : **« ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال انكم ماكثون »**[٦] ..

وخازن الجنة ، وقيل ان اسمه رضوان .

كما يجب الايمان بخزنة النار ، لقوله تعالى : **« عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة »**[٧] .

والحفظة ، لقوله تعالى : **« وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة »**[٨] .

وقوله : **« له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله »**[٩] ..

والكتبة ، لقوله تعالى : **« وان عليكم لحافظين . كراما كاتبين »**[١٠] .

وجملة القول : انه يجب الايمان بمن ورد اسمهم من الملائكة فى القرآن الكريم : كما يجب الايمان بأن هناك ملائكة آخرين لحمل العرش ، وملائكة لقبض الأرواح وغيرهم .

والدليل على وجود الملائكة ووجوب الايمان بهم ، ذكرهم فى آيات عديدة فى القرآن الكريم ، وأمر الله المؤمنين بأن يصدقوا بوجودهم جملة وتفصيلا ، فمن يكفر بهم فقد تنكب الطريق المستقيم ، يقول الله تعالى : **« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »**[١١] .

---

(٤) الشعراء : ١٩٣
(٥) البقرة : ٩٨
(٦) الزخرف : ٧٧
(٧) المدثر : ٣٠ ، ٣١
(٨) الأنعام : ٦١
(٩) الرعد : ١١
(١٠) الانفطار : ١٠ ، ١١
(١١) النساء : ١٣٦

كذلك ورد الاخبار بهم فى أحاديث رسـول الله ﷺ ، منهـا ما رواه مسلم أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه عندما يقوم لصـلاة الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لمـا اختلف فيه من الحق باذنك ، انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم » ..

وقوله : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع الا وعليـه ملك ساجد » ..

أضف الى ذلك أن العقل لا يحيل وجود الملائكة ، خاصة وأن لهم آثارا تدل على وجودهم ، ومن هذه الآثار :

(أ) وصول الوحى الى الأنبياء والمرسلين ، اذ كان غالبا ما يصلهم بواسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام ، وهو الملك الموكل بالوحى .

(ب) وفاة الناس بقبض أرواحهم ، فانه أثر ظاهر ، كذلك هو دال على وجود ملك الموت وأعوانه ، يقول الله تعالى : **« قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم »**[١٢] ..

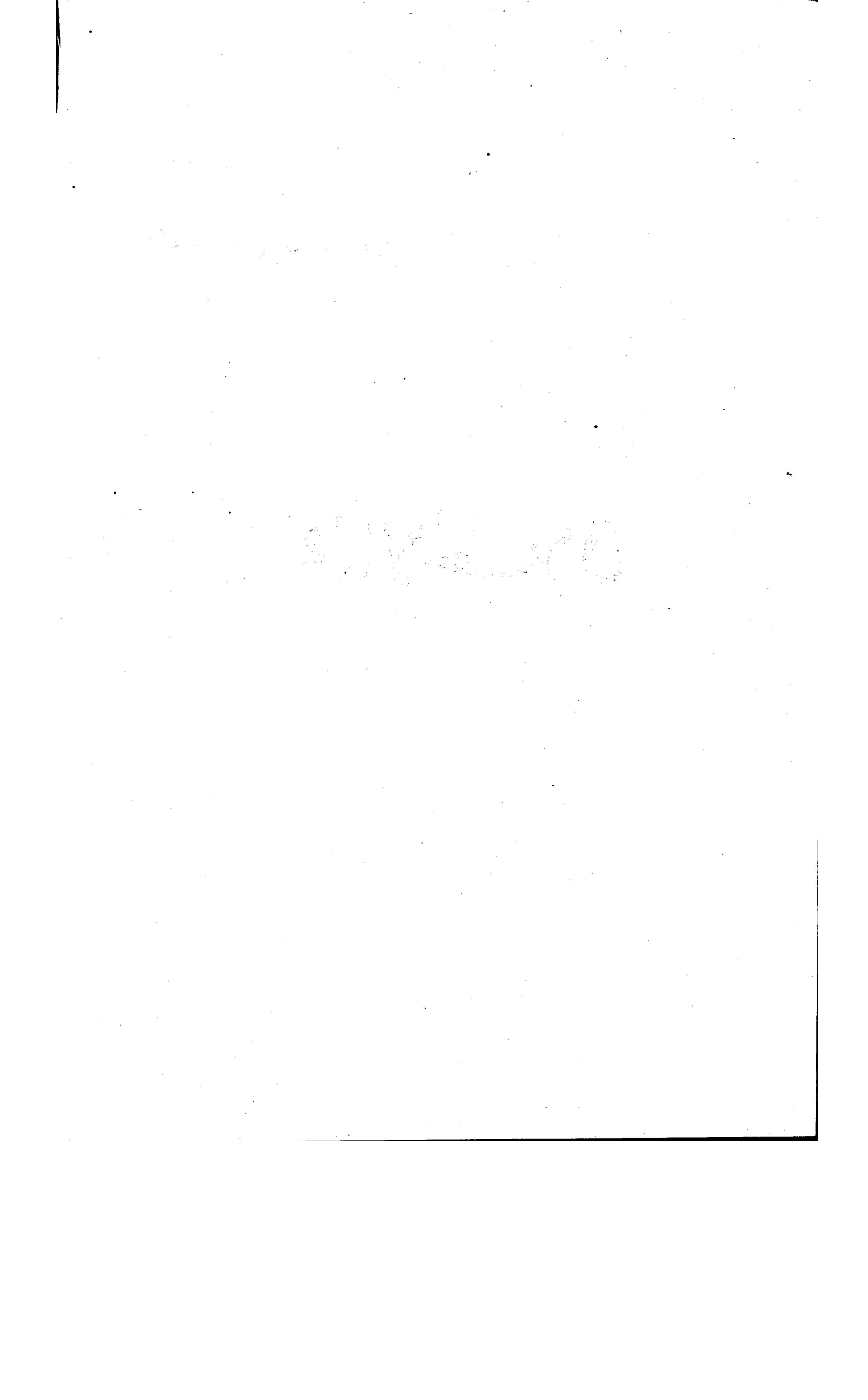
وأخيرا .. اجماع الناس على أن عدم رؤية الشىء لضعف البصر ، أو لفقد امكانية الرؤية ، لا ينفى وجوده ، فهناك الكثير من الأشـياء المـادية لم تر الا بعد اختراع المنظار ، فكذلك عدم رؤية الملائكة لا ينفى وجودها ، لأنه ليس لدينا من الامكانيات ما يساعدنا على رؤيتها ، وما دام قد أخبرنا الوحى بوجودها فيجب الايمان بها .

* * *

(١٢) السجدة : ١١

الفصل الثانى

فى الأخلاق



١ ــ الصـــدق

الصدق من الصفات الحميدة فى الانسان ، بل انه من أفضـل الصفات الانسانية على الاطلاق ، ذلك أن من يتحلى بالصدق فى القول وفى العمل ، فهو لبنة صالحة فى بناء المجتمع الانسانى ، لأن الصدق من أهم الدعائم التى تستقيم بهـا حياة الفرد ، وتصلح بهـا العلاقات الاجتماعية ، وتقوى بها الروابط بين الناس فى المجتمع •

ولهذا حث الاسلام عليه ، ووعد الصادقين جنات النعيم ، فقد ورد مدح الصدق والصادقين فى القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة ، منها قوله تعالى : **« ليجزى الله الصادقين بصدقهم »**[١] ••

ويقول فى سورة آل عمران : **« قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد • الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار • الصابرين والصادقين »**[٢] ••

فذكر أن الصدق من صفات هؤلاء الذين سينعمون بجنات تجرى من تحتها الأنهار •

وقال تعالى :**« قال الله هـذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم »**[٣] •

كذلك ورد فى حديث رسـول الله ﷺ ما يدعو المسـلمين الى التحلى بالصدق فى القول والعمل ، فقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : « من أفتى بغير علم كان اثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أحد بعلم وهو يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه » •

فيبدو من هذا الحديث أن الرسول ﷺ ، ينبئنا أن من الخيانة عدم الصدق فى المشورة ، وعدم الاخلاص فى النصيحة ، فالذى يشير على غيره بأمر وهو يعلم أن الهداية والرشـد فى غير ما أشـار به ، فقـد

---

(١) الأحزاب : ٢٤
(٢) آل عمران : ١٥ ــ ١٧
(٣) المـائدة : ١١٩

خدعه وأضله اذ لم يصدقه فى النصح ، وهو بهذا قد خان العهد الذى ينبغى أن يكون بين المسلم وأخيه المسلم ، كما روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « حق المسلم على المسلم ست ، قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه » .. فجعل الحديث أن من حق المسلم على أخيه المسلم النصح ، ولا يكون الأمر نصحا الا اذا صدر عن اخلاص واعتقاد بأن فيه الهداية والرشد .

فالصدق صفة مطلوبة ، وفضيلة يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، فان لم يفعل ذلك ، كان جزاؤه النار وبئس المصير ؛ فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » ..

فالحديث يحث على الصدق ، ويوضح أنه سبيل الى البر والخير والاحسان فى الحياة الدنيا ، سواء أكان للانسان الذى يلتزم بالصدق ، أو لمن يتعامل معه ويتصل به ، بالاضافة الى أنه طريق يوصل صاحبه الى ثواب الله فى الآخرة .

كما حذر المسلمين من الكذب ، فبين أن عاقبته سيئة على الكاذب فهو مهلكة له ولمن يتعامل معه ، ذلك أن أثره السىء يعود عليهم جميعا ، فهو موصل الى الفجور ، والموبقات ، والتصرفات المرذولة فى الحياة الدنيا ، ثم هو بعد ذلك طريق يقود صاحبه الى النار فى الآخرة .

وكما حث الاسلام المسلمين على الالتزام بالصدق فى القول ، ووعد من التزم به جزاء فى الدنيا ونعيما فى الآخرة ، كذلك أمرهم بالصدق فى العمل ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » ..

* * *

٢ — الاتقان فى العمل

ورد ذكر العمل الصالح والحث عليه فى آيات عديدة من القرآن الكريم ، ولو رمت تلاوة تلك الآيات التى ورد فيهـا حث المؤمنين على العمـل الصالح ، والاخبار بالجزاء المعـد لمن يمتثل لأمر الله فيعمل صالحا ، لضاق بنا الوقت المخصص لهذا الحديث ، ولهذا سوف أكتفى بتلاوة بعض منها ، يقول الله تعالى : **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »**[1] ..

وقال تعالى : **« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم »**[2] ..

ويفهم من تكرار العمل الصالح والحث عليه فى القرآن الكريم أن له أهمية خاصة ، ودورا أساسيا فى حياة الانسان الدنيوية والأخروية ، ذلك أن الالتزام بأداء الأعمـال على وجهها الأكمل بحيث تصير صالحة يعود على الانسان فى الحياة الدنيا بالخير ، وفى الآخرة بالثواب .

● كيف يكون أداء الفرائض الدينية وسيلة لنيل الخير فى الدنيا ؟

— يفهم من سؤالك أنك قصرت مفهوم العمل الصالح على أداء العبادات فقط من صيام وصلاة وزكاة وحج وغيرها .

● نعم .. فعندما يقال : فلان صالح ، فانهم يقصدون أنه ملتزم بأداء الفرائض ، أو هو دائم الحضور فى المساجد ولا يفتر عن تسبيح الله وتحميده ليلا أو نهارا .

— ليس الأمر كما تصورت ، فان الصالح من الأعمال لا ينحصر فقط فى أداء العبـادات المفروضة ، أو التطوع بالسنن الواردة فى كتب الدين ، بل انه يتجاوزها الى الأعمال التى يظن كثير من النـاس أنها دنيوية .

---

(١) النحل : ٩٧ — (٢) البقرة : ٢٧٧

● كيف ذلك ؟

ـــ عندما وصف العمل بالصلاح فى القرآن الكريم ، لم يكن المقصود العبادات فقط ، بل كل ما يباشره الانسان من أعمال ، سواء أكانت زراعية أو صـــناعية •

فالفلاح الذى يتقن عمله فى حقله ، يكون قد أدى عملا صالحا يعود نفعه عليه فى الدنيا ، وذلك بأن تصلح زراعته فتؤتى ثمارا طيبة ، يصيبه منها ربح مادى كما يخدم بذلك وطنه الاسلامى ، لأنه باجتهاده فى زراعته وانتاجه محصولا طيبا ، يكون قد أسهم فى حل المشـــاكل الغذائية فى المجتمع ، وفضلا عن ذلك كله ، فالله سبحانه يمنحه ثوابا فى الآخرة على ما قدم لمجتمعه فى الدنيا •

كذلك العامل فى المصنع ، اذا التزم بأمر الله ونفذ ما وصاه به فى كتابه العزيز ، بأن يكون عمله عملا صالحا ، فيجب عليه بمقتضى هـــذا الالتزام أن يتقن صناعته ، فلا يخرج من تحت يده الا ما يكون صالحا للغرض الذى من أجله صنع ، فالعامل المسلم الصالح هو الذى يعتنى بما يصنع ، بحيث لا يخرج من تحت يده الا الصناعة المتقنة ، فلو فعل هـــذا ، لكان عمله صالحا ، ينال عليـــه خيرا فى الدنيـــا • وذلك بسبب شـــهرة الاتقان التى تؤدى الى أن يقبـــل الناس على شراء منتجاته ، كما يعود بالخير أيضا على أمته الاسلامية ، لأن شهرة اتقانها فى الصناعة يجعلها تحتل مركزا مرموقا بين الأمم ، ويحمل الناس على احترامها ، وفى ذلك خير للاسلام ، ودعوة مباشرة الى غير المسلمين للتفكير فى هـــذا الدين الذى ربى أتباعه تربية جعلتهم يحرصون على اتقان ما يصنعون ، خوفا من عقاب الله ، وطمعا فى ثوابه •

لعلك أدركت من هـــذا الشرح أن العمل الصالح الذى ورد ذكره كثيرا فى القرآن الكريم ، ليس مقصورا فقط على أداء الفرائض الدينية ، بل يشمل كل عمل يقوم به الانسان ، ولذا جاء عطف الصلاة والزكاة

عليه فى قوله تعالى : « **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم** »[٣] ..

فهذا يشير الى أن العمل الصالح يشتمل على كل ما يباشره الانسان فى حياته . وأن الجزاء سيكون أيضا لمن أتقن عمله ، وأحسن صناعته ، والعقاب سيلحق المهملين الذين يخدعون الناس ويغشونهم فيما يقدمون لهم من صناعة غير متقنة .

وفق الله كل مسلم الى اتقان عمله ، وتحسين بضاعته ، حتى يعم الخير فى الدنيا ، وننال الثواب فى الآخرة . انه سميع مجيب .

* * *

(٣) البقرة : ٢٧٧

٣ — الاخلاص فى العمـل

الاخلاص فى العمل من الوصايا التى وصى بهـا الله عباده ، فقد قال فى كتابه العزيز : « **انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين** »(١) •

وقال تعالى : « **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** »(٢) ••

وقال : « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** »(٣) ••

فالاخلاص فى العبادة ، شرط أساسى لتنال القبول والرضـا من الله سبحانه وتعالى ، وهو حصن من الحصون التى يحتمى بها الانسان ضد غواية الشيطان وضلاله ، فقد جاء فى القرآن الكريم حكاية عن ابليس قوله : « **فبعزتك لأغوينهـم أجمعـين • الا عبـادك منهـم المخلصـين** »(٤) ••

فمن لم يخلص فى العبادة لله ، فلن ينال الا المشقة فى تأديتها ، ذلك أن محور العبادة هى أن تكون خالصة لوجهه تعالى ، كى يصـل العابد الى الهـدف من تأديتها ، وهو رضـوان الله ، وتهذيب النفس وتحصينها ضد الوقوع فيما يغضب الله ، حتى لا يخسر الانسان دنياه وآخرتـه •

أما الخسران فى الدنيا ، فيتمثل فى اشاعة الفحشاء والمنكر فى المجتمع ، فينحل عقده وتضطرب أموره فينتشر الفساد فى الأرض • واذا انتشر الفساد عمت البلوى وضاع الأمن والأمان ؛ فتصبح الحياة كئيبة ، لا طعم لها ولا استقرار فيها ، وذلك هو الخسران المبين •

أما فى الآخرة فعقاب الله — وكفى ذلك اذلالا وعذابا — لا يعلم مداه الا الله ، وجحيما ذا غصة ونكالا أليما • فيجب عليك أيها المسلم ،

---

(١) الزمر : ٢
(٢) الأعراف : ٢٩
(٣) البينة : ٥
(٤) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣

أن تخلص العبادة لله وحده ، وأن تدعوه خالصا لوجهه سبحانه وتعالى ، حتى تنال الخير فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة .

وكما أن الاخلاص فى العبادة شرط لصحتها ، وركن أساسى لنيل ثواب الله ، كذلك الاخلاص فى الأعمال الدنيوية مطلوب شرعا ، فان الله لا يقبل من الأعمال الا ما كان خالصا ، فهذه اشارة للمسلم ، وطلب منه أن يكون فى جميع أعماله مخلصا . وأن يؤدى ما يكلف به على خير وجه والا لحقه غضب الله سبحانه وتعالى ولعنته .

فقد ورد أن الله يحب اذا عمل الانسان عملا أن يتقنه ، فان لم يتقنه ، غضب الله عليه ، ولا يكون الاتقان ولا يتحقق الا اذا أخلص العامل فى عمله ، وحرص على أن يؤديه على الوجه الأكمل .

فالاتقان فى العمل والاخلاص فيه مطلوب ، لينال الانسان الرضا من الله ، وليس الاتقان المطلوب مقصورا فقط على العبادات ، بل هو مطلوب فى كل عمل ، سواء أكان عبادة أو عملا يتعلق بالأنشطة الدنيوية .

ففى العبادة .. يطلب من المسلم أن يؤديها على نحو يؤدى الى الهدف الذى من أجله فرضت ، فتأدية الصلاة مثلا ، ليس القيام بالركوع والسجود فحسب ، بل لا يكون أداؤها كاملا الا اذا أدت الى البعد عن الفحشاء والمنكر .

يقول الله تعالى : « **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر** »[٥] .

ويروى عن عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس ، قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وحبل مشدود بين ساريتين ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : حبل نتكىء عليه .. قال : حلوه .. ليصل أحدكم نشاطه ، فاذا كسل ، أو فتر ، قعد »

ويروى مسلم ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « اذا قام أحدكم من الليل ، فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول .. فليضجع » ..

فحرص الرسول عليه الصلاة والسلام على أن تؤدى الصلاة فى

(٥) العنكبوت : ٤٥

وقت نشاط الانســان ويقظته ، حتى يكون واعيا لمــا يقول اذا وقف بين يدى الله ، فأعلن عن عدم رضائه عن تأديتها فى حال الكسل ، أو الغفوة ، لأن تأديتها عندئذ لا يحقق الغاية منها •

كذلك مطلوب من الصانع فى الصناعة اذا كان حريصا على رضــاء الله ومحبته ، أن يتقن عمله فيما يصنع ، أى يخلص فيه بالعناية فى اختيار النوع الأفضل ، واجادة صناعته ، ولا يخرج من تحت يده كما لا ينفع ، وصورا لا تؤدى الغرض المطلوب منها ، اذ التركيز على اتقان العمل وسيلة لترويج ما يصنع وأسلوب يضمن دوام العمل لمن يعمل ، واستمرار الثقة فيما يخرج من تحت يده من آلات مصنوعة ، وأدوات معدة للاستعمال •

وفى التجارة •• يطلب من التاجر ، أن يتقن عمله ويخلص فيه ، وذلك بالامتناع عن الغش والخداع ، وأن يلتزم فى دعايته عن السلع المعروضة حدود المعقول ، فلا يتعداه الى المبالغة التى تؤدى الى اعطاء صــورة كاذبة للمشترى عن السلعة •

كذلك فى المجالات الأخرى ، سواء أكانت ثقافية ، أم مجــالات خدمات ، يطلب من القائمين بها أن يتقن كل منهم عمله ، بحيث تؤدى الخدمات الى مستحقيها أو توصل المــادة الثقافية على وجــه يحقق الفائدة منها •

فالاتقان فى العمــل والاخلاص فيه يقــوم على نفى الخداع ، حتى يكون طريقا ايجابيا لاصلاح المجتمع ، وســبيلا سويا يرضى الله عنه فيثيب صاحبه عليه •

وما تفريق القرآن الكريم بين عمل مثمر ، وآخر غير مثمر فى قوله تعالى : « **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مســتقيم** »[٦] ،

الا ارشادا للمسلمين ، بأن يعنوا بنوع العمل قبل كمه ، وبجودته قبل كثرته ، وبايجابيته وثمرته فى الحياة قبل ضخامته •

* * *

---

(٦) الملك : ٢٢

٤ — قضاء حاجات الناس

عنى الاسلام بتوثيق العلاقة بين المسلمين بعضهم مع بعض ، فحث على التعاون ومساعدة المحتاج ، ولم يقصر المساعدة على الجانب المادى فقط ، بل حث عليها سواء أكانت مادية ، أو معنوية ، فيروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » ..

فهذا الحديث ، يبين لنا أن تعاون المؤمن مع أخيه المؤمن فى المجتمع الاسلامى يشمل الناحيتين : المعنوية والمادية .

ففى المجال الأول يحث على توجيه المؤمن لأخيه المؤمن ، أى تعاونه فى اصلاح عيوبه ، ذلك أن المؤمن يحتاج الى معرفة عيوبه ، فيصححها حتى تسير حياته فى طريق مستقيم ، ولما كان لا يستطيع ادراك عيوبه بنفسه ، فهو يحتاج الى من يبينها له ، فعليه أن يسأل غيره عنها ، كما ورد عن عمر رضى الله عنه ، أنه قال لحذيفة رضى الله عنه : « هل ترى فى شيئا من علامات النفاق ؟ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين » .

اذن فالمؤمن بالنسبة لمؤمن آخر يشبه مرآته ، يرى فيه حال نفسه على الحقيقة ، لأنه أمين عليه ومبتغ خيره ، وعليه وزر التقصير فى حقه ، أى أن من لا ينصح أخاه المسلم فى اصلاح عيوبه . فهو مقصر فى حقه ، مخالف لما أمر به رسول الله ﷺ .

أما فى المجال الثانى : وهو مجال المعاونة المادية بين المؤمنين ، فقد حدد الرسول ﷺ ذلك حين وصى المؤمن بكف الأذى عن أخيه المؤمن ، حيث أمره بالمحافظة على ما به قوام الانسان ومعيشته ، حتى لا يتطرق اليه التلف أو ينتابه الضعف ، سواء أكان ذلك فى حضرة صاحب الشىء أم فى غيبته .

فقضاؤك لحاجة أخيك المسلم عون له ، ودفع الأذى عنه مساعدة له ، والحرص على تمكينه من الوصول الى ما يستحق فى المجتمع امتثال لما أمر به الرسول ﷺ فى قوله : « المسلم أخو المسلم :

لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته يوم القيامة ، ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » .

فالظلم الذى ينهى عنه الرسول ﷺ فى الحديث ، يتضمن كل اعتداء على حق أخيك فى المعاملات والعلاقات التى تقتضيها الحيـاة الاجتماعية .

فمن اغتصب مال أخيه ، بأية صورة كانت ؛ فهو ظالم له ، ومن تسبب فى عدم وصول الحق الى أخيه ، فهو ظالم له ، ومن عطل مصالح أخيه ، فهو ظالم له ، ويدخل فى تعطيل المصالح كل من تهاون من الموظفين العموميين فى انجاز أعمال المسلمين ، فالموظف الذى يهمل مصالح الناس ويؤخرها ، أو يتعمد عدم انهاء ما بين يديه من أوراق تخص المسلمين ، فهو ظالم لهم ، بل أن من يهمل فى مصلحـة الدولة فهو ظالم لجماعة المسلمين قاطبة ، لأن عمله هـذا يؤدى الى تأخير الأمة عن التقدم ، واذا أصاب الأمة مرض العجز عن ملاحقة تطور العصر بسبب اهمال القائمين على شئونها ، فقد أجرموا فى حق الله وحق الاسلام ، لأن هذا التأخير والاهمال ، قد يؤدى الى خضوع المسلمين الى من لا دين لهم ، وبذلك تكون كارثة على الاسلام والمسلمين .

فيا أيها المسـلمون فى كل موقع ، سواء فى المكتب ، أو المصنع ، أو المتجر ، لا تتهاونوا فى أعمالكم ، كى يسـود الاسلام ، ولا تهملوا فى مصالح الناس حتى لا تكونوا من الظالمين فتقعوا فى عذاب النار وبئس المصير ، وكونوا عونا لاخوانكم المسلمين ، يكن الله فى عونكم ، وفرجوا كرب أصحاب المصالح التى تحت أيديكم ، يفرج الله عنكـم كـرب الدنيـا والآخرة .

أما فى الدنيا فيحرركم من الخضوع للاستعمار ، والركوع أمام من سبقكم فى مجالات التقدم الحضارى ، لأنكم بتأديتكم أعمالكم على الوجه الأكمل ستسهمون فى تقدم أمتكم ، ويومها لن تمدوا أيديكم الى

غيركم ، فان من يمد يده يتعرض للمذلة والهوان .. فجدوا واجتهدوا فى أعمالكم ، حتى تتحرروا من مذلة الحاجة والسؤال .

أما فى الآخرة فثواب من الله على ما قدمتم لأمتكم الاسلامية ، من أعمـــال رفعت مكانتها بـــين الأمم ، فكان فى ذلك عزة للاســـلام والمســـلمين .

وأختتم حديثى معكم بقول رسول الله ﷺ :

« حق المسلم على المسلم ست . قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده .. فاذا مات فاتبعه » ..

لأن هـــذه الوصايا من أهم الدعائم التى يقـــوم عليهـــا مجتمع متماسك ، يحس فيه الأخ بأخيه ، ويحرص على أن يؤدى ما عليه ازاءه ، ولا يفرط أبدا فى قضاء حاجة أخيه ، أو تلبية دعوته ، ان أصابه مكروه ، أو ألم به ضرر .

فكونوا أيها المسلمون كما أمركم رسول الله ﷺ : اخوة متحابين متعاونين ، متساندين ، يكن الله معكم فى الدنيا ، ويجزيكم أحسن الجزاء فى الآخرة .

وفقنا الله جميعا الى ما فيه الخير للاسلام والمسلمين .

* * *

٥ ــ المســـاواة

من المبادىء التى يحق لنا ، نحن المسلمين ، ان نعتز بها : مبـــدأ المســـاواة بين الناس جميعا ، فقد سوى الاسلام بين بنى آدم قاطبه ، فقرر أن لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لابيض على أسود ، الا بالتقوى • يقول الله تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـــعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »**(١) ••

فمدار التفضيل ، ليس للحسب والنسب ، ولا كثرة المـــال ، ولا لون البشرة ، بل التقوى ، أى أن أساس التفضيل ، ما يبذله الانســـان من عطاء سواء أكان ذلك فى مجال العبادة ، أو فى مجال السلوك والتعامل مع الناس • وعليـــه فلا يجوز لمســـلم أن يعتد بنسب أو لون ، فقد روى البخـــارى أن أبا ذر وبلال الحبشى رضى الله عنهمـــا ــ وكلاهما من السابقين الأولين ــ تغاضبا وتسابا ، وفى ثورة الغضب قال أبو ذر لبلال : يا ابن السوداء !

فشكا بلال الى النبى ﷺ ، فقال النبى لأبى ذر : « أعيرته بأمه ، انك امرؤ فيك جاهلية » ••

وعن أبى ذر ، أن النبى ﷺ ، قال : « انظر •• فانك لست بخـــير من أحمر وأسود ، الا أن تفضله بالتقوى » ••

وقال ﷺ : « كلكم بنو آدم •• وآدم خلق من تراب » ••

فهذه الأحاديث ، حرمت على المســـلم أن يسير مع هوى الجاهلية ، فيفخر بحسب أو نسب ، أو يعتز بالآباء والأجداد ، ويحتقر من عداه ، أو ينظر اليه نظرة ازدراء لأنه ينتمى الى جنس آخر • وأبلغ دليل على تحريم احتقار الانسان لأخيه الانسان ، مهما كانت الفوارق الاجتماعية ، والانتماءات العرقية قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا**

---

(١) الحجرات : ١٣ •

منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »[٢] ..

نعم .. ان من يحتقر أخاه ، أو يلمز فى نسبه ، أو يحط من شأنه ، أو ينقص من قدره ، هو ظالم .. ظالم لنفسه : بأن ارتكب معصية ، وتجاوز ما أحل الله له .

وظالم لأخيه : لأنه أصابه اصابة قاتلة فى كيانه ، فجعله يشعر بأنه أقل ممن سواه ، بسبب لا دخل له فيه ، لأنه لم يختر أن يولد لأب فقير ، ولم يؤثر أن يكون أسودا ، وقد يكون متفوقا فى الامكانية الذاتية على غيره ممن يفتخرون عليه ، فيكونون بعملهم هذا ، قد هضموه حقه الذى بذل جهدا فيه ، وحاسبوه على شىء لم يكن له اختيار بشأنه .

وظالم للمجتمع : لأنه بافتخاره على غيره ، يكون قد بذر بذور الشقاق بين طوائف المجتمع ، وغرس فيه مقاييس لا صلة لها بالأعمال التى تقوم عليها نهضة الأمة ، فتختل القيم ، وتهدر المبادىء البناءة ، وتضيع جهود الأخيار هباء .. فلا يبقى فى المجتمع الا نعرات جاهلية ، وتفاخر أجوف ، وتعاظم بالأحساب والأنساب ، لا يقدم الأمة خطوة واحدة ، بل يكون سببا فى انهيارها .

ولهذا شن الاسلام غارات على تقاليد الجاهلية التى كانت تقوم على العصبية والكبرياء والفخر ، وتمجيد القبيلة ، فحرم على المسلمين أن يحيوا أى نزعة من نزعاتها أو أن يدعوا اليها ، فأعلن النبى ﷺ براءته ممن يفعل ذلك ، فقال : « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » ..

فلا امتياز فى الاسلام للون معين،ولا لجنس من الناس،ولا لاقليم من الأقاليم فى الأرض ، فالكل سواسية ، لا فضل لأحد على أحد الا بما يبذل من جهد وما يقدم من عطاء . فالتمييز فى الاسلام قائم على أساس العمل ، وليس على أساس النسب ، مرتكز على التقوى ، وليس

---

(٢) الحجرات : ١١ .

معتمدا على كثرة المـال ، نابع من القيمة ، وليس صادرا من الهوى ومظاهر الحياة المـادية •

هـذا هو مبدأ المسـاواة فى الاسلام ، الذى سبق به كل دعوة الى نبذ التفاخر العرقى ، قرره الاسلام منذ أربعة عشر قرنا ، فسبق به كل الحضارات الانسانية على الاطلاق ، بل ان ما يتغنون به اليوم من حضارة وتقدم ، لم تستطع أن تغرس هـذا المبـدأ فى نفوس أهلهـا كما غرسه منذ أربعة عشر قرنا ، فهم لا يزالون يفرقون بين الأبيض والأسود فى المعاملة وفى القانون فى أرقى الدول حضارة •

أليس هـذا دليلا على أن الاسلام دين الحضارة ، ودين الانسانية كلها ، لا فرق بين عربى وعجمى ؛ ولا بين أبيض وأسود ، فالكل سواء أمام الله ، لا تفضيل بينهم الا بالتقوى •

وفقنا الله واياكم الى ما فيه خير الانسانية •

* * *

٦ ــ الاسلام والعلاقات الاجتماعية

(أ) حظى موضوع المجتمع والتطورات الاجتماعية بعناية كبيرة من العلماء ، فكتبوا فيه أسفارا ، استوعبت جميع نواحى الحياة الاجتماعية ، غير أن الأقوال تضاربت ، والآراء تنوعت وتفرعت حول العلاقات الاجتماعية ، سواء ما كان منها سائدا فى المجتمعات البدائية ، أو مصطلحا عليه فى المجتمعات الحديثة ، وقد لعبت الأنظمة السياسية والنظريات الاجتماعية ، دورا كبيرا فى توجيه هذه الآراء ، كما أثرت ظروف العصر وطبيعة البيئات على سير هذه الدراسات ، وعلى الرغم من كثرة ما قيل وكتب فى هذا الموضوع ، الا أنه لم يبلغ درجة تطمئن اليها جميع طوائف المجتمع .وتلك نتيجة حتمية ، لأن أصحاب الآراء وواضعو النظريات الاجتماعية ، هم من البشر ، فهم مهما بلغوا من الذكاء والقدرة على الاسهام فى حل المشكلات ، فلن يبلغوا درجة الكمال ، ولذا فاعمالهم وانتاجهم الفكرى ، يعتريه النقصان . وقابل للأخذ والرد ، ودرجة احتمال الخطأ فيه كبيرة .

● ما الحل اذن ؟ :

— هو أن نتوجه الى كتاب الله ، وهو القرآن الكريم ، فنستخرج منه القواعد العامة للعلاقات الاجتماعية .

● هل يمكن أن تذكر لى شيئا منها ؟

— نعم . . فاعلم أن علاقة الانسان بمن يعيش معه فى مجتمع واحد ، تتنوع وتتفرع حسب وضع من يتعامل معه بالنسبة له ، فهو اما قريب دما ونسبا ، أو جار ، أو بينهما رباط دينى ، أو وطنى ، أو انسانى . فاذا كان قريبا من الدم والنسب ، فقد وصى القرآن الكريم بأن يعامل الانسان قريبه معاملة حسنة ، اذ فرض عليه الاحسان الى والديه ، مهما كلفه ذلك . يقول الله تعالى : **« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما**

أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »[١] ••

بل يأمرك الله ، بأن تقدم لهما المعروف ولو كانا مشركين ، بل حتى لو حاولا حملك على الشرك بالله فيقول الله تعالى : « **ووصينا الانسان بوالديه حسنا وأن جاهداك لتشرك بى‌ما ليس لك به علم فلا تطعهما »**[٢]•

فالآية تأمرك بأن تطيع والديك فى كل ما يأمرانك به ، الا الشرك ، فلا تطعهما فيه •

● **هذا ما فرضه الله على الأبناء تجاه الآباء ، فهل فرض الله سبحانه وتعالى شيئا على الآباء تجاه الأبناء ؟ •**

ـ لم يرد نص صريح فى القرآن الكريم يلزم الأب برعاية الابن ، اللهم الا ما ورد فقط بشأن تحريم وأد البنات •

● **وما الحكمة فى ذلك ؟**

ـ الحكمة : هى أن الله سبحانه وتعالى ، أودع فى غرائز الجنس البشرى ، بل فى كل الكائنات الحية : حب الأولاد ، ورعايتهم ، وحمايتهم من كل ما من شأنه أن يلحق الأذى بهم ، ولذا لم يكن هناك داع للوصية بهم ، لأن الله جعل دوافع الرحمة والشفقة كامنة فى ذوات الآباء وطبائعهم، لأنه لو علقها على الالتزام بالوصايا والفرائض التى نزل بها الوحى ، لهلك كثير من الأطفال ، لقسوة الوالدين الذين يعصون أوامر الله ، وما أكثرهم فى كل عصر وبيئة •

كذلك أمر الله بحسن معاشرة الزوجة ، فقال : « **وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »**[٣] ••

كما حث الزوجة على أن تحفظ زوجها فى ماله ، وعرضه ، وولده ، وأن تحسن معاشرة زوجها ، قال تعالى : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »**[٤] ••

---

(١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) العنكبوت : ٨ .
(٣) النساء : ١٩ .
(٤) البقرة : ٢٢٨ .

كما أوصى الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بصلة الرحم ، فقال : **« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله »** (٥) ..

فلو التزم المسلمون بما أمر الله سبحانه وتعالى فى معاملتهم لأهلهم وذويهم ، فاحترم الابن والديه ، وعطف الوالدين على أولادهما ، وسادت علاقة المودة والمحبة بين ذوى الأرحام ، لصلحت اللبنة الأولى فى المجتمع ، ولأرسيت قواعد العلاقات الاجتماعية الصحيحة على أساس متين بين الأهل والأقارب ، وهى الأساس والمنطلق لقيام علاقات اجتماعية متينة بين الفرد وغيره ، ممن لا تربطهم به صلة الدم والنسب ، وسوف نتحدث عن هـذه العلاقة فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(ب) تحدثنا فى الأسبوع المـاضى عن علاقة الانسـان بذوى القربى ، واليوم نتحدث عن علاقته بمن يليهم ، ألا وهم جيرانه ..

● أتقصد بالجيران من يجاورونه فى السـكن ؟

— ليس المقصود بالجيران من يجاورونك فى السكن فقط ، بل كل من جاورته فى أى عمل ، أو التصق بك فى أى مكان ، فمن يليك فى العمل جارك ، سواء أكان جارك فى المتجر ، أو المصنع ، أو الحقل ، أو كان يجلس بجوارك فى دواوين المصالح الحكومية والمؤسسات العامة أو الخاصة ، كذلك كل من يلاصقك فى الشـارع ، أو فى المواصلات العامة جار لك ، فمن يجلس الى جوارك فى الأتوبيس ، أو القطـار ، أو الطائرة جار ينبغى عليك أن تعامله معاملة حسنة امتثالا لأمر الله سبحانه وتعـالى فى قوله : **« واعبدوا الله ولا تشركوا به شـيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمسـاكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب »**(٦) ..

فالصاحب بالجنب جار ، له حقوق الجوار .

● ما كنت أتصور أن كلمة الجوار تشمل كل هذا ، ذلك أننا كنا نفهم من كلمة الجار من يجاورونك فى السكن فقط ؟ .

---

(٥) الأنفال : ٧٥ .　　(٦) النساء : ٣٦ .

ــ اعلم أن معانى الكلمات اللغوية تحددها الظروف الاجتماعية ، فحيث يوجد المجتمع القبلى ، ينحسر معنى كلمـة الجوار الى المفهوم الذى ذكرته ، لأن مجال عمل الانسـان فى هـذه المجتمعات ضيق محدود ، يكاد لا يخرج عن الجوار فى مضارب القبيلة ، أما الحيـاة فى المجتمع الحديث فتحتم عليك التنقل فى اليوم الواحد فى مجالات متعددة ، وفى كل منها تحتك بمن يليك •

● ما هى نوعية حسن الجوار مع كل من عددتم من أصناف الناس ؟

ــ هناك قاعدة عامة يجب أن تتخذها مقياسا لحسن الجوار ، ألا وهى ألا تؤذى من يليك ، فان كنت سائق سـيارة ، فلا تسىء الاستعمال حتى لا تؤذى المشـاة ، أو تضايق سائقى السـيارات الأخرى ، وان كنت صاحب محل ، أو مصنع ، أو حقل ، فلا تقترف من الأعمال ما يلحق الضرر بجارك ، وان كنت موظفا فلا تسمع زميلك ألفاظا تؤذى شعوره وتجنب كل عمل يسىء اليه ، أما فى الشارع ، سواء أكنت ماشيا على الأقدام أو راكبا مواصلة عامة ، قطارا كان ، أو أوتوبيسا ، فلا تؤذى جارك ، كأن تزاحمه فى الركوب أو النزول ، أو تترك الضعيف واقفا وأنت جالس ، أو تستعمل الشـارع استعمالا سـيئا ينتج عنه ضرر بالغير ، فان حافظت على جارك فى كل هـذه الأماكن ، ومع كل هـذه الظروف ، والملابسات ، فقد نفذت الوصية ، التى وصى بها جبريل محمدا ﷺ ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « مازال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه » •• وامتثلت ما أمر الله سبحانه وتعالى به فى قوله : « **والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب** »[٧] •

فاذا التزم المجتمع بهـذه التعاليم ، سادت العلاقات الطيبة بين الأفراد ، فشعروا بأنهم أسرة واحدة ، ومن شأن هذا الشعور أن يدخل الطمأنينة فى القلوب والسكينة فى النفوس ، فتستقر الحياة ، واذا استقرت الحياة ، انصرف الناس الى العمل ، والانتاج ، فتقوى الدولة ، ويرتفع قدرها بين الأمم ، وفى ذلك عزة للاسلام والمسلمين •

---

٧) النساء : ٣٦ •

● بقيت نقطة واحدة لم تذكرها : ذلك أنك قسمت العلاقات الاجتماعية الى علاقة دم ونسب ، وعلاقة جوار ، وعلاقة بين أصحاب العقيدة الواحدة ، أو أبناء الوطن الواحد ، أو بنى الانسان عامة ، وقد تحدثت عن العلاقتين الأوليين ، وهما علاقة الدم والنسب ، وعلاقة الجوار ، وأريد منك أن تحدثنى عن البقية ، وهى علاقة الدين الواحد والوطن الواحد ، والعلاقة الانسانية العامة .

— ذلك هو موضوع حديثنا المقبل ان شاء الله تعالى ..

* * *

(جـ) الى أين وصلنا فى الأسبوع الماضى ، فى شرح علاقة الانسان بأخيه الانسان ؟

● توقفنا عند وعدك بالحديث عن علاقة أتباع الدين الواحد ، وأبناء الوطن الواحد .

— اذن فاعلم أن الانسان مركب من مادة وروح ، والمادة تفنى بانتهاء هذه الحياة الدنيا ، أما الروح فهى باقية ، ولذا كان ما يتعلق بها أو ما يربط الأرواح بعضها ببعض أمتن وأوثق مما يربط الجانب المادى ، وبناء عليه ، فعلاقة العقيدة مقدمة على غيرها من أنواع العلاقات الانسانية ، لأن العقيدة تتعلق بالروح ، فلو أمعنت النظر فى آيات القرآن الكريم لأدركت أن رباط المؤمنين بعضهم ببعض كان مقدما على كل ما عداه ، يقول الله تعالى : « **والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض** »(٨) ..

ويقول : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** »(٩) ..

والبعضية تقتضى أن يكون البعض جزءا لا ينفك من الكل ، وبالتالى لا ينفصل عنه فى الشعور والاحساس ، ولا فى الآلام والأفراح ، فحياتهم واحدة ، فما يضر جانبا ، يؤلم الجانب الآخر ، وما يسعده يدخل السرور على الجانب الآخر ، وقد عبر الحديث الشريف عن هذا المعنى أصدق تعبير ، حيث يقول رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم

---

(٨) الأنفال : ٧٢ .   (٩) التوبة : ٧١ .

وتعاطفهم وتراحمهم ، كمثل الجســد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ••

فلو سادت هــذه الروح بين المسلمين ، لأصبحت جبهتهم قوية ، لا ينفذ اليها طاغ ولا معتد ، ولا يتجرأ عليها مستعمر ، أو غاصــب •

● ماذا نفعل لكى تسود هذه الروح فى المجتمعات الاسلامية ؟ •

ـــ ينبغى أن نوقظ الشعور الدينى فى الناس ، ونغرس فى نفوسهم الفضائل الدينية ، لأن طبيعة التدين ، لها سلطان على النفوس فتخضعها لطاعة الله سبحانه وتعالى ، فاذا ما انقاد الفرد الى تنفيذ ما أمر الله ، وجد نفســه تلقائيا ، يشعر بشعور أخيه ، فتتماسك الأمة ، ويصلب عودها ، وتتحد أمام من يريدها بسوء •

● وما هى أهم الوسائل لتحقيق هــذا ؟

ـــ أرى أن نبدأ أو لا بتعويد الناس على تأدية الصلاة ، لأنها من أهم العبادات التى تجمع الأمة على طريق واحد ، ذلك أن اتجاه المسلمين نحو مكة من أهم العوامل فى تقوية وحــدة الاتجاه الداخلى بين المسلمين ، فهو أسلوب يضفى على جميع نظم الحيــاة فى المجتمع الاســلامى طابع الوحدة ، وصفة التماسك •

● وما هو الوضــع لو كان فى المجتمع أقلية لها عقيــدة أخرى غير الاســلام ؟

ـــ أمرنا الاسلام أن نحسن معاملتنا لهم ، فلهم مالنا ، وعليهم ما علينا ، فلو تصفحت تاريخ الدولة الاســلامية ، لوجدت أن المسلمين عاملوا اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون معهم أحسن معاملة ، فتمتعوا بحرية لم يتمتعوا بها فى كثير من بلاد العالم ، بل ان الاسلام أمر المسلمين ، بأن يكونوا انسانيين فى معاملتهم مع بنى البشر قاطبة ، ماداموا لم يقاتلوهم ، فقال تعالى : **« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، أن الله يحب المقسطين »**[١٠] ••

---

(١٠) الممتحنة : ٨ •

فالمسلم مطالب بأن يعامل الناس معاملة حسـنة ، مادام لم تبدُ العداوة منهم سافرة للاسلام والمسلمين • ويبدو من هذا واضحا أن الاسلام وصى بحسن المعاملة مع الأهل ، والأقارب ، ومع الجيران . كما وصى بأن تكون علاقات الناس بعضهم ببعض قائمة على الحب . والرحمة والرأفة ، وان اختلفت عقائدهم ، وتباينت أوطانهم •

● لقد اختفت هذه الروح من المجتمعات الحديثة ، وهى تتوارى شيئا فشيئا فى المجتمعات الاسلامية أيضا ، فما سبب ذلك ؟

— هذا ما سوف نتحدث عنه فى الأسبوع المقبل ان شاء الله •• أستودعك الله •

* * *

(د) تساءلت فى الأسبوع المـاضى عن السبب فى بعد المجتمعات الاسلامية المعاصرة عن اتباع ما أمر به الله سبحانه وتعالى فى مجال تنظيم العلاقة بين المسلمين بعضهم ببعض ، بينهم وبين اخوانهم فى الوطن ، أو فى الانســانية ، كما شرحت لك فى أحاديث سابقة •

● نعم •• فهذه مسألة تثير جدلا كبيرا بين المسلمين ، اذ يتساءلون عما اذا كان من الممكن أن يحافظ المسلم على تعاليم الاسلام وسط هذه التيارات المـادية ، التى طغت على كل أثر للروحية فى المجتمع الحديث ، فقد صارت العلاقة بين الأخ وأخيه قائمة على أساس مادى ، فتحكمت المـادية فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، فاذا حاول أحـد أن يسلك مسلكا آخر ، يغلب فيه الطابع الروحى على الظواهر المـادية ، تعثرت خطاه ، وسدت الطرق أمامه الى أن يصل الى حالة تتصارع فيها جوانب الشر والخير عنده ، فلا يدرى الى أى جهة يتجه ، وأى طريق يسلك ، فكيف الخلاص من هـذا الوباء العصرى الذى أصيبت به المجتمعـات الاسلامية فى العصر الحديث ؟

— هذا مرض أصيبت به المجتمعات الاسلامية ، أو ان شئت فسمه « وباء » اجتاح العالم الاسلامى ، نتيجة للتغيرات الاقتصـادية على

الصـــعيد الدولى والمحلى ، والعلاج ليس مســتحيلا ، بل هو ممكن ، لو تكاتفت الجهود كلهـــا على الصـــعيد الدولى ، والمحلى ، أى بين الدول الاسلامية ، وبين الأفراد ، اذ يجب أن تسود علاقة الانتماء الى عقيدة واحدة بين الدول الاسلامية ، فلا تؤسس الأعمال التجارية بينها على أساس المنفعة المـــادية البحتة فحسب ، بل يكون فيهـــا روح التعاون والمساعدة ، مساعدة القوى للضعيف ، والغنى للفقير ، حتى تكون شعوب الاسلام متماسكة ، يشعر كل بما عند الآخر ، ويبذل كل قطر ما عنده من طاقات لمســاعدة الآخرين فى معركة التنمية والبنـــاء ، وترسم الأمم الاسلامية منهجا تربويا يغرس فى النشء تعاليم الاسلام ، ويؤهلهم تأهيلا دينيا سليما لتتأصل الروح الاسلامية فى نفوس المسلمين ، فيسود الاخاء بينهم . وتنتشر الرحمة فى صفوفهم ، ويتعمق الشـــعور بالاخوة فى قلوبهم ، فيحب بعضهم بعضا وان اختلفت أجناســـهم وتباعدت أقطارهم ، فاذا سادت هـــذه الروح ، تهيأت ظروف الاستقامة للفرد ، فاستوى سلوكه ، وحسنت علاقته مع اخوانه ، سواء أكانوا أقرباء الدم ، أم جيرانا فى الوطن ، أو كانوا ينتمون الى أقطار متعددة ، لأن العقيدة جمعتهم ، والجو العام الذى تتعامل فيه وبه دولهم الاسلامية ســـاعد على غرس روح الاخوة بينهم ، وعندئذ يصدق عليهم قول الله تعالى : **« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليـــكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا »**(١١) . .

● ولكن ألست معى فى أن تطلعات كل قطر اسلامى فى أن يحتل مركزا يفوق القطر الآخر فى المحافل الدولية ، وكذلك الصراع بـــين الطبقات المختلفة ، داخل كل قطر ، فى ســـبيل الحصول على وضع مادى وأدبى ، وتزاحم الأفراد بعضهم مع بعض لتحقيق مآربهم الشخصية ، أليـست معى فى أن هذا كله عقبات فى طريق جمع المسلمين تحت راية واحدة . بحيث يحب بعضهم بعضا . فيساعد قويهم ضعيفهم ، ويعطف كبيرهم على صغيرهم ؟

---

(١١) ال عمران : ١٠٣ .

ــ هذا ما سنتحدث عنه فى الأسبوع المقبل ان شاء الله .. فالى ذلك الحين أستودعك الله

* * *

(هـ) لقد أثرت فى الأسبوع الماضى مشكلة تطلعات الدول والأفراد الى الحصول على المزيد من الكسب المادى أو الأدبى على حساب الآخرين ، أشرت الى أن ذلك يمثل عقبة كأداء على طريق الوحدة الاسلامية بين الدول ، وحاجزا سميكا بين المسلمين ، مما زاد فى اختفاء الروح الأخوية فى معاملاتهم ، وساعد على شيوع الانانية وحب الذات فى المجتمعات الاسلامية .

كيف يعالج هذا المرض ، وهو متأصل فى النفوس البشرية ، فهى تحب المال حبا جما كما قال الله تعالى : « **وتحبون المال حبا جما** »[١٢] ..

وتميل الى الفخر والتكبر ، كما قال تعالى : « **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال** »[١٣] ..

وقال : « **واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا** »[١٤] ..

وقال : « **واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون** »[١٥] ..

بل ان الانسان ليزداد طغيانا ، اذا ملك مالا ، أو كان له جاه ، يقول الله تعالى : « **كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى** »[١٦] ..

هذه هى المعالم الرئيسية لأمراض النفس الانسانية ، فكيف نعالجها ، حتى يسلم المجتمع من الانانية والطغيان المادى ؟

ــ لقد أصبت فى تشخيص المرض ، الذى أصيبت به المجتمعات المعاصرة ، وانتقلت العدوى الى المجتمعات الاسلامية ، فشاع فيها احتكار بعض الطبقات لمصادر الثروة ، وتفشى حب المال ، والسعى وراء المتع

---

(١٢) الفجر : ٢٠ .
(١٣) الحديد : ٢٠ .
(١٤) لقمان : ٧ .
(١٥) المنافقون ٥ .
(١٦) العلق : ٦ ، ٧

المــادية ، ولعلاج هــذا ، ينبغى الرجوع الى المبادىء **التى** امرنا الله سبحانه وتعالى بها ، وسوف أوجزها لك :

أولا : اخلاص التوحيد لله ، لأن التوحيد فى الاســلام يستهدف المســاواة بين الناس فى الاعتبار الانسانى ، وفى البقاء فى المستوى الانسانى ، وفى المشــاركة فى خصائص الانسانية من الصواب والخطأ . فلا مجال للادعاء بأن شخصا ما . أو أسرة مفضلة على غيرها من بقية أفراد المجتمع ، فالكل سواء فى الحقوق والواجبات . ولا يجوز لأحــد أن يحصل على فضل مال أو جاه ، اعتمادا على جنس أو دم . فلا يأخذ الا جزاء ما يقــوم به من عمل للمجموع ، لأن التفاضل فى الاســلام لا يكون الا على أســاس العمل . قال تعــالى : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** »[17] ..

ويدخل فى مجال التقوى : العبادة . والسعى على الرزق . ومعاملة الناس بالحسنى .

ثانيا : يجب ألا يصل الاستمتاع بالحياة الى حد الاسراف . لأن الاسراف يترتب عليــه :

اما منع الآخرين من حقهم فى الحياة ، واما الاساءة الى الذات نفســها بكثرة ما تستمتع به ، يقول الله تعالى : « **يابنى آدم خــذوا زينتكم عنــد كل مســجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انــه لا يحب المسرفين** »[18] ..

فينهى عن المبالغة فى الاستمتاع بالأكل والشرب : أى بمتع الحياة الدنيا ، ولكنه لا ينهى عن تحصيلها ، والاعتدال فيها .

ثالثا : مساعدة الضعفاء فى المجتمع ، سواء أكان ذلك ماديا أو معنويا ، قال تعالى فى وصف المؤمنين : « **والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم** »[19] ..

---

(١٧) الحجرات : ١٣ .
(١٨) الأعراف : ٣١ .
(١٩) المعارج : ٢٤ ، ٢٥

وقال : « **وآتى المـال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب** »[٢٠] ..

رابعا : يجب أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ، امتثالا لقوله تعالى : « **وأمرهم شورى بينهم** »[٢١] ..

فلا ينفرد أحد باتخاذ القرار ، فالأسرة تتشاور فيما بينها فى الشئون الخاصة ، والأمة تستطلع رأى المسلمين فى أمور الحكم والسياسة ، فلا ينفرد أحد برأيه ، ولا يفرض حاكم سلطانه على الناس بقوة الحديد والنار ، بل يرتضيه الناس حاكما عن اقتناع ، بأنه أصلح الموجودين لهذا العمل ، فاذا طبق المسلمون هذه المبادىء اختفت كل الأمراض التى تحدثت عنها .

● **كيف ذلك ؟**

— لأن الاعتراف بالمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات يحفظ لكل ذى حق حقه ، فلا ينال أحد شيئا زائدا على ما ضمنه له عمله ، أو اجتهاده ، وبذا تختفى ظاهرة التكالب وسلب الانسان ما ليس له ، واذا اعتدلوا فى الاستمتاع بالماديات ، توارى الجشع الذى هو فى أساسه نتيجة لميول الانسان الى الحصول على قدر أكبر من ملذات الحياة ، واذا وجد الضعيف من يساعده ، والفقير من يمد له يد العون ، شاعت المحبة بين الجميع ، واذا تقرر مبدأ الشورى فى المجتمع ، اختفى التسلط والتجبر ، وعاش الناس متفاهمين ، رحماء بينهم ، وأصبحوا ضمن عباد الرحمن ، الذين وصفهم الله بقوله : « **وعباد الرحمن الذين يمشـون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سـلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والـذين يقـولون ربنـا اصرف عنا عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما . انهـا ساءت مستقرا ومقاما . والذين اذا أنفقـوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بـين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله**

---

(٢٠) البقرة : ١٧٧ (٢١) الشورى : ٣٨

ألا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاما • يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا • الا من تاب وآمن وعمل عملا صــالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما • ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا • والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما • والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا • والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما • أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما »[٢٢] ••

* * *

---

(٢٢) الفرقان : ٦٣ — ٧٥

٧ — المسئولية فى الاسلام

(أ) لابد للحياة الانسانية من معالم يرتكز عليها ، حتى يستقيم أمرها ، ويشتد عودها ، اذ من المستحيل أن تسير هذه الحياة فى خط سوى ، لا يهتز ولا يتزعزع ، دون أن يلتزم الانسان بالمبادىء التى تمسكها فلا تنهار ، وتحوطها بسياج الدوام والاستمرار . ومن أهم هذه المبادىء : مبدأ المسئولية ، وهى ذات شعب ثلاث هى : المسئولية الشخصية ، والمسئولية الأسرية ، والمسئولية الاجتماعية ، وآخرها مسئولية الفرد تجاه وطنه ونظامه السياسى الذى ارتضاه المجتمع أسلوبا للحكم والادارة .

وقد اختلفت الأديان فى تحديد معالم المسئولية الشخصية ، ومن أوضح الاتجاهات التى خالفت فيها الاسلام : ميل بعضها الى أن تتحمل الأجيال وزر أسلافها السابقين ، فتتحمل الكثير من المآسى والآلام دون ذنب ارتكبته أو خطيئة وقعت فيها ، ولم يقتصر هذا المبدأ على الأديان ، بل أقرته أيضا نظم الحكم السياسية ، وخاصة عقب الحروب والفتن ، اذ يقتص المنتصر من أناس لا جريرة لهم فيما حدث ، فيعذب الشعب المهزوم ، دون أن يكون لديه من الأدلة ما يبرر هذا الاجراء ، الذى لا يتسم بروح العدالة فى توقيع العقوبة .

أما الاسلام ، فقد بين أنه لا ينبغى أن يؤخذ جيل بجريمة ارتكبها جيل آخر ، فلا توقع العقوبة الا على من اقترف الاثم وباشر الخطيئة ، يقول الله تعالى : « **تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسئلون عما كانوا يعملون** »[1] ..

ويقول : « **قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون** »[2] ..

كما ذهبت بعض الأديان الى مبدأ القصاص ممن لم يرتكب الاثم ، فمن مبادىء بعضها أن يتحمل مؤسسوها العذاب فى سبيل الآخرين الذين ارتكبوا الآثام واعتدوا على حق الآخرين ، وهذه صورة يرفضها

---

(١) البقرة : ١٣٤ ، ١٤١ (٢) سبأ : ٢٥

العقل البشرى ، ولا يقبل أى مجتمع تطبيقها ، والا ضاعت الحقوق واختفت روح العدالة ، فيقتص ممن لا ذنب له ، ويترك من يقترف الاثم فى المجتمع بدون عقاب ، وتلك وسيلة تساعد على وقوع مظالم لا حدود لها .

ولما كان الاسلام دينا واقعيا ، ينظم واقع المجتمعات ، طبقا لظروفها وملابسات حياة أفرادها ، لم يطلب من المسلمين أن يؤمنوا بنظريات تأباها العقول السليمة ، ولم يفرض عليهم تنفيذ قواعد تصطدم مع واقع الحياة ، أو تتنافى مع المتطلبات الأساسية لقيام نظام متكامل ترفرف عليه راية العدالة ، بحيث يأخذ فيه كل ذى حق حقه ، وينال كل من ارتكب اثما عقابا يتناسب مع ما صدر منه من سوء فى حق الآخرين . فقرر أن كل انسان يتحمل وزر ما فعل ، فينال من الثواب والعقاب طبقا لما صدر منه سواء أكان ذلك ايجابا أو سلبا ، فالمسلم مسئول مسئولية شخصية عن كل أعماله ، اذ لا يؤخذ أحد بذنب آخر ، فلا يتحمل أب وزر ابنه البالغ ، ولا يقتص من ابن بجريرة أبيه ، ولا يحاسب زوج على خطأ ارتكبته زوجته ، ولا تسأل زوجة عما فعل زوجها .

فالاسلام يحمل كل شخص مسئوليه ما فعله هو ، فلا يحمل أحد وزر آخر بسبب قرابة فى الدم ، أو فى النسب ، أو فى طريق صلة مذهبية ، أو رباط عقدى ، أو عقد اجتماعى ، فقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، تحمل هذا المعنى منها قوله تعالى : « **ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى**»[٣] .

وقوله : « **ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وان أسأتم فلها** »[٤] ..

ومما لا شك فيه أن هذه قاعدة أساسية فى بناء نظام الحياة الاجتماعية ، فلو تخلفت فى أى مجتمع ، لانهار انهيارا كاملا ، اذ كيف يستقيم أمره بعد أن فقد الركيزة الأساسية فيه ، ألا وهى المسئولية الشخصية .

---

(٣) فاطر : ١٨ — (٤) الاسراء : ٧

لم يقصد الاسلام بتقرير مبدأ المسئولية الشخصية . أن يقطع المجتمع الى وحدات فردية منفصلا بعضها عن بعضها . بحيث يكون كل فرد مسئولا عما يفعل دون أن يربطه رباط وثيق بما حوله . رباط يدفعه الى تحمل بعض الالتزامات تجاه الآخرين ، وانما أراد بتحديد المسئولية الشخصية تحديدا يجعلها جزءاً من دائرة متكاملة يرتبط بعضها ببعض ، فى الوقت الذى يكون فيه كل انسان مسئولا عما يفعل ، بحيث لا يشاركه فى هـذه المسئولية قريب ، أو رفيق ، أوجب عليه الاسلام أن يتحمل أيضا بعض الالتزامات تجاه الآخرين ومن بين هذه الالتزامات ما يجب عليه ازاء ذوى القربى ، وفى مقدمتهم والداه ، لأن لهما فضل وجوده وتربيته ، ولهذا حث القرآن الكريم على معاملتهما معاملة حسنة ، فقال : **« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »**[٥] ..

فيجب على المسلم أن يعامل أبويه معاملة طيبة ، وذلك بأن يقدم لهما ما يحتاجان اليه ، من : مال ، وعطف ، وحنان ، ولا يظهر لهما ما يجرح شعورهما ، أو يؤذيهما مهما بلغ ذلك من ضآلة ، حتى الحركة الصغيرة ، أو الصوت الذى لا يتبين معالم حروفه يحرم على المرء الاتيان به فى مواجهة الوالدين ، ما دام فى ذلك ايذاء لشعورهما ، و جرحا لكرامتهما ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التصرف بقوله : **« فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما »**[٦] ..

وان اختلفت معهما فى الرأى ، فلا ينبغى أن يكون ذلك مبررا لمواجهتهما بما يكرهانه ، امتثالا لأمر الله بأن يكون لينا معهما ، حتى وان دعياه الى الشرك بالله ، اذ بينما يدعو الاسلام الى مقاطعة المشركين وعدم الولاء لهم فى قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة »**[٧] ..

---

(٥) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤ (٦) الاسراء : ٢٣

(٧) الممتحنة : ١

يأمر المسلم بأن يصاحب أبويه مصاحبة طيبة ، حتى وان بذلا كل ما فى وسعهما لحمله على الشرك بالله ، يقول الله تعالى: **«ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير • وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا »**[٨] ••

وليست الوصية بمعاملة ذوى القربى مقصورة على الابوين فقط ، بل تتعداهما الى كل من يمت الى المسلم بصلة قرابة أو نسب ، فقد قرن الله بينه وبين الأرحام ، فى قوله تعالى : **« واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام »**[٩] ••

كما قرن بين الفساد فى الأرض وقطيعة الرحم فقال تعالى : **« فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم • أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »**[١٠] ••

فالجمع بين الافساد فى الأرض ، وقطع صلة الرحم ، وبيان أن الله لعن من يقترف كليهما ، يبين أهمية صلة الرحم فى بناء الحياة الاجتماعية ، لأن المجتمع الذى لا يعرف الناس فيه للأقارب حقا عليهم ، هو مجتمع مفكك الأوصال ، متداعى البنيان ، لأن من لا خير فيه لأهله ، فلا خير فيه لغيرهم من أبناء وطنه ، وأقرب أفراد الأهل هم الزوجة والأولاد ، فلا خير فى أحد لمجتمعه ، ان عامل زوجته وأولاده معاملة سيئة ، وصدق رسول رسول الله ﷺ حيث يقول : « خيركم خيركم لأهله •• وأنا خيركم لأهلى » ••

* * *

(ب) كلما شعر أفراد المجتمع بعمق الصلة بينهم ، وبضرورة المحافظة على بعضهم البعض وبحتمية دفاع القوى منهم عن الضعيف ، وبذل الحنان والعطف لمن حرم منه ، ومساعدة من يحتاج الى المساعدة ، اشتد ساعد المجتمع ، وقوى تماسكه ، وصار كالصخرة الصماء فى مواجهة الريح العاصفة ، والزلزال المدمر ، ونكبات الدهر المميتة ، فلا تقوى

---

(٨) لقمان : ١٤ ، ١٥ (٩) النساء : ١
(١٠) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

هذه الكوارث على زعزعة أركانه ، أو المروق بين طياته وفجواته ، لأن التحام أفراد المجتمع مع بعضهم قد سد هذه الفجوات ، وطمس مداخل تلك القنوات ، فهم كالسد المنيع أمام ما يقابلهم من غضب الطبيعة ، وتقلبات الدهور والأزمان •

لكن رغبات الناس المتنافرة ، وطموحاتهم المتعددة ، وغرائزهم التى لا يعرف لها حدود ، فهى تطلب المزيد دائما ، وتدفع صاحبها الى التنكر لصاحبه ، والكيد لصديقه ، وعدم الاعتراف بحقوق جاره ورفيقه ، بل تحمله على ايذاء لأقرب الناس اليه فى سبيل اشباعها ، وتزين له شرعية ما يقترفه من آثام فى حق أبناء مجتمعه ، بغية الوصول الى الهدف الذى يرضيها ، ويشبع نهمها الذى لا يرتوى أبدا • كل ذلك يقف عقبة أمام تحقيق التماسك ، والتعاطف ، والتراحم ، الذى يقى المجتمع من التفكك والانهيار ، ويحفظ بنيانه من التخلخل والانكسار •

وقد حاول مشرعو القوانين الوضعية بشتى الطرق ومختلف المناهج والأساليب علاج هذه الظواهر الاجتماعية ، فشرعوا العديد من العقوبات والجزاءات ، وسنوا كثيرا من اللوائح والقوانين للحد من غلواء الرغبات الفردية ، والشهوات الشخصية ، كما وضعوا مناهج تربوية تساعد على تكوين الفرد على أسس تجعله يشعر بحق أخيه فى المجتمع ، ويدرك أنه فرد فى هيكل اجتماعى ، يستمد قوته من قوة هذا الهيكل ، ولذا يجب المحافظة عليه وتدعيمه ، ولا يكون ذلك الا بمراعاة حقوق الآخرين ومساعدة بعضهم البعض •

غير أن هذه القوانين الوضعية ، والأساليب التربوية قد أصابها الفشل فى كثير من نواحى الحياة ، وخاصة بين الطبقات الاجتماعية التى لم تتمتع بقدر من الثقافة يساعدها على ادراك هذا الجانب الانسانى ، لأنها أغفلت جانبا هاما فى الانسان ، ألا وهو مخاطبة الجانب الروحى فيه ، ومما لا شك فيه أن هذا الجانب يخضع خضوعا كليا للتعاليم الدينية ، فلو غلفت هذا الاسلوب القانونى بالروح الدينية ،

لكان أكثر تأثيرا فى نفوس الأفراد ، وأبلغ فى اقناعهم بحتمية الالتزام بما يعود على المجتمع ككل بالخير والفائدة ، فتختفى الانانية ، وتسود روح التعاون بين أفراد المجتمع .

وقد بين الاسلام أهمية هذا الجانب فى بناء المجتمع على أسس سليمة ، فقرن الأمر بمعاملة الناس لاخوانهم بالاحسان ، بعبادة الله . فقال تعالى : **« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »**(١١) ..

فأمر الانسان بعد عبادة الله ، وعدم الاشراك به ، بأن يحسن الى الوالدين والى ذوى قرباه ، وهذه هى المسئولية الأسرية ، ثم يأتى بعد هذا ضرورة الاحسان الى أفراد المجتمع الذى يعيش فيه ، فبدأ بمن هم أكثر حاجة الى المساعدة ، وهم اليتامى ، لأنهم فقدوا من يعولهم فأصبحوا عاجزين عن مواجهة الحياة ، بما فيها من قسوة تفوق قدرتهم الجسمية ، وشدائد تئن من وطأتها عضلاتهم اللينة ، وتصاب بالشلل أمامها ملكاتهم الذهنية التى لم يكتمل نضجها بعد .

ويليهم فى الاحتياج الى المساعدة : المساكين .. وهم أولئك الذين لا تمكنهم ظروف حياتهم من الحصول على ما يحتاجون اليه فى معيشتهم ، فهم فى أزمة ويحتاجون الى من يمد يد المساعدة اليهم ، ولذلك حث الله المؤمنين على مساعدتهم ، حتى يتغلبوا على قسوة الدهر ، ونكبات الزمن .

ليس أمر المسلم بمساعدة اليتامى والمساكين ، مشروط بأن يكونوا من سكان قريته ، أو حيه ، أو مجاورين له فى المسكن — وان كان هؤلاء مقدمون على غيرهم عند الاقتضاء — بل هو عام وشامل لكل يتيم ومسكين، حتى وان تباعدت ديارهم ، ونأت أوطانهم ، ذلك أن حق الجار ، قد أفرد بنص مخصوص به بعد ذلك فى الآية . فى قوله تعالى **« والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب »** ..

---

(١١) النساء : ٣٦ .

ويلاحظ أن الآية ذكرت ثلاثة أصناف من الجيران ، فالأول والثانى منصبان على من يسكنون بأى شكل من الأشكال بجوار من وجبت عليه المساعدة ، فمساندة الجار والوقوف بجانبه فى الشدائد مسئولية كل مسلم • فمن فرط فيها فقد استحق عقاب الله وعذابه ، ذلك أن للجار حق مقدس على جاره ، فهو مطالب بأن يحفظ عورته ، فيستر عليه ، ويدفع عنه أى أذى يلحق به ، ويقدم له العون ان احتاج الى عون ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون ، ملعون ، من بات شبعان ، وجاره جائع » ••

وجاءت أهمية فرض مساعدة الجار لجاره : من ناحية أنه أقرب الناس اليه فى المكان ، فان لم يسعفه فى وقت الشدة اشتد الخطب وعظمت المصيبة ، لأن البعيد لا يسمع أنينه ، ولا يطلع على خطبه ، فلو أعفى الجار من هذا الواجب الاجتماعى لفتكت المصيبة بمن نزلت به وقضت عليه قبل أن يخف اليه أحد ، وتلك جريمة انسانية ، لن يتركها الله دون عقاب ، ولذلك أخبر على لسان نبيه وصيته بالجار ، وغضبه على من لم يقدم المساعدة لجاره ، لأنه أهمل فى واجب مقدس عليه ، وكرر الله الوصية به على شكل أبرز أهمية مساندة الجار لجاره ومساعدته، فقد قال رسول الله ﷺ : « ما زال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه » •

أما الصنف الثالث من الجيران : فهو ما عبرت عنه الآية بـ « **الصاحب بالجنب** » والمقصود به : كل من جاورك فى جميع مجالات الحياة ، فيندرج تحته الزميل فى العمل والرفيق فى السفر ، والعميل فى التجارة ، والمشارك فى استعمال الشارع والمرافق العامة ، فالاحسان الى كل هؤلاء يقتضى من المسلم أن يتخلق بأخلاق الاسلام معهم ، فلا يؤذى زميله فى العمل بتدبير المؤامرات له عند الرؤساء ، والوشاية به عند من بيده أمره ، ولا يحمله ما لا يطيق من الأعمال •

كذلك يوصى الاســلام المسلم بأن يتحلى بالأخلاق الكريمة مع

من يرافقه فى السفر بكل ما يمكنه من امكانات ، أما المشارك فى استعمال الشارع والمرافق العامة فواجبه الاجتماعى ازاء شركائه أن يلتزم بالحدود التى رسمتها القوانين وحددتها اللوائح ، فلا يجاوزها ولا يتعداها ، لأن فى ذلك ايذاء للآخرين . بل ان الاسلام يأمره بأن يرفع كل ما من شأنه أن يؤذى الناس فى الطرق العامة ، فحرم عليه القاء القاذورات ، أو الاهمال الذى يؤدى الى اعاقة المارة ، وفى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، أولها : لا اله الا الله ، وآخرها اماطة الأذى عن الطريق » ..

وممن وصى الاسلام به فى الآية : ابن السبيل ، والخادم .. أما ابن السبيل فهو المسافر ، فلو احتاج فى منطقة ما الى شىء فعلى المسلمين تقديم المساعدة له ، أما الخادم فهو من يقوم بالخدمة . ولما كان وضعه الاجتماعى لا يتيح له من القوة ما يساعده على الحصول على حقوقه ، وصى الاسلام به بأسلوب يرفع مكانته الاجتماعية ، ويبعد عنه الشعور بأنه أقل قدرا من سيده ، فقال رسول الله ﷺ عن الخدم : « هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » .

فالمسئولية الاجتماعية فى الاسلام تحتم على المسلم أن يساعد اليتامى والمساكين ، وأن يقدم العون للجار ، وأن يعين ابن السبيل ، ويكون رحيما بمن يخدمه ، ومما لا شك فيه أن المجتمع الذى تسود فيه هذه الروح ، يكون مجتمعا قويا ، متماسك البنيان ، يشعر القوى فيه بألم الضعيف ، فيسارع الى نجدته لأنه يحس بألمه ، وقد صور رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

* * *

٨ — الترف

المـــال أحد العنصرين ، اللذين تحدث عنهما القرآن الكريم بأنهما زينة الحيـــاة الدنيا ، حيث يقول الله تعالى : « **المـــال والبنون زينـــة الحيـــاة الدنيا** »[١] ..

ولذا أباح الله للانسان ، أن يبحث عن المـــال ، ويقتنيه ، بشرط أن يكون طريق الحصول عليـــه مشروعا ، لا استغلال فيها ولا احتكار ، ولا اغتصاب لحق أحد ، ولا استيلاء على ما للغير ، فاذا التزم الانسان بما أمره الله به فى طريق الحصول على المـــال ، فقد أدى أحد الواجبين المطلوبين ازاء المـــال .

● وهل هناك واجب آخر ؟

— نعم .. وهو عدم الاسراف والتبذير ، لأن الانفاق أكثر من اللازم ترف ، والترف من أكبر العوامل التى تؤثر على الفرد والمجتمع ، فتحول حياتهم فى الدنيا الى جحيم . ان عاجلا .. أو آجلا ، وفى الآخرة الى عذاب النار وبئس المصير .

ذلك أن صاحب المـــال ، لا يملك التصرف المطلق فى ماله ، بل تحكمه ضوابط ، ألا وهى : أن للأمة حقا فيه ، فهى صاحبة المـــال وراء كل مالك ، ولهذا أعطى الاســـلام لها الحق فى الحجر على الســـفيه الذى يتلف ماله ، لأنها صاحب الرقابة على الصرف للأموال . وتوجيهها الوجهة التى يكون فيها الخير للفرد وللجماعة . يقول الله تعالى : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا** »[٢] ..

فهو يخاطب الأمة بقوله : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** » ..

مع أنها فى الظاهر ليست أموالهم ، بل هى أموال من يملكها ، ولكنه أضافها الى الأمة ، لأن لها الحق فى الرقابة عليـــه .

---

(١) الكهف : ٤٦ .   (٢) النساء : ٥ .

ان الاسلام يحافظ على الفرد ، كما يحافظ على الأمة ، فما يباشره الفرد ، ينبغى أن لا يلحق الضرر بالأمة ، فان لحقها ضرر مما يفعل يمنع منه ، ولو كان ظاهر الأمر انه يتصرف فيما يملك ، ولما كان الاسراف والتبذير يضر بالفرد ، كما يضر بالأمة ، حذر الله سبحانه وتعالى منه فى أكثر من آية ، فقال تعالى : **« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »**(٣) ..

وقال سبحانه : **« ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا »**(٤) ..

كما حذر أيضا من اضاعة المال ، ولو لم يكن فى ذلك ضرر على الشخص نفسه ، بل حتى ولو كان الانفاق فى سبيل الخير العام ، لأن اضاعة المال ان كان فى اللهو والفسوق فقد دمر الانسان نفسه ، وأسهم فى تدمير مجتمعه ، وان كان فى الصدقة فسوف يترك عياله فقراء يتكففون الناس . ولذلك يقول الامام الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : **« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »**(٥) :

ان الله تعالى أدب الانسان فى الانفاق ، فقال لنبيه ﷺ : **« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين »**(٦) ..

وقال : **« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »**(٧) ..

وقال فى وصف عباد الرحمن : **« والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »**(٨) ..

وقال ﷺ : « اذا كان عند أحدكم شىء فليبدأ بنفسه ، ثم بمن يعول . وهكذا .. وهكذا » ..

وقال ﷺ : « خير الصدقة ما أبقت غنى » ..

---

(٣) الأعراف : ٣١ .
(٤) الاسراء : ٢٧ .
(٥) البقرة : ٢١٩ .
(٦) الاسراء : ٢٦ ، ٢٧ .
(٧) الاسراء : ٢٩ .
(٨) الفرقان : ٦٧ .

وعن جابر بن عبد الله قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ اذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب فقال : يا رسول الله خذها صدقة ، فوالله لا أملك غيرها ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم أتاه من بين يديه ، فأخذها منه ثم قذفه بها ، بحيث لو أصابته لأوجعته ، ثم قال هاتفا مغضبا : « يأتيني أحدهم بماله لا يملك غيره ، ثم يجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن ظهر غنى ، خذها لا حاجة لنا بها » ..

فالإنفاق الكثير : هو التبذير ، والقليل جدا : هو التقتير ، والحل هو الفضيلة ، وهو المراد من قوله تعالى : « **قل العفو** » ..

ومراد شريعة الاسلام هو رعاية هذه الحقيقة ، لأن تبديد المال عاقبته وخيمة فى الدنيا ، فهو ذل واستعباد ، وتشريد للأهل والأولاد ، وفى الآخرة عذاب وجحيم ، وحسبنا ما ورد فى القرآن الكريم ، من أن الله لا يحب المسرفين ، ولا يحب المترفين ، ومن لا يحبه الله ، لا ينال أجرا فى الآخرة ، ويكون مع الذين غضب الله عليهم ، فأدخلهم نارا وقودها الناس والحجارة ، فمن عرف هذا ، ثم أسرف فى ماله وأتلف ، يكون انسانا تنكب الطريق السوى فى الدنيا والآخرة .

اللهم اهدنا طريقك المستقيم .

* * *

٩ — ما يجب على المرء اتباعه فى ملبسه

— فيم تحب أن نتحدث اليوم ؟

● فى الواقع ان ذهنى مشغول ، منذ أيام بموضوع أعتقد أنه يطوف من وقت لآخر بخاطر كثير من المسلمين ، اذ يلاحظ المرء أن العالم الاسلامى ، ليس له زى يتميز به ، فأنت ترى أن كل قطر يختلف عن غيره فى هيئة الملابس وألوانها ، فما هو الزى الاسلامى الحقيقى ؟ •

— ليس للاسلام زى خاص ، ولا نوع معين يجب على المسلم أن يرتديه ، فقد أباح الاسلام للمسلم كل أنواع الملابس ، بل طلب اليه أن يرتدى كل ما يجعله حسن الهيئة ، جميل المظهر ، مرتب الهندام ، وذلك ليتمتع بما خلق الله من زينة وثياب ورياش ، تمتعا لا يخرجه عن دائرة ما أحل الله ، أى بحيث لا يكشف عورته ولا يجسمها ، يقول الله تعالى : **« يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا »**(١) ••

كما حثهم على التزين والتجمل • فقد روى أن رسول الله ﷺ ذم الكبر والتكبر يوما ، فقال له أحد أصحابه : يا رسول الله •• انى أحب أن أكون نظيفا ، وثوبى نظيفا ، أفى ذلك كبر ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « ان الله جميل يحب الجمال » ••

فمن فرط فى أحد هذين الأمرين ، وهما ستر العورة والزينة ، فقد انحرف عما رسمه الله له •

فان كشف عورته يكون آثما ، لأن كشف العورة مناف للآداب العامة ، والاسلام يحرم هذا العمل ، الذى يستحى منه الانسان المتمدين بفطرته ، فضلا عن أنه قد يؤدى الى الفاحشة • يقول الله تعالى : **« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما »**(٢) ••

---

(١) الأعراف : ٢٦ •   (٢) الأعراف : ٢٧ •

وعن ابن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله •• عورتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ فقال : « احفظ عورتك ، الا من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك » قلت يا رسول الله •• فاذا كان القوم بعضهم فى بعض ؟ (أى فى السفر ونحوه) قال : « فان استطعت الا يراها أحد فلا يرينها » قلت : فاذا كان أحدنا خاليا (أى منفردا) قال : « فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحى منه » •

وان ستر عورته ، وأهمل فى مظهره ، فقد خالف وصية من الوصايا التى حث الاسلام عليها وهى التزين ، قال تعالى : **« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا »**[٣] ••

فعدم التزين ، يؤدى الى اخفاء جانب الجمال فى المجتمع ، كما يؤدى كذلك الى انتشـار الأمراض ، لأن من يهمل فى ملبسه وهيئته يتهاون أيضا فى نظافته وطهارته ، فاذا بلغ هـذه المرحلة ، أصبح عنوانا سـيئا للاسـلام ، لأن الاسـلام دين النظافة والطهـارة ، اقرأ قول الله تعـالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصـلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النسـاء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم »**[٤] ••

وكما يشـمل التطهر الجانب النفسى بالصلاة يشـمل أيضا البدن بالوضوء ، أى بالنظافة والمحافظة عليها •

● **هل يجوز للمسلم والمسلمة أن يرتدى أى شىء ما لم يكشف عن عورته أو يجسمها ؟**

ـــ نعم••لكن أرى من الأفضل من جانب اثبات الشخصية الاسلامية وابرازها •• أن يتعارف المسلمون ـــ ان أمكن ذلك ـــ على زى خاص

---

(٣) الأعراف : ٣١ • (٤) المائدة : ٦ •

بهم ، يعرفون به ، ويبرز معالم الوطنية • وما عدا هـذا ، فكل مسلم حر فى أن يرتدى ما يحب ، مادام يحافظ على ستر العورة كما شرحت لك ذلك •

● اذن ليس من الصواب ما نسمعه من بعض الناس من أن الزى المعروف بالزى الأوروبى حرام على المسلم لبسه ، أو أن بعض أنواع الأقمشة أو الأردية غير مسموح بها اسلاميا ؟ •

— نعم •• لم يرد فى الاسلام تحريم أى نوع من أنواع الملابس ، ولكن أحب أن ألفت نظرك ، الى أن هناك أعراف تتحكم فى تقبل نوع من الملابس أو عدم تقبله ، وعليك ألا تخرج عما يتعارف عليه الناس ، فلا ترتدى شـيئا يراه الناس خارجا عن حدود اللياقة ، والا كنت شاذا وارتكبت اثما أيضا من الوجهة الدينية ، لأن الاسلام وصانا بعدم الخروج على ما تعارف عليـه المجتمع ، حتى لا نبدو شواذا بين الناس •

* * *

١٠ — احترام المواعيد

بعد أن انتهينا من الأحاديث السابقة[١] من بيان موقف الاسلام من النظام ، والنظافة ، وهما من المظاهر الأساسية للحضارة ، وبينا كيف فرض الاسلام من العبادات ما يغرس هاتين الصفتين فى نفوس المسلمين ، بحيث لو فهمها المسلم وأداها كما يجب أن تكون لأصبحت النظافة والنظام من عاداته ، التى لا يستطيع اهمالها ، بل لصارت من الغرائز التى يؤديها تلقائيا دون مشقة أو ميل الى التخلى عنها .

واليوم نريد أن نتحدث عن المظهر الثالث من مظاهر الحضارة ، ألا وهو احترام المواعيد ، وبتعبير آخر : الدقة فى تأدية الأعمال فى موعدها . والالتزام بما يعلن من جداول زمنية ، فى جميع مجالات النشاط الاجتماعى .

● كيف يكون ذلك من مظاهر الحضارة ؟ .

— ليس هذا من مظاهر الحضارة فقط ، بل من أهم الركائز الأساسية — ان لم يكن أهمها — التى يقوم عليها بناء الحضارة الانسانية ، ذلك أن الانتهاء من تجهيز السلع فى مواعيدها يسهل أمورا كثيرة فى مسيرة التقدم الحضارى ، وتأخيرها يشيع الارتباك فى سير عجلة التقدم ، اذ أن ما يترتب على هذا التأخير يصاب بالعجز والشلل ، فتعجز الأمة عن التقدم فى طريق بناء حضارتها ، وقل مثل ذلك فى تأخير القطارات ، والمركبات العامة ، ومصالح الناس ، ودواوين الحكومة ، وبين مكاتب الشركات ، ولادراك مدى أهمية هذا الجانب فى حياة الأمم والشعوب يكفيك أن تتصور مثالا بسيطا يتصل بك اتصالا مباشرا ، تخيل أنك وضعت برنامجا لانجاز بعض المهام الخاصة ، ورتبته وحددت لكل عمل زمنا معينا ، يترتب اللاحق فيه على انجاز السابق ، وبدأت فى انجاز هذه المهمة جزءا جزءا ، فلو تعثر احداها بسبب تراخى أو اهمال بعض الذين يعاونونك فى أداء هذه المهمات لارتبك

---

(١) وضعت هذه الأحاديث فى باب (فى العبادات (تحت عنوان : أثر العبادات فى الفرد .

كل ما يلى هـذا الذى تأخر انجازه ، وربما ينتج عن هـذا الارتباك انهيار البناء كله . ويحتاج هـذا الى وقت مضاعف لاعادته مرة ثانيـة ، مما يؤخر الانتاج ، وبالتالى يعيق التقدم الحضارى .

وقس على هـذا كل تأخير فى جميـع المجـالات ، فالتأخير فى القطارات ، والاهمال فى المواصلات داخل المدينة ، وبينها وبين المدن الأخرى ، والبطء فى انجاز أعمال الناس فى دواوين الحكومة كل هذا يصيب المجتمع بالشلل ، فيعجز عن الحركة ، ويتأخر عن ملاحقة الأمم المتقدمة ، وهـذا هو الداء العضال الذى أصيبت به معظم المجتمعات الاسلامية ، ان لم يكن كلها .

وينسبه أعداء الاسلام الى الاسلام ، وهو منه براء .. بل انـه وضع من التشريعات ما يعود المسلم على احترام المواعيـد ، وانجاز الأعمال فى أوقاتها المحـددة وأزمانها المرسومة لها ، فانظر مثلا الى الصلاة ، لم يترك الله الفرد يؤديها متى شـاء وكيف شـاء ، بل وضع لها زمنا محـددا ، لو لم تؤد فيه لخرجت عن وقتها وفى ذلك ذنب ، بل ان بعض الفقهاء أفتى : بأن الله لن يقبل الصلاة التى تؤدى خارج وقتها بسبب الاهمال .

أليس فى ذلك حمل للمسلم ؛ على أن يتعود أداء الأعمال فى وقتها المحدد ، دون ابطاء أو تأخير ، فقد روى أن أفضل الصلاة ما أدى فى أول الوقت ، وهـذه اشـارة الى عـدم التأجيل فى الأعمـال ، فلو أن المسلمين أدركوا مغزى هـذا التشريع لكانوا أشـد الأمم دقة فى انجاز الأعمال فى أوقاتها المحددة ، فتوبوا الى الله أيها المسلمون ، ولا تهملوا فى انجاز الأعمال فى مواعيدها ، حتى تظهروا بمظهر المسلمين المخلصين لدينهم ، فتصبحوا نماذج متحركة تدعو غير المسلمين بطريق غير مباشر الى الدخول فى الاسلام ، لأن سلوككم الطيب فى هـذا المجال سوف يحمل غير المسلمين الى التفكير فى اعتناق هـذا الدين ، الذى يربى أتباعه هـذه التربية التى تعود على المجتمع بالخير السعادة .

وفقكم الله .

* * *

الفصل الثالث

في العبادات

١ ــ قضـــية الاجتهـــاد

(أ) تتجدد الأحداث وتتشعب فى المجتمعات الانسانية بصورة مستمرة ، فهى لا تتوقف ، وليس هناك ما يمنع من ظهور الجديد دائما على مسرح الحياة ، كذلك تتنوع صور الحياة من اقليم لاقليم ، فلا يوجد تطابق كلى فى أسلوب الحياة على وجـــه الكرة الأرضية ، على اختلاف قاراتها ومناطقها وأقطارها ، فدائما يجد الباحث فى كل اقليم أشـــياء لا يجدها فى الآخر ، وتتقابله صـــور شتى من المعاملات ، واتجاهات متعددة فى أسلوب العلاقات التى تحكم المجتمعات الانسانية •

ومن هنا فلا يوجد نظام على وجـــه الأرض ، ــ ولن يوجد ــ يستطيع أن يسجل فى قوانينه ولوائحه التى تنظم الحيـــاة ، وتحكم العلاقات الانسانية ، بنودا ومواد تشمل كل ما على وجـــه الأرض من نشـــاط انسانى ، على اختلاف أنواعه ومناحيه ، ولذا فمن المسلم به أن الدساتير دائمة التغيير والتبديل ، والقوانين ليست ثابتة ، اذ تعمل فيها عقول المشرعين بالحذف والتجديد ، ليستطيع المجتمع أن يواجه المتغيرات بما يوافقها ، ويســـد الثغرات التى تظهرها تجدد الأحداث واختلاف العصور والبيئات ، حتى لا تصاب الأنظمة بالجمود ، ولا تنتشر الفوضى والتسيب فى مجال الحياة الاجتماعية ، أو تنتهك العدالة ، فيفترس القوى الضعيف ، عن طريق ثغرات الضعف فى اللوائح والقوانين •

ولم تسلم الشرائع الســـماوية من هـــذا الجانب ، اذ ليس هناك شريعة حوت كل ما يمكن أن يحدث على وجـــه الأرض ، بل ان من المعروف أن الوحى يأتى بالخطوط العريضة والمبادىء العـــامة ، والقواعد التى تصلح بوجه عام لكل المجتمعات الانســـانية ، ويمكن أن تطبق فى كل الأقطار ، على اختلاف أساليب حياتها ونظمها المعيشية ، ثم ترك لفقهائها تنظيم الفروع ، التى لا تمس الجوهر ، حسب طبيعة كل اقليم ، واخضاع ما يجد من أحداث لبنود ولوائح ، تتفق فى اتجاهها وتطبيقها مع روح التشريع العام للدين •

وهـذا ما يسمى فى مجال التشريع الاسلامى بالاجتهاد ، فهو أمر ضرورى ، حتمته ظروف الحيـاة الانسانية ، وطبيعة اختلاف أساليب الحيـاة فى المجتمعات البشرية ، وضرورة تجدد الأحداث على اختلاف العصور والأزمان ، واستحالة تسجيل أحكام جميع الأحداث التى تتجدد كل يوم فى الوحى السماوى ، بطريقة شاملة لكل ما سيحدث على وجه البسيطة ، وعليـه فقد أباح الاسلام للمسلمين ، أن يجتهدوا فى استنباط الأحكام لمـا يحدث من القرآن والسنة ، فان لم يجدوا فيهما ما يناسب الحدث ، بحثوا عن مثيل له ، والا استحدثوا له حكما جديدا ، بحيث يتفق مع روح التشريع الاسلامى •

ومن هـذا يتبين أن الاجتهاد سـبيل حتمى لتعرف أحكام ما لم يسبق له مثيل من الحوادث ، وأنه ضرورى لكمال الشريعة ، وشمولها ، ووفائها بحاجات الناس ، وما يأتى به تطورهم ، وما تنتهى اليه أعرافهم •

وهـذا الاجتهاد محـكوم بضوابط ، تحـكم اتجاهه على طريق يؤدى الى تطبيق أحـكام الله ، وعـدم الخروج عن تشريع الوحى ، فلا اجتهاد مع النص ، وانما ينحصر عمل الفقيه فى استنباط الحكم منه ، كذلك لا اجتهاد فى حادثة سبق الحـكم فيها من رسول الله ﷺ ، فان لم يكن هناك نص ، ولم يسبق الحكم فى مثل هـذه الحادثة ، استعمل الفقيه القياس ، أى يطبق حكم ما يماثلها ، وان لم يوجد شىء من هـذا كله ، اجتهد فى استخراج حكم يتفق مع روح التشريع الاسلامى •

فالاجتهاد مصدر من مصادر التشريع ، أو هو أسلوب أهله الاسلام للوصول الى حكم الشرع فيما يجد من أحداث ، وقد باشره النبـى ﷺ ، غير أن الوحى كان يصحح له اجتهاده ، لو خرج عما يريده الله ، يشهد بذلك قوله تعالى : **« يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضات أزواجك ، والله غفور رحيم »**[1] ••

فقد حرم شيئا بطريق الاجتهاد فنزل الوحى مبينا أن ذلك لم يكن صـوابا •

---

(١) التحريم : ١ •

وقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه أن امرأة من جهينة ، جاءت الى النبى صلى الله عليــه وسلم ، فقالت : ان أمى نذرت أن تحج ، ولم تحج حتى ماتت •• أأحج عنها ؟ قال : « نعم •• حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء » ، فهذا الجواب من رسول الله ﷺ قياس ، اذ قاس الحج على الدين فى الوفاء ، والقياس اجتهاد •

وكذلك ما رواه أحمد بسنده الى عبد الله بن عمر ، فيما يتعلق بأسرى بدر ، عندما استشار أصحابه فى أمرهم ، اذ أشار عليه أبو بكر باستبقائهم ، وقبول الفداء منهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ، وأشار عمر بضرب أعناقهم ، فمال الى رأى أبى بكر وقبل الفداء وأطلقهم ، فعاتبه الله على ذلك بآية فى القرآن الكريم ، وهى قوله تعالى : **« ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم • لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »**(٢) ••

فكان قبول الفداء منهم اجتهادا منه ﷺ ، ولم يكن وحيا بدليل أن الله عاتبه عليــه •

وكذلك ما كان منه ﷺ من اذن لمن استأذنه فى التخلف فى غزوة تبوك لأعذار انتحلوها ، فقد كان اجتهادا منه عاتبه الله عليه ، بقوله : **« عفـا الله عنـك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صـدقوا وتعلم الكاذبين »**(٣) ••

وغير ذلك كثير دونته كتب السنة ، وأصبحت اجتهاداته ﷺ بعد اقرارها من الوحى سنة يجب اتباعها ، ولا يجوز معها اجتهاد • وليس لأحد أن يعترض بأن هـذه الاجتهادات من رسـول الله ﷺ سـنة واجبة الاتباع فخرجت عن دائرة الاجتهاد ، لأن ابتداءها كان اجتهادا للتشريع ، أى لتعليم المسلمين أن طريق الاجتهاد ، عندما لا يكون هناك نص ، أسلوب أحله الاسلام ، للوصول الى حكم ما يستجد من أحداث •

* * *

(٢) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ •

(٣) التوبة : ٤٣ •

(ب) كان عمل رسول الله ﷺ منهاجا لأصحابه ، يقتدون به فيهتدوا الى ما أراده الله لهم ، وكان سلوكه فى استنباط الأحكام تشريعا لهم ليفعلوا مثله من بعده عندما يواجهون أحداثا جديدة ، بل انه دفعهم الى الاجتهاد ، واستنباط الأحكام فى حياته ، بل وفى حضوره ، ليدربهم على هذا العمل الذى فيه حياة المجتمعات وتجددها ، فقد روى الامام أحمد بسند صحيح ، فقال : « جاء خصمان الى رسول الله ﷺ يختصمان ، فقال رسول الله ﷺ : قم ياعقبة فاقض بينهما ، فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أنت أولى بذلك ، قال : وان كان •• اقض بينهما ، فقلت : على ماذا ؟ قال : اجتهد ، فان أحسنت ، فلك عشر حسنات ، وان اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد » ••

وقد سأل رسول الله ﷺ معاذا ، حين بعثه الى اليمن قاضيا ، فقال له : « كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله • قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : أقضى بسنة رسول الله ، قال : فان لم تجد فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ، ولا آلو • فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله — ﷺ — الى ما يرضى الله ورسوله » •

فقد أرضى معاذ رسول الله ﷺ حين قال له انه يجتهد فيما يعرض عليه ، مما ليس فيه كتاب ولا سنة ، وهذا دليل على أن الاجتهاد وسيلة من وسائل استنباط الأحكام فى الشريعة الاسلامية ، وقد فهم الصحابة ذلك ، فمارسوه ، وطبقوه فيما عرض عليهم من أحكام حديثة ، وفيما قابلهم من ظروف لم تكن فى عهد رسول الله ﷺ •

فقد كانت ممارستهم الاجتهاد فى عهد رسول الله ﷺ ، وشهودهم قضاءه فى أقضيته ، واجتهاده فى فتاويه ، ومشاركة بعضهم بعضا فى ذلك ورجوعهم الى النبى ﷺ فيما نظروا فيه ، واهتداؤهم بهديه فى ذلك ، قد هيأ لهم ما صاروا اليه من الأهلية والقدوة ، والأسوة ، والمتابعة فيما يفتون به من الأحكام الشرعية فى المسائل النازلة ، والوقائع المستجدة ، مما يرونه حكما لله تعالى ، دل عليه كتاب ، أو هدت اليه

سنة ، أو جرى فيه قضاء ، أو هدى اليه أصل عام من أصول التشريع ، أو أفاده حكم مشـــابه فى واقعة مماثلة ، أو اقتضته مصـــلحة عامة ، أو استوجبه دفع ضرر ، وذلك بعد المشورة والنظر •

واستمر الاجتهاد مبدأ من مبادىء البحث عن الأحكام فى عصر التابعين وتابعيهم ، الا أن تدوين الحديث وتدوين كثير من فتاوى الصحابة وآرائهم ، وازدهار الفقه فى ســـائر الأمصار بكثرة المشتغلين به من الموالى ، وظهور الأحزاب السياسية ، وانتشار دعوتها ، كان له أثر فى تشعب الاتجاهات فى الاجتهاد والتشريع ، كما كان لتعدد النزعات التى تتمثل فى متابعة أهل كل مصر ، لمن أدركوهم من التابعين ، أثر فى اتباع كل بلد مذهب من اشتهر فيه من الفقهاء فتكونت المدارس الفقهية •

ولم يختلف الاجتهاد بين أتباع هـــذه المدارس ، بل ظل يمارسه النابهون فى هذه المدارس ، فلم يقلدوا فى أصول ولا فروع ، وانما كان لهم آراؤهم التى خالفوا فيها مؤسس المذهب ، الى أن جاء القـــرن الثالث ، فمال كثير منهم الى تقليد غيره ممن ســـبقه من المجتهدين ، الا أنه كان لهم استقلال فى بعض الآراء مع احتفاظهم باتباع مذهب أئمتهم •

الا أن ظاهرة الاجتهاد اختفت فى هذه المدارس فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، فلم يبق مجتهد معترف به ، كما ذكر ذلك النووى ، واذا ما ادعاه أحد أنكروا عليه ذلك ، ونوزع فيه • وبانقراض المجتهدين فى القرن الرابع ، وعدم ظهور من يحمل الناس على التسليم برأيه أصبح باب الاجتهاد مغلقا لم يدخله أحـــد ، وشاع بسبب ذلك أن باب الاجتهاد قد أغلق ، وليس لأحد أن يلجه •

وكان هذا الرأى محل نزاع ، فيما تلا ذلك من الزمن ، بين جمهور المحققين من المتقـــدمين والمتأخرين ، الذين ذهب كثـــير منهم الى أن دعوى غلق باب الاجتهاد باطلة ، فالاجتهاد فرض على من يستطيعه ، وواجب على الأمة ممارسته ، حتى تواجه التطور المستمر فى الأحداث

والحالات التى تحتاج الى أحكام • ولكن جاء بعــد هؤلاء طائفة من الفقهاء ، عكفوا على جمع فتاوى من سبقهم ، واختيار ما يرونه ملائمــا للحدث المفروض عليهم •

واستمر الحال على ذلك ، حتى ظهر بمصر فى القرن الســابع الهجرى : العز بن عبد السلام ، وتلميذه تقى الدين بن دقيق العيد ، فأظهرا نزعة الى الاجتهاد والاستدلال ، ولكنهما لم يصلا الى مســتوى الاجتهاد المطلق المستقل ، وفى هــذه الحقبة أيضا ، ظهر فى الشــام ابن تيمية ، وتلميــذه ابن قيم الجوزية ، فحاربا التقاليد ودعوا الى الاستمساك بالسنة والرّجوع اليها ، ومقاومة البدع ، ولكن كانت دعوتهما أشد مساسا بأصول الدين منها بالفقه والفروع •

ومنذ ذلك الحين ، تأرجحت فريضة الاجتهاد بين الرفض والقبول ، الا أن السمة الغالبة على مدارس الفقه ، ومجالس التدريس فى المجتمعات الاسلامية ، ومحاورات العلماء فى العالم الاسلامى ، كانت سمة التقليد ، حتى أصبح الاجتهاد أمرا منكرا وصار من يحاول التجديد فى مجــال التشريع ، على أساس الاجتهاد فى المسائل التى لم يرد فيها حكم واضح فى الكتاب والسنة منبوذا من مجالس العلماء ، ومغضــوبا عليه من الجماهير ، من جراء تشويش العلماء عليه ، وتقبيح محاولاته فى هذا المجال لدى العلماء ، والعامة والخاصة ، حتى وصل الأمر بهم أحيانا الى اتهامه فى دينه وعقيدته •

غير أن أحداث العصر الحديث قد تكاثرت ، وصار المسلم فى كل مكان ، يستفسر عن رأى الدين فى هذه الأحداث ، التى تظهر كل يوم فى جميع مجالات الحياة اليومية مما اضطر كثير من العلماء الى طرح قضية الاجتهاد من جديد على مائدة البحث ، فاقتنع جمهورهم بعد بحث طويل الى ضرورة الاجتهاد ، للوصول الى أحكام لهذا الكم الكبير من الأحداث حتى يطمئن المسلم على دينه وعقيدته فيما يباشر من أعمال يومية •

وهكذا •• عادت قضية الاجتهاد تأخذ وضعها على مائدة الفقهاء ،

وعليهم أن يقوموا بواجبهم فى هذا المجال حتى تسود روح التشريع الاسلامى فى جميع أنشطة الحياة المختلفة .

* * *

(جـ) تغيرت أساليب الحياة اليوم فى المجتمعات الانسانية ، وانقلبت انقلابا كليا ، بحيث أصبحت بعيدة الشبه عما كان عليه حالها فى عصور الاسلام الأولى . وبالتالى أصبحت المسائل الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، تختلف فى كثير من جوانبها عما كانت عليه فى العصور الماضية ، اذ ظهرت صور من المعاملات ، وأنواع من السلوك ، ونماذج من العلاقات الاجتماعية ، لم تدون فى كتب السالفين ، فلم تعرف لها أحكام ، ولم تستقر فى نفوس الناس من الوجهة الدينية .

فبعض الناس اعتبر أن ما يحدث فى الحياة ، ولم يكن له حكم فى كتاب من كتب السالفين ، فهو بدعة يجب اجتنابها ، لأن من يباشره فقد ضل عن سبيل الله ، وخسر بذلك آخرته ، والبعض الآخر دفعته الحاجة الى التعامل بصورة أو بأخرى مع هذا الجديد ، الذى ظهر دون أن يسأل عن جوانب الشر والخير فيه ، أو يغمض عينيه اذا ما بدا له أن ذلك مخالف للدين ، بناء على فتوى سمعها ممن تصدروا للفتوى فى هذه المسائل دون أهلية أو صلاحية .

كما أبهم الأمر على كثير من المسلمين ، فوقعوا فى حيرة لا يدرون ما يأخذون وما يتركون ، مما جعل حياتهم فى صورتها وفى وضعها حياة غير مستقرة ، فافتقدت حوافز العمل والجد ، وسيطر عليها السلبية والانعزالية .

وكان سبب ذلك كله الاعتقاد الخاطىء بأن باب الاجتهاد قد أغلق ، والحقيقة أن باب الاجتهاد لازم للمجتمعات لزوم الطعام والشراب ، ذلك أن الأحداث المتجددة تستلزم وجوده ، والا وقفت عجلة الحياة ، وأعيق تيار التقدم عن التدفق ، فتصاب الأمة بالعجز والشلل ، وقد حث الرسول ﷺ عليه ، ودفع أصحابه الى ممارسته بل وأعرب عن سروره عندما أجابه معاذ بأنه سيجتهد ، اذا لم يجد الحكم فى كتاب الله وسنة رسوله . :

ولم يكن هذا من رسول الله ﷺ سوى تشريع للأمة ، وتوجيه لهـا بألا تترك الاجتهاد ، والا تصاب بالشـلل أمام تيار الأحداث المتدفق ، وتعجز عن مسايرة ركب التقدم فى مجالات الحياة المختلفة . وما حدث للأمة الاسلامية في العصور المـاضية ، من عجز وتخلف ، لشاهد على أن المسلمين قد ارتكبوا خطأ فادحـا عندما أهملوا أمـرا حثهم عليه رسول الله ﷺ ، وهو الاجتهاد .

فاذا كان الاجتهاد سنة من سنن رسول الله ﷺ التى حث عليها ، وضرورة لازمة للمجتمعات الانسانية ، فهو فى هذا العصر من أكثر الأمور التى تفرض نفسها على حياة المسـلمين ، كى تقوم الحياة على أسس قويمة ، فيهـا مواءمة بين شريعة الله ، وبين متطلبات الحيـاة الحاضرة ، بما يكفل لها استقامتها وسلامتها ، بتوجيهها على وفق ما شرعه الله من أحكام على طريقة ينفى عنها خبث الباطل ، ويقيها رجس الشيطان ووخامة الظلم والاستبداد .

ولا يقتصر الاجتهاد على بعض جوانب الحياة ، دون البعض الآخر ، بل هو من الوجهة الاسلامية ينبغى أن يطبق فى جميع مجالات الحياة ، وليس صحيحا ما يقال من أن هنـاك جوانب لا دخل للشرع فيهـا كالأمور التنظيمية مثلا ، لأن الشرع لا يتدخل فيها بفرض نظام معـين ، أو أسلوب خاص ، وانما يتدخل فيها ليحفظ الحقوق لأصحابها فلا يضار أحد ، ولا تنتهك حرماته ، ولا تسلب الحقوق من أصحابها ، فتدخل الاجتهاد الشرعى فى الأمور التنظيمية انما هو لتطبيق قاعدة « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » .. أما الهيكل التنظيمى ، والأشكال المتعددة فى مجاله ، فالدولة ، والمؤسسات ، والهيئات حرة فى أن تتخذ الشكل الملائم لها ، بشرط عدم المساس بالحقوق ، وبشرط ألا يترتب على نظام ما تعطيل مبدأ من مبادىء الاسلام ، أو ارتكاب شىء حرمه القرآن الكريم .

ومن هذا يتبين أن الاجتهاد لازم لكل المجتمعات الانسانية ، وضرورة من ضرورات الحيـاة ، ويجب على المسلمين أن يمارسوه والا كانوا مذنبين فى حق رسول الله ﷺ لأنه حثهم عليه ، وفى حق أمتهم لأنهم

بتقاعسهم عنه يسهمون بطريق غيرمباشر فى تخلفها عن ركب الحضارة ، فان قام به مجموعة من فقهائهم ، فقد سقط التكليف عن الباقين ، وليس لأحد أن يدعى الاجتهاد الا اذا كانت لديه القدرة على ذلك ، وقد وضع العلماء لها معالم ، اذا وجدت لدى الشخص ، كان بامكانه استنباط الأحكام .. ومن هـذه المعالم :

١ — العلم بنصوص الكتاب والسنة التى تتعلق بالأحكام .

٢ — العلم بما عليه جمهور الفقهاء من الأحكام ، حتى لا يخالفه .

٣ — العلم بلسان العرب ، بحيث يمكنه فهم ما جاء فى الكتاب والسنة ، على اختلاف أساليبها ، والمطلوب فى ذلك أن تكون له ملكة لغوية تثبت له بطول الممارسة ، وكثرة الملازمة .

٤ — العلم بأصـول الفقه وقواعده ، لأنه عماد الاجتهاد وأساسه الذى يقوم عليه بناؤه .

والمراد من ذلك أن يكون المجتهد على علم بما عرض له الأصوليون ، من أسس وقواعد تهدى المجتهـد الى النظر الصحيح ، والاستنباط السليم ، وتجنبه الخطأ فيهما .

وأضيف الى ذلك أنه يجب أن يكون المجتهد على علم — ولو بصورة اجمالية — بالتيارات الفكرية المعاصرة والمذاهب السياسية ، والاقتصادية العالمية ، والاتجاهات الدينيه المختلفة ، والنظم الاجتماعية المتعددة ، والأسس النفسية المتشابكة حتى يأتى استنباطه للأحكام ، وتقييمه للأحداث ذات المصادر المتعددة غير بعيد عن واقع الأحداث ، ولا متنافر مع المسلمات البديهية .

كما أنه ينبغى أن تكون لديه ملكة استنباط الأحكام ، لأن من العلماء من يكون ملما بكل ما تقدم ولا يستطيع استنباط حكم ، أو توجيه قضية تشغل بال المسلمين بما يرضيهم نفسيا ، مع توجيههم فيها الى سلوك طريق يتفق ومبادىء الاسلام ، فهذا عمل لا يقدر عليه الا ألمعى وهبـه الله بصيرة شفافة .

* * *

٢ — أثر العبادات على الفرد

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** »[١] ..

فالعبادة من أهم أهداف خلق الانسان فى هذا الكون . بل هى أهمها على الاطلاق ، وكما تشمل العبادة الفروض الواجبة على المسلم . فهى تشمل أيضا كل عمل يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى . سواء أكان دعاء أو سلوكا مع الناس ، أو عملا يؤديه المسلم . لخدمة نفسه . وأهله وأسرته ، ومجتمعه ، وكذلك ما يخدم الانسان والانسانية جمعاء . ذلك أن المقصود من العبادة هو تهذيب النفس وتقويمها ، ليصبح الانسان عضوا صالحا داخل المجتمع ككل ، لأنه اذا صلح الفرد ، صلح المجتمع كله .. ولهذا كان أثر العبادات راجعا أولا وآخرا الى الفرد ذاته .

فلو تدارسنا آثار الفروض الواجبة ، لتبين لنا أنها تدفع الفرد الى أن يكون خلقا سويا ، فمثلا لو نظرنا الى الوضوء ، وهو ما فرضه الله سبحانه وتعالى ، كشرط أساسى من شروط الصلاة فى قوله تعالى . « **يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** »[٢] ..

فاذا حافظ المسلم على هذه الفريضة تعود على النظافة ، وهى من أهم العبادات التى تعود على المجتمع بالخير ، وتمنع عنه أضرارا كثيرة ، فالنظافة عنوان الجمال الذى يسر الناظرين ، فيبعث فى نفوسهم الراحة فتهدأ الأعصاب ، واذا هدأت الأعصاب ازدادت قوة الانسان على الانتاج .

---

(١) الذاريات : ٥٦ .   (٢) المائدة : ٦ .

والنظافة مناعة من الأمراض التى تفتك بالانســانية ، وما أقسى الأمراض وأبغضها الى النفس ، ومعظمها لا يأتى الا من عدم النظافة ، فاذا فهم المسلم الحكمة من الوضوء وهى أنها للتطهر من الأوساخ ، والتحصن من المرض ، فأداه خير الاداء ، نال محبة الله ، وعاش سعيدا هنيئا •

كذلك الصلاة تصفى النفس ، وتريح الأعصاب ، وتغرس فى المسلم أن الخضوع لا يكون الا لله ، فلا يقع فريسة الاستعباد لانســان مثله ، ولا ضحية الخوف من عبد لا يملك له ضرا ولا نفعا الا باذن الله • كما تعلم الصلاة أيضا : النظام ، والالتزام بالمواعيد ، فصلاة الجماعة تعود المسلم على النظام ، ولنتذكر قول الامام للمصلين : « سووا صفوفكم فان تسوية الصفوف من تمام الصلاة » ••

فهو درس يأخذه المسلم كل يوم ، ليكون على ذكر دائما بالتزام النظــام •

وتوقيت الصلاة بأوقات محدودة يعود المسلم أيضا على الالتزام بالمواعيد ، ومعروف أن الالتزام بالمواعيد والنظام من أهم أسباب رقى الأمم والشعوب ، فاذا عرف المسلم هذا الهدف ، فسوف يكون من أحسن الناس اسهاما فى بناء الحضارات البشرية التى تعود عليــه بالنفع العــام •

أما الصيام فأثره على الفرد معروف ، فهو يهذب النفس ويصفى الروح ، ويذكر الناس بآلام الجوع ، حتى لا ينسى الغنى الفقــير ، ولذلك أجاب أحد الحكماء عندما سئل عن السبب فى كثرة صومه بقوله : « أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » ••

وفضلا عن هذا ، فهو علاج لأمراض العصر ، ذلك أن الناس ابتلوا فى هــذه الأيام بأمراض ، ثبت أن ســببها كثرة الأكل ، كالتخمة ، والكلوسترول ، وضغط الدم وغيرها •• فالصيام خير علاج لهذا كله وهو ما يعبرون عنه فى هذا العصر بـــ « الرجيم » فقد أصبح هذا « الرجيم » موضة العصر ، وصار الناس ينظرون الى من يمارسه نظرة اكبار واحترام

لأنه صمم على تحرير نفسه من شهوة الأكل ، ولا شك أن الصيام فى الاسلام أفضل منه ، لأنه — فضلا عن كونه صحيا — فهو يذكر الانسان بألم الفقير الذى لا يجد ما يقتات به . ويدفعه الى العطف عليه . ومساعدته على التغلب على آلام الجوع . وفى ذلك كل الفائدة لأنه يؤدى الى التعاطف والتراحم . اللذين هما الأساس فى تماسك المجتمع وترابطه .

أما أثر الحج على وحدة الشعوب الاسلامية وتعاونها . فأذكر كلمة قالها مؤلف كتاب « الاسلام قوة الغد العالمية » فى هذا الصدد . فقد قال : « هنا فى مكة يجتمع المسلمون من كل أرجاء العالم مرة فى السنة أثناء الحج الأكبر ، يلتقون مع بعضهم ، بعد أن يطرحوا عنهم كل أثر أجنبى ، خارج المنطقة الحرام المضروبة حول مكة . ينسون قومياتهم وأوطانهم ، ويتذكرون فقط حقيقة واحدة : أخوة فى الله . تجمعهم عقيدة واحدة ، وكتاب واحد ، ليس للفوارق الاقليمية مكان بينهم ، وهم يد على من سواهم » ..

فمكة هى المحل الذى يشعل العاطفة الدينية فى المسلمين ويبعث فيهم روح تعاليم القرآن الكريم ، وهى مركز الاشعاع الروحى والفكرى ، حوله تحوم أفكارهم ، ثم تنبعث قوة محركة لكل الطاقات فى أرجاء العالم الاسلامى ، فتبعث الوعى والادراك بوحدة المصير فى هذا العالم الذى يعيش فيه أكثر من أربعمائة مليون مسلم .

* * *

٣ — خواطر صائم

(أ) فرض الله صيام شهر رمضان بقوله تعالى : ((**شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه**))[1] ..

وهو شهر من شهور السنة القمرية ، وسميت قمرية لأن حسابها خاضع لمطالع القمر ومنازله ، والمعروف أن هذا التوقيت الزمنى غير ثابت ، أى أنه يتحرك على مدار السنة الشمسية . ويتم دورة كاملة فى حوالى ثلاث وثلاثين سنة تقريبا ، بمعنى أنه لو جاء رمضان فى يناير ، فسوف ينتقل بين الشهور الشمسية من سنة الى سنة ، حتى يتم دورة كاملة ، ويعود الى يناير بعد هذا العدد من السنين الشمسية ، وبناء عليه ، فرمضان غير ثابت فى زمن معين من السنة الشمسية ، فهو ينتقل بالتدريج من الصيف الى الربيع ثم الى الشتاء فالخريف .

● ولكن ما الحكمة فى ذلك ؟

— يرى بعض الباحثين أن الله سبحانه وتعالى ربط الصيام بالشهور القمرية ، لأن معرفة مطالع القمر سهلة ميسرة لكل الناس ، اذ أنها ترى بالعين المجردة ، فيستطيع كل واحد أن يرى القمر هلالا ، ثم بدرا ، فمحاقا ، ويحسب الشهور بناء على هذا التغيير بخلاف الشمس ، فلا يستطيع أحد ادراك مجراها بين الشمال والجنوب ، أو بمعنى أدق تحديد مسار مدار الأرض حولها ، الا بعد أن يصل الى درجة عالية فى مجال معرفة العلوم الفلكية ، وعليه ، فقد كان من الصعب تكليف الناس بصيام يربط زمنه بمظاهر فلكية لا يدركونها ، وخاصة أن الشهور الشمسية لم تكن معروفة عند سكان الجزيرة العربية التى نزل فيها الاسلام .

وهذا رأى غير سليم ويبدو عليه بساطة التفكير واضمحلاله ، وعدم فهم روح الاسلام وحقيقته ، ذلك أن الاسلام دين عالمى لكل الناس فى

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

جميع أقطار الكرة الأرضية ، ومعلوم أن فصول السنة لا تتحد الا فى الأقطار الواقعة على خط عرض واحد ، بمعنى أن ما يقع على خطوط العرض فى نصف الكرة الشمالى ، يختلف عما يقع على خطوط العرض فى نصفها الجنوبى ، فاذا كان فى الشمال صيفا ، كان فى الجنوب شتاء ، واذا كان فى الجنوب شتاء كان فى الشمال صيفا ، وهذا معروف لمن عنده المـام بسيط بعلم الجغرافيا ، ومشاهد لمن عنده اهتمامات ثقافية فى هذه الناحية ، اذ يعرف أن ذروة فصل الصيف فى جنوب القارة الافريقية ، يحل فى شهر يناير ، بينما هو ذروة فصل الشتاء فى أوروبا ، والعكس بالعكس ، ففى شهر يوليو يحل البرد والصقيع فى جنوب افريقيا ، بينما يتمتع الأوروبيون بالطقس الصيفى •

فلو فرضنا أن الصوم فرض فى شهر يوليو ، لظل سكان نصف الكرة الشمالى يصومون طول حياتهم صيفا ، وسكان النصف الجنوبى يصومون طول حياتهم شتاء •

وهذا أمر يتنافى مع عدل الله فى التكليف ، فاقتضت حكمة الله أن يتغير وقت شهر الصوم بين الفصول كلها ، ليؤدى الناس فى جميع مناطق الكرة الأرضية الصيام فى جميع فصول السنة ، بل ان الفرد الواحد سوف يصوم فى جميع هذه الفصول لأننا اذا عرفنا أن متوسط عمر الانسان يتراوح بين الخمسين والستين سنة تقريبا ، وتكليفه بالصوم يحين فى سن الخامسة عشرة ، فسوف يصوم رمضان فى كل شـــهور السنة لأن الدورة تتم فى ثلاث وثلاثين سنة تقريبا ، فاذا أضيف هذا العدد الى سن التكليف وهو خمس عشرة سنة لأصبح عمره ثمان وأربعين سنة وهو أدنى مجال متوسط عمر الانسان •

فالحكمة فى اختيار شهر قمرى للصوم ، هو لتحقيق العدل بين الناس فى التكليف ، أى كى لا يصوم سكان منطقة فى الصيف طوال حيتهم •• وسكان منطقة أخرى فى الشتاء طول حياتهم ••

* * *

(ب) اذا كان توقيت الصيام مربوطا بالقمر فمتى يبـدأ الشهر ؟ هل يبدأ بظهور القمر هلالا ، أو عندما يكتمل بدرا ، أو عندما يصير محاقا ؟ وقبل أن نجيب على هذا السؤال ، نحب أن نلفت النظر الى أن الاسلام ربط توقيت أداء العبادات بظواهر فلكية واضحة ، حتى لا يختلف الناس فيها ، فاذا نظرنا الى أوقات الصلاة ، وجدناها تبدأ وتنتهى بظواهر واضحة العين ، عبر عنها الحديث الذى رواه جابر بن عبد الله « أن النبى ﷺ جاءه جبريل عليه السلام فقال له : قم فصل ، فصلى الظهر حين زالت الشمس ، ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصل ، فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثله ، ثم جاءه المغرب ، فقال : قم فصل ، فصلى المغرب حين غربت الشمس ، ثم جاءه العشاء ، فقال : قم فصل ، فصلى العشاء حين غاب الشفق ثم جاءه الفجر ، حين سطع الفجر فقال : قم فصل ، فصلى الفجر .

ثم جاءه من الغد للظهر فقال : قم فصل ، فصلى الظهر ، حين صار ظل كل شىء مثله ، ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصل ، فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثليه ، ثم جاءه المغرب وقتا واحدا لم يزل عنه ، ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل ، فصلى العشاء ، ثم جاءه حين أسفر جدا فقال : قم فصل ، فصلى الفجر ثم قال له : ما بين هذين الوقتين ، هو وقت تأدية الصلاة » .

وبناء عليه ، فينبغى أن يكون وقت بدء الصوم وانتهائه واضحا ، ولا يتحقق هذا لو ربط باكتمال القمر بدرا ، أو بصيرورته محاقا ، لأن تقدير الاكتمال ، أو ادراك صيرورته محاقا ، يختلف — أحيانا — من شخص الى شخص ، لأن عنصر الكم يدخل فى هذا التقدير ، وهو محل خلاف ، أما رؤيته فى السماء بعد غروب الشمس لاحقا لها ، فلا خلاف فيه ، اذ مجرد الرؤية تؤذن بابتداء الشهر ، ولا يدخل فيها تقـدير المسـاحة المضيئة فيه لثبات الرؤية ، ولذلك قال رسـول الله ﷺ : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ، فان غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » .

وتتم الرؤية بالعين المجردة ، ويجوز الاستعانة بوسائل علمية تساعد العين على الابصار ، كالمراصد ، ويكون ذلك فى مساء يوم التاسع والعشرين من شعبان ، فان رؤى الهلال ، وجب البدء فى الصوم فى اليوم التالى ، والا فعلى المسلمين أن يكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما ، ثم يبدأ الصوم بعده .

وتثبت الرؤية ، ولو من واحد عدل ، لما ثبت أن ابن عمر رضى الله عنهما قال : تراءى الناس الهلال ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، أنى رأيته ، فصام ، وأمر الناس بصيامه ، فهذا الحديث يدل على ثبوت الصوم بشهادة واحد فقط ، بشرط أن يكون عدلا .

قد يقول قائل : ان بعض الأقطار لا يظهر فيها القمر لشهور عديدة من السنة لأن السحب لا تنفك عنها ليلا ونهارا ، فكيف يعرف سكان هذه الأقطار موعد بدء الصوم ؟

وأرى أنه لا محل لهذا الاعتراض اذا عرفنا أن المسلمين فى جميع أقطار الأرض أمة تعيش تحت ظل الوحدة الدينية ، فشعارهم وحدة الألوهية ، ووحدة تأدية العبادات ، فاذا ظهر الهلال فى أى قطر من أقطار الأرض ، وجب على المسلمين فى جميع أنحاء الكرة الأرضية الصوم ، متى وصلهم خبر ثبوته ، بشرط أن يصلهم قبل طلوع الفجر ، ولا شك أن صفاء الجو من السحب متحقق دائما فى بعض مناطق الكرة الأرضية ، وعليه فلا مشكلة عند من يسيطر السحاب على أجوائهم لأنهم يصومون لثبوت الرؤية فى المناطق الخالية من السحب . وفضلا عن هذا ، فان علم الفلك قد تقدم اليوم وأصبح من السهل على علمائه أن يحددوا اليوم الذى يظهر فيه القمر بعد غروب الشمس ، ولا حرج من الاعتماد عليهم فى تحديد أوائل الشهور العربية ، لأن معنى الرؤية فى الحديث هى التثبت من ظهوره ، فاذا تثبتنا من هذا عن طريق الحساب الفلكى ، فيجوز الأخذ به وتحديد بدء الصوم تبعا له ، وبهذا يسقط أيضا الاعتراض السابق بأن السحب تمنع الرؤية .

* * *

(جـ) يختلف الاسلام عن الأديان الأخرى فى مناح كثيرة ، بعضها يرجع الى العقائد والعبادات ، والبعض الآخر يتعلق بأسلوب حياة المؤمنين به ، ومدى تعاملهم مع ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، بما فيها من صور شتى ، وأشكال متعددة ، وهيئات تجمع بين التنافر والانسجام ، وبين التباين والاندماج ، ولا شك أن كل دين تناول موضوع الكون بصورة أو بأخرى ، واشتملت تعاليمه على ذكر بعض جوانبه وما فيهـا من اعجاز أو تسلط على الانسـان يحمله على الخضوع للقوة التى يدعو اليها هـذا الدين ، ولكننا لا نجد دينا عنى بما فى السموات والأرض ودفع أتباعه الى النظر فيما حولهم من مظاهر كونية ، مثل الاسلام ، اذ نقرأ فى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث المسـلمين على النظر والتأمل فيما يحيط بهم ، من سماء ، وأرض ، وكواكب سيارة ، ونجوم لا حصر لها ، مثل قوله تعالى : « **أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء** »[2] ..

وقوله : « **أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج · والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج · تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** »[3] ..

وقوله : « **خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم** »[4] ..

الى غير ذلك من الآيات التى يضيق المقام عن ذكرها ، وكلها تحث بطريق مباشر أو غير مباشر على التفكير والتأمل فى ملكوت الله الذى يحيط بالانسان ، ولا يقف النظر والتأمل عند حد « البحلقة » فى مظاهر الكون ، بل هو محاولة الوصول الى معرفة أسبابها وادراك معالمها بالقدر المتاح للانسان ، ولم يقصر أمر الاسلام المسلمين بالنظر فيما حولهم على الناحية النظرية ، بل ربطها بالجانب العملى ، ذلك أن الله فرض

---

(٢) الأعراف : ١٨٥ .　　(٣) سورة ق : ٦ — ٨ .
(٤) لقمان : ١٠ .

الصلاة والصيام فى أوقات محددة ، تتغير بمطالع الشمس والقمر . ومعرفة هذه المطالع لا تكون سهلة ميسرة فى بعض مناطق الكرة الأرضية . بمعنى أنها لا تعرف بمجرد النظر بالعين المجردة . بل لابد من استعمال قواعد أخرى لتحديد بدء الصيام ونهايته ، وبدء وقت الصلاة ونهايته . وهذا يدفع المسلمين الى الاشتغال بعلم الحساب والفلك . وتلمس ذلك أيضا من قوله تعالى « **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحســاب** »(٥) ..

وقوله : « **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** »(٦) ..

كذلك يتعذر فى بعض مناطق الكرة الأرضية تطبيق التحديد المشروع للصوم والصلاة لو أخذ بظاهره ، اذ كيف يصوم المؤمن من الفجر الى الليل فى بلد لا تغيب عنها الشمس شهرا أو شهرين ، وكيف يؤدى الصلاة فى يوم طوله ستة أشهر ، كما فى بعض المناطق القطبية ؛ الا اذا أدركنا أن تحديد وقت الصلاة بطلوع الشمس وغروبها ووقت الصوم بظهور الهلال ، مبنى على معظم مناطق الكرة الأرضية ، والمطلوب منا تقدير الزمن فى تلك المناطق التى تغيب فيها الشمس أو تشرق شهورا وأياما بحسب أقرب المناطق التى يتعاقب عليها الليل والنهار بصورة عادية ، كما أشار الى ذلك حديث الدجال ، حيث جاء فيه على لسان الصحابة رضى الله عنهم : « قلنا : يا رسول الله .. فذلك اليوم الذى كسنة أو تكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا .. اقدروا له » ففيه اشارة الى أنه لو حدث أن طال اليوم بصورة غير مألوفة فيجب علينا أن نقدر منه مقدار اليوم ، ونحدد على أساسه مواقيت الصوم والصلاة ، ولا يتأتى ذلك الا طبقا للقواعد الفلكية ، ولا يمكننا القيام بهــذا العمل الا اذا تقدم علماؤنا فى مجال الفلك ، وأصبحوا قادرين على حساب الزمن الذى تستغرقه الأرض فى دورانها حول نفسها وحول الشمس ، ومقدار قربها وبعدها من القمر .

---

(٥) الاسراء : ١٢ .
(٦) يونس : ٥ .

اذن فربط العبادتين بالظواهر الفلكية ، كان دافعا للعلماء الى البحث والتنقيب فى هذا العلم ، ووضع نظرياته على أسس علمية ، وهذا ما حدث فى الدولة الاسلامية ، اذ بعد ما كان الفلك قبل الاسلام قائما على التنجيم بأسلوب غير علمى ، اتجه فى العصر العباسى وما تلاه من العصور التى ظهرت فيها الاكتشافات العلمية الحديثة ، الى وضع النظريات العلمية فى هذا المجال ، فأنشئت المراصد المجهزة بأحدث الأجهزة للكشف فى العواصم الاسلامية وغيرها ، وتقدم علم الفلك تقدما ملحوظا ، فوضع العلماء قوانين هندسية مبرهنة للكشف عن مقادير الحركات الظاهرة للشمس والقمر وسائر الكواكب بالتحديد ، فكان هذا انجازا حضاريا على هذا الطريق ، وخطوة أولى شجعت الباحثين من مختلف الجنسيات على السير فى هذا الطريق ، حتى وصل اليوم الى درجة لم يكن من الممكن أن يتصورها الانسان فى الماضى ، فانجاز علماء الاسلام فى عالم الفلك يعتبر خطوة رائدة كانت العبادات الاسلامية من أهم الأسباب فى اتخاذها •

* * *

(د) تحتاج الأمم والشعوب فى مجال التربية والتعليم الى منهجين أساسيين ، يعتمد عليهما قادة الفكر فى تهذيب أبناء الأمة وتثقيفهم ، بحيث يصبحون عناصر صالحة لتكوين الطابع العام الذى تتميز به الأمة عن غيرها من أمم أهل الأرض •

وهذان المنهجان هما : المنهج الفردى ، والمنهج الجماعى ، ولكل أسلوبه الخاص وعناصره التى يتكون منها ، فعناصر المنهج الفردى ، تقوم أساسا على المعالم الرئيسية للنظام والمبادىء الأصلية له ، ويسلك الدعاة والمعلمون طرقا شتى فى تعليم الناس هذه المبادىء ، وتعويدهم على سلوك يتفق مع الطابع العام للهيكل التربوى الذى ارتضوه نظاما يحدد هويتهم ويحكم سلوكهم ، ويتحد مع عواطفهم ومشاعرهم •

ولا يحتاج نشاط الدعاة فى مجال تعليم الناس هذا الجانب ، الى التحكم فى المجال الاجتماعى ، أو السيطرة على الشئون السياسية ،

أو بسط النفود فى الدوائر الاقتصادية ، وغير ذلك مما هو داخل فى دائرة نفوذ الدولة ، أو القبيلة ، أو العشيرة ، بل يكفى أن يبدأ واحد ، فيعلم الناس فرادى ، بعيدا عن أعين رقباء أعداء هذا الفكر فلا يروه ، وان أحسوا به لا يدركوه ، لأنه لا يتبع أسلوب الاجتماعات العـامة التى يسـهل مراقبتها ، ولا يتحدى السلطة بمظاهرة ، أو بعقد مؤتمرات ، أو القيام بمهرجانات ، فهذا أسلوب لا يطبق الا اذا توافرت الظروف التى تساعد على عقد مثل هذه الاجتماعات ، ولذلك كان المنهج الاجتماعى تاليا للمنهج الفردى فى التطبيق ، اذ عندما يكثر المعتنقون للمبدأ ، ويزداد عدد المتعاطفين معه تخف حـدة المعارضة وتضعف السـلطة عن التصدى لأتباعه ومعتنقيه ، وعندئذ يعلن المبدأ عن نفسه عن طريق عقد المؤتمرات والاجتماعات العامة التى تكون وسـيلة لجمع الأفراد لايقاظ الشـعور بوحدة المصير فى نفوسهم ، وتنبيه العاطفة الى التجاذب على طريق التآخى والتآلف ، وبذلك يسير المنهجين جنبا الى جنب : أحدهما يعلم ويثقف ، ويغرس المبادىء فى قلوب الأفراد ، والآخر يجسد مظهرا لوحدة التآلف والتآخى بين أصحاب العقيدة الواحدة ، وهذا هو النظام الطبيعى لغرس أى مبدأ فى نفوس الناس ، بما فيها الدين •

فأى دين يقتصر على الناحية الفردية ، فهو دين انعزالى ، أى يعزل الفرد عن أخيه فى ممارسة الطقوس والعبادات ، فيقضى على الشعور بالانتماء الجماعى ، وهـذا ضد طبيعة الانسان لأنه مدنى بالطبع ، أى يميل الى الاجتماع والمشاركة مع بنى جنسه ، ولو اقتصر دين أو مذهب على الجانب المظهرى ، أى الاجتماعات والمؤتمرات وأهمل تأهيل الفرد ليصبح مواطنا صالحا ، فانه يصير أقرب الى المظهرية الغوغائية منه ، الى الأسلوب التربوى المثمر •

والمعروف أن الاجتماعات ، منها ما هو ترفيهى ، وما هو تعليمى ثقافى ، فلو اقتصرت الاجتماعات الدينية على الجانب الترفيهى ، لانعدم العنصر الثقافى ، وقد ينحرف الجانب الترفيهى الى مزالق تؤدى الى نتائج سيئة ، ولو كانت الاجتماعات الدينية ذات صبغة ثقافية بحتة ،

فلربما يصيب الملل والضجر بعض الناس فينصرفون عنها ، ولذا كانت قيمة الدين ومدى صلاحيته للناس ودرجة فهم دعاته لطبيعة الانسان وخصائص المجتمعات من العوامل الأساسية التى تؤثر فى مدى تقبل الناس له ، وسرعة انتشاره بين الأمم ، وثباته أمام التيارات والعواصف التى تجتاح الأفكار والمبادىء من قلوب الناس ، وتطمس المذاهب والنحل فى عقولهم .

فلو نظرنا الى الاسلام فى ضوء ما بيناه لوجدناه دينا كاملا ، اتخذ طريقه بين الناس وفقا للقوانين البشرية ، والظواهر الاجتماعية ، لأنه ممن خلق البشر ، ويعلم سر الأفراد وخبايا المجتمعات ، أنزله الله على محمد ﷺ ، وأمره بتعليم الناس مبادىء الدين وأحكامه ، ولكنه لم يفرض عليهم فى مكة عبادة تتطلب الاجتماع فى مكان عام كصلاة الجمعة والعيدين ، لأن الظروف لم تكن قد هيئت بعد لعقد مثل هـذا الاجتماع ، ولم يكلفهم بعبادة تحتاج الى مظهر عام كالصيام ، لأن المجتمع لم يكن اسلاميا ، فكان من العسير بدء هـذه العبادة التى يميل الناس فى بداية ممارستها على الأقل الى الشعور بأن من يعيش معه فى المجتمع مشارك له فيها ، فلا تقع عينيه على انسان يتمتع بلذة الأكل والشرب بينما هو يجاهد نفسه على الصيام امتثالا لأمر الله ، ومن هنا فرض الله صيام شهر رمضان فى السنة الثانية للهجرة ، لأن المجتمع الاسلامى برز الى الوجود بمعناه الكامل فى هـذه السنة ، فأصبح من فى المدينة ملزمين كلهم بالصيام ، فكمل بذلك المظهر العام لهذه الفريضة بخلاف الوضع فى مكة قبل الهجرة .

كذلك شرع الله صلاة العيد فى السنة الأولى ، لكنه لم يخرج لتأديتها الا فى السنة الثانية ، فقد رووا فى أحداث هـذه السنة أن النبى ﷺ خرج الى المصلى فصلى بهم صلاة العيد ، وكان ذلك أول خرجة خرجها بالناس الى المصلى لصلاة العيد ، أضف الى هـذا أن الاجتماعات الاسلامية فى شهر رمضان وصلاة العيد هى للعبادة وسماع الموعظة ، وفى الوقت نفسه للترفيه ، اذ يوصى الاسلام المسلمين

بأن يرتدوا أجمل الثياب وأحسنها ، وأن يتزينوا بأنواع الزينة المختلفة ، كما جاء فى قوله تعالى : **« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »**(٧) ..

وفضـــلا عن ذلك ، فهم يكبرون ويهللون ، ويتبادلون التهـــانى ، ولا يخلو ذلك من اضفاء طابع الترفيه البرىء على هـــذه الاجتماعات الدينيـــة .

* * *

(هـ) اتفقت الأديان كلها على مبدأ واحد ، ألا وهو تكليف أتباعها بتأدية سلسلة من العبادات والطقوس للمعبود ، غـــير أن صور هـــذه الفرائض التى يكلف بها المؤمن تختلف من دين لآخر وان كانت تتفق فى الهدف ، لأن الهدف من وراء الزام الانسان بفريضة دينية ما ليس هو شكلها الظاهرى ، وانما ما توحى به تلك الفريضة لنفس الملتزم ، وما تغرسه من فضائل فى سلوكه مع ربه ، وازاء نفسه ، ومع من يعيشون معه فى المجتمع ، سواء أكانوا أقرباء فى الدم ، أو فى الجوار ، أو اخوانا فى العقيدة ، أو شركاء معه فى الحياة داخل تجمع بشرى معين .

لكن الاسلام اختلف عن الأديان كلها فى نظرته للحياة ، وفى تكليفه المسلم بتأدية عدد من العبادات ، كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، فهذه كلهـــا وان اتفقت فى الاسم مع الأديان الأخرى ، الا أنها تختلف اختلافا كليا عنها فى هيئتها أو شكلها ، فالصلاة فى الاســـلام غير الصلاة فى الأديان الأخرى ، وكذلك الحال فى باقى الفرائض من صيام ، وزكاة ، وحج الى الأماكن المقدسة ، فاذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن الصيام بأنه فرض على المسلمين كما فرض على الذين من قبلهم فى قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم »**(٨) ..

فليس الا من حيث فرضيته فقط ، لا من حيث هيئته وشـــكله ، فالصيام مفروض فى معظم الأديان ، ان لم يكن فى كلها ، غير أن زمنه وكيفيته ، تختلف من دين لآخـــر فهو وان كان يدور فى كل دين حول

(٧) الأعراف : ٣١ . (٨) البقرة : ١٨٣ .

الامتناع عن الأكل والشرب ومباشرة الحيـاة الجنسية ، الا أن تحديد وقته ، وتعيين من يقوم به متفاوتا من دين لآخر ، ففى الأديان البدائية يفرض الصيام على من يريد الدخول فى الدين لمدة معينة . وكذلك على من بلغ سنا يبيح له الاشتراك فى تأدية الطقوس الدينية .

وفى الأديان المتحضرة يصوم الانسان للعبادة ، أو كوسيلة للتخلص من أنانية الذات ، ففى الدين الجاينى يصوم الرهبان والراهبات لقتل الجانب المـادى عندهم ، أى لاضعاف البدن والارتقاء بالروح ، وفى اليهودية يكون الصيام للتكفير عن السيئات وهو ما يسمى بيوم الغفران . أو للحزن وهو يوم ذكرى هدم المعبد المقدس .

واعتمدت الكنيسة المسيحية فى فرض الصوم على ما جاء فى انجيل متى فى الاصحاح التاسع ، حيث قال عيسى عليه السلام لمن سألوه عن سبب صيام تلاميذه : « ولكن ستأتى أيام ، حين يرفع العريس عنهم ، فحينئذ يصومون »(٩) ..فصاموا بناء على هذا النص ٤٠ ساعة وهو الزمن الذى مكث به عيسى فى القبر ، حسب اعتقادهم ، ثم تغير وقت الصوم فيما بعد الى أربعين يوما ، قبل عيد الفصح ، واعتمدوا فى هـذا على ما جاء فى الاصحاح الرابع من انجيل متى ، من أن عيسى عليه السلام صام أربعين نهارا وأربعين ليلة(١٠) ..

وفى الكنيسة الغربية القديمة ، كانوا يسمون يوم الجمعة والسبت من كل أسبوع بـ « يومى التذكير » وفرضوا صيامهما ، وفى الكنيسة الشرقية القديمة ، كانوا يصومون يوم الأربعاء السابق على عيد الفصح ، لأنه يوم القبض على عيسى عليه السلام ، ويوم الجمعة التالى له ، لأنه يوم تنفيـذ الحكم عليـه — حسب معتقدهم — .

أما طريقة الصيام فاختلفت أيضا ، فهم يصومون فى بعض الأيام ، حتى منتصف النهـار ، وبعضها يصومون فيها عن تناول اللحم فقط ، وصيامهم المسمى بالصيام الكبير يصومون أربعين يوما قبل عيد الفصح ،

---

(٩) متى (٩ / ١٥) .　　(١٠) متى (٤ / ٢) .

وصيامهم فيهـا هو الامتناع عن أكل الأطعمة المأخوذة من الحيوان ، كاللحم ، واللبن ، والسمن البلدى ، وما عدا ذلك فيأكلونه ، أى لا يمتنعون عن الأكل عما عداه ليلا أو نهارا ، كما أن الكنيسـة الكاثوليكية تفرض الصيام من سن ٢١ حتى سن الستين •

هـذه صورة اجمالية لوضع الصيام فى بعض الأديان وفى الكنيسة المسيحية ، وهى تختلف كلية عن الصيام فى الاسلام ، فقد فرض الله علينا نحن المسلمين الصيام فى شهر رمضان أى الامتناع عن الأكل والشرب من الفجر الى غروب الشمس لقوله تعالى : « **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصـيام الى الليـل** »[١١] ••

ولم يحـدد الصيام بسن معينة ، كمـا هو الحال فى الكنيسـة الكاثوليكية ، بل هو مفروض من سن التكليف وهو خمس عشرة سنة حتى آخر العمر ، فالشيخ مفروض عليـه الصيام ولو بلغ أرذل العمر مادام قادرا عليـه ، ولا يسقط عنه الصوم الا عند المعجز فيفطر ويطعم مسكينا عن كل يوم يفطره •

ومن هـذا يتبين أن صورة الصيام فى الاسلام فريدة لا يوجد مثلها فى أى دين آخر ، فهى تتفق مع طبيعة الانسـان وأسلوب حياته ، فلا تحرمه من ملذات الحيـاة الا بضع ساعات فى اليوم لتدريبه على الصبر ، وتحمل المشاق ، فيزداد صلابة فى مواجهة مصائب الدهر ، ومتاعب الحيـاة ، وتلك هى أهم أهداف فرض الصيام على المؤمنين •

* * *

(و) يختلف الناس فى المشارب والرغبات ، وفى الميول والاتجاهات ، فقل أن يوجد اثنان متفقان فى نظرتهما للحياة ، أو فى طريقة سلوكهما داخل البيت وخارجه ، أو فى أسلوب نشاطهما فى المجال الاقتصـادى أو الاجتماعى ، فالناس مذاهب شتى ، ورغبات متنافرة فى معظم الأحوال ،

---

(١١) البقرة : ١٨٧ .

وغرائز تتضارب وتتشابك مع بعضــها ، وآمال تتصارع على مسرح أحداث الحياة ، ومن هنا كان لابد من وجود نظام ينسق بين هذا كله ، أو عقــد اجتماعى يتفق عليــه الجميع ، يحدد لكل مسارا لا يتعداه ، وهدفا لا يتجاوزه ، كى تسير الحياة فى مجراها سيرا طبيعيا ، لكن تختلف عوامل نجاح هــذا العقــد تبعا لاختلاف مصــدره وســلامه بنائه لتحقيق الاستقرار والأمان للأمة التى ارتضته ، وقد أثبتت التجارب أن العقل البشرى عجز عن وضع قوانين سليمة لتنظيم المجتمعات ، بحيث لا تحمل فى طياتها سمات العصبية القبلية ، أو العرقية ، ولا معالم اقليمية ، ولا اتجاهات طائفية ، لأن هــذه أمراض بشرية ، لا يمكن لأى فرد أو طائفة التخلص منها كلية •

أضف الى هــذا ، أن القــانون البشرى ليس له سلطان روحى على الناس ، فلا شىء يربطهم به سوى الخوف من العقوبة عنــدما ترصدهم عين الرقابة ، وكثيرا ما يتحاشونها ، فيفلتون من العقاب ، وعليــه ، فان النظام الأمثل الذى يجمع شتات الناس تحت راية واحدة بعد أن يهذب طبائعهم المتنافرة ، ويكبح جماح نفوسهم الشــاردة ، ويغرس فيهم حب الخير والعدل للجميع ، هو النظام الذى يجمع بين الكمال ورقابة ضمير كل فرد على نصرفاته ، ولا يتحقق ذلك ، الا فى الاسلام ، فقد حث فى آيات كثيرة من القرآن الكريم على التماسك بين أفراد الأمة ، ونهى عن الفرقة والتنازع ، فقال تعالى : « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** »(١٢) ••

وقال« **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** »(١٣) ••

وقال رســول الله ﷺ مبينا للمؤمنين خطورة التفرق « انما يأكل الذئب من الغنم الشــاردة » •• ولم تقتصر تعاليم الاسلام فى هــذا الجانب على الوصايا القولية • بل شرع من العبادات العملية ما يغرس فى نفوس المسلمين الشعور بأنهم أمة واحدة ، ويثبت فى أفئدتهم أسس

(١٢) آل عمران : ١٠٣ •
(١٣) الأنفال : ٤٦ •

التآلف ، والتعاطف ، والرحمة ، والمودة لاخوانهم فى العقيدة ، وشركائهم فى الدين ، ومن هـذه العبادات : الصيام ، ففى شـهر رمضان تبدو مظاهر الوحدة فى الأمة الاسلامية واضحة ، فهم يمتنعون عن الأكل فى زمن واحد ، ويفطرون فى زمن واحد ، مما يوحى اليهم بأن هدفهم واحد ، ومصيرهم واحد ، وتتجسد مظاهر هـذه الوحدة فى اشـتراك جميع طوائف الأمة الاسلامية فى الامتناع عن الأكل والشرب ، من طلوع الفجر حتى غروب الشمس ، لا فرق فى هـذا بين غنى وفقير ، ولا بين سيد ومسود ، ولا بين حاكم ومحكوم ، فهو واجب يشترك الجميع فى تأديته ، فالامتناع درجة واحدة يقف الجميع عليها جنبا الى جنب ، لا يفرق بينهم شىء على الاطلاق ، بخلاف الصوم عن أكل أنواع معينة من الطعام فى بعض الأديان الأخرى فلا تتحقق فيه الوحـدة لأن الأنواع الأخرى المسموح بأكلها تتفاوت فى درجاتها وجودتها ، فنرى الغنى يأكل صنفا أحسن مما يأكله الفقير .

أما الاسلام فقد أوجب المنع عن تناول أى شىء ، والجميع متساوون فى هـذا الامتناع ، وبهذا يعطى المؤمنين احساسا بأنهم متساوون ، فالغنى ممتنع عن الأكل ، والفقير أيضا مثله ، فهم سواء فى الامتناع ، أى أنهم يشعرون بالمسـاواة من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، وهـذا وقت كاف لتذكيرهم بأنهم أمام الله سواء ، فاذا أدركوا هـذا تقاربت ميولهم ، واتحدت مشاربهم ، وشاع بينهم حب التعاون تحقيقا لقوله تعـالى : **« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعـدوان »**(١٤) ..

فان تحقق هـذا ساد الأمن والاستقرار فى الأمة ، وهو أقصى ما تتمناه الأمة الرشيدة ..

* * *

(ز) يخضع سلوك الانسان للغرائز التى أودعها الله فيه ، وهى فى جملتها تشبه ما عند الحيوان من ناحية أنها مصدر للسلوك ، فغريزة بقاء

---

(١٤) المـائدة : ٢ .

النوع تدفعه الى سلوك طريق يرى أنه يشبعه جنسيا ، وغريزة الجوع تحمله على تحصيل الطعام ليسد به رمقه ، والشعور بالألم يدفعه الى التصدى لمصدره لأنه يرى أنه وسيلة للتخلص منه أو أسلوبا لتجنبه ، وحب التملك يقوده الى السعى للحصول على أكبر قدر ممكن من الممتلكات ، وشغفه بالظهور والشهرة يوحى اليه بسلوك طرق مختلفة لتحقيق هذا الهدف ، وميله الى التفوق على غيره ، يحمله على التسلق فوق أكتاف الآخرين ، فاذا ترك للانسان الحرية فى اشباع غرائزه . وتلبية احتياجاته الذاتية ، لأصبح سلوكه لا يختلف عن سلوك الحيوان ، اذ يصير هدفه هو الوصول الى أغراضه ، بصرف النظر عن ما يرتكبه فى سبيل ذلك من أخطاء فى حق الآخرين ، فلا يضيره سلب حقوقهم . أو اغتصاب ما يملكون ، أو حرمانهم من ثمرة مجهودهم . أو الحيلولة بينهم وبين حقهم الطبيعى كممارسة عملهم فى الموقع الذى وصلوا اليه بمجهودهم الشخصى ، وقدرتهم الذاتية .

ولذا كان لابد من قوانين ونظم لضبط السلوك وتهذيبه ، حتى لا يطغى أحد على الآخر ، ولا يغتصب الانسان حق أخيه الانسان ، لكن تطبيق القوانين ، والالتزام باللوائح ، لا يصبح عادة يعترف الجميع بها ، وينفذونها تلقائيا ، دون مشقة وعناء ، الا اذا تعود الانسان عليها من طفولته ، وتربى عليها فى نشأته ، والا أصبح من العسير عليه الالتزام بها ، والمحافظة على مراعاتها .

ومن انجح الطرق فى تهذيب السلوك البشرى ، وتطويعه ، وانتزاع الجانب الحيوانى منه ، ما يكون الدين مصدره ، لأن له سلطانا على النفوس ، وتأثيرا على المشاعر ، ويحتل مكانا فى القلوب لا يصل اليه أى منهج تربوى مهما كانت قيمة المثل العليا التى يهدف الى تحقيقها ، وقد راعى الاسلام هذا الجانب فشرع من العبادات ما يهذب سلوك الانسان ويقومه ، فلم يفرض عليه شيئا ضد طبيعته ، وفى الوقت نفسه لم يترك وسيلة اشباع غرائزه للنصائح القولية التى تدعوه الى كبتها ، أو مراعاة حقوق الآخرين عند سلوك طرق اشباعها ، بل كلفه بعمل

تمرينات تصقلها وتخضعها لارادته الانسانية وتحررها من سلطان الجانب الحيوانى فيها ، وتجعلها تحت رقابة الجانب الروحى ، ففرض الصيام عليه ، لأنه من أنجح الوسائل لتدريب الانسان على تحمل المشاق ، وتطويعها للخضوع لتعاليم الاسلام ، وتهذيبها بحيث تنفذ أوامر الله ، دون ملل أو ضجر ، وتسير على أحكام الله دون مشقة أو عناء ، لأن من تنازل عن تناول الأكل والشرب من طلوع الفجر حتى غروب الشمس ، لا يتعذر عليه أن يصوم عما ليس له ، ويتنازل عن تحقيق رغبته اذا تعارضت مع حقوق الآخرين ، وترضى نفسه بالقليل المتاح له ولا تتطلع الى ما فى أيدى الناس مادامت ظروفها لا تعطيها حقا فيه ، وبذلك تهدأ النفوس وتتآخى وتعيش فى أمن واطمئنان ، يستوى فى ذلك الغنى والفقير ، ويأخذ الغنى درسا اضافيا من الصيام ، ألا وهو الشعور بالجوع ، ليتذكر ما يقاسيه الفقراء الذين لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، فيدفعه هذا الشعور الى الاحسان اليهم ، والى زيادة البذل والعطاء لتخفيف آلام المحتاجين •

فقد روى أن يوسف عليه السلام ، سئل عن سبب كثرة صيامه ، فأجاب : « أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » ••

وعليه •• فالصيام ليس مجرد الامتناع عن الأكل والشرب ، وانما هو وسيلة لتدريب النفس على تحمل المشاق وتعويدها على مواجهة الصعاب واعدادها للصمود أمام ما يقابلها من أزمات ، فمن لم يقومه صيامه ، فليس له منه سوى الجوع العطش ، كما قال رسول الله ﷺ : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » فمن يعجز عن مواجهة الظروف التى تفرض عليه الحرمان ، فقد خرج من شهر الصيام بدون فائدة ، وتحضرنى الآن حادثة توضح هذا المعنى • فقد حدثنى أحد المسلمين أنه كان فى أحد البلاد الاسلامية التى تغلق فيها المحال لتأدية الصلاة ، وأثناء غلق المحل ، طلب من صاحبه اعطاءه كوبا من الماء ليطفىء به ظمأه ، فأبى صاحب المحل لأن وقت الصلاة قد حان ، فغضب من هذا التصرف ، وجاء الى شاكيا هذا التصرف

الغريب ، فقلت له : لو أفادك صيامك ، ما غضبت ، كيف تصوم عن الشراب يوما بأكمله فى رمضان ، وتعجز عن صيام ربع ســاعة ؟ ألم يعدك صيامك لتتحمل مثل هــذا الموقف ؟ فصمت قليلا ثم قال : لقد ذكرتنى بشىء كنت غافلا عنه ، يجب أن ننظر الى العبادات ونؤديها كما أرادها الله لنــا ، تهذيبا وتقويما لأخلاقنا وســلوكنا ، واعدادا لمواجهــة المواقف الصعبة .

* * *

٤ ــ ما يجب للميت

فضل الله الانســـان على ســائر المخلوقات كلهـا . فخلقه على نحو يمكنه من تسخير ما فى الكون لخدمته . ولهذا جاءت الرسالات الســـماوية متضمنة من الشرائع والأحكام ما يبرز هــذا الجانب ويؤكده . فأعلن الاسلام أن للانســـان الحرية المطلقة فى اختيار ما يعتقد لأن المساس بهذا الجانب يعتبر اجبارا . والمجبر ناقص الأهليـــة وتلك منقصة تحط من أفضلية الانســـان على ما عداه من مخلوقات الله . كذلك أوصى بالمحافظة على كل ما يتعلق بالانسان من نفس ومال . فينبغى أن يعيش فى المجتمع آمنا مطمئنا حرا كريما . يأخذ ما له من حقوق . ويؤدى ما عليه من واجبات على نحو يحفظ عليه كرامته كانسان .

ولم يقتصر تكريم الانسان على زمن حياته . بل امتد الى ما بعد موته فقد فرض الله على المسلمين القيام ببعض الواجبات ازاء الميت هى فى حد ذاتها تكريم له ، فان لم يقوموا بها وقع الاثم عليهم جميعا وهى ، أولا : غسله ، وهو كما يرى جمهور العلماء فرض كفاية . اذا قام به البعض سقط عن جميع المكلفين ، ولا تسقط هذه الفريضة الا فى حق الشهيد ، لما روى أن رسول الله ﷺ قال:«لا تغسلوهم ــ أى الشهداء ــ فان كل جرح ، أو كل دم يفوح مسكا يوم القيامة » ، وأمر رسول الله ﷺ بدفن شهداء أحــد فى دمائهم ، ولم يغسلوا ، ولم يصل عليهم . وقيل فى حكمة ترك الصلاة عليهم : ان الصلاة على الميت ، والشهيد حى ، أو ان الصلاة شفاعة ، والشهداء فى غنى عنها لأنهم يشفعون لغيرهم .

وثانى الواجبات التى ينبغى أن يؤديها المســلم للميت : تكفينه بما يستره ، وهو فرض كفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الباقين . وأقله ما يستر جميع بدن الميت ، سواء أكان ذكرا أو أنثى ، وما دون ذلك لا يسقط به فرض الكفاية عن المسلمين ، ويجب تكفين الميت من ماله الخاص الذى لم يتعلق به حق الغير كالمرهون ، فان لم يكن له مال خاص فكفنه على من تلزمه نفقته فى حال حياته . ولو كان الميت زوجة وتركت مالا فيجب

على الزوج القادر تكفينها من ماله الخاص ، فان لم يكن لمن تلزمه نفقته مال كفن من بيت المـال ان كان للمسلمين بيت مال وأمكن الأخذ منه ، والا فعلى جماعة المسلمين القادرين كفنه . والحكم فى بقية تجهيزات الميت مثل الحكم فى الكفن .

وذكر العلمـاء أنه يستحب فى الكفن ما يأتى :

أولا : أن يكون حسنا نظيفا سـاترا للبدن ، لمـا روى أن النبى ﷺ قال : « اذا ولى أحدكم أخاه ، فليحسن كفنه » .

ثانيا : أن يكون أبيض ، لمـا روى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : «البسوا من ثيابكم البيض ، فانها خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم» .

ثالثا : أن يجمر — أى يبخر — ويطيب ، لمـا روى أن النبى ﷺ قال : « اذا أجمرتم الميت ، فأجمروه ثلاثا » .. وأوصى ابن عباس أن تجمر أكفان الميت بالعود .

رابعا : أن يكون ثلاث لفائف للرجل ، وخمس لفائف للمرأة ، لمـا رواه الجماعة عن عائشـة قالت : كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض ، ليس فيها قميص ولا عمامة ، وعن أم عطية ، أن النبى ﷺ ناولها ازارا ، وقميصا ، وخمارا ، وثوبين .

أما الأمر الثالث ، الذى يجب على المسلمين القيام به للميت : فهو الصلاة عليـه ، وهى فرض كفاية على الأحياء ، فاذا قام بها البعض ، ولو واحدا ، سقطت عن الباقين فلا يكلفون بهـا ولكن ينفرد بثوابها من قام بها منهم ، لما روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من تبع جنازة ، وصلى عليهـا ، فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها ، فله قيراطان ، أصغرهما مثل أحد — أو أحدهما مثل أحد » .. وروى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : يا عبد الله بن عمر .. ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ انه سمع رسـول الله ﷺ يقول : « من خرج مع جنازة من بيتها ، وصلى عليهـا ، ثم تبعها حتى تدفن . كان له قيراطان من الأجر ، كل قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليهـا ، ثم رجع كان له مثل

أحـد ، فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما خباباً الى عائشـة يسألها عن قول أبى هريرة ، ثم يرجع اليه فيخبره بما قالت • فقال : قالت عائشـة : صدق أبو هريرة ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد فرطنا فى قراريط كثيرة •

ولصلاة الجنازة أركان تتكون منها حقيقتها ، فلو ترك منها ركن بطلت ، فلا يعتد بها شرعا ، وأول هذه الأركان :

النية ، وصفتها أن ينوى الصلاة على هـذا الميت ، أو هؤلاء الموتى ان كانوا جماعة •

وثانيها : القيـام للقادر ، فلا تصح الصـلاة على الميت راكبا أو قاعداً من غير عذر ، ويستحب أن يقبض بيمينه على شـماله ، أثناء القيام ، كما يفعل فى الصلاة •

وثالثها : التكبيرات ، وهى أربع بتكبيرة الاحرام •

ورابعها : قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى سرا •

وخامسها : الصلاة على النبى ﷺ بعد التكبيرة الثانية ، وأفضـل صيغتها أن يقول المصلى : « اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم ، وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم ، وعلى آل ابراهيم فى العالمين ، انك حميد مجيد » •

وسادسها : الدعاء بعد التكبيرة الثالثة ، وقد ورت صيغ كثيرة ، نذكر منها ما روى عن عوف بن مالك أنه قال : سمعت رسـول الله ﷺ — وقد صلى على جنازة — يقول : « اللهم اغفر له وارحمه ، واعف عنه وعافه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، واغسله بماء وثلج وبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله ، وزوجا خيرا من زوجه ، وقه فتنة القبر وعذابه » •

وسابعها : أن يقول بعد التكبيرة الرابعة : « اللهم لا تحرمنا أجره ،

ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » ‥ ثم يسلم .

وبعد انتهاء الصلاة على الميت ، نكون قد وصلنا الى آخر مراحل ما يجب علينا ازاءه ، ولم يبق سوى دفنه ، ومن السنة فى ادخال الميت القبر ، أن يدخل من مؤخرة اذا تيسر ، فان لم يتيسر ، فكيفما أمكن . ويستحب أن يوضع الميت فى قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة ، ويقول واضعه : بسم الله ، وعلى ملة رسول الله ، كما يستحب أن يحثو من شهد الدفن ثلاث حثيات بيديه على القبر من جهة رأس الميت . ويقول فى الأولى : « **منها خلقناكم** »[1] ‥ وفى الثانية : « **وفيها نعيدكم**»[1] وفى الثالثة : « **ومنها نخرجكم تارة أخرى** »[1] ‥ كذلك يستحب الاستغفار له عند الفراغ من دفنه ، لما روى أن رسول الله ﷺ كان اذا فرغ من دفن الميت يقول : « اللهم هذا عبدك نزل بك ، وأنت خير منزل به ، فاغفر له ووسع مدخله » .

فوجوب غسل الميت وتكفينه ، والصلاة عليه ودفنه يعتبر تكريما للانسان بعد مماته ، اذ أن طهارته ، والدعاء له ، وستر عورته رمز لوفاء المجتمع الاسلامى له ، وتقدير لانسانيته ، وعامل يساعد على غرس المعانى النبيلة فى نفوس الأحياء ، كى يحافظوا على كرامة الانسان حيا وميتا ، فلا يقترفون أعمالا تحط من انسانية اخوانهم ، أو تسىء اليهم نفسيا ، أو جسمانيا . وتلك غاية ينشدها المخلصون للمجتمع البشرى .

* * *

---

(١) طه : ٥٥

الفصل الرابع

في مجال الأسرة

١ — رد على مستمع : حول وضع المرأة فى الاسلام

(أ) ورد خطاب من مستمع بلجيكى ، ذكر فيــه أنه يرى : أن الاسلام ينتهج سياسية عنصرية ضد المرأة ، ويبدو من تصوره هــذا أنه يترجم عن الحالة الموجودة الآن فى كثير من المجتمعات الاسلامية ، وأحب أن ألفت نظر المستمع أولا ، الى أن الاسلام لا يؤخذ من واقع المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، لأن معظم ما فيها اليوم من عادات وتقاليد ليست اسلامية محضة ، فهى تحمل فى كثير من جوانبها معالم غير اسلامية ، دخلت هــذه المجتمعات فى عصور الضعف والانحلال .

ومن المسلم به فى علم الاجتماع ، أن المجتمعات عندما تمر بمرحلة ضعف ، أو عندما يعتريها خلل فى بنائها الاجتماعى ، تتسرب الى أخلاقها عادات وتقاليد غريبة عن تراثها الأصلى ، بل قد يصل الأمر أحيانا — بعد مرور فترة من الزمن على دخول هذه الظواهر العربية — الى البحث عن مبررات لوجود هذه الاتجاهات الطارئة فى داخل التراث الأصلى ، وهذا هو ما حدث فى كثير من المجتمعات الاسلامية .

أصابها الضعف فترة طويلة استمرت قرونا . فدخلت اليها عادات وتقاليد لا يعرفها الاســلام ، ثم لمــا طال الزمن على هــذا الدخيل ، وباشرته أجيال لم تر ما كان ســائدا فى عصور القوة ، حاولت تبرير ما تمارسه وتقننه ، فاندفعت الى الباسه ثوبا دينيا ، والدين منه براء .

ولبيان هذه القضية ، أسوق لك نظرة الاسلام الى المرأة ، وعليك أن تقارنها بما شاهدته ، أو قرأته ، مما أوحى اليك بهذه الصورة التى عبرت عنها فى خطابك ، وسوف تجد فرقا كبيرا بين ما يكتب عن الاسلام فى الغرب وبين الواقع الحقيقى للتعاليم الاسلامية ، كذلك سوف تجد بعدا واضــحا بين ما تراه فى بعض المجتمعات الاسلامية — ان كنت قد شاهدتها بعينك ، أو تخيلتها مما يكتب لك عنها — وبين ما أمر به الاسلام فيما يتعلق بوضع المرأة فى المجتمع .

وسوف يكون منهجى فى عرض وضع المرأة فى الاسلام تقليديا ،

بمعنى أنى سوف أشرح لك رأى الاسلام فى خلق المرأة مقارنا بما جاء عن هذا الموضوع فى الأديان الأخرى ، ومدى قدرتها على تحمل المسئولية ، وحقها فى التمتع بالحياة ، وأهليتها فى المشاركة فى جميع مناحى الأنشطة الاجتماعية ، وأخيرا نعرض لك رأى الاسلام فى الزواج والطلاق وتعدد الزوجـات •

أما عن خلقها ، فقـد تحـدث القرآن الكريم عن ذلك فقـال : **« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجهـا »**[1] ••

أى أن المرأة مخلوقة من نفس المـادة التى خلق منهـا الرجل ، فهما متساويان فى مصدر الخلق ، وهذه فكرة صحح بها الاسـلام التصـور السابق عليـه من أنهـا خلقت من ضلع آدم كما ذكر ذلك العهد القديم •

ذلك أن خلقها من ضلع آدم يفيد أنها جزء منه ، والجزء تابع للكل ، وأقل قيمة منه ؛ فنص العهد القديم يعطى ايحاء بأنها فرع فى الخلق ، وليست أصلا ، أما القرآن الكريم ، فقد وضعها فى هذا المجال بجانب الرجل ، فوق درجة واحدة ، فهى من نفس المـادة التى خلق هو منها ، فهى متساوية معه فى الخلق •

فاذا انتقلنا من هذه النقطة الى تصور آخر ، مرتبط بها مشهور عند جميع السلالات البشرية ، ألا وهو : تحديد مرتكب الخطيئة الأولى ، لوجدنا أن المجتمعات البشرية تعتقد أن حواء مسئولة عنه ، وقد عبرت التوراة عن هذا المعنى ، فجاء فى سفر التكوين : « ان حواء أكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل ، فلما سأله الله عما اذا كان قد أكل من الشجرة ، التى حرم عليه الأكل منها ، أجابه بقوله : « المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت » •

---

(١) النساء : ١

فكأنه يريد بذلك أنها ضعيفة الارادة ، فسقطت أولا فى الغواية ، ولم تلتزم بما حدد لها فخرجت عنه لأنها ضعيفة لا تستطيع التحكم فى رغبتها .

أما القرآن الكريم فينسب الخطيئة اليهما معا ، فهما متضامنان فى تحمل المسئولية ، اقرأ قوله تعالى : **« فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه »**[٢] ..

بل هناك آية نصت على أن الشيطان وسوس الى آدم فقط ، يقول تعالى : **« فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »**[٣] ..

ولا شك أن تبرئة القرآن الكريم للمرأة على هذا النحو ، يرفع عنها لعنة لحقتها عبر القرون ، اذ كان ينسب اليها الغواية فى كل مناسبة ، ويرفع عنها سبة الضعف المطلق والانهيار السريع أمام الغواية اذ أشرك معها الرجل فى هذا المجال ، ولا يخفى تأثير هذا الاتجاه على وضعها فى المجتمع ، ونكتفى بهذا القدر اليوم على أن نواصل بقية الحديث فى المـرة القادمة .

* * *

(ب) بعد أن بينا لك فى الحديث السابق جانبا من مساواة الاسلام بين المرأة والرجل فى الخلق ، وفى تحمل المسئولية ، نواصل حديثنا اليوم حول هذه المساواة .

فانطلاقا من تصور المساواة بين الرجل والمرأة فى تحمل المسئولية ، نهج الاسلام منهج المساواة بينهما فى التكاليف ، وفى الثواب والعقاب ، فما يطلب من الرجل ، يطلب من المرأة ، وما يجازى به الرجـل — أو يعاقب — تجازى به المرأة على حد سـواء ، يقول الله تعالى : **« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »**[٤] ..

(٢) البقرة : ٣٦ .
(٣) طـه : ١٢٠ .
(٤) النساء : ١٢٤

ويقول : « **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى ، بعضكم من بعض** »[٥] ..

فأين هذا مما جاء فى الاصحاح الثلاثين من سفر العدد ، أن المرأة ليس من حقها أن تنذر شيئا — وهذا تعبير عن القيام بالعبادات — الا باذن أبيها ، فان لم يوافق لم ينفع نذرها ، بخلاف الرجل فلا يحتاج لهذا الشرط ، فاذا قارنا بين هذا النص ، الذى ورد فى التوراة ، وبين نص القرآن الكريم ، الذى ذكرناه سابقا لوجدنا أن الاسلام أعطاها حرية العمل دون الرجوع الى أحد ، لأن مسئوليتها مسئولية شخصية بحتة .

كذلك أباح الاسلام لها التمتع بالحياة ، فلم يحرم عليها شيئا أحله للرجل فلها أن تملك ملكية خاصة ، فلا يجوز للرجل — زوجا كان أو أبا — أن يتدخل رغم أنفها فى ادارة أملاكها ، فهى حرة التصرف فى ذلك ، لا وصاية عليها ولا حجر على تصرفاتها .

كما أن لها أن تلبس وتتزين مثل الرجل ، بل لها امتياز خاص فى هذا المجال . اذ أحل الاسلام لها لبس الحرير الخالص ، وحرمه على الرجل ، وسمح لها بالتحلى بالذهب دون حدود ، وحرم ذلك على الرجل ، أما حقها فى التمتع بكل ما تقع عليه العين مثل الرجل ، فيتجسد فى طلب الاسلام من الرجال أن يتزينوا لنسائهم ، كما يتزين لهم ، اذ ورد فى الحديث : أن الرسول أوصى الرجال بذلك قائلا لهم : « انهن يحببن أن يرين منكم ، كما تحبون أن تروا منهن » .

أما أهليتها فى أنشطة الحياة المختلفة ، فقد أباح الاسلام لها أن تباشر جميع الأنشطة فى مجالات الحياة المختلفة ، فلم يحرم عليها عملا من الأعمال ، ولم يضع قيودا على اسهامها فى أى مجال من مجالات العمل خارج المنزل الذى تخصصت فيه ، ونتيجة لهذا الموقف الاسلامى منها فقد أسهمت فى صدر الدولة الاسلامية فى كل مجال استطاعت أن تنجز فيه شيئا .

---

(٥) آل عمران : ١٩٥

فاشتركت فى معارك القتال ، فقد روى أنها قاتلت مع رسول الله ﷺ جنبا الى جنب ، ولم تغب عن الاجتماعات التى كان يعقدها رسول الله فصلت معه فى المسجد ، وسمعت منه الدرس والوعظ والتوجيهات ، كما أنه كان لها دور كبير فى روايه الحديث ، وتقلدت مناصب عليا فى مجال التعليم فيروى أنها ألقت الدروس والمحاضرات ، ويحكى التاريخ عن احداهن فيذكر أن تلاميذها الذين كانوا يحضرون دروسها بلغ عددهم خمسمائة ما بين طالب وطالبة .

كما يقص علينا ابن خلكان — وهو من أكبر علماء السير التاريخية — عن احداهن فيقول : انه درس عليها ، وانها أشرفت عليه فى كتابة الماجستير ، ومنحتها له .

أليس هذا دليلا على أن الاسلام سوى بينها وبين الرجل ، وعرف المسلمون الأوائل ذلك ، فاعترفوا لها بالقدرة على تولى المناصب ، وأفسحوا لها مجالات فى مختلف أنشطة الحياة ، وكان لها نصيب وافر فيها .

ولا ننسى أن هذا كان فى العصور التى كانت المرأة فيها لا تملك حتى نفسها فى المجتمعات الأوروبية ، ولم يهملها الاسلام فى تقنين أسس الزواج ، فأعطى لها الحرية فى اختيار شريك حياتها بنفسها ، ولم يعط أحدا — مهما كانت علاقته بها — حق اجبارها على الاقتران برجل لا تحبه ، فقد روى عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن واذنها صماتها » .

كما روى أن فتاة جاءت الى رسول الله ﷺ ، فذكرت أن أباها زوجها ، وهى كارهة ، فخيرها النبى ﷺ بين فسخ العقد وبين بقائه ، فاختارت بقاءه معللة شكواها بأنها أرادت أن تبين لبنات جنسها أنه ليس لأحد الحق فى ابرام عقد زواجها بدون رضاها .

كما يعطيها الاسلام الحق فى فسخ الزواج ، اذا رأت فى زوجها بعد زواجها ما ينفرها منه ، فقد جاءت امرأة الى رسول الله ﷺ ، فقالت له : نظرت من تحت الخباء يوما ، فرأيت قيسا — وكان زوجا لها — قادما

مع القوم ، فرأيته أقصرهم وأقبحهم ، وانى أكره الكفر فى الاسلام — أى أنها لا تريد أن تعيش معه وهى كارهة له فيحملها كرهها له على عدم المعاشرة الحسنة ، التى يأمرها بها الاسلام ..

فقال لها رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ وكانت قد أخذتها هدية من زوجها فقالت : نعم وأكثر ، فقال لها رسول الله : « لا بل حديقته فقط » فردتها له ، وطلقت منه .

فهذه الحادثة تصور لنا مدى الحقوق التى أعطاها الاسلام للمرأة فى أن تختار أسلوب حياتها بنفسها ، فحكم بطلاقها من زوجها لمجرد أنها لم تر فيه من الجمال وحسن الصورة ما يدخل السرور على نفسها .

وهذه ناحية نفسية لم يحرم الاسلام المرأة مما ترى أنه يريحها ، فكيف يقال انه انتهج سياسة عنصرية ضد المرأة لصالح الرجل ؟ ونكتفى بهذا القدر اليوم على أن نواصل الحديث فى المرة القادمة عن الجانب الايجابى لها فى مسألة تعدد الزوجات .

* * *

(جـ) بعد أن حدثناك فى حديثين سابقين عن صور المساواة بين الرجل والمرأة فى الاسلام ، نتناول معك اليوم فى خاتمة ردنا على سؤالك موضوع تعدد الزوجات :

فليس صحيحا ما يشاع من أنه — أى تعدد الزوجات — نظام ابتدعه الاسلام ، ذلك أنه ظاهرة اجتماعية موجودة فى جميع العصور الا أنها تختلف فى التسمية من عصر لآخر ، فحيث يحرم التعدد قانونا ، يظهر تحت أسماء أخرى مثل : الصديقات ، أو الخليلات ، أو العشيقات ، أو يسرى فى المجتمع تحت ستار الحرية الشخصية ، التى تبيح بصورة أو بأخرى تبادل الزوجات ، أو الاقتناع بأن الاستمتاع بما يمكن الاستمتاع به جائز ، مادام برضا الطرفين — الذى يمنع القانون من التدخل لمنع ذلك —

ويصبح هذا بمرور الوقت ظاهرة لا يستنكرها المجتمع فمن يحاول الاعتراض عليها يوضع فى عداد المتخلفين عن ركب الحضارة الحديثة ٠

وليس من المعقول أن يعد هذا سمة من سمات تقدم المرأة ، كما أنه ليس من المسلم به أن وجود هذه الظاهرة فى المجتمع يعود على المرأة — ككل — بالفائدة ، اذ أن كثيرا من النساء فى هذه المجتمعات يعشن فى مهانة وابتذال يحط من قدرهن بين أخواتهن اللاتى يرتبطن برباط الزوجية ٠ فاباحة تعدد الزوجات ، هو احدى وسائل تحرير المرأة من هذا الابتذال ، اذ يأخذ بيدها من هذه الحياة الكئيبة المهينة الى حياة زوجية كريمة ، وأمومة فاضلة ، تحس تحت ظلالها بالعزة والطهارة والشرف ٠

ونرى من ناحية أخرى ، أن تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية لصالح المرأة ، ذلك أننا لو فرضنا أن مجتمعا يزيد عدد الرجال فيه على عدد النساء ، لاختفت ظاهرة التعدد من الناحية العملية ، لأن المـرأة الثانيـة سوف ترفض الاقتران برجل متزوج بأخرى لأنها تعتقد أن فى امكانها الحصول على رجل يكون لها وحدها ، لأنه ما دام عدد الرجال أكثر من عدد النساء ، فسوف تحصل لا محالة على هذا الرجل وكذلك لو كان عدد الجنسين متساويا ٠

أما اذا كان عدد النساء أكثر من عدد الرجال ، فان الوضـع بالنسبة للعدد الفائض يفرض عليهن أحد حلول ثلاثة : الرهبنة ، بمعنى الاستغناء عن مباشرة الحياة الجنسية ، وهو أمر لا تستطيع كل واحدة الالتزام به لأن الجنس غريزة لا يقوى كل انسان على كبتها ، فان استطاع عدد منهن — وهو بلا شك نسبة قليلة جدا — الرهبنة فسوف تعجز عنه الأغلبية٠

فما هو الحل البديل المتاح لهن ؟ أيسمح لهن المجتمع بأن يقتنصن الأزواج من زوجاتهم لقضاء ساعات معهم بعيدا عن أعين الناس ثم ينصرفن ذليلات كسيرات ، أم يبيح لهن الاقتران بأزواج اقترانا قانونيا أمام الناس ، ويكون لهن ما للزوجات الأول من حقوق والتزامات ؟

وما هو الأكرم للزوجة الأولى ؟ ٠٠ أأن تكون مخدوعة فى ظل نظام

الزوجة الواحدة حيث يظهر لها زوجها أنها الوحيدة فى حياته بينما يخونها مع عشيقته فتكون حياتهما قائمة على أسس لا أخلاقية ؟ أم يكون من الأفضل لهما نفسيا أن تستمر حياتهما على أسس سليمة ، وذلك بأن تعرف الزوجة علاقة زوجها القانونية بالزوجة الأخرى فلا تشعر يوما بأن فى حياتهما جانبا لا يمكنها الاطلاع عليه فتهدأ نفسها بهذا الوضوح فى علاقتهما وارتباطهما الروحى حتى وان كان الزوج ليس لهما وحدها ، بل يشاركها فيه امرأة أخرى ؟ .

وهل يكون من الأفضل للمرأة الأولى أن يطلقها الرجل ليتزوج غيرها ان كانت عقيما أو عندما تصاب بمرض يتعذر عليها معه القيام بواجباتها كزوجة ، أو يبقيها تحت رعايته ويتزوج غيرها لتقوم بما عجزت هى عن القيام به ؟

ومن هذا كله يبدو أن تعدد الزوجات هو لصالح المرأة قبل أن يكون وسيلة لاشباع رغبة الرجل ، كما أنه فى صالح المجتمع ككل ، لأن تحريم التعدد يضع العدد الزائد من النساء فى موضع يجعلهن مصدرا لاشاعة الفحشاء والمنكر ، فالتعدد علاج ووقاية .. علاج للأمراض التى قد تصيب العانسات منهن ، ووقاية للمجتمع من أن تنتشر فيه ظاهرة الخليلات والعشيقات ، وهى ظاهرة تهدد الأسر بالتفكك والانحلال .

وظاهرة الاتصال الجنسى قبل الزواج المنتشرة فى بعض المجتمعات بقصد دراسة الطرفين بعضهما البعض ، لا يقرها الاسلام ، لأنها ليست فى صالح المرأة ، فهى لا تملك أى حق عند الرجل فى هذه الفترة ، بينما يمكنهما فى ظل النظام الاسلامى أن يدرسا بعضهما ، فان وجدا نفورا بين طباعهما فمن السهل أن يفترقا بالطلاق . وفى الوقت نفسه تحفظ للمرأة حقوقها اذا نتج شىء من هذه العلاقة الزوجية ، بخلاف الوضع فى ظل العلاقة الجنسية الحرة .

هذه مذكرة مختصرة عن وضع المرأة فى الاسلام ، ولعل الظروف تسمح لنا فيما بعد لنعطيك فكرة تفصيلية ، عن رأى الاسلام فى قضية المساواة بين المرأة والرجل من جميع جوانبها .

***

٢ ـ مساواة المرأة للرجل فى الخلق

كثر الحديث فى المجتمعات الاسلامية عن وضع المرأة بالنسبة للرجل ، فغلا كثير من الكتاب فى دعوتهم الى حريتها وانطلاقها ، بينما ضن آخرون عليها بكل شىء ، فلم يعترفوا لها بأى جانب من جوانب الممارسة الاجتماعية خارج منزلها ، اذ نادوا بأن مكانها البيت فلا ينبغى لها أن تغادره ، كما لا يجوز لها أن تباشر أى عمل فى المجتمع مهما كانت قيمة هذا العمل من الوجهة الاجتماعية ، وبين طرفى هذين الرأيين ، وجدت آراء أخرى ، تأرجحت بين التفريط والافراط ، ولذا فسوف نبين هنا حقيقة وضع المرأة فى المجتمع ، متخذين القرآن الكريم والسنة النبوية قاعدة لكل ما يتعلق بها ، حتى نجلو للقارىء حقيقة وضعها فى نظر الاسلام .

● ومن أين نبدأ ؟

ــ سوف نبدأ من بدء الخلق ..

● ولم ذلك ؟

ــ لنبين حقيقة خلقها ، ولنلقى الضوء على المادة التى خلقت منها .

● وما السر فى هذا ؟

ــ السر فى هذا ، هو أن نبين ان كان هناك اختلاف فى الخلق يترتب عليه تفضيل الرجل على المرأة أم لا ، ولنوضح موقف القرآن الكريم فى مسألة الخلق ، ومخالفته للكتب المقدسة الأخرى ، وبيان ما ترمز اليه هذه المخالفة بالنسبة لوضع المرأة فى المجتمع .

● معنى ذلك أنك ستتناول مسألة خلق آدم وحواء ؟

ــ نعم .. فانك اذا قرأت القرآن الكريم ، فلن تجد ذكرا لاسم حواء اطلاقا ، كما ذكرت ذلك الكتب المقدسة الأخرى ، بل ذكر اسم آدم فقط ، ثم أطلق على المرأة الأولى التى خلقها الله اسم « زوج » يقول

الله تعـالى . « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها** »[1] ..

ويقـول : « **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسـكن اليها** »[2] ..

ويقـول : « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا** »[3] ..

● وما الحكمة فى أن القرآن الكريم لم يطلق اسـما على المرأة الأولى ، واكتفى باطلاق لفظ الزوج عليها ؟ .

ــ الحكمة يعلمها الله وحده ، ولكننا اذا بحثنا فيما كتبه المفسرون حول هـذه الآيات ، فسوف نجد معانى تشـير الى روح الاسلام فى نظرته الى المرأة ، والى الأسرة الانسانية جمعاء . فمثلا يقول الطبرى :

« خلق الله الناس كلهم من أب واحد وأم واحدة ، ومن هنا فالكل تربطهم صلة القرابة والنسب »..

فهذه اشارة من الطبرى توضح أن الاسلام يدعو الناس الى أن يتعاونوا فيما بينهم على الخير ، كما يتعاون أهل الأسرة الواحدة الذين يقفون على قدم المساواة .. لا يتعالى فرد على آخر ، ولا يدعى أحد بأنه مخلوق من مادة أخرى أسمى من المـادة التى خلق منها غيره .

● ولكنى سمعت أن بعض المفسرين ، يذهبون فى تفسير هـذه الآيات الى أن الله خلق حواء من ضلع آدم ، ويعتمدون فى هذا على حديث رواه أبو هريرة ، ونص فى هذا الحديث أن النبى ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فاذا شـهد أمرا فليتكلم أو ليسكت ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فان المرأة خلقت من ضلع ، وان أعوج شىء فى الضلع أعلاه ؛ ان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج ،. استوصوا بالنساء خيرا » (صحيح مسلم : كتاب الرضاع) .

ــ لا أريد الخوض فى بيان هذا الرأى، وتوضيح الدوافع التى دعت

---

(١) النساء : ١

(٢) الأعراف : ١٨٩ .

(٣) الروم : ٢١ .

الى ظهوره ، نظرا لضيق الوقت المخصص لنا ، ولكن أحب أن أذكر هنا آراء المفسرين القدامى منهم والمحدثين تبين عدم أفضلية الرجل على المرأة فى مسألة الخلق ، فقد ذكر الرازى : أن أبا مسلم الاصفهانى قال : « لم يخلق الله المرأة من آدم ، انما خلقها من نفس المادة التى خلق منها آدم » ..

وجاء فى تفسير المنار أن النفس الواحدة كانت جامعة لأعضاء الذكورة والأنوثة كالدودة الوحيدة ، ثم ارتقت فصار أفرادها زوجين ، فقوله تعالى : **« خلقكم من نفس واحدة »**[٤] هذا اجمال فصله ببيان كونه خلق من جنس تلك النفس زوجا لها ، وجعل النسل من الزوجين كليهما .

ويقول الشيخ شلتوت :

« ان القرآن الكريم حينما تحدث عن الأصل ، الذى تفرع منه الانسان جعل المرأة شريكة فيه للرجل ، ومن مجموعهما تعددت القبائل والشعوب ، وانتسبت الأفراد بالبنوة لكل من الرجل والمرأة ، وبذلك كان الرجل أبا ، وكانت المرأة أما ، واعتبر القرآن الكريم ذلك نعمة على الانسان توجب عليه الشكر ، وتوجب عليه تقوى الله ومراقبته ، وتوجب عليه النظرة المستقيمة الى أخيه الانسان الذى يشاركه فى معنى الانسانية ، وفى نسبته الى أصله الذى تكونا منه » .

ومعنى هذا أنه لا تفاضل بين المرأة والرجل من جانب الانسانية ، وأن التفاعل انما يكون بما يكتسبه كل منهما من الخلال التى ترقى بصاحبه الى مستوى انسانى أفضل .

***

---

(٤) النساء : ١ .

٣ ـ عدم اختلاف طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل

تحدثنا فى الأسبوع المـاضى عن « قضية الخلق » فبينا أن اخبار القرآن الكريم بهذا الحدث جاء على وضع يبين لنا أن المرأة لا تختلف عن الرجل فى مادة الخلق ، بما يوضح عدم تفضيل الرجل عليهـا فى هـذا الجانب •

واليوم أريد أن أوضح لك نقطة أثرتها فى الحديث الماضى ، ألا وهى استشهادك بأن بعض العلماء يرى أن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، ويستدل بعض الناس بهـذا الرأى على أن المرأة تختلف سلوكيا عن الرجل ، وهـذا الاختلاف راجع الى طبيعة خلقها من هـذا الضلع الأعوج •

● نعم •• فهذه قضية مشهورة بين العامة والخاصة ، ويستشهد بهـا دائمـا عند بيان عـدم استقامة المرأة ، وجنوحها الى التمـرد وعـدم الطاعة •

ـ يجب أن تعلم أن القرآن الكريم لم يذكر شيئا عن حكاية الضلع الأعوج هـذه ••

● فمن أين جاءت هذه القصة اذن ؟ وكيف اشتهرت بين الناس ؟

ـ جاءت هذه القصة من التوراة • فقد ذكر فيها أن الرب بنى الضلع التى أخذها من آدم امرأة ، وأحضرها الى آدم ، فقال آدم : هذه الآن عظم من عظـامى ، ولحم من لحمى ، هـذه تدعى امرأة ، لأنهـا من امرىء أخذت •

● اذا كان مصدر هذه القصة التوراة •• فكيف اشتهرت ؟ •

ـ لقد تضافرت عوامل عدة ، فساعدت على شهرتها وانتشارها فى المجتمع الاسلامى أذكر لك منها ما يلى :

أولا : دخل كثير من اليهود والنصارى الاسلام ، والمعروف أنهم لم يتخلصوا كليـة من ثقافتهم السابقة ، بل ظلوا يرددونها ، خاصـة وأن القرآن الكريم أخبر عن خلق حواء بأسلوب موجز ، ولم يدخل فى التفصيلات •

ثانيا : عناصر القصة فى التوراة مادية محسوسة ، وجماهير الناس مولعة بالمادى المحسوس ولذلك وعتها ، فرددتها جيلا بعد جيل •

ثالثا : لما كانت القصة فى القرآن الكريم موجزة ، احتاج المفسرون فى بيانها الى الرجوع الى مصادر أخرى ، ينقلون منها التفصيلات ، فنقل بعضهم ما جاء فى التوراة حول هذه القصة ، وهو ما سمعته أنت وعبرت عنه فى الأسبوع الماضى بأن بعض المفسرين يرون أن حواء خلقت من ضلع •

اذا تدبرت هذا كله ، أدركت أن القرآن الكريم ، لم يشر أدنى اشارة الى تفضيل الرجل على المرأة فى مسألة الخلق •

● هناك أمر آخر يتعلق بموضوعنا ، ألا وهو الخطيئة الأولى ، اذ أن كثيرا من الناس يعتمدون فى هجومهم على المرأة بأن حواء هى التى أغوت آدم ، فحملته على عصيان أمر الله ، بالأكل من الشجرة ، التى حرم الله عليهما الأكل منها ، فما رأيك فى هذا ؟

ـ المعروف والمشهور بين الناس ، أن حواء وقعت تحت غواية الشيطان، فأكلت من الشجرة ، ثم أغوت هى آدم فأكل منها ، ولذا شاع بين الناس أن المرأة هى أداة الشيطان وبسببها خرج آدم من الجنة ، اذ لو لم تخر قواها أمام الشيطان ، ما نجح الشيطان فى غواية آدم ، وبالتالى ما خرج من الجنة ، فشقاء بنى الانسان كان بسببها •

هذا ما يشاع بين الناس ، ولكن ينبغى ان تعلم أن القرآن الكريم ليس مصدر هذه المعلومات ، بل سببها ما ذكر فى التوراة من أن الشيطان أغوى حواء فأكلت من الشجرة ثم أعطت آدم فأكل منها ، ولذا تذكر التوراة أن الله حين قال لآدم : هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها ؟ •• رد عليه قائلا : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت •

فالتوراة نسبت الخطيئة الى حواء • أما القرآن الكريم فينسبها اليهما معا ، فهما متضامنان فى تحمل المسئولية ، اقرأ قول الله تعالى :

« فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه »[1] ••

---

(١) البقرة : ٣٦ •

بل نصت آية « طه » على أن الشيطان وسوس الى آدم فقط .

يقول تعـــالى : « **فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى** »(٢) ..

ولا شك أن تبرئة القرآن الكريم المرأة على هذا النحو ، يرفع عنها لعنة لحقتها عبر القرون ، ويرفع عنها سبة الضعف المطلق ، والانهيار السريع أمام الغـــواية ، ولا يخفى أثر هـــذا الاتجاه على وضـــعها فى المجتمع .

* * *

---

(٢) طه : ١٢٠ ، ١٢١ .

٤ — مساواة المرأة للرجل فى العبادات

● دأب بعض العلمــاء على الحط من قدر المرأة فيما يتعلق بأمور العبادات ، استنادا الى ما روى عن رسول الله ﷺ ، من أن النســاء ناقصات عقل ودين ، فما مدى النقصان ، وعلى أى كيفية يفهم المرء هــذا الحديث ؟

— قبــل أن نعطى الجواب للســـامع ، ينبغى أن نبين له أمورا تعتبر أساسا لفهم النص ، ذلك أن أصــول الاسلام الخمسة وهى : الشهادتان ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا •• هى للرجل والمرأة على السواء •

● ولكنا نرى أن الخطاب فى قوله تعــالى : **« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »**(١) ••

وقــوله : **« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »**(٢) ••

هو خطاب للذكور ••

ألا يفهم من هذا أن الله فرض الفروض على الرجال والنساء تابعات لهم ، فيكون ذلك نقصا فى دينهن ؟ •

— ليس الأمر كما تصورت ، ذلك أن من قواعد اللغة العربية أن الخطاب اذا وجه الى جماعة الذكور والاناث غلب الذكور على الاناث فيكون الخطاب مذكرا والاناث مندرجات تحته ، ويسمى هذا : تغليب ضمير الذكور على ضمير الاناث • فقد نقل عن الفقهاء قولهم : ان النساء يدخلن فى كل أمر يجيىء بصيغة المذكر ما لم تقم قرينة مانعــة من دخولهن ؛ فان الأمر بعبادة الله ، وكذلك فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج ، لم يأت فى القرآن قط بصيغة التأنيث ، ومع ذلك فهى واجبة على النســاء وجوبهــا على الرجال بهــذه النصــوص التى وردت بصيغة المذكر •

زد على ذلك أن هنــاك نصوصا توضح بجلاء ، أن المرأة يجب أن

---

(١) البقرة : ٤٣ ، ٨٣ .   (٢) البقرة : ١٨٣ •

تؤدى العبادات سواء بسواء مثل الرجل • يقول الله تعالى : **« يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم »**(٣) ••

وفيما يتعلق بالصيام والزكاة ، جاء فى القرآن ما يفيد بأنهن صائمات متصدقات فقال تعالى : **« ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما »**(٤) ••

فوصفهم بما وصف به الرجال ، ثم أدرجهم فى ضمير المذكر فى قوله تعالى : **« أعد الله لهم »** ، أى للرجال والنساء ، طبقا للقاعدة التى ذكرتها لك آنفا •

فأنت ترى فى هذه الآية أنهن وصفن بالصائمات وبالمتصدقات ، ولا يكون ذلك الا طبقا للمبدأ الاسلامى الذى لا يفرق بين المرأة والرجل فى فرض الصيام والزكاة •

أما ما يتعلق بالحج ، فان كلمة « الناس » فى قوله تعالى **« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا »**(٥) ••

تشمل الرجل والمرأة ، فقد قال ابن العربى فى تفسير هذه الآية : ان لفظ الناس يشمل المسلمين جميعا ذكورا واناثا • ولهذا يقول علماء أصول الفقه . للمرأة من الحقوق ما للرجل ، وعليها من الواجبات ما على الرجل •

كذلك هى مسئولة فى المجتمع مثل الرجل تماما ، فانك اذا تأملت

---

(٣) الممتحنة : ١٢ •
(٤) الأحزاب : ٣٥ •
(٥) آل عمران : ٩٧ •

قول الله تعالى : **« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون »[٦] ..**

لتبين لك أن الشـــورى من الصفات الرئيسية ، التى تكون المؤمن ، وهى فى المنزلة والأثر فى حياة الانســـان تساوى : الايمان بالله ، واقام الصـــلاة ، والانفاق فى أوجه المصلحة العامة ، فالشورى كما تكون بين أولى الأمر بعضهم مع بعض ، تكون بينهم وبين من يتولون أمورهم من الناس ، وتكون بين أفراد الأسرة الواحدة وبين الجيران ، وبين أفراد المجتمع جميعا فى علاقات بعضهم ببعض .

وبالشورى واتساع مجالها ، يكون كل فرد فى المجتمع الاسلامى صاحب رعاية وصاحب مسئولية ، وبالتالى تكون المرأة صاحبة رعاية وصاحبة مسئولية ، كما جاء فى الحديث الذى رواه عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام راع ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية ، وهى مسئولة عن رعيتها » ..

فالحديث يسوى فى المسئولية بين الرجل والمرأة فى الأسرة ، وان اختلف نوع المسئولية التى يباشرها كل منهما ، ومسئولية الفرد تتبع حقه فى الرأى ، وحريته فى ابدائه .

ومن هـــذا يتبين أن المرأة مطالبة بالأمور الدينية مثل الرجل ، وعليها أن تؤدى العبادات كما يؤديها الرجل ، لا فرق بينهمـــا على الاطلاق .

● اذن .. فأين النقص فى الدين والعقل ؟

ـــ ذلك هو موضوع حديثنا فى الأسبوع المقبل ان شاء الله .

* * *

(٦) الشورى : ٣٨ .

٥ — اعفاء الحائض والنفساء من الصلاة والصوم

بينت لك فى الأسبوع الماضى ، أن المرأة مساوية للرجل فيما يتعلق بأمور الدين ، أى فى العقيدة ، وتأدية الفرائض ، والقيام بمسئوليات معينة • وهنا يتساءل المرء : اذا كان الأمر كذلك ، فلم اشتهر بين الناس أنها ناقصة فى الدين ؟

هذه الدعوى وهى : نقصانها فى الدين لم تأت من فراغ ، فلها أصل خرجت منه وترتكز عليه ، ذلك أن المرأة تعفى فى بعض الأوقات وفى ظروف خاصة من بعض الواجبات الدينية ، وسوف نوجز لك ذلك فيما يلى :

أولا : اذا حاضت المرأة ، أو كانت نفساء لا تصوم ، ولكن عليها اعادة الأيام التى تفطرها من رمضان بعد انقضاء شهر رمضان ، وهى مخيرة بين أن تصومها متتابعة ، أو مفرقة ، بحيث لا يأتى عليها رمضان التالى الا وقد أدت ما عليها من أيام أفطرتها فى رمضان الماضى أثناء حيضها أو نزول دم النفاس عليها ، كذلك لا تصلى الحائض ولا النفساء وليس عليها اعادة ما تركته من صلاة أثناء الحيض ، أو النفاس •

● وما الحكمة فى وجوب اعادة الصوم ، وعدم وجوب اعادة الصلاة ؟

— الحكمة فى ذلك التخفيف ، لأن الصوم المفروض شهر واحد فى العام ، وهو شهر رمضان ، فلا يشق عليها اعادة ما فاتها منه ، أما الصلاة فتتكرر ، فلو وجب عليها اعادة الصلاة اشق عليها ذلك • لأن فرائض الصلاة التى تتركها أيام الحيض والنفاس كثيرة ، فلهذا أعفاها الاسلام من اعادة الصلاة •

ثانيا : تعفى المرأة من وجوب تأدية الصلاة يوم الجمعة فى المسجد ، وهى المعروفة بصلاة الجمعة ، اذ ليس عليها هذه الصلاة ، وانما تصليها ظهرا فى بيتها ، ويتفق الفقهاء فى هذا الحكم • فقد قالوا : لا تجب صلاة الجمعة : على العبد ، ولا على الصبى ، ولا على المرأة ، ولا على المريض •

● هل معنى هذا أنه لا يجوز لها الذهاب الى المسجد يوم الجمعة للصـــلاة ؟

ـ هناك فرق بين عدم الوجوب والجواز ، فهى ليست ملزمة بالذهاب الى المسجد ، ولكن يجوز لها أن تشهد صلاة الجمعة والعيدين • فقد روى أن سالم بن عبد الله أخبر أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تمنعوا نساءكم المساجد اذا اســتأذنكم اليها » •• قال : فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهن • قال : فأقبل عليــه عبد الله ، فسبه سبا سيئا ، ما سمعته سبه بمثله قط • وقال : أأخبرك عن رسول الله ﷺ ، وتقول : والله لنمنعهن ؟ •

وعن أم عطية قالت : « كنا نؤمر بالخروج فى العيدين : المخبأة والبكر ، قالت : الحيض يخرجن فيكن خلف الناس ، يكبرن مع الناس »••

وعنها أيضا أنها قالت : « أمرنا رســول الله ﷺ أن نخرجهن فى الفطر والأضحى : العواتق والحيض ، وذوات الخدور ، فاما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين • قلت : يا رسول الله •• احدانا لا يكون لها جلباب ، قال : لتلبسها أختها من جلبابها » •

فهذه الأحاديث تبين أن النساء لم يمنعن من الخروج الى المسجد فى عهد رسول الله ﷺ ، بل أمرن بالخروج لصلاة العيدين(*) حتى ولو كن حيضا ، ومن لم تجد ثوبا تلبسه فى هــذه المناسبة استعارت ثوبا من أختهــا ، وينبغى على من تملك الثوب اعارتها اياه ، تنفيــذا لوصية رســول الله ﷺ •

والمعروف أن اجتماع العيدين ، واجتماع الناس فى المسجد لصلاة الجمعة ، كان للعبادة وسماع الموعظة • أى للثقافة • وكان للاحتفال أيضا كما هو شأن اجتماع صلاة العيدين • فاذا ما بحثنا اليوم فى مجتمعنا المعاصر عن مثيل لها ، أى عن اجتماع للثقافة ، أو الاحتفالات الدينية ، فسوف نجد الكثير ، وعليــه فلا تمنع المرأة من شــهود هذه الاجتماعات ،

(*) على أن يعتزلن الصلاة (المصحح) ..

ما دامت برامجها وتنظيمها طبقا لشريعة الله ، وما دامت أحاديثها لا تخرج عما ينفع الناس فى حياتهم الدينية والاجتماعية .

● اذن ، فمن أين جاء الاختلاف بين العلماء . فهم ما بين مانع لها من الخروج ومجوز ؟ .

— الذين جوزوا خروجها . استندوا الى الأحاديث التى ذكرتها لك . أما الذين منعوا . فقد استندوا الى حديث لم يرفع الى رسول الله ﷺ ، بل هو يعتبر رأيا لعائشة . وهو ما رونه عمرة بنت عبد الرحمن أنها سمعت عائشة زوج النبى ﷺ تقول : « لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد . كما منعت نساء بنى اسرائيل — قال : — أى راوى الحديث — فقلت لعمرة : أنساء بنى اسرائيل منعن المسجد؟ قالت : نعم » .

احتج المانعون بهذا الحديث . وعللوا رأيهم بفساد العصر ، فجاء معبرا عن فهم لظروف معينة ، ولهذا يرى بعض العلماء المعاصرين ، أن المرأة يجوز لها أن تشهد صلاة الجمعة فى المسجد ، وصلاة العيدين . ما لم تحدث فتنة ، اذ لم يرد تحريم ذلك فى القرآن الكريم ، ولا سمع من النبى ﷺ تحريمه ، وبالاضافة الى هذا فان مشاركتها فى الصلاة فى المسجد مرة واحدة ، له من الأثر فى نفسها وروحها ما يفوق سماعها الوعظ عاما كاملا .

* * *

٦ — الدين والعقل عند المرأة

ظهر لك فى الحديث السابق أن تأدية المرأة فروض العبادة يعتريه بعض العقبات التى تعفيها من القيام بها فى حرية مثل الرجل ، فهى لا تصلى أثناء حيضها ، ولا تجب عليها الاعادة ، أى أن الصلاة تسقط عنها فى أيام الحيض والنفاس بينما لا تسقط عن الرجل أبدا ، كذلك لا تصوم فى رمضان اذا كان عليها الحيض ، بخلاف الرجل ، فلا يعتريه مثل هذه الحالة التى تؤجل صيامه ، اللهم الا السفر والمرض ، وهى تشترك معه فى هذين الظرفين • ولا يجب عليها أيضا شهود صلاة الجمعة والعيدين ، وان كان يجوز لها شهودها ، بخلاف الرجل ، فصلاة الجمعة فرض عليه يعاقب على تركها •

أما الحج فلا تستطيع المرأة تأديته الا اذا تحقق عندها شرط زائد على ما عند الرجل ، ألا وهو أن يسافر معها محرم ، أى أن يكون معها حارس يمنع عنها أذى الطريق ، ويحافظ عليها من الطامعين فيها كامرأة ، وقد سقطت الفريضة عنها اذا لم يوجد المحرم الذى يستطيع السفر معها • وذلك استنادا الى قول رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا يكون ثلاثة أيام فصاعدا ، الا ومعها أبوها ، أو ابنها ، أو زوجها ، أو أخوها ، أو ذو محرم منها » •

وبناء على هذا الحديث ، ليس على المرأة التى بينها وبين مناسك الحج سفر ثلاثة أيام حج اذا لم تجد محرما يسافر معها ، وليس ذلك راجع الى الحط من قدرها بالنسبة للرجل ، ولكن للمحافظة عليها من مخاطر الطريق ، ولهذا ذهب بعض العلماء الى جواز سفرها للحج بدون محرم ان كانت الطريق مأمونة ، فقد قال الشافعى : « لو كان الطريق آمنا يجوز لها الحج دون مرافق » ••

وقال ابن حزم : ان بعض العلماء يرون أن الحج مستثنى من هذا الحديث ، وهو ما ذكرته لك آنفا من أن المرأة التى تؤمن بالله واليوم الآخر ، لا يحل لها أن تسافر فوق ثلاثة أيام الا ومعها محرم •

ويروى السمرقندى عن الطحاوى . أن المرأة اذا بلغت سن اليأس . أو كانت لا تشتهى ، فليس بلازم أن يلازمها محرم فى الحج .

ويفهم من أقوال العلماء ، أن سبب شرط المحرم هو حمايتها ممن يريدون الفتك بها كأنثى ، بدليل أنها لو فقدت هذا الجانب زال الخطر عنها .

ومن هذا يتبين أن نقصانها فى الدين ، كما ذكر فى الحديث ، من أن النساء ناقصات فى الدين ، ليس راجعا الى ذاتها ، وانما الى ظروف تعتريها ؛ فالحيض أمر من الأمور التى لا يجوز أن تباشر المرأة أثناءها الصلاة أو الصوم ، لأن الدم النازل عليها نجس ومن شروط الصلاة الطهارة ، ولأن المرأة الحائض يعتريها الضعف ، فخفف الله عنها فأعفاها من الصيام ، وكذلك عدم سفرها الى الحج بدون محرم راجع الى عدم الأمن فى الطريق ، فلو فرض أن الطريق كان آمنا لجاز لها السفر بدون محرم كما ذهب الى ذلك بعض العلماء .

وعليه فلا يجوز لأحد أن يتخذ هذه الاستثناءات ركيزة يرتكز عليها فى الحط من شأن المرأة ، لأن ذلك لا يدخل فى تقييمها ، أو مسئوليتها فى العبادات .

أما النقصان فى العقل كما ذكر فى الحديث ، فمرده الى ترجيح الجانب العاطفى عندها ، الذى قد يتغلب على العقل فى النظر الى الأمور المعيشية ، وليس ذلك سبة لها ، أو نقصا فى تكوينها ، بل هو لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى ، لأن تربية الطفل موكولة اليها ، والطفل يحتاج الى العاطفة أكثر مما يحتاج الى المنطق والنظرة العقلية الجافة ، وليس معنى ذلك أنها مجردة من التفكير .. لا ! بل لها عقل قد يفوق عند بعضهن ما عند بعض الرجال ، لها عقل مثل عقل الرجل ، وتفكير مثل تفكيره ، وقد يسمو فى بعض الجوانب عند بعضهن على ما عند بعض الرجال رجاحة ومنطقا . ولكن العاطفة عندها كجنس

أشد مما عند الرجال كجنس ، ويمكن أن يقال : ان كلا من جنسى الرجل والمرأة يمتاز بالعقل والعاطفة ، الا أن الغالب على الرجل العقــل لمـا اكتسبه من تجارب وخبرة بحــكم الممارسة ، والغالب على المرأة العاطفة ، لأن الطفل فى حاجة اليها ، وهى ملازمة له ، فغلبت العاطفة كذلك ، وللممارسة الفعلية فى مجال العاطفة على طول امتداد التاريخ ، وذلك لا يعد نقصا ، بل هو من باب توزيع المواهب على حسب متطلبات الحياة .

* * *

٧ — مساواة المرأة للرجل فى الجزاء

عندما تختلف الآراء أو تتصارع حول مساواة المرأة بالرجل ، يظهر على السطح سؤال عن وضع المرأة بالنسبة للرجل فى الثواب والعقاب ، اذ يتساءل بعض الناس ، عما اذا كانت المرأة سوف تثاب على ما تؤديه من عبادات ثوابا مثل ثواب الرجل ، أم أن ثوابها سيكون أقل من ثوابه ، اعتمادا على ما يظنه البعض من تفضيله عليها ، الأمر الذى يجعله أيضا مفضلا فى مجال الثواب •

ويحسن بنا فى هــذا المقام ، أن نتلو بعض آيات القرآن الكريم ؛ التى تتعلق بهذا الموضوع • يقول الله تعالى : **« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض »**(١) ••

ويقول سبحانه : **« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »**(٢) ••

ويقول جل شأنه : **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »**(٣) ••

ويقول عزت قدرته : **« من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنــة يرزقون فيها بغير حســاب »**(٤) ••

فأنت ترى فى هذه الآيات ، أن الله سوى بين الرجل والمرأة فى الجزاء اذا أدت ما فرضه الله عليها مثل الرجل ، وقد أجمع المفسرون على هذا عندما تعرضوا لتفسير هــذه الآيات فيقول الزمخشرى : « ان هــذه الجملة بينت شركة النســاء مع الرجال فيما وعــد الله عباده العاملين » ••

ويقول الرازى : « المعنى أنه لا تفاوت فى الاجابة وفى الثواب بين الذكر والأنثى ، اذا كانا جميعا فى التمسك بالطاعة على الســوية ،

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .
(٢) النساء : ١٢٤ .
(٣) النحل : ٩٧ .
(٤) غافر : ٤٠ .

وهــذا يدل على أن الفضل فى باب الدين بالأعمال لا بســائر الصفات للعــاملين ، لأن كون بعضــهم ذكرا أو أنثى ، أو من نسب خسيس أو شريف ، لا تأثير له فى هــذا الباب » ••

ولم يخرج عن هذا المعنى ما ذهب اليه الطبرى وابن كثــير وغيرهما من العلماء قديما وحديثا ، غير أن بعض المحدثين ربطوا بين هذا الموقف الاســلامى من المرأة • وبين ما يدعيه بعض المفكرين من أن الحضارة الغربية هى التى أنصفت المرأة ، وركزوا على بيان أن الاسلام قد سبق حركة تحرير المرأة ، التى ظهرت فى العصر الحديث فى أوروبا ، وشايعها كثير من المفكرين المسلمين •

سبق الاسلام هذه الحركة ، فأعطى المرأة حقوقا لم تحصــل عليها فى الغرب الا بعد أربعة عشر قرنا ، وبعضها لم تحصل عليه الى الآن ، اذ ذكرت التقارير أن بعض الشركات الغربية لا تسوى بين الرجل والمرأة فى الأجور ، على الرغم من أنها تقوم بنفس العمل الذى يقوم به الرجــــل •

فالاسلام سوى بينهما فى المسؤلية الدينية وفى الجزاء ، وأعطاها استقلالها الكامل عنه فى هذا المجال • يقول الشيخ شلتوت :

« يرى الاسلام أن مسئولية المرأة من الوجهة الدينية ، كمسئولية الرجل سواء بسواء : يكلف بالعقيدة ، وتكلف هى أيضا بالعقيــدة ، ويطالب بالعمل الصالح ، وتطالب هى أيضا بالعمل الصالح • ومسئوليتها فى ذلك مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل ، لا يؤثر عليها — وهــى صالحة — فساد زوجها وخلل عقيدته ؛ ولا ينفعها صلاح زوجها وهى فاسدة العمل وفاسدة العقيدة ، فالكل من الرجل والمرأة جزاء ما اكتسب من خير أو شر » •

يقول الله تعالى : **« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين • وضرب الله مثلا للذين آمنوا**

امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » [٥] .

وينبغى أن نعى أن هذا جانب آخر من الجوانب التى يظهر لك فيها بوضوح أن الاسلام يسوى بين الرجل والمرأة فى الجزاء ، وتلك مسألة تؤكد أن لا مجال للادعاء بأن الاسلام يفضل الرجل على المرأة ، أو يهضم حقها ، فالاسلام قد سبق الحضارة الحديثة بأربعة عشر قرنا فى انصاف المرأة وتكريمها .

* * *

---

(٥) التحريم : ١٠ ، ١١ .

٨ — حول حجاب المرأة

ان من أهم قضايا المرأة فى العصر الحديث ، هو خروجها العمل ، وظهورها فى مجال النشاط الاجتماعى ، ذلك أن كثيرا من المحافظين ، يرون أن المرأة مكانها البيت ، ويستدلون على ذلك بقـــوله تعـــالى : **« وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »** [1] ••

اذ يفهمون من هـــذه الآية أن الله فرض على المرأة أن تظل فى بيتها ، لا تخرج منه مهما كانت الأسباب • ولبيان هذه القضية الحيوية التى تشغل بال المسلمين اليوم فى كل أقطار العالم الاسلامى ينبغى أن نبين جانبين هامين فى هذه القضية •

الجانب الاول : بيان رأى المفسرين فيمن حوطب بهذه الآية : **« وقرن فى بيوتكن »** •

الجانب الثانى : نبذة عن حقيقة الحجاب من ناحيته التاريخية ، ومن ناحية الهيئة التى ينبغى أن يكون عليها طبقا للشريعة الاسلامية •

أما عن الجانب الأول ، وقد اختلف فيه المفسرون ، اذ على الرغم من أنهم اتفقوا على أن الخطاب كان لنساء النبى ﷺ بدليل قوله فى الآيـــة **السابقة : « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا »** [2] ••

الا أنهم اختلفوا فى دخول غيرهن فيه ، فقال بعضهم : الخطاب لنساء النبى ﷺ ، ونساء المؤمنين جميعا مندرجات فيه •

بينما يرى البعض الآخر أنه خاص بنساء النبى ﷺ ، وعليه فاذا خرجت المرأة لا تكون مخالفة فى ذلك لنص شرعى متفق عليه ، غـــير أنها ملزمة باتباع ما فرضته الشريعة الاسلامية عليها فيما يتعلق بالحجاب•

● أليس معنى الحجاب أن تقبع المرأة فى بيتها ، بحيث لا يراها غير محارمهـــا ؟

---

(١) الأحزاب : ٣٣ .　　(٢) الأحزاب : ٣٢ .

— يطلق الحجاب ويراد به كل ما يمنع رؤية المحجوب ••

أو قرار المرأة فى دارها والاحتجاب دون الرجال فلا تكون بمرأى ولا مسمع منهم •

أو ارخاء القناع على وجه المرأة اذا غادرت دارها لبعض شأنها • أى هو اللباس الخاص الذى ترتديه المرأة ، حتى لا تظهر فتنتها للرجال الأجانب •

أما المعنى الأول فلا يتعلق به حكم ، لأن مادة الحجز نفسها ، سواء أكانت ستارة أو قمشا يرتدى ، لا توصف بالحل والحرمة ، وانما الذى يقع عليه الحكم ، هو علاقته بمن يستعمله ، والهيئة التى يستعمل بها •

والمعنى الثانى سبق لنا بيانه فى مطلع حديثنا عندما بينا رأى العلماء فى تفسير قوله تعالى : ((**وقرن فى بيوتكن**)) ، فلم يبق لنا الا أن نبين المعنى الثالث وهو : ارخاء القناع على وجه المرأة ، أو لباس المرأة بوجه عام • ولكن قبل أن نبين الهيئة الشرعية لهذا اللباس ، نحب أن نصحح خطأ شائعا •

● **ما هو ؟ ••**

— **هو ما شاع من التلازم بين حجاب المرأة وبين الاسلام ، مما جعل كثيرا من الناس يعتقدون أن الاسلام هو وحده الذى فرض الحجاب على المرأة •**

● **هذا ما أعتقده أنا أيضا !!**

— **هذا اعتقاد خاطىء ، فقد كان الحجاب معروفا قبل الاسلام ، اذ جاء فى التوراة : أن رفقة (ورفقة اسم لامرأة) أخذت البرقع ، وتغطت به ، عندما أبصرت رجلا أجنبيا آتيا من بعيد •**

كذلك ذكرت كلمة القناع فى الشعر العربى الجاهلى •• يقول الشنفرى :

فواكبدى على أميـة بعـدما ... طمعت فهبها نعمـة العيش زلـت

لقد أعجبتنى لا سقوط قناعها ... اذا ما مشت ولا بـذات تلفت

غير أن دواعى استعماله كانت متعددة، اذ استعملته المرأة القبيحة لتدارى قبحهـا أو المسنات لعادات تأصلت عندهن •• أو الجميـلات احتشاما واستحياء ، كذلك كان من عادات المرأة العربية كشف وجهها أمام الجبان ، ازدراء به وايماء بأنه ليس بالذى يحتشم منه ، فقد حدثوا أن نساء بنى حارث بن كعب لم يكن يتقنعن دون جبنائهن •• غير أن طرح النقاب أو السفور كان أغلب حالات نساء العرب •

● ماذا تقصد من بيان أن الحجاب كان موجودا قبل الاسلام فى التوراة وفى الشعر الجاهلى ؟

— أقصد من ذلك بيان أمرين :

الأمر الأول : الرد على هؤلاء الذين يزعمون أن الاسلام حط من قدر المرأة ، ويستدلون على ذلك بفرض الحجاب عليها • اذ يدعون أن فرض الحجـاب عليها ، جعلها مثل سلعة يخشى الرجل عليها من الضيـاع ، لأنه يملكها ، وما دامت ملكه فيجب عليه أن يضرب السياج حولها حتى لا تضيع منه • فمثلها فى ذلك مثل المتاع الذى يملكه • فأقول لهم : ان الحجـاب كان موجودا قبل الاسلام فى الشرائع كلها • وهذا يقودنا الى بيـان الأمر الثانى : وهو أن حجاب المرأة ليس انتقاصا من قدرها ، بل العكس هو الصحيح ، فهو للمحافظة عليها حتى لا تبتذل ، وهو صون للمجتمـع حتى لا تشيع الفاحشة فيه •

● بقى عليك أن تبين الحدود التى رسمها الاسلام للحجاب •

— ذلك هو موضوع حديثنا القادم ان شاء الله ••

* * *

٩ — حدود الحجاب في الاسلام

تحدثنا فى الأسبوع الماضى عن الحجاب ، فبينت لك أنه كان موجودا قبل الاسلام . وان اختلفت دوافعه ، ثم شرحت أحد نوعيه ، وهو قرار المرأة فى دارها والاحتجاب دون الرجال ، وبقى النوع الآخر ، ألا وهو ارخاء القناع على وجه المرأة اذا غادرت دارها لبعض شأنها ، أو هو اللباس الخاص الذى ترتديه المرأة حتى لا تظهر فتنتها للرجال الأجانب ، ولكى نبين هذا النوع فى الإسلام ، يجب أن نتلو الآيات التى نزلت بفرض الحجاب على المرأة .

يقول الله تعالى : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** » [1] . .

فأنت ترى أن الآيتين اشتملتا على ثلاث وصايا رئيسية وهى : غض البصر .. وحفظ الفرج .. وعدم ابداء زينة المرأة للرجال الأجانب عنها .

فغض البصر ، وحفظ الفرج وصيتان للرجل والمرأة على السواء ، ولا يمكن لعاقل أن يعترض عليهما ، حتى فى أكثر المجتمعات تحللا ، اذ أنهما من الأمور المسلم بها عند كل الناس ، فالتلصص بالعين منبوذ ، وغير مستحب فى كل المجتمعات ، اذ يعتبره الناس منافيا للآداب العامة ، حتى ولو كان الشىء الذى يريد الفضولى رؤيته من الأشياء التى ليس لها

---

(١) النور : ٣٠ ، ٣١ .

تأثير مباشر على الفضيلة ، فأنت تلاحظ أن الناس ينظرون الى الشخص الذى يحلق فيما يقابله ، أو فيما فى يد غيره ، أنه انسان لا خلاق له ، ولا آداب اجتماعية عنده ، فما بالك اذا كان سينتج عن هذا الفعل آثار سيئة فى المجتمع ، وهو النظرة التى تؤدى الى الفاحشة •

كذلك لا يوجد مجتمع يدعو الى الفاحشة • قد تنتشر الفاحشـــة فى مجتمع ما ويغض الناس الطرف عنها ، ولكنهم اذا سئلوا رأيهم فيها بحرية • فلسوف تستنكرها الأغلبية وتدعو الى محاربتها •

أما الوصية الثالثة — فهى خاصة بالنساء ، وهى مدار الاختلاف ، فالاسلام يرى أن جسم المرأة فتنة ، فاذا انكشف منه جزء فى المجتمع ، كان من الدوافع التى تساعد على شيوع الفاحشة ، ولما كان شيوع الفاحشة فى مجتمع ما يعجل بانهياره ، فقد فرض الله على النساء نوعا من الحجاب ، ليحفظ المجتمع من الانهيار والتصدع •

● أرى بعض الناس يلزمون المرأة بستر كل بدنها حتى وجهها ، فلا تظهر من جسمها شيئا على الاطلاق •• فهل هذا هو رأى الاسلام ؟ •

— اعلم أن التعبير عن الحجاب فى القرآن الكريم هو تعبير عام ، تدبر قوله تعالى : **« ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها »**(٢) •• فقد فسر العلماء قوله تعـــالى : **« الا ما ظهر منها »** •• بالوجه واليدين ، أى أنهما ليسا من العورة التى يجب سترها ، وهذا هو رأى جمهور الفقهاء •

● ولكن بعض الناس فهموا من قوله تعالى : **« يا أيها النبى قـــل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما »** (٣) ••

أن المرأة يجب أن تغطى جميع جسدها حتى الوجه واليدين ؟ •

— هذه الآية نزلت فى ظروف خاصة ، ذلك أن أرقاء المدينة ، وفتيان المنافقين ، كانوا يتبعون النساء عند ذهابهن ليلا لقضاء حاجتهن خـــارج المدينة • وكانوا يتحرشون بهن فى غدوهن ورواحهن ، فلما استنكروا

---

(٢) النور ٣١ •   (٣) الاحزاب : ٥٩ •

عليهم ذلك ، تعللوا بأنهم لا يتعرضــون الا للاماء •• فنزلت الآيــة ، وتلمس ذلك من تعليل الأمر بارخاء الجلابيب عليهن ، وهو قوله تعالى : **« ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين »** ••

ولهذا فهم بعض النساء فى عصر صدر الاسلام خصوصية هــذا الأمر ، فجلسن سوافر غير محجبات عن الرجــال ، لبعدهن عن مجــال الأذى ، ومجال الشبهات •

ومن فضليات هؤلاء سكينة بنت الحسين بن على — رضى الله عنهم ، فقد كانت تجلس الى العلماء والأدباء والشعراء ، ولا تكاد تحتجب عنهم •

ومنهن عائشة بنت طلحة •• فكانت لا تستر وجهها من أحــد •• وقد عاتبهــا فى ذلك زوجها مصعب بن الزبير فقالت : « ان الله وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحــد » •

ذلك هو رأى الاسلام وفهم المسلمين للحجاب وموقفهم من المرأة وحريتها ، وهو يتلخص فيما يلى :

يجوز أن تغشى المجالس وتباشر أى نشاط فى المجتمع ، ما دام ذلك فى حدود الشرع وما دامت غير متبرجة كتبرج الجاهلية الأولى ، فالوجه واليدان ليسا بعورة ، ويجــوز للمرأة أن ترتدى الملابس التــى يرى الصالحون والمستنيرون فى المجتمع أنها غير خارجة عن الأدب ، وغير جارحة لوقارها وحشمتها •

* * *

١٠ ـ تعليم المــــرأة

حث القرآن الكريم المسلمين فى آيات كثيرة على التعليم ، ووصاهم بالحرص على طلب العلم ، ومجالسة العلماء ، فيقول الله تعالى : ((**هــــل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولوا الألباب**))(١) ..

ويقول جل ذكره : ((**انما يخشى الله من عباده العلماء**)) (٢) • •

ويقول سبحانه وتعالى : ((**وقل رب زدنى علما**)) (٣) • •

كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة » • •

كما ورد عنه قوله : « العلماء ورثة الأنبياء » • •

وقوله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » • •

فهذه الآيات والأحاديث تبين لك أن الاسلام دعا الى العلم والتعليم، وحث المسلمين جميعا ذكورا واناثا على طلب العلم ، وقد امتثل المجتمــع الاسلامى الأول لهذا التوجيه الالهى والوصية النبوية ، فبذل المسلمون جهدا كبيرا فى تحصيل العلم والمعرفة مما جعلهم يتبوأون مركزا يفــوق أمثالهم ممن اشتهروا بحمل ألوية الحركات العلمية على امتداد التاريخ البشرى كله ، اذ نشطت الحركة العلمية فى القرن الأول الهجرى ، فكــان التعليم ـــ وخاصة ما يتعلق بالمواد الدينية ـــ مفروضا على كل النـــاس ذكورهم واناثهم ، لا فرق بين صبى وصبية ، ولا بين فتى وفتاة ، ولا بين رجل وامرأة ، فقد نشط الجميع كتفا الى كتف فى تحصيل العلم والمعرفة • ومن هنا وجد بين العلماء نساء تقلدن مناصب الأستاذية فى التدريس ، فكان يستمع اليهن فى مجالس التدريس فتيان وفتيات • وان دلت هــذه الظاهرة على شىء ، فانما تدل على أن مجالس العلم الاسلامية فى القرون الأولى لم تعرف التفريق بين الذكر والأنثى •

---

(١) الزمر : ٩ .
(٢) فاطر : ٢٨ .
(٣) طه : ١١٤ •

● هلا ذكرت لى بعض أسماء النساء اللاتى كان لهن دور فى مجالس العلم مثل الرجال ؟

— ذكر ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » كثيرا من هؤلاء ، وبين دورهن فى مجال التعليم ، أذكر لك على سبيل المثال :

زينب بنت أبى القاسم ، فقد بين ابن خلكان العلماء الذين حضرت عليهم وأجازوها ، فكان من بين من أجازها : الحافظ أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل ، والعلامة أبو القاسم الزمخشرى صاحب الكشاف فى تفسير القرآن الكريم ، وغيرهما من السادة الحفاظ .

وتولت التدريس ، فدرس عليها ابن خلكان نفسه وأجازته ، اذ يقول : « ولنا منها اجازة كتبتها فى بعض شهور عام ٦١٠ هـ » .

ومنهن : فاطمة بنت محمد بن أحمد التنوخية : كانت عالمة بالحديث ، ومن تلاميذها : الحافظ ابن حجر العالم المشهور .

ومنهن مريم بنت عبد الرحمن : كانت من علماء الفقه الحنبلى ، فكانت تجلس للتدريس فى نابلس ، ودمشق .

فاذا جئنا الى القرن التاسع الهجرى ، وجدنا أيضا بعض النساء اللاتى تبوأن مراكز علمية ، فمنهن على سبيل المثال :

فاطمة بنت خليل بن أحمد الكنانية : كانت حجة فى الحديث ، واشتغلت بالتدريس فى مصر ، بعد أن أجازها بعض علماء عصرها ، وتفردت بالرواية عن كثير منهم ، وخرج لها القبانى « مشيخة » .

● هذا أمر يدعو الى الدهشة ، اذ المعروف عن المسلمات أنهن بعيدات عن هذا المجال . فكان من المعالم الاجتماعية فى المجتمع الاسلامى قبل النهضة الحديثة أن المرأة جاهلة ، فأنت لا تكاد تجد واحدة تستطيع أن تقرأ وتكتب فضلا عن أن تكون عالمة — كما ذكرت لى — فما السبب فى ذلك ؟

— السبب أن الانحطاط كان قد أصاب كلا من الرجل والمرأة فى القرون الوسطى ، والسبب فى ذلك أن الفتح العثمانى قضى على مظاهر النشاط الفكرى الذى كان مزدهرا فى العصور الاسلامية الأولى ، فاذا قيل ان

المرأة المسلمة — كانت تعيش فى هذا العصر وما تلاه فى ظــلام — . فلنتذكر أن الرجل المسلم كان كذلك فى الغالب .

والخلاصة : أن المرأة كان لها على امتداد التاريخ الاسلامى دور كبير فى مجــال التعليم . وقد امتازت العالمة المسلمة بالصدق فى العلم ، والأمان فى الرواية ، والبعــد عن مواقع التهم ومساقط الظن ، مما لم يوفق اليه كثير من الرجال ، فالحافظ الذهبى يقول فى كتابه « ميزان الاعتدال » الذى خرج فيه أربعة آلاف متهم من المحدثين يقول بعد ذلك : « وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها » ..

أما جهودها فى الشعر ونقده فسوف تجد أمثلة كثيرة منها فى كتب الأدب .

وجملة القول ان الاسلام جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وان المجتمع الاسلامى الأول أتاح للمرأة فرصة التعليم فأثبتت وجودها فى كثير من التخصصات العلمية والأدبية ، فوصلت الى أعلى الدرجات فى المعرفة ، ألا وهى درجة « الأستاذية » حيث منحت الدرجات العلمية ، وتحوى كتب التاريخ الكثير من أسماء هؤلاء اللاتى منحن درجات علمية لعلماء مشهورين ، ومن هنا فلا ينسب تأخرها علميا فى بعض العصور الى الاســلام ، انما لطبيعة النظم السياسية التى كان لهــا أثر فى تأخرها علميا .

كذلك لا ينبغى أن تمنع باسم الاسلام من طلب العلم ، لأن الاسلام فرض تحصيل العلم ، فكيف ينسب اليه مثل هــذا الحكم ؟ !

* * *

١١ — تولى المرأة الوظائف العامة

سوف أحدثك اليوم عن موضوع كثر الكلام حوله ، وتباعدت فيه أطراف النزاع عن بعضها البعض ، ألا وهو السماح للمرأة بالعمل خارج البيت ، وقبل الدخول فى الحديث عن هذا الموضوع ، أحب أن أذكر لك ملاحظتين هامتين جدا بالنسبة للحكم على تصرف المرأة فى هذا المجال •

أولاهما : أن القرآن الكريم لم يذكر شيئا عن عمل المرأة خارج البيت ، فاذا بحثت فى القرآن عن آيــة تحلل لها العمل الوظيفى أو تحرمه ، فلن تجد شيئا من هذا القبيل أبدا ، فسكوت القرآن عن هذا الموضوع اشارة الى أنه من المسائل المتروكة للعرف ، وقضايا العرف يحددها الشرع •

وثانيتهما : أننى ذكرت لك فى حديث سابق عن حجاب المرأة أن الاسلام جوز لها أن تغشى المجالس ، وتباشر أى نشاط فى المجتمع ، ما دام ذلك فى حدود الشرع ، وما دامت غير متبرجة كتبرج الجاهليــة الأولى •

اذن ، فالحجة بأن القرآن الكريم حلل هذا العمل لها ، أو حرم ذاك ، لا دليل عليها ، ومن يستند فى تحريمه على المرأة تولى الوظائف العامة بأن الحجاب يمنع ممارستها لهذا العمل ، لا يستطيع أن يدعم رأيه بدليل قوى ، بعد ما بينا حدود الحجاب ، وأنه لا يمنع المرأة من قيامها بعملها فى المكاتب ، أو المصانع ، أو غير ذلك من أماكن العمل •

● اذا كان الأمر كذلك ، فعلى أى شىء يستند المعارضون لعملها ؟

— هم يستندون فى رأيهم على عوامل بيولوجية خاصة بالمرأة ، فمثلا يقولون : « ان المرأة لا تتمتع بقوة جسمانية ، تمكنها من العمل مثل الرجل كما لا تستطيع القيام بعملها فى جميع الأوقات ، فهناك فترات الحمل والرضاعة ، حيث لا تتمكن من أداء وظيفتها مثل الرجال ، كمــا أن هناك أعمالا لا تستطيع القيام بها •

● هذا صحيح ، فالمرأة لا تستطيع العمل فى المناجم مثلا ، أو فى

أعمال البناء الشـــاقة ، أو قيادة السيارات اللورى ، أو الطائرات ، وغير ذلك من الأعمال التى تحتـــاج الى خواص جسمانية لا توجد الا فى الرجل •

— رأيك سديد ، ولكننا نبحث الموضوع من الناحية العامة ، لنحدد جواب هذا السؤال : هل يجوز لها العمل من وجهة النظر الاسلامية أم لا ؟• أما مسألة قدرتها ، أو عـــدم قدرتها ، فذلك راجع الى كل امرأة على حدة ، فقد تستطيع احداهن أن تؤدى أعمالا شاقة مثل الرجل ، فهــل يجوز لنا أن نمنعها منه بحجة أن الدين يحرم عليها ذلك ؟ •• لا •• طبعا ، فالقضية تدور حول السماح لها دينيا بالعمل أم لا •• وأظن أنك معى فى أنه يجز لها العمل ، وخاصة بعـــد ما بينت لك الملاحظتين الســـابقتين ، وهما عدم وجود آية فى القرآن الكريم تحرم عليها العمل ، وأن طبيعة الحجاب كما حدده القرآن الكريم وفسره علماء التفسير ، لا يحول بينها وبين القيام بوظيفتها ، وما أظنك تخالفنى فى هذا الرأى اذا قرأت عليك شيئا من أخبار احدى فضليات المؤمنات مع رســـول الله ﷺ فى عمل يظن الناس أنه خاص بالرجال ، حتى فى أكثر الدول حضارة ، ألا وهو ميدان القتال •

فقد جاء فى كتب التراث ، أن نسيبة بنت كعب المازنية ، خرجت فى جيش المسلمين يوم أحد ، تسقى الظمأى ، وتأسو الجرحى ، فأصيب ابنها عمارة فى عضده اليسرى ، فأقبلت عليه فربطت جرحه ، والنبى ﷺ واقف ينظر اليها ، ثم قالت لابنها : « انهض بنى فضارب القوم » •• فجعل النبى ﷺ يقول :

« ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة » ؟ •• قالت : وأقبل الرجـــل الذى ضرب ابنى ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا ضارب ابنك » قالت : فاعترضت له فضربت ساقه فبرك • قالت : فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجذه ••

وأصيبت نسيبة فى هذا اليوم بثلاثة عشر جرحا ، واحد منها غار فى عاتقها فنزف الدم منه ، وهى رغم ذلك كالصاعقة الساحقة ، تضرب

فى صفوف العدو ، وترتمى بين صفوفهم غير آبهة ، ولا دارية بالـــدم النـــاعر من جسمها •

فهل ترى أكثر من هذا المثل دلالة على جواز عمل المرأة ؟

● ربما كان ذلك مثلا فريدا ، أو كان — كما يقولون — قبل نزول آيـــة الحجاب ؟ ••

— ليس الأمر كذلك ، فهناك من النســـاء كثيرات ، خضن المعارك فى عهـــد الصحابة والتابعين ، أذكر لك منهن ، أم سليم فى غـــزوة حنين ، وخولة بنت الأزور فى موقعة أجنادين ، وغزالة الحرورية فى عهد بنى أمية ، وليلى بنت طريف فى عهد الرشيد ، وغيرهن كثيرات ، وفقنا الله واياك الى ما فيه الصواب والصلاح وسدد خطانا •• انـــه سميع مجيب •



١٢ — وضع الرجل فى المجتمع

بعد أن انتهينا فى الاسبوع الماضى من الحديث عن المرأة ، ينبغى أن نتناول العنصر الثانى فى المجتمع ، ألا وهو الرجل ، وسوف نقتصر فى حديثنا عنه على أربعة جوانب :

الجانب الأول : وضعه فى المجتمع فى مقابل المرأة :

فالرجل فى المجتمع الانسانى هو أهم عنصريه ، فهو الذى خلق أولا ، وهو الذى تحمل — ولا زال — مسئولية المسيرة التاريخية فى جميع مجالات الحياة •

● ما معنى خلق أولا ؟

— أقصد بذلك أن الأديان السماوية ، ذكرت أن الله خلق الرجل أولا ، ثم خلق المرأة ، فهو مقدم عليها فى الخلق ، ولا شك أن هذا يعطيه الفضل فى الأسبقية الزمنية ، فى الوجود •

● هل يفهم من هذا أنه مفضل عليها لهذا السبب ؟

— ليس تفضيلا ذاتيا ، أى مرتكزا على خاصية ذاتية ، بل تفضيل زمنى كما قلت ، وأضرب لك مثلا للتوضيح : يحدث فى الوظائف أن يرقى أحد قبل الآخر ، فيسبقه فى كل اجراء يترتب على هذه الترقية ، وقد يكون الثانى أكثر قدرة على العمل من الأول ، ولكن لما كانت اجراءات الامتيازات تتبع زمن الترقية ، فيحصل الأول عليها طبقا لهذه القاعدة ، فالرجل مقدم زمنا على المرأة فى الوجود ، فهو مفضل عليها بصرف النظر عن المزايا الذاتية التى يتمتع بها أحد النوعين ، زد على ذلك أن الرجل تفوق على المرأة بعد ذلك بتحمله المسئولية العامة •

● هل يرجع ذلك أيضا الى بدء الخلق ؟

— هناك فى قصة خلق آدم وحواء ما يشير الى أن الرجل سوف يتحمل المسئولية العامة فى المجتمع •

● بين لى هذه الاشارة التى تفيد ذلك ؟

— ألم تقرأ قول الله تعالى : **« وعصى آدم ربه فغوى »** [١] ٠٠

فقد نسب العصيان الى آدم فقط ، ولم ينسب الى حواء ، وذلك بعد ما قرر القرآن الكريم أنهما ضعفا أمام غواية الشيطان ، فزلا الى معصية الله ، يقول الله تعالى : **« فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه »**[٢] ٠

اذن ، هناك مسئوليتان : مسئولية شخصية ، فيسأل كل انسان بمقتضاها عما ارتكبه هو شخصيا ، ويشترك فى هذا آدم وحواء ٠

ومسئولية عامة ، ولا يسئل فيها الا صاحب الولاية العامة ، وتلك هى المسئولية الخاصة بادم ٠

فحواء عليها مسئولية واحدة ، وهى المتعلقة بنفسها ٠ وعلى آدم مسئوليتان : الأولى خاصة بنفسه ، وتتمثل هنا فى امتثال أمر الله بعدم الأكل من الشجرة ، ومسئولية عامة : وهى تكليفه بأن يحافظ على المجتمع — وحواء هى التى تمثل المجتمع هنا — ويحول بينه وبين ارتكاب معصية الله ٠

● أليس تكليف الله له بالمسئولية العامة دون المرأة مبنيا على خواص ذاتية لا توجد فيها ؟ ٠

— ربما ، وقد يبدو ذلك واضحا فى تفرده بالمسئولية الاجتماعية على امتداد عصور التاريخ ، فأنت لا تجد فى أى بقعة من بقاع العالم أى أثر لسيطرة المرأة على سير الأمور فى المجتمع ٠

● لكنا سمعنا عن تولى بعض النساء الحكم ؟

— نعم ، لقد تولت بعض النساء أمور السياسة والحكم ، حتى فى مصر الاسلامية ، فقد تولت شجرة الدر حكمها ، ولكن هذه أحداث فردية ، ونحن نتحدث عن الغالب الأعم ، وهو أن الرجل احتفظ بالسيطرة والمسئولية فى المجتمع فى جميع مجالات الحياة العامة ، وهذا ولا شك

---

(١) طه : ١٢١ ٠ (٢) البقرة : ٣٦

راجع الى خصائص بيولوجية انفرد بها عن المرأة ، كما أنه راجع أيضا الى طول ممارسته لهذا العمل .

ولذلك يقول الله تعالى : « **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** »(٣) .

فتفضيل الله له هيأه لأن يتولى القيادة فى المجتمع ، والقوامة فى البيـــت .

● ما معنى القوامة فى البيت ؟ .

— ذلك هو موضوع حديثنا المقبل ان شاء الله .

* * *

(٣) النساء : ٣٤ .

١٣ — قوامة الرجـــل

حديثنا اليوم عن قوامة الرجل على المرأة التى جاءت فى قوله تعـــالى : **« الرجال قوامون على النســـاء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »**[1] ..

فقد اعتمد المفسرون على هـــذه الآية فى تفضيل الرجل على المرأة فى الجانب الخلقى والاجتماعى ، غير أن بعض المفسرين المحدثين ، وان اعترفوا بتفوق الرجل على المرأة ، الا أن بعضهم ينفى أن تكون قوامة الرجل على المرأة ســـببا فى عدم الاعتراف بارادة المرأة ، وقدرتها على القيام بأعمال قد تكون مساوية لأعمال الرجل ، كما أن التفوق فى رأيهم : هو تفوق الجنس على الآخر ، اذ قد توجد نساء متفوقات بمراحل عـــلى كثير من الرجال . ورغم هـــذا فجميع الفقهاء متفقون على أن للرجل السيادة والقيادة فى البيت .

● هل تبدأ هـــذه السيادة من حين العقد ؟

— لو تدبرنا الأمر لوجدنا أنها وان كانت بدايتها الفعلية من حين العقد ، الا أنها تبدأ قبل ذلك ، وبالذات من حين التفكير فى الزواج ، فالذى يقدم على الطلب هو الرجل وليس المرأة ، فهو الذى يتقدم لخطبتها من أبيها أو ممن يتولى شئونها ، ولا شك أن الذى يتقدم أولا بالطلب يتمتع بشىء لا يتمتع به الآخر الذى ينتظر المبادرة ليقوم بالرد عليها .

ثم هو الذى يقدم المـــال والهدايا ، ويهيىء بيت الزوجية ، وهذا يضيف الى جانبه فضلا آخر عليها ، ولذا يقول الله تعالى : **« وبما أنفقوا من أموالهم »**

● فاذا رفضته المرأة ، فهل يجوز لولى أمرها اجبارها على الزواج ؟

— لا .. اذ ليس معنى اسناد ابرام عقد الزواج الى ولى أمرها اجبارها على الزواج ممن لا تحب ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

---

(١) النساء : ٣٤ .

« البكر تستأذن ، واذنها صماتها ، والثيب تعرب عن نفسها » ..

كذلك لا ينبغى أن يفهم من اسناد القوامة الى الرجل دون المرأة أنها تمنع مطلقا من المساهمة والمشاركة فى ادارة شـئون المنزل بالرأى والمـال ، فقيادة الرجل لا تمنع اطلاقا مساهمة المرأة ، ولكنها لا تفرض هـذه المساهمة ولا تكرهها عليها ، أى أنها لا تفرض عليها انفاق شىء من مالها ، كما أن هـذه القيادة ذاتها لا تخرج اطلاقا عن المسئولية **الى دائرة التحكم ، أو الى المعاملة بالقسوة ، أو الى التسلط بالغلظـة فى السلوك والمعاشرة : أى أن جنحت قيادة الرجل الى شىء من الغلطة والتحكم** والسيطرة ، فهذا مؤشر لافلاس الرجل فى فهم القيادة ، وفى تطبيقها معا . لأن الاسلام حين أعطاه القيادة ، لم يكن ذلك جوازا له باستعمال هـذه السلطة الاستعمال السىء ، بل ذكره بقواعد عامة فقال تعـالى **« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »**[٢] ..

وقال ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » ..

فالاعتراف بأن لهن حقوقا ، وبأن المسـلم الكامل الايمان ينبغى أن يعامل أهله بالحسنى يدفعه ايمانه الى استعمال حقه فى القوامة استعمالا حسـنا بحيث لا يطغى ولا يجور ، فتسعد الأسرة ، ويحل الوئام على أهل البيت ، ويكون فى ذلك سـعادة الجميع وهناءهم .

* * *

---

(٢) البقرة : ٢٢٨ .

١٤ — واجبات الرجل

ان علاقة الرجل بأهل بيته من أسمى العلاقات فى هـذه الحياة ، لذا ينبغى أن تؤسس على قاعدة متينة ، بحيث لا تزعزعها عواصف الدهر ، ولا تضعفها محن الحياة ومآسى التقلبات المادية ، وقد رسم الاسلام لهذه الحياة معالم ، وأرسى لها قواعد ، فدعا كلا الطرفين الى أن يعامل كلا منهما الآخر بالحسنى ، لأن الحسنى فوق العدل ، وهو عطاء دون انتظار الرد ، وغفران لما يبدر من سيئات قبل أن يطلب المسىء الصفح •

ولا تبدأ هـذه المعاملة من لحظة بدء الحياة الزوجية ، بل تبدأ من قبل هـذا ، فالمعاملة الحسنة تبدأ من لحظة التقدم بالخطبة ، حيث ينبغى على الرجل أن يظهر ما يدل على أنه راغب فيها ، وما يشعرها بأنه يحبها ، وما يؤكد لها أنه على استعداد لأن يقدم لها ما يسعدها ، ويتمثل ذلك فى تقديم الهدايا لها •

● هل معنى ذلك أن الهدية علامة الحب ؟ •

— نعم ، وهى وسيلة أيضا الى غرس بذور المودة ، وتوطيد العلاقة الحسنة بين المحبين •

● اذن ، فكلما ارتفعت قيمة الهدية ، كلما دل ذلك على زيادة فى الحب !

— لا •• ليس الأمر كما تصورت الا بين الماديين الذين يجرون وراء المنافع المادية ، والعلاقة التى تقوم على تبادل المنافع المادية هى علاقة واهية سرعان ما تنهار لأدنى سبب ، وتنقلب الى عداوة عند أول عقبة فى الطريق • أما العلاقة الروحية • وهى العمود الفقرى للعلاقة الزوجية ، فلا يدخل فى حساب أحد الطرفين أية منفعة مادية •

● ما فائدة الهدية اذن ؟

— فائدتها أنها رمز فقط على ماعند مقدمها من عطف ومودة للمهدى له • وهى تؤدى مهمتها ، حتى ولو لم تساو سوى بضع مليمات ، لأن العبرة ليست بالقيمة ، ولكن بما ترمز اليه ، ولذا قال رسول الله ﷺ : « التمس ولو خاتما من حديد » •• فلو سادت هـذه الروح بين الخطيب

وخطيبته ، فقدم لها ما يشعرها بأنه يحبها ، وتقبلت هي هـذه الهدية . وأدركت مغزاها دون النظر الى قيمتها المـادية ، لكانت مقدمة حياتهما الزوجية قائمة على أساس متين ، ويكون قد أدى ما عليـه من واجب في هـذه الفترة ، الأمر الذي يجعل ارساء قواعد الحيـاة الزوجية مؤسسا على أرض صلبة متينة ، ثم تبـدأ بعد الدخول بها سلسلة من الواجبات التي ينبغي على الرجل أن يقـوم بها حتى تسـير الحياة الزوجية سـيرا حسنا وهي :

أولا : اعداد بيت الزوجية اعدادا يليق بمقام الزوجة ، بحيث لا تشعر بأنه أقل من بيت أبيها .

ثانيا : الانفاق عليها من غير تقتير ولا حرمان .

● ما الحكم فيما لو كان الزوج غير قادر ؟

— اذا كان الزوج غير قادر فلا حرج عليه ، وينبغي على الزوجة — ان كانت تحب زوجها وترعى حق الله — أن تقدر هـذه الظروف ، وترضى بما يقدم لها ، مادام قد بذل أقصى جهده ولم يقصر في شيء وذلك امتثالا لقول الله تعالى : **« أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن »**[١] ..

وقوله تعالى : **« لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسـا الا ما آتاها ، سيجعل الله بعـد عسر يسرا »**[٢] ..

● أليست هـذه الآية في المطلقة ؟

— اذا كان هذا أمر المطلقة ، فمن باب أولى من كانت تعيش معه في بيت واحد وتحت سقف واحد ، أليس كذلك ؟ .

● بلى ..

ثالثا : المعاشرة الحسـنة ، امتثالا لقوله تعـالى : **« وعاشروهن بالمعروف »**[٣] ..

---

(١) الطلاق : ٦ .
(٢) الطلاق : ٧ .
(٣) النساء : ١٩ .

فكلمة « المعروف » فى الآية تعبير عام يندرج تحته كل ما من شانه أن يكون حسـنا ، ويدخل السرور على قلبها ، سواء أكان ذلك متعلقا بالبدن كالطعام والكساء ، أو بالنفس والروح ، وذلك بخلق الجو النفسى الملائم لها ، حتى لا يصيبها الملل والكآبة فى حياتها ، ويدخل فى ذلك أيضا حق المعاشرة الزوجية ، فينبغى على الرجل ألا يحرمها أيضا من هـذه الناحية حتى لا تتضرر .

رابعا : ان يعلمها الفرائض الدينية ، ويثقفها بما تحتاج اليه فى تربية أولادها ، وفى سلوكها مع الآخرين . فان فرط فى تعليمها الفرائض ، فقد أثم ، وان أهمل فى تعليمها قواعد السلوك العامة فى المجتمع ، فقد فرط فى حقها وحق أولادها ، أما فى حقها فهو مسئول عنها والاهمال فى تعليمها ذنب ، وأما فى حق أولاده فلكونها لن تستطيع — بعد أن أهمل تعليمها — تلقينهم شـيئا ينفعهم فى السلوك الاجتماعى . ولذا فتعليمها يعود عليـه بالنفع ، وهو الثواب من الله ، وعدم الحرج أمام الناس لأنها ستتصرف طبقا لمـا لقنها ، وضمان لتربية الأولاد تربية صالحة .

خامسا : اعطاؤها حرية التعبير عن نفسها ، ليشعرها بكيانها ، ويعلمها أنها مسئولة أيضا فى الحياة مسئولية لا تقل عن مسئولية الرجل ، وبذلك يسعدان فى حياتهما معا ، ويكونان قادرين على تربية أولادهما تربية صالحة تسهم فى بناء المجتمع بناء سليما .

وهنـاك الكثير من الأمور التى يجب على الرجل تنفيذها فى بيته ، ولكن يكفى ما ذكرته لك من الأمور الأساسية نظرا لضيق الوقت .

● أراك ركزت على واجبات الرجل .. ولم تذكر شيئا من حقوقه ؟ .

— هـذا موضوع حديثنا المقبل ان شاء الله .

* * *

١٥ — حقــوق الزوج

وعدتك فى الأسـبوع الماضى بالحديث عن حقـوق الرجل على زوجته ، وأرى أن ألفت نظرك بادىء ذى بدء الى ناحية هامة ينبغى أن تعيها ، بل يجب على كل زوج وزوجة أن يضعها نصب عينيه ، ألا وهى التفريق بين انسـان يعمل عملا لأنه واجب عليه ازاء الآخر ، وانسـان آخر يحرص على أن يعمل ما يرضى الطرف الآخر بصرف النظـر عن كونه واجبا أولا ، فمما لا شك فيه أن عمل الثانى يحمل معنى كبيرا ، ويفصح عن نوع العلاقة القائمة بين الاثنين ويترجم عن معان لا يستطيع اللسـان أن يفصح عنها • وقد عبر القرآن الكريم عن هـذا الجانب أبلغ تعبير حيث يقول الله تعالى : **« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »**(١) •

فالتعبير بالسـكن ، وهو الهدوء والراحة والاستقرار ، يصـور ما ينبغى أن تكون عليه الحياة الزوجية من حب ورحمة وهدوء واستقرار ، ثم ان قوله تعـالى : **« وجعل بينكم مودة ورحمة »** تعبير عن أسـمى مراحل العلاقة الانسـانية ، تلك العلاقة التى لا تحـكمها قوانين ، ولا تنظمها واجبات وفروض ، وانما هى فوق هـذا كله ، فوق القانون ، لأن القانون ينفذ تحت عصـا الرهبة والخوف من العقـوبة ، وفوق الواجبات والفروض ، لأنها تدفع من يلتزم بهـا بدوافع خارجية ، أما المودة والرحمة ، فهى نابعة من داخل الشخص نفسـه ، توجهه الى التصرف ازاء الآخر بدافع وجدانى ، لا يخاف عقابا ، ولا يرجو ثوابا ، وانما يشبع رغبة ذاتية عنده . وهى حب الطرف الآخر ، والحرص على عدم ايذائه ، وتلك هى العلاقة التى ينبغى أن تكون بين الزوجين ، وهى التى عبر عنها القرآن فى قوله تعالى : **« وجعل بينكم مودة ورحمة »** ••

● أراك أسهبت فى تفسير المعنى الروحى الذى يجب أن يسود العلاقة بين الزوجين ، ولكن الحياة علمتنا أن الأمور لا تسير كما ينبغى لها أن تكون ، وأن طباع الناس مختلفة ، وأن الخير تقابله عقبات ، وأن أهل

(١) الروم : ٢١ .

السوء يميلون بطبيعتهم الى تمزيق حبال المودة بين الناس ، ولهذا أريد أن تذكر لى بعض الحقوق التى يجب على الزوجة أن تؤديها لزوجها حتى وان غابت المودة ، وتقطعت وشائج الرحمة بينهما •

— ان ما يجب على الزوجة عمله للزوج كثير ، ولكنى سألخص لك ذلك فى نقاط رئيســية •

أولا : الطاعة ، اذ ينبغى عليها أن تطيع زوجها فى كل ما يأمر به ، مادام لم يخرج عن أوامر الشرع •

ثانيا : ألا تغادر منزلها الا باذن منه •

● فان منعها من الخروج للعمل ، فهل تطيعه أيضا ؟

— نعم •• مادام سيتكفل بالانفاق عليها وعلى أولادها •

● فان لم تطعه ، وخرجت من المنزل بغير اذنه ، أو استمرت فى عملها فما الحــكم ؟

— الحكم أنها امرأة خارجة عن طاعة الزوج ، وهذا أمر يخول له ألا يقوم بواجبه نحوها •• أى أنه لا يلزم بالانفاق عليها •

ثالثا : أن تحسن القيام بمهامها كزوجة ، فتحسن رعاية زوجها فى ماله ، وفى عرضه ، وفى نفسه ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ان خير نعمة على العبد بعد تقوى الله امرأة صالحة ، ان نظر اليها سرته ، وان أمرها أطاعته ، وان تركها حفظته فى دينه وعرضه وماله » ••

فان أحسنت المرأة معاملتها للرجل دخلت الجنة ، فقد روى عن أم ســلمة — رضى الله عنها — أنها قالت : قال رســول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة » ••

وان لم تقم بهــذا الواجب ، استحقت غضب الله عليهــا ، فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أنه قال : قال رسول الله ﷺ « اذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فأبت أن تجىء ، لعنتها الملائكة حتى تصبح » ••

فمن واجب الزوجة أن تحافظ على زوجها ماديا ، وألا تأتى من الأعمال ما يتعبه نفسيا ، ولقد ضربت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما المثل الأعلى فى الحفاظ على شــعور زوجها ، فقد روى أنها تزوجت

الزبير وهو فقير ، فكانت تجهد نفسها معه لمواجهة أعباء الحياة المادية ، وحدث يوما أن كانت عائدة من أرض للزبير ، وهى تحمل النوى على رأسها ، فقابلها رسول الله ﷺ فى الطريق مع نفر من أصحابه ، فأراد أن يركبها خلفه ، فأبت استحياء من الذين كانوا معه مراعية فى ذلك شدة غيرة زوجها الزبير ، ولما عادت الى البيت ، ذكرت ذلك للزبير ، فقال لها : « والله لحملك النوى كان أشد على من ركوبك معه » ..

فانظر كيف أدركت أسماء طبيعة زوجها ، وسبرت أغوار نفسه ، فعلمت شدة غيرته ، فلم تألوا جهدا فى المحافظة على نفسيته ، فاستحيت أن تركب خلف رسول الله ﷺ وهو زوج أختها ، استحياء من الرجال الذين كانوا معه ، ومراعاة لشعور زوجها الذى لم يكن معها فى ذلك الوقت .

ان مراعاة شعور الزوج ، والمحافظة على كل ما يملك من العوامل الأساسية التى تساعد على نجاح الحياة الزوجية ، وحفظها من العواصف المدمرة ، وتهيئة الجو الملائم والمناخ الطيب لحياة سعيدة .

وفقنا الله واياكم الى ما فيه السعادة والهناء .. انه سمع مجيب ..

* * *

الفصل الخامس

فى القضايا المعاصرة

١ ــ عالميــة الاســلام

(أ) خلق الله الناس جميعا من أصل واحــد ، فهم متساوون فى مصدر الخلق ، وفى العناصر التى تتكون منها أجسامهم ٠

يقول الله تعــالى « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها** »[١] ٠٠

لذا اشترك الناس فى الخصائص الانسانية العامة ، وفى الصفات الأصلية التى يقوم عليها مفهوم الانسانية ٠

غير أن حكمة الله اقتضت أن يكون لاختلاف التضاريس ، وتباين المناطق الجغرافية أثره على ملامح المجموعات البشرية ، فتمايزت كل مجموعة عن الأخرى ، فى الحجم ، والشكل واللون ، واختلفت مشارب كل منطقة عن الأخرى ، فتنوعت أساليب حياتهم ، وكثرت أشكال عاداتهم وتقاليدهم ، واختلف تبعا لذلك انتماءاتهم ، سواء أكان ذلك على مستوى المجموعات الكبيرة كالأمم والشعوب ، أو فى حدود التجمعات الصغيرة كالقبائل والأسر ، أو فى اطار الذاتية كالأفراد والأشخاص ٠

ولولا هــذه الاختلافات ، لأصبح من العسير تمييز شخص عن آخر ، أو تحديد ملامح ســكان منطقة ما ، وفصلها عن غيرها من ســكان المناطق الأخرى ، فتختلط الأمور وتتشابك ، اذ يصبح كل شبيه بالآخر ، ويصير الجميع نسخة مكررة ، لا ملامح للتمييز ، ولا معالم للتفريق وقد عبر القرآن الكريم عن هــذا المعنى فى قوله تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** »[٢] ٠٠

أى ليعرف كل منكم الآخر ، عن طريق الملامح المميزة له ، والعادات والتقاليد التى تفصله عن الآخر على هيئــة شعوب وقبائل ، أى ليعرف كل منكم أن هــذا ينتمى الى هــذا الشعب أو ذاك ، وأن ذاك فرد من أفراد هــذه القبيلة أو تلك ٠ غير أن هــذا الاختلاف أوحى الى بعض

(١) النساء : ١ ٠ (٢) الحجرات : ١٣ ٠

المفكرين ودعاة المذاهب الفكرية بالتفاضل بين الأجناس ، لدرجة أنهم نسوا أن الناس خلقوا من أصل واحد ، فدعوا الى نظرية تعدد أصول الأجناس البشرية ، وتأثر بهذا بعض رجال الدين فاعتقدوا أن الله فضل جنسهم على سائر الأجناس البشرية ٠

فاذا كانت مبادىء الدين واتجاهاته التشريعية ، تحمل هذه المظاهر المحلية ، وتعامل الناس على أساس الفروق البيئية ، فتعالج مشاكل قبلية أو اقليمية فقط ، دون أن تتجاوزها الى المشاكل العالمية التى لا تختص باقليم دون آخر وتنحصر داخل حياة طائفة من الناس دون أخرى ، فهو دين محلى ، يختص باقليم دون آخر ، أو يخاطب شعبا دون غيره من بقية الشعوب ٠

ولو استعرضنا الأديان المعروفة والمشهورة ، لتبين لنا من أول وهلة أنها أديان لا تحمل صفة العالمية ، ويظهر ذلك واضحا : لو لاحظنا — على سبيل المثال — الأسماء التى عرفت بها تلك الأديان ، فالنصرانية نسبة الى قرية الناصرة ، وهى تسمية توحى بالانحصار فى الاقليمية ، واليهودية نسبة الى يهودا ، وهو تحديد بشخص معين ، وكذلك البوذية ، والمانوية ، والزارادشتية ، وغيرها من الأديان الأخرى ٠

أما الاسلام ، فهو عالمى فى تسميته ، ومبادئه ، وأحكامه ، وتشريعاته ، فهو لم يتخذ اسما خاصا بأحد ، ولم ينسب الى فئة معينة ، أو قبيلة خاصة فيقول الله تعالى : ((**ان الدين عند الله الاسلام**))(٣) ٠٠

ويقول : ((**ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما**))(٤) ٠٠

فهو دين التسليم لله ، وهى صفة لا تخص مجموعة دون أخرى من الناس ، بل هى عامة عند الجميع ، فيقول الله تعالى : ((**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون**))(٥)

---

(٣) آل عمران : ١٩ ٠ (٤) آل عمران : ٦٧ ٠
(٥) آل عمران : ٨٣ ٠

وهكذا نرى من النظرة الأولى فى الأديان ، نظرة الاقتصار على مجرد النسبة ، أن تسمية الاسلام توحى بأنه دين عام للمخلوقات كلها ، وللناس كافة .

فاذا انتقلنا من التسمية الى الوحى وهو أساس كل رسالة دينية . لوجدنا أن الوحى الذى أنزل على محمد ﷺ ، قد اشتمل على خصائص كل ما أنزل على الرسل من قبله ، يقول الله تعالى : **« انا أوحينـا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك »**(٦) .

فالتعبير بالنبيين من بعد نوح ، يشير الى أن القرآن الكريم جمع كل صفات الكتب السابقة التى أنزلت على الأنبياء جميعا ، مما صيره تشريعا عاما لجميع الناس .

كذلك التفصيل ثم الاجمال فى قوله تعالى : **« وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل »** الى أن قال : **« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك »** يؤكد عموم رسـالة الاسلام ، لأنها جمعت كل الخصائص التى اشتمل عليها كل وحى سبق على الاسلام ، وبناء عليه فهى لجميع البشر على اختلاف أقاليمهم ، وتنوع عاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا جاء التعبير فى آيات القرآن الكريم بكلمة **« الانسـان »** التى يندرج تحتها كل أجناس البشرية . يقول الله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » (٧) ..

ولو أحصينا الآيات التى ورد فيها ذكر هذه الكلمة التى تطلق على البشرية جمعـاء وهى « الانســان » لوجدنا أنها ذكرت فى أكثر من ستين آيـة .

وأهم من هذا فى مفهوم عالمية الاسلام أنه أكد مسئولية الفرد واستقلاله عن الارتباط فيها بالخصائص التى تفصله عن الهيكل الكلى

---

(٦) النساء : ١٦٣ . (٧) العلق : ١ — ٥ .

للمجموعة البشرية ، كالقبيلة ، أو العشـــيرة ، فليست المســئولية تابعة لخصائص عرقية أو اقليمية ، وانما ترجع الى الانسان كفرد ، وهو يشترك فى هذا التخصيص مع كل انسان فى أى اقليم ، وداخل أى مجموعــة عرقية أو قبلية ، يقول الله تعالى : **« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان »**[٨] .

ويقول : **« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يــوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفســك اليوم عليك حسيبا »** [٩] ..

فالمسئولية تقع على عاتق الفرد وحده ، بعيدا عن أهله الذين تميز بهم عن غيره من أفراد الانسانية ، وبعيدا عن اقليمه الذى فصله عن غيره داخل حدود معينة وعادات وتقاليد مختلفة عن غيرها من تقاليــد الأقاليم الأخرى وعاداتهم ، فهى قد حملته من داخل هــذا الاطار الضيق الى فضاء واسع ، وهو : العالمية ، حيث يشعر بأنه أخ لكل انسان على وجــه الأرض .

وطبيعة الأمور تقتضى بأنه ما دام الاسم عاما ، وهو « الاسلام » والوحى يتضمن كل خصائص الوحى السابق ، والمسئولية فيه تقع على عاتق الانسان باعتباره انسانا لا بكونه فردا من قبيلة أو شعب ، فالاسلام بناء على هذا هو : رسالة الله للناس كافة ، وللانسان الذى استخلفه الله فى الأرض ، أينما كان ، وحيثما وجد ، فهو دعوة عالمية فى طبيعتها ومفهومها .

وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى فى كثير من آياته ، يقــول الله تعالى : **« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون »** [١٠] ..

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » [١١] .

---

(٨) الأحزاب : ٧٢ .
(٩) الاسراء : ١٣ ، ١٤ .
(١٠) سبأ : ٢٨ .
(١١) الصف : ٩ .

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (١٢) ..

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (١٣) ..

« ان هو الا ذكر للعالمين » (١٤) ..

« ان هو الا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القـــول على الـــكافرين » (١٥) ..

فكل هذه الآيات توضح مفهوم العالمية فى الاسلام ، وهى دليـــل يؤكد ما بيناه من خصائص من تقع المسئولية على عاتقه ، وهى خصائص عامة يندرج تحتها كل انسان على وجه الأرض .

***

(ب) تموج أقطار الأرض بتيارات فكرية مختلفة المنابع والأصول ، ومتعددة المذاهب والاتجاهات ، ومتلونة الأشكال والأحجام . وليس هذا قاصرا على المذاهب ذات الصبغة المادية ، بل هو أيضا بين الأديان والمذاهب الروحية ، سواء منها ما كان بشريا أرضيا فى أصله ومساره ، وما كان منها سماويا فى مبدئه ، ثم تحول الى مسار بشرى عن طريق ما علق به من أفكار الانسان واتجاهاته الخاضعة لظروف مختلفة ، ومؤثرات متعددة ، فاذا بحثنا فى هذه المذاهب الفكرية ، والاتجاهات الدينية ، عن مدى القدرة فيها على استيعاب ظروف الانسان فى كل مكان على وجـــه الأرض ، لتبين لنا أن ما كان منها موافقا لطبيعة الانسان فهو القـــادر على تهذيبه وتقويمه ، دون أن يكلفه بما لا يطيق ، ومن غير أن يلقنه أشياء بعيدة عن واقعه الانسانى .

ولما كانت قدرات الانسان غير متساوية ، وامكانياته متفاوتة ، فينبغى أن يكون الدين الذى ينظم حياته مشتملا على برنامج تربوى واضح ، يتسع لكل الظروف الانسانية ، ويعالج كل المشاكل التى تعترض طريـــق الانسان ، وفى الوقت نفسه يكون سهل التطبيق ، يسيرا على النفس الانسانية ، مطابقا لقدرات الانسان العقلية ، والجسمية ، مراعيـــا

---

(١٢) الفرقان : ١ .

(١٣) الأنبياء : ١٠٧ .

(١٤) سورة ص : ٨٧ .

(١٥) يس : ٦٩ ، ٧٠ .

الظروف الطبيعية المحيطة به ، فاذا وجد هذا التكامل فى أى دين فهو دين عالمى لأنه يصلح للتطبيق مع كل انسان ، وتحت كل الظروف النفسية ، وفى كل الأجواء المناخية •

ولا يجتمع هـذا كله الا فى الاسلام ، ففيه الوضوح ، واليسر ، والسهولة ، اذ أنه خلا من التعقيدات الفلسفية ، التى لا يفهمها الا مجموعة قليلة جدا من العلماء أطلقوا على أنفسهم كلمة «الخاصة» أى المتخصصون فى هذا الفن ، وليس فيه المبهمات والمعميات التى كثرت فى الأديان المنتشرة فى بعض مناطق الكرة الأرضية ، وفى الوقت نفسه ، جاءت أحكامه وتشريعاته سهلة ميسرة ، بحيث يستطيع كل انسان الالتزام بها ، دون مشقة أو عناء لأنه موافق للطبيعة ، ومنسجم مع متطلبات تكوينـه الفسيولوجى والنفسى ، فالاسلام مناسب لفطرة الانسان ، وغير مناقض للمسلمات العقلية التى يعتنقها ، ولا يتصادم مع حريته الانسـانية ، التى تبنى كيانه ولا تدمره ، وتحافظ على وحـدة مجتمعه ولا تمزقها •

فمن يقرأ القرآن الكريم يجده سهل المنال ، اذ يستطيع أن يجـد فيه متعته النفسية والروحية ، ويفهم منه ما يحتاج اليه فى تنظيـم حياته مع نفسه ، ومع الآخرين الذين يعيشون معه سواء أكانوا مشاركين له فى تجمعات بشرية معينة ، كالأسرة ، والأمة ، أو متعاملين معه فى الحياة فى دائرة أوسع من هذا التقييد الأسرى ، أو الوطنى •

ففى مجال التيسير على المؤمنين ، نجد القرآن الكريم يشير الى أن الله لم يرد من التكليف الا تهذيب الانسان ، دون أن يصيبه عنت أو حرج ، يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسـحوا برؤوسـكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سـفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم »**[١٦] ••

---

(١٦) المائدة : ٦ .

ويقول : **« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسـجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون · وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج »** (١٧) · ·

ويقول : عقب بيان فرض الصـيام ·· **« يريـد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »** (١٨) · ·

ولم يفرض الحج الا على المستطيع يقول تعالى : **« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا »**(١٩) ··

ولم يقتصر أمر التيسير على الفرائض المكتوبة المتعلقة بالعبادات فقط ، بل هو القاعدة فى كل ما يطلبه الاسـلام من الانسـان ، يقول الله تعالى : **« لا يكلف الله نفسا الا وسعها »** (٢٠) ··

كذلك وافقت تعاليمه فطرة الانسان ، فأحكامه جاءت لصالحـه ، من حيث انه انسان ، يعنى هذا أن تكون هى شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، يقول تعالى فى بيان طبيعة الاسلام : **« فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليهـا ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »**(٢١) ··

فالمقصود بالفطرة فى هذه الآية هى طبيعة الانسان الجامعة بـين العالمين : المادى والروحى ، بما أودع فيها من غرائز ، أى أن الاسلام راعى هذه الفطرة فى بناء التكاليف عليها بحيث لا تكون مصطدمة معهـا ، أو مهملة لمقتضياتها المادية والروحية ، يقول الله تعالى : **« وابتغ فيمـا آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »** (٢٢) · ·

فهو ليس دينا مغرقا فى الروحانية ، وليس مذهبا تسيطر عليـه المـادية ، بل هو فطرة تتمشى مع طبيعة الانسان ، وبهذه الميزة كـان ملائما لجميع الأجناس البشرية ، فتقبله النفوس،على اختلاف مستوياتها، وتباين طرق حياتها ، لأنه يلبى مطالب الحياة بالقدر الذى يصلحها ،

---

(١٧) الحج : ٧٧ ، ٧٨ .
(١٨) البقرة : ١٨٥ .
(١٩) آل عمران : ٩٧ .
(٢٠) البقرة : ٢٨٦ .
(٢١) الروم : ٣٠ .
(٢٢) القصص : ٧٧ .

ويجعل النشاط فيها ذا أثر فعال فى جميع مجالات الانتاج الذى يعود على الانسان بوصفه انسانا — بالخير والسعادة ، والأمن والأمان .

ومن الجوانب التى أكسبت الاسلام صفة العالمية ، قيام أحكامه وتشريعاته على أسس عقلية يفهمها كل انســان يتمتع بهذه الميزة التى ميز الله بها الأنسان على سائر الكائنات الحية ، وأكبر دليل على ذلك أن أول آية نزلت من القرآن الكريم خاطبت العقل ، وحثته على التفكير فى نفسه ، وفى كيفية خلقه ، يقول الله تعالى : **« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »** [٢٣] . .

كما أنه حث على استعمال العقل فيما حول الانســان فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، نذكر منها قوله تعالى : **« كذلك يبين الله لكـم الآيات لعلكم تتفكرون »** [٢٤] ..

« قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون » [٢٥] . .

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم » [٢٦] . .

« فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » [٢٧] . .

وغير ذلك من الآيات التى تثير فى الانسان غريزة التفكير فيما يحيط به ، وهى عامة لدى جميع البشر .

ويترتب على هذا ذم التقليد ؛ لأنه يشل تفكير الانسان ، ويحط من قدره ، ويجعله عالة على غيره ، وذلك ضد طبيعة الانسان ، وقد نزلت آيات كثيرة تسفه أحلام الذين ساروا ضد هذه الطبيعة ، فألغوا عقولهم ، وساروا مع كبرائهم ، دون أن يستخدموا عقولهم التى وهبهم الله اياها لتقودهم الى ما فيه الخير والسعادة ، يقول الله تعالى : **« ولقد آتينـا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل**

---

(٢٣) العلق : ١ — ٥ .
(٢٤) البقرة : ٢١٩ .
(٢٥) الأنعام : ٥٠ .
(٢٦) الروم : ٨ .
(٢٧) الأعراف : ١٧٦ .

التى أنتم لها عاكفون • قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين • قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » (٢٨) ••

ويقول : **« وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا »**(٢٩) ••

وبناء على حث الاسلام على استخدام العقل ، لا توجد حقيقة دينية فيه مخالفة للحقائق العقلية ، مما جعله صالحا لكل انسان على وجه الأرض ، لأنه يخاطب العقل الذى يشترك فيه جميع البشر ، فليس فى القرآن الكريم حقائق تختص بجنس دون آخر ، وتناسب قوما دون غيرهم من أقوام الأرض ، فالكل مشترك فى الأداة التى يتوجه اليها القرآن الكريم بأوامر الله ونواهيه ، ألا وهى : العقل •

وخلاصة القول : ان الاسلام دين عالمى ، بما فيه من يسر وسهولة تمكن كل الناس مهما اختلفت قدراتهم العقلية والجسمية ، من تأدية فرائضه وأحكامه ، وتهيىء الظروف لكل مجتمع بشرى ، لتطبيق شرائعه ، دون حرج أو مشقة فى هذا التطبيق ، لأنه يلائم الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، كما يخاطب العقل ، الذى يشترك الناس جميعا فى استخدامه كأداة تهديهم سواء السبيل فى معترك الحياة •

* * *

(ج) تشغل قضية الحرية حيزا كبيرا فى الفكر الانسانى ، اذ مازالت تتصدر قائمة مبادىء كل مذهب فكرى ، على أساس أن حرية الانسان يجب أن يكفلها كل نظام يريد لنفسه البقاء ، وتحافظ عليها كل أيديولوجية تنشد الانتشار بين الناس ، ويدعو اليها كل المفكرين المشتغلين بقضايا الانسان والمجتمع ، ذلك أن الحرية هى احدى الدعائم الرئيسية التى يقوم عليها بناء الانسان بوصفه عضوا صالحا فى مجتمع قوى متماسك ، فان لم توجد فى المجتمع البشرى ضعف أفراده ، وانحلت عقدة التماسك فيما بينهم ، فتناثروا فى مهب الريح ، لا يجمعهم هدف ، ولا يمسكهم مبدأ يرون فيه كيانهم ووجودهم •

---

(٢٨) الأنبياء : ٥١ — ٥٤ .   (٢٩) الأحزاب : ٦٧ .

ولهذا قدس الاسلام الحرية ، فدعا الى كفالتها ، ولو أدى ذلك الى عدم الاعتراف به دينا ، يقول الله تعالى : **« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى »**(٣٠) ..

ويقول : **« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »**(٣١) ..

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٣٢) ..

فالله يبين لرسوله ﷺ فى هذه الآيات أن الايمان متروك لحرية الانسان فلا ينبغى أن يمارس الاكراه لحمل الناس عليه ، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الايمان ، ولكنه تركهم بحريتهم ليكون الايمان نابعا من ذات الشخص نفسه حتى يثمر ايمانه ، لأن العمل لا يكون نافعا اذا فعله الانسان ، وهو فى كامل حريته .

ولهذا نظر الاسلام الى المجتمع نظرة شمولية ، فهو لا يفرق بين الناس على أساس معتقداتهم بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات ، بل كفل لهم أسس العيش فى سلام واطمئنان داخل المجتمع الاسلامى ، وأعطاهم حرية كاملة فى ممارسة بناء المجتمع فلا زال قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .. ناقوسا يرن فى آذان كل المجتمعات البشرية ، معلنا أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية كما أمرهم الاسلام ، واستنكروا كل ما من شأنه أن يسلبها من المجتمع ، لأنها أساس كيان الانسانية ، ودعامة استقرار المجتمع على قواعد ثابتة لا تتزعزع أمام عواصف الدهر وتقلبات الأيام .

ومما يدل على سماحة الاسلام ، أن الرسول ﷺ عقد مع نصارى نجران عقدا مع بقائهم فى أماكنهم ، واقامتهم فى ديارهم ، دون أن يكون معهم أحد من المسلمين وقد تضمن هذا العهد حمايتهم والحفاظ على

---

(٣٠) البقرة : ٢٥٦ . (٣١) الكهف : ٢٩

(٣٢) يونس : ٩٩

حرياتهم الشـــخصية والدينية ، واقامة العدل بينهم ، والانتصاف من الظالم • وقام الخلفاء من بعده على تنفيذه حتى عهد هارون الرشيد فأراد أن ينقضه فمنعه محمد بن الحسن صاحب الامام أبى حنيفة ، وفى هــذا دلالة واضحة على روح التسامح فى معاملة غير المسلمين ، اذ حافظ على حرياتهم فى العبادة ، وفى اقامة شعائرهم الدينية من غير تضييق عليهم ، ولا تعكير صفو الجو الروحى لطقوسهم الدينية ، لأنه احترمها ، واتخــذ من الاجراءات ما يحمى قداستها •

فتقديس الاسلام للحرية من أهم معالم العالمية ، لأنه فتح بذلك الباب على مصراعيه لكل الناس ، لينضووا تحت لوائه دون خوف أو وجل ، ويستظلوا بظله ، من غير أن يشعروا بالغربة ، أو يحسوا بأن مبادئه تصطدم مع طبيعتهم ، فكل انسان يجد مبتغاه ، ما ذام ملتزما بالقواعد الاجتماعية ، ومنفذا للقوانين التى تحافظ على الفرد والمجتمع ، لا فرق فى ذلك بين من آمن به ، ومن ارتضى العيش فى ظل دولته ، اذ لا يضار أحد فى نفسه أو أهله ، أوما يملك ولا يحجر على أحد فى ابداء رأيــه ، أو فى التعبير عن فكره ، ما دام فى اطار المصلحة العامة أو فى المجــال الخاص الذى لا يؤثر على الدولة ، أو الذى لا يلحق ضررا واضحا بالمواطنين •

وقد أدرك المسلمون هذه الروح الاسلامية فعاملوا غير المسلمين معاملة طيبة فى جميع العصور ، من بدء ظهور الاسلام حتى اليــوم ، وكتب التاريخ مليئة بالأحداث التى تظهر هذا الجانب من معاملة المسلمين لغيرهم ممن بقوا على عقائدهم القديمة ، فقد روى أن عمر بن الخطاب مر بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده وقال له : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى • قال : فمـــا ألجأك الى ما أرى ؟ قال : اسأل الجزية والحاجة والسن • فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله وأعطاه مما وجده ، ثم أرسل به الى خازن بيت المال ، وقال له : انظر هذا وضرباءه •• فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم فقراء

المسلمين ، وهذا من المساكين ، من أهل الكتاب ، ثم وضع عنه الجزية •

وقد سار أمراء المسلمين على هذا الدرب فى معاملة أرباب الأديان الأخرى الذين كانوا يعيشون فى الدولة الاسلامية ، فأحاطوهم بالرعاية والعناية ، وحافظوا على حقوقهم وأموالهم ، وكرموهم واستعانوا بهم فى مجالات الدولة المختلفة حتى وصل الأكفاء منهم الى مرتبة الوزارة ، وتلك ظاهرة لم تحدث مع غيره من الأديان ، وما ذاك الا لأنه دين عالمى فتح صدره لكل الناس على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ، فأعطى الحرية للجميع فى التفكير ، وسمح لهم بممارسة طقوس عبادتهم فى ظل دولته ، وتركهم وما يعتقدون ما داموا ملتزمين بالخط العام الذى رسمه الاسلام للدولة •

وأكبر دليل على سماحة الاسلام مع أهل الأديان الأخرى ، قوله تعالى : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** » (٣٣) ••

فلم يجبرهم على اعتناق مبادئه بالقوة كما فعل ذلك أرباب الأديان الأخرى فى حمل مخالفيهم على الايمان بقائدهم ، بل تركهم واكتفى بأن يدركوا أن المسلمين قد أسلموا الوجه لله لا لغيره ، أى أنهم أطاعوه فنفذوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، لعل فى هذا ما يوقظ فى نفوسهم جانب الخير ، فيتبينوا أن المسلمين على صواب فى دعوتهم لهذا الدين ، وذلك أقصى درجات الحرية فى أن يختار الانسان بنفسه ما يريد ، وما يراه صوابا بعد أن تظهر أمامه الحقيقة واضحة •

وأهم من هذا كله فى مفهوم عالمية الاسلام ، تقبله للثقافات الأخرى الغريبة عنه مما يدل على سعة أفقه ، ونظرته العالمية الواسعة الى الأديان

---

(٣٣) آل عمران : ٦٤ •

والأجناس الأخرى فأقام حضارة كبرى ساهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان ، فى كل ناحية من نواحى الحياة ، والفكر : والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والطب ، واللغة ، والتصوف ، وكانت تلك الحضارة تأليفا وتوحيدا، لكل الحضارات قبلها فى : الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

شيد المسلمون على كل هذه الأسس بناء حضاريا ضخما ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهـل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى الى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدرا للحضارة الحديثة ، وقد عبر أحـد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : « ان المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك » .

فالأسلام دين عالمى ، لأنه لم يغرس فى نفوس المسلمين حقدا ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق دينا آخر ، ولم يحرم عليهم التزود بأى نوع من أنواع الثقافات الانسـانية ، ولم يفرض عليهم شـيئا يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية ، ولم يأمرهم باجبار أحـد على اعتناق الاسلام ، فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، ووادیا أمن فيه الناس على أنفسهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا على سـلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا اليه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جو من الحـرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه دينا عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمنا مطمئنا ، يسعى الى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الاسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الانسان ، من حيث هو انسان ، لأنه عبد الله ، الذى أنزل هـذا الدين على محمد ﷺ .

* * *

(د) خلق الله الكون ، وجعل الحركة مبعث الحياة فيه ، فلو توقفت هـذه الحركة لانعدمت الحيـاة كلية ، ومن لوازمهـا التغيير الدائـم اذ لا يستمر شىء على وجـه الأرض على حالة واحدة فى لحظتين ، بل هو

فى تفاعل مستمر ، وتغيير مطرد ، ولهذا نرى أن المجتمعات التى لا تدرك هذا القانون الالهى ، يصيبها الشـلل عندما تبطىء حركتها ، أو تتجاهل حتمية الحـركة التى هى أسـاس التطور والتقـدم ، ومنبع الرقى وبنـاء الحضارات .

ولمـا كان هـذا المبدأ هو أسـاس التقدم المطرد ، فان من المحتم ألا يبقى مظهر من مظاهر الحياة ثابتا ، والا كان عائقا يعوق سير الحياة فى مجراها الطبيعى ، لذا كان لابد للانسـان أن يغير فى أسلوب حياته كى يتلاءم مع سنة التطور ، ويعدل فى قوانينه لتنسجم مع صور الحياة المتجددة وتلبى احتياجات المجتمع التى تنشأ عن التفاعلات المسـتمرة فى الظواهر الاجتماعية ، فان تقاعس أبناء الأمة على القيام بهذا العمل أو اعتقدوا أن ما خلفه الأجداد لهم أمر لا ينبغى تغييره لأنه من الأمور المقدسة التى لا يجوز محوها أو الاستغناء عنها أو تعديلها ، فقد حكموا على أنفسهم بالجمود ، وضربوا بينهم وبين التقدم سياجا يحول بينهم وبين مشاركتهم فى بناء الحضارة العالمية .

وان كان جمودهم على القديم بسـبب عجزهم عن فهم طبيعـة الحياة ، وتخاذلهم عن الاسهام فى حركة التقدم الانسانى ، وقصورهم الفكرى عن التأثير فى مجالات الحياة الفكرية ، فتلك آفة تصـاب بها المجتمعات الانسانية من حين لآخر ، ومرض يفتك بالحيوية الخلاقة التى أودعها الله فى الانسان ، ليقوم بمهمة استخلافه فى الأرض .

ومن رحمة الله بالمجتمعات أن هيأ لها ظروفا تساعدها على التغلب على مثل هـذه الآفات ، وتعينها على الشفاء من هـذا المرض ، لتأخذ مكانها الطبيعى الذى خلقها الله لتؤدى دورها فيه .

وعلى الرغم من قانون التغيير الذى هو طابع الحياة فان هنـاك ظواهر ثابتة تتحرك بهيئتها وطابعها داخل عجلة الزمن التى لا تتوقف عن الدوران ، فهى بمثابة الأعمدة التى تمثل المركز الذى يجمع بأطراف المتغيرات المستمرة فى الظهور والعدم ، ولولا ذاك لانهار كل ما على الأرض أثناء هذه التحولات المستمرة .

ويبدو ذلك واضحا فى النظم والقوانين التى ترسم للمجتمعات طريقها فى الحياة ،وتحافظ على كيان الأمة من أن يصيبه الانهيار والدمار، وتحفظ طابع الحياة التى يتمثل فى الاستقرار ، والأمن ، والسعادة لبنى البشر ، ذلك أنه لو أصيبت هـذه القوانين بالجمود لجمدت الحياة ، وتخلف ركب الحضارة الانسـانية ، ولو خلا كلية من عناصر ثابتة ، ومبادىء مستقرة ، لأصيب المجتمع بحمى التغيير السريع ، والتبديل المسـتمر ، الذى لا يهدأ ولا يسـتقر ، فترتبك الحياة وتضـطرب ، وتختلط الأمور وتتشابك ، فتقع العقول فى حيرة وتصاب الأمة بالشلل ، اذ تعجز عن تحديد مفاهيم ما يدور حولها ، فما كان بالأمس صالحا أصبح اليوم طالحا ، وما تمسكت به فى الماضى القريب لاعتقادها أنه مناسـب لحياتها تستنكره اليوم وتنظر اليه بعين الاستهزاء والسخرية .

ولهذا كان لابد من أن تشتمل النظم والقوانين على مبادىء كلية ثابتة لا تتغير ، حتى يكون للحياة استقرارها ، ولسلوك الناس فى حياتهم الاجتماعية أسس لا تتغير ، ومبادىء كلية لا تتبدل ، ولا يمكن للعقل البشرى أن يضع مثل هـذه النظم والقوانين ، لأن امكاناته الذهنيـة مرتبطة بعصره ومحددة باقليمه ، لذا كان لابد لتحقيق هذين العنصرين ، وهما عنصر الثبات فى المبادىء الكلية ، وامكانية التغيير فى التفاصيل الفرعية لمواجهة التغيير المستمر من أن يكون قدرة واضع هذا القانون الذى يشتمل على هذين العنصرين غير محددة الزمان والمكان ، ليستطيع وضعه كاملا دون أن يصيبه خلل أو ضعف ، أو يطرأ عليـه فى وقت ما عـدم ملاءمة الظـروف المتغيرة ، ولا يقـدر على ذلك الا اللـه سـبحانه وتعالى .

فلقد أنزل الله التشريع الاسلامى على محمد ﷺ ، متطابقا مع نظام الكون ، منسجما مع كل ما يطرأ من تغييرات أو يظهر على سطح الحياة من ظروف متجددة ، ذلك أنه تضـمن قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور ، وتتمشى مع ما ينبغى أن تكون عليـه الحياة من الاستقرار أو تتفق مع الظواهر التى يشترك فيها جميع الأجناس البشرية ، ومع

ذلك فقد تركت التفاصيل والتفريعات لعقل الانسان يستخلصها حسب عصره وبيئته ، ويستنتجها طبقا لمتطلبات ظروفه المحيطة به بحيث يلبى احتياجات العصر ، وفى الوقت نفسه لا تخرج عن الخط الرئيسى الذى رسمه الاسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع أو كدستور يتخذه الناس قاعدة تشريعية أصلية ، ينبثق عنها كل ما يقررونه من قوانين ، وما يرسمونه لأنفسهم من لوائح ونظم .

فالقضايا الكلية فى الاسلام هى قواعد التشريع الأساسية التى تصلح لكل شعب ، وتلبى احتياجات كل المجموعات البشرية على اختلاف ألوانها وأجناسها ، وتتناسب مع كل عصر وبيئة اذ يتخذها الجميع أساسا يستنتج منه أحكام لكل القضايا ، وعلاج لكل المشاكل التى تواجه الانسان والمجتمعات ، فكانت هذه المبادىء الرئيسية فى التشريع أساسا للاجتهاد فى مجال الأحكام الشرعية الذى بمقتضاه تكونت المذاهب الفقهية فزخرت بالأحكام والتفريعات التى كانت منها فروض مقدرة الحدوث فى الأزمان المستقبلة .

فكان هذا العمل فى مجال التشريع ، دليلا على مرونة الفقه الاسلامى وصلاحيته لمواجهة الأحداث التى تظهر ، نتيجة لديناميكية الحركة فى مجالات الحياة المختلفة ، وعنصرا جوهريا فى مفهوم عالمية الاسلام .

فقد جاء فى القرآن الكريم آيات كثيرة رسمت قضايا كلية فى مجالات الحياة المتعددة ، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : **« وأمرهم شورى بينهم »**[٣٤] ..

فهذه قضية توضح أن الاسلام يحث على ألا يكون الأمر فى المجتمع ديكتاتوريا ، بل ينبغى أن يقوم على أساس الشورى ، ولم يحدد لهذه الشورى صيغة معينة ، بل تركها لظروف كل عصر ، وطبيعة كل بيئة .

كذلك لم يحدد فى قوله تعالى : **« قل من حرم زينة الله التى أخرج**

---

(٣٤) الشورى : ٣٨ .

لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا »(٣٥) أنواع الزينة ، أو أشكالها وهيئاتها ، بل ترك ذلك لمقتضيات الزمان والمكان ، بشرط ألا يكون فى ذلك اقتراف لمعصية ، أو تناول خبيث ، كما فى قوله تعالى : **« ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »**(٣٦) ..

فهذه وأمثالها أمور كلية وضعت الأساس الذى يحفظ كيان المجتمع ، وحددت الاطار الذى يتحرك بداخله الفقهاء والمشرعون لمواجهة متطلبات العصر والبيئة .

وخلاصة القول : ان الاسلام جاء موافقا لقوانين الحياة ، فرسم قواعد ثابتة ، وترك التفصيلات والتشريعات للفقهاء ، لتكون مجالا للاجتهاد والاستنباط ، سعيا وراء الصيغ القانونية التى تلائم بيئاتهم وعصورهم ، وعلى هذا الأساس وجهت الدعوة الى كل من على وجه الأرض ليدين بالاسلام ، لأنه النظام الوحيد الذى يوافق طبيعة الحياة وحركتها المستمرة ، ويتلاءم مع ما تتطلبه من قواعد ثابتة ، تقوم عليها هذه المتغيرات ، كى لا تنهار أو تتبدد معالمها ، وسط هذا السيل الجارف من الأحداث المتجددة .

فدعا رسول الله ﷺ الناس كافة الى الدخول فيه قائلا : **« يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا »**(٣٧) ..

كما بعث بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، فقد قالوا : ان رسول الله ﷺ لما رجع الى المدينة من الحديبية ، فى ذى الحجة سنة ست ، أرسل الى الملوك ، فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، فبعث كتابا الى النجاشى ملك الحبشة ، والى هرقل عظيم الروم ، والى المقوقس عظيم القبط ، والى كسرى عظيم فارس .

وأرسل كذلك الى غيرهم على حدود الجزيرة العربية ، فأرسل الى

---

(٣٥) الاعراف : ٣٢ .
(٣٦) الاعراف : ١٥٧ .
(٣٧) الاعراف : ١٥٨ .

أهل نجران وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض يدعوهم الى الاسلام ، وأنه رسول الله الى الناس كافة ، وبهذا وجه الأمة من بعده الى فكرة الدعوة الى الاسلام ما وجدوا الى ذلك سبيلا .

وسار المسلمون من بعده على هذا النهج ، فحملوا الاسلام الى الناس قاطبة فى جميع أركان المعمورة ، وما زالوا ينادون الناس فى كل مكان ، مبينين لهم أن الاسلام لا يختص بجيل دون آخر ، وليس لطائفة دون غيرها من الطوائف ، ولم يكن دين شعب بعينه ، بل هو دين الناس كلهم .

ولهذا جاء مطابقا للقانون الأساسى فى حياتهم ، وملائما لأسلوب معيشتهم فى كل زمان ومكان .

* * *

٢ ـ الاسلام والحضارة

(أ) جاء الى أحد المسلمين الذين يعيشون فى بلد متحضر ، يشكو ويتألم من أحوال المسلمين فى البلاد الاسلامية ، ولما سألته عن سبب شكواه وتألمه قال لى :

● انى أعيش فى احدى البلاد المتحضرة ، وكلما حاولت أن أقوم بواجبى كمسلم فى الدعوة الى الله وبيان تعاليم الاسلام السمحة وشرائعه فى تكوين المجتمعات الانسانية على أسس سليمة ، قوبلت باعتراض ، لا أستطيع الرد عليه •

ـ وما هو هذا الاعتراض ؟

● يربط كثير من الناس بين واقع الشعوب الاسلامية ، وما فيها من فوضى وتخلف ، وبين الاسلام ، ويظنون أن الاسلام هو السبب فى كل ما يدور فى الشارع الاسلامى ، فالفوضى فى النظام ، واختلاط الحابل بالنابل فى شوارع المدن الاسلامية ، له آثار بعيدة المدى على الدعوة الاسلامية •

فأنت اذا سرت فى الطريق ، لا تجد مكانا تسير فيه ، وانما تقفز قفزا ، لتتخطى أحجارا وكراسى ومعوقات بشرية تجلس فى الطريق ، فلا تعرف أين حدود المشاة ، ولا أين مسار المركبات ، فالماشى يتخذ طريقه بجوار السيارة فى عرض الطريق ، والسيارة تقف على الرصيف سالبة حق المشاة •

واذا فتحت الاشارة وجدت عجبا !! فمن تسمح له الاشارة بالسير ، يقف عاجزا لأن من لا تسمح له قد أخذ حقه واعترض سبيله ، وينتج عن هذا أن الزائر الأجنبى يقف عاجزا مذهولا أمام هذا التخبط والتشابك ، بين مشاة ، يقفزون قفزا فوق السيارات وبين المركبات ، أو سيارات وعجلات بمختلف أنواعها بين بطىء وسريع ، ويدوى وآلى تتدافع وتتزاحم ، ويحاول أن يجد تفسيرا لهذه الفوضى التى لا مثيل لها فى بلده ، فلا يجد سوى أن المعتقدات التى يدين بها

هـذا الشعب هى السبب فى هـذه الفوضى ، ثم تسرع أفكاره فتمده بالنتيجة : ألا وهى أن الاسلام هو السبب فى هذه الفوضى ! ..

فكيف تصحح له هذا الاعتقاد الخاطىء ؟ ..

— هذه هى احدى المشاكل التى تقابل الداعية خارج العالم الاسلامى، ولكن لا يجوز للمسلم أن يقف أمامها مشلولا عاجزا عن التفكير فى كيفية تصحيح هـذه الصورة الخاطئة ، بل يحاول عرض المبادىء الاسلامية من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، ثم يبحث عن تفسير علمى واقعى لعدم تطبيق هـذه المبـادىء فى المجتمع الاسـلامى، بحيث يقتنع غير المسلم عقليا أن الاسـلام لا ذنب له فيما تعانيه المجتمعات الاسلامية من أمراض ، بل العكس هو الصحيح أن الأمراض الاجتماعية ما تفشت بين المسلمين الا من يوم أن نسـوا تعاليمه ، وأداروا لهـا ظهورهم .

وخذ على سبيل المثال ما ذكرته من الفوضى ، التى تسيطر على سلوك المسلمين وأضف اليه ما نراه — ويراه الأجنبى معنا — من اختفاء النظافة فى مجتمعنا ، فأنت ترى القاذورات فى كل ركن ، وعلى كل رصيف ، وفى قارعة كل شـارع ، ويضاف اليها أيضا عدم احترام المواعيد ، سواء بين الأشخاص ، أى فى العلاقات الفردية ، والاجتماعية ، أو على المستوى الرسمى ، أى فى وسـائل الخدمات العامة ، سواء أكانت مواصلات ، أو غيرها من الأمور التى تتعلق بالجمهور .

هذه الظواهر الثلاث ، هى من علامات تخلف المجتمعات الانسانية ، فأينما وجدت شعبا لا يعرف النظام ، ولا يحافظ على النظافة ، ولا يلتزم بالمواعيد ، فاحكم عليـه بالتخلف لأن هـذه الأعراض دليل على مرضه ، والمريض لا يستطيع أن ينتج فى المجالات الأخرى ، وبالتالى لا يمكنه أن يبنى حضارة ، وعلى العكس من هـذا ، فأى مجتمع يحافظ على النظام والنظافة ، ويلتزم بأداء الواجبات فى مواعيدها ، فهو شعب متحضر ، قادر على الاسهام فى بناء التقدم الانسانى .

ولهذا عنى الاسلام بتربية المسلم تربية تجعله يؤدى من الأعمال ما يجعله يميل تلقائيا الى حب النظام ، والتمسك بالنظافة ، والالتزام بأداء الواجبات فى مواعيدها المقررة .

● كيف ذلك ؟

— سوف أبين لك هذا المعنى فى الحديث القادم ان شاء الله ، فحتى هـذا الحين أستودعك الله ..

* * *

(ب) وصلنا فى حديثنا السـابق عن ظواهر الحضارة ، الى أن هناك ظواهر ثلاث لو وجدت فى مجتمع لدل ذلك على أنه شـعب متحضـر له القدرة على الاسهام فى بناء الحضارة الانسانية فى جميع مجالاتها المـادية والروحية .

وهـذه الظواهر الثلاث هى :

النظام ، النظافة ، احترام المواعيد ..

● فهل حث الاسلام المسلم على الالتزام بما يؤدى الى ظهور هذه الأعراض فى المجتمع الاسلامى ؟

وكيف كان أسلوب التعاليم الاسلامية فى حمل المسلم على التحلى بهذه الصفات الثلاثة ؟

هل اقتصر على الوصايا النظرية ، أم فرض من الواجبات العملية ما يساعد على غرسها فى نفس المسلم ، لتصبح أشبه بالعادات التى لا تنفصل عن غرائزه ، وبالتالى يؤديها تلقائيا دون رقيب ، ويحافظ عليها فى كل لحظة ، بحيث تصبح جزءا من تصرفه الغريزى ؟ .

— فلنأخذ أولى هذه الصفات ، وهى صفة النظام ، ولنبحث فى تعاليم الاسلام عما يحث عليـه .

ان الاسـلام حث على النظام بأسلوب لا يوجد مثيل له فى أى نظام تربوى فى العالم ، اذ عندما فرض الصلاة خمس مرات فى اليوم ، قرنها بما يغرس حب النظام فى نفس المسلم ، فنحن نسمع الامام عند اقامة الصلاة ، يقول للمأمومين :

« سووا صفوفكم ، فان تسوية الصفوف من تمام الصلاة ، ان الله لا ينظر الى الصف الأعوج » •

فلو فهم المسلمون ما تدعو اليه هـذه الجملة لأصبحوا أكثر الأمم حفظا للنظام ، وأشدهم حياله ، ولصار لهم نظام لا يضارعه أى نظام فى العالم ، وذلك أن المسلم اذا أدرك أن شروط قبول الصلاة أن تؤدى تامة — وهو ما يتمناه ، ويرجو من الله أن يقبلها — لحرص على ألا يقف فى الصلاة وهو متقدم عن جاره سنتيمترا واحدا •

واذا أدرك هـذا المعنى ، حاول جاهدا أن يقف مساويا لمن يجاوره فى الصف •

واذا عرف أن الله لا ينظر اليه اذا كان وقوفه غـير مسـتو فى الصلاة ، حرص حرصا شديدا على أن يكون الصف فى الصلاة مستويا استواء لا عوج فيه •

فاذا فعل ذلك فى اليوم خمس مرات ، تعوّد عليـه ، فيتعمق الاحساس بالنظام فى نفسه ، فيحبه ، ويحرص عليـه ، بل لا تتعود عينيه الا عليـه ، فاذا رأى غيره أحس بالضيق والضجر ، وثارت نفسه ، فلا تهدأ الا بتصحيح ما يراه خطأ ، وذلك هو منتهى الدقة فى النظام والمحافظة عليـه ، فاذا وصل مجتمع الى هـذه الحالة ، لا تجد منه الا حياة منظمة فى سلوكه وشوارعه •

فلو فهم المسلمون تعاليم الاسلام ، وأدركوا مغزاها فى هـذا الجانب ، لساد النظام شوارعهم ، ولشمل الانسجام حياتهم ، ولرأيت كل فرد يأخذ طريقه الصحيح فى الشـارع ، دون تزاحم وبغير تدافع بين العربات والمشاة ، ودون أن تتصادم المركبات فالكل يعرف مساره ، والكل يلتزم حدوده •

ألا ترى معى ، أنه لو حدث هـذا ، لكان ذلك من أكثر الوسـائل فى الدعاية للاسـلام ؟

فيا أيها المسلمون : لا تسيئوا الى دينكم ، ولا تشوهوا مظهر الاسلام في مجتمعاتكم ، فالتزموا النظام الذى دعا اليه الاسلام ، وحث عليه ، وذكركم به فى صلواتكم الخمس ، حتى تكونوا صورة حسنة للاسلام أمام من يراكم من غير المسلمين ، لعل الله يشرح بذلك صدورهم للاسلام .

وفقكم الله لما فيه الخير للاسلام والمسلمين .

* * *

(جـ) بعد أن وضحنا فى الأحاديث السابقة ، مظاهر الحضارة الثلاث : وهى النظام ، والنظافة ، والالتزام بالمواعيد ، وبينا كيف حث الاسلام على النظام ، ودعا اليه ، وفرض من وسائل العبادات ، ما يغرس حب النظام فى النفس ، الى درجة أن يصبح من الغرائز التى لا يتخلف عن أدائها انسان ، فيصبح من العادات الاجتماعية التى لا يهملها الناس فى حياتهم الاجتماعية .

سنتناول فى حديثنا اليوم ، موضوع النظافة ومكانها فى الاسلام ، ومدى أهميتها فى أركان العبادات الاسلامية .

وقبل أن نخوض فى هذا الحديث ، أحب أن أشير الى أن مظهر الشعوب الاسلامية فى هذا الجانب يسىء الى الاسلام ، فأكوام القمامة التى تلقى فى شوارع كثير من العواصم الاسلامية ، تسىء الى الاسلام اساءة بالغة ، ذلك لأن السائح الأجنبى يربط بين المظهر العام للمجتمع وبين الاسلام ، كما بينت ذلك فى حديث سابق ، فلو كانت شوارعنا نظيفة ، لكانت دعوة غير مباشرة الى الاسلام ، ولو رأى غير المسلم ما يؤذى العين ، ويشوه جمال المدينة من قاذورات وفضلات فى كل ركن من أركان الشارع لكان ذلك تنفيرا وصدا للأجنبى عن قبول الاسلام كنظام يربى المجتمع فى هذا الجانب .

● فهل أهمل الاسلام الدعوة الى النظافة ، فخلت تعاليمه وأساليبه التربوية مما يدعو اليها ، ويغرس حبها فى نفوس المسلمين ؟

أم دعا اليها وحث عليها ؟

وما هو أسلوب الدعوة اليها ؟

أهو أسلوب جانبى فرعى ، أم جاءت الدعوة الى النظافة فى صلب تعاليمه فاحتلت ركنا أساسيا فى العبادات وكانت جزءا مما يكرر كل يوم حتى تصبح النظافة عبادة وغريزة فى نفس المسلم ، لا يمكن اهمالها أو التفريط فيها ؟

— تعالوا معى لننظر ما فى السلام من أركان تربى فى المسلم حب النظافة ، وتؤكد أهميتها فى نفسه : فرض الاسلام الوضوء ، كشرط أساسى لصحة الصلاة . وهو كما أنزله الله فى كتابه العزيز عبارة عن غسل اليدين الى المرفقين ، والوجه ، والرأس ، والرجلين ، يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين »**[1] ..

هذا بالاضافة الى سنن الوضوء وهى : المضمضة والاستنشاق ، ومسح الأذنين .

وبعبارة مجملة فالوضوء هو : غسل وتنظيف جميع الأطراف التى تتعرض فى كل لحظة للأتربة العالقة فى الجو .

كذلك اشترط فى صحة الصلاة : نظافة البدن ، والملابس ، وخلوهما من النجاسة وكذلك طهارة محل الصلاة .

كما وصى الاسلام أيضا بالغسل يوم الجمعة قبل الذهاب الى المسجد ، وفرضه للتطهر من الجنابة ، كذلك ذكرت كلمة الطهارة ، ومشتقاتها فى القرآن الكريم أكثر من خمس وعشرين مرة ، كل ذلك اشارة وتلميحا الى وجوب المحافظة على طهارة البدن ، والملابس ،والمكان

فلو أدرك المسلمون ما ترمى اليه هذه التعاليم ، وما تدعو اليه لكانوا أكثر الأمم محافظة على النظافة ، ذلك أن من يلتزم دينيا بتنظيف نفسه فى اليوم خمس مرات ، وتنظيف مكانه حتى لا تصاب ملابسه

---

(١) المائدة : ٦ .

بأذى فتفسد صلاته ، تصبح عادة المحافظة على نظافة نفســه وعلى من حوله من أماكن عادة متأصلة عنده ، لا ينفك عنها ، ولا يهمل النظافة اطلاقا بل أكثر من هــذا تراه يفر من الأماكن القذرة ، حتى لا تصاب ملابسه فتفســد صلاته ، ويســتنكر كل ما من شأنه أن يلوث المكان الذى يمر به ، أو يجلس فيه ، ويقاوم كل من يهمل فى النظافة ، فاذا وصل الأمر الى هــذا الحد وجدت العواصم الاسلامية نظيفة ، بل لرأى زائرها أنها أكثر المجتمعات الانسانية محافظة على النظافة .

ومن هذا يتبين أن ما يشاهد فى بعض العواصم الاسلامية من اهمال للنظافة هو نتيجة عدم فهم المسلمين لتعاليم الاسلام التربوية .

فيا أيها المسلمون : كونوا نماذج صالحة للدعوة الى الاسلام ، وذلك بالمحافظة على النظافة ، تنفيذا لروح التعاليم الاسلامية .

يروى أن رســول الله ﷺ ، ذم ذات يوم الكبر والمتكبرين ، فسأله رجل قائلا : يا رسول الله .. انى رجل أحب ان أكــون نظيفا ، وثوبى نظيفا ، أفى ذلك كبر ؟ فقال له رســول الله ﷺ : « لا .. ان الله جميل يحب الجّمال » ..

فمن يحافظ على النظافة ، يحبه الله ورســوله ، لأنه طبق روح التعاليم الاسلامية ، ومن يهملها غضب الله عليــه ، لأنه بهيئته غــير النظيفة أعطى مثلا ســيئا للمجتمع الاسلامى ، مثلا ينفر غير المسلمين من التقرب الى الاسلام .

فحافظوا أيها المسلمون على نظافة أبدانكم ، وملابسكم ، ومساكنكم ، وشوارعكم ، تضربون المثل الأعلى للاسلام فى دعوته وحثه على ما يعود على البشر بالخير والســعادة .

وفقكم الله لمــا فيه الخير .

* * *

(د) بعد أن انتهينا فى الأحاديث الســابقة من بيان موقف الاسلام من النظام ، والنظافة وهما من المظاهر الأساسية للحضارة ، وبينا : كيف

فرض الاسلام من العبادات ما يغرس هاتين الصفتين فى نفوس المسلمين ، بحيث لو فهمها المسـلم وأداها كما يجب أن تكون ، لأصبحت النظافة والنظـام من عاداته التى لا يستطيع اهمالها ، بل لصارت من الغرائز التى يؤديها تلقائيا ، دون مشقة أو ميل الى التخلى عنها ٠

واليوم نريد أن نتحدث عن المظهر الثالث من مظاهر الحضارة ، ألا وهو : احترام المواعيد ، وبتعبير آخر : الدقة فى تأدية الأعمال فى مواعيدها ، والالتزام بما يعلن من جداول زمنية فى جميـع مجالات النشـاط الاجتماعى ٠

● كيف يكون ذلك من مظاهر الحضارة ؟

— ليس هذا من مظاهر الحضارة فقط ، بل من أهم الركائز الأساسية — ان لم يكن أهمها — التى يقوم عليها بناء الحضارة الانسانية ، ذلك أن الانتهاء من تجهيز السلع فى مواعيدها يسهل أمورا كثيرة فى مسيرة التقدم الحضارى ، وتأخيرها يشيع الارتباك فى سير عجلة التقدم ، اذ أن ما يترتب على هـذا التأخير يصاب بالعجز والشلل ، فتعجز الأمة عن التقدم فى طريق بناء حضارتها ٠ وقل مثل ذلك فى تأخير القطارات ، والمركبات العامة ، ومصالح الناس فى دواوين الحكومة ، وبين مكاتب الشركات ولادراك مدى أهمية هـذا الجانب فى حياة الأمم والشعوب ، يكفيك أن تتصور مثالا بسيطا ، يتصل بك اتصالا مباشرا ، تخيل أنك وضعت برنامجا لانجاز بعض المهام الخاصة ، ورتبته ، وحددت لكل عمل زمنا معينا ، يترتب اللاحق فيه على انجاز الصادق ، وبدأت فى انجـاز هـذه المهمة جزءا جزءا ، فلو تعثر انجاز احداها بسبب تراخيك، أو اهمال بعض الذين يعاونوك فى أداء هذه المهمات ، لارتبك كـل ما يلى هـــذا الذى تأخر انجازه ، وربما ينتج من هـذا الارتباك انهيار البناء كله ، ويحتاج هـذا الى وقت مضاعف لاعادته مرة ثانية ، مما يؤخر الانتاج ، وبالتالى يعيق التقدم الحضارى ٠

وقس على هـذا كل تأخير فى جميـع المجالات ، فالتأخير فى

القطارات ، والاهمال فى المواصلات داخل المدينة ، وبينها وبين المدن الأخرى ، والبطء فى انجاز أعمال الناس فى دواوين الحكومة ، كل هذا يصيب المجتمع بالشلل ، فيعجز عن الحركة ، ويتأخر عن ملاحقة الأمم المتقدمة ، وهـذا هو الداء العضال ، الذى أصيبت به معظم المجتمعات الاسلامية ان لم يكن كلها • وينسبه أعداء الاسلام الى الاسلام وهو منه براء ، بل وضع من التشريعات ما يعود المسلم على احترام المواعيد وانجاز الأعمال فى أوقاتها المحددة ، وأزمانها المرسومة لها ، فانظر مثلا الى الصلاة ، لم يترك الله الفرد يؤديها متى شاء وكيف يشاء ، بل وضع لها زمنا محددا لو لم تؤد فيـه لخرجت عن وقتها ، وفى ذلك ذنب ، بل أن بعض الفقهاء أفتى : بأن الله لن يقبل الصلاة ، التى تؤدى خارج وقتها بسبب الاهمال •

أليس فى ذلك حمل للمسلم على أن يتعود أداء الأعمال فى وقتها المحدد دون ابطاء أو تأخير ، فقـد روى أن أفضل الصـلاة ما أدى فى أول الوقت ، وهـذه اشـارة الى عدم التأجيل فى الأعمال ، فلو أن المسلمين أدركوا مغزى هذا التشريع لكانوا أشد الأمم دقة فى انجاز الأعمال فى أوقاتها المحددة ، فتوبوا الى الله أيها المسلمون ، ولا تهملوا فى انجاز الأعمال فى مواعيدها ، حتى تظهروا بمظهر المسلمين المخلصين لدينهم ، فتصبحوا نماذج متحركة ، تدعو غير المسلمين بطريق غير مباشر الى الدخول فى الاسلام ، لأن سلوككم الطيب فى هـذا المجال ، سوف يحمل غير المسـلمين على التفكير فى اعتناق هـذا الدين الذى يربى أتباعه هـذه التربية التى تعود على المجتمع بالخير والسعادة •

* * *

(هـ) اذا حدد العلماء معنى كلمة الحضارة بأنها : مجموع ما خلفته الأمة من آثار فـكرية وفنيـة فى جميع المجـالات المادية والمعنـوية فان الأمة الاسلامية قد فاقت كل الأمم السابقة واللاحقة فى هذا المجال •

اذ أبدع المسلمون فى جميع نواحى الحياة ، فأسهموا بقسط وافر فى بناء حضارة انسانية داخل اطار أخلاقى متين •

● كيفَ ذلك ؟

— **تعال معى** ، لنستعرض فى ايجاز معالم الحضارة الاسلامية فى المجالات المختلفة • ولنبدأ بمجال التعليم الذى هو اللبنة الأولى والأساسية فى بناء أى حضارة ، فقد أنشأ المسلمون المدارس ، والأكاديميات العلمية فى وقت نشر الجهل أجنحته فى جميع أرجاء الأرض ، فانتشرت المدارس الاسلامية ، منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق العالم الاسلامى ، من الأندلس عبر أفريقيا حتى بلاد فارس ، وكانت المدارس العليا فى الأندلس منبعا أمد الحياة الثقافية الأوروبية بروافد حملت معها الخصوبة الفكرية التى هى أصل الحضارة الغربية الموجودة الآن •

وفى مجال الهندسة توصل العلماء المسلمون الى رسم كتابة الأعداد ، فكان أساسا للرسم الأوروبى الحالى للأرقام الحسابية ، وظل الجدول الفلكى الذى وضعوه هو المرجع الوحيد لعلماء أوروبا لمدة قرون •

وفى مجال الطب ، وصل المسلمون بفن العلاج الى مستوى الكمال ، فأنشأوا أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم ما لبث أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية ، وكان أشهرها « بيمارستان » دمشق ، حيث توجه اليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية ، كما أمه الطلاب للتدريب على ما يحتاجون اليه فى امتحاناتهم •

وكانت رعاية المرضى سببا فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية ، ذلك المجال الذى أصبح فى ذلك الوقت علم المسلمين الذى لا ينازعهم فيه أحد ، اذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيرا من الأعشاب فى علاج المرضى ، فأثروا هذا المجال باختراعاتهم العديدة ، كما ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب الاسلامى ، ثم انتقل هذا كله عبر أسبانيا الى أوروبا فكان أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون •

● أراك تركز دائما على أن الحضارة الاسلامية هى منبع الحضارة الحالية ، فهل يعترف الأوربيون بذلك ؟

— يعترف كثير من علماء أوروبا بذلك ، وان أردت دليلا فاسمع ما قاله « جوتشـــالك » فى كتابه « الاسلام قوة عالمية متحركة » ..

● وماذا قال ؟

— قال « جوتشالك » : « أسهم الشرق الاسلامى منـذ القرن الثامن الميلادى فى الحضارة العالمية بانجازاته الضخمة فى مجالات المعرفة ، ولم يتوقف تأثيره عند قرن معين ، بل ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر القرون حتى عصرنا الحالى ، اذ امتد التأثير الفكرى لهذه الحضارة — حتى بعد التدهور السياسى للدولة الاسلامية — فى جميع أنحاء العالم ، فأنتج فى مجالات عديدة لم تبحث جوانبها حتى الآن » ..

ثم يقول : « لو لم يقم العرب بهذا المجهود الضخم فى مجال المعرفة ، لفقدنا كثيرا مما نتمتع به الآن فى عالم الثقافة من العـلوم والمعارف ، أو لتأخر على الأقل انتفاعنا دهورا طويلة ، فقد وصلت الحضارة الاسلامية الى أوروبا عن طريق أسبانيا ، فدفعتها الى تطور ذاتى فيما بعد .

● تحدثت عن جهود المسلمين فى مجال المعرفة ، ولم تبين لنـا انجازاتهم فى عالم الصـــناعة والفن ، وهى مرحلة تالية للثقافة فى كل حضارة .

— ذلك سيكون موضوع حديثنا فى المرة القادمة ان شاء الله .

* * *

(و) تحدثنا عن بعض ملامح انجازات الحضارة الاســـلامية فى مجالى المعرفة والطب ، ورجوتك أن تبين لنا ملامح الفن والصـــناعة فى الحضارة الاســـلامية .

— نعم .. استلهم الفن الاسلامى أفكاره من الفنون السابقة له ، ولكن ما أخذه من هذه الفنون المختلفة أعاده فى شكل اتخذ طابعا مختلفا كل الاختلاف عن أى فن سبقه ، فقد عبر عن اتجاه اسلامى خالص ، وحمل بصـــمات الروح الاســـلامية التى تخضع لارادة الله الذى حدد فى اللوح المحفوظ مصير العالم ككل ، وقدر لكل كائن حى قدره

على حدة ، فما يباشره الانسان من أعمال هي في واقع الأمر منسوبة الى الله •

وفي داخل هذا الاطار ، أنتج المسلمون فنا رائعا ، يستطيع كل انسان ادراكه في المساجد حيث زينها الفنانون برسومات رائعة وزخرفوها بأشكال في غاية الروعة والاتقان بهرت — وما زالت تبهر — كل من شاهدها حتى عصرنا الحاضر • وان دل ذلك على شيء ، فانما يدل على ذوق واحساس بالجمال ، يضاهي — ان لم يفق — ما ينسب الى العالم المتحضر اليوم باعتباره من السمات الأساسية للتقدم في المجتمع وازدهار حياة الفرد فيه •

أما في مجال الصناعة ، فقد برع المسلمون في العديد منها ، اذ بلغت صناعة النسيج الفاخرة عصرها الذهبي في عهد الدولة الصفوية ، عندما طلبت قصور أوروبا ذلك النوع المرصع بالذهب والفضة من أصبهان ، وظلت تستورده منها ابتداء من عام ١٥٠٢ على امتداد مائتين وخمسين عاما •

كما احتلت صناعة السجاد على امتداد التاريخ الاسلامي مرتبة عالية ، وظل الشرق حتى اليوم أكبر مورد سجاد للعالم ، وكان السجاد التركي أوسعها انتشارا في العهد العثماني ، ولا زال مطلوبا في كل أنحاء العالم حتى اليوم بجانب الفارسي والقوقازي •

كذلك أنجزت البلاد الاسلامية في مجال صناعة المعادن انجازات رائعة ، كما كانت بلاد فارس وطن صناعة الكريستال والزجاج ، ثم انتشرت في جميع البلاد الاسلامية ، كما ازدهر فن العاج في الأندلس وصقلية ، ثم انتشر من هناك فعم جميع البلاد الاسلامية ، ولا تنس صناعة الأخشاب ، ويكفيك دليلا على هذا رؤية ما في المساجد من أشكال هندسية رائعة للمنابر ، ومشاهدة ما في القصور والمتاحف من شرفات وأبواب وشبابيك ، تكاد تنطق من فرط روعة أشكالها الهندسية ، ولا تسل عن الفن المعماري الاسلامي ، فالمساجد والقصور تنبئك عن الكثير منها •

وأظن أن هـذا كافيا فى اعطائك صورة مصغرة جـدا للحضارة الاسلامية ، وقد اضطررت الى الايجاز الشديد لضيق الوقت .

● أرجو ألا تترك هذه النقطة قبل أن تبين لى مدى قدرة المسلمين على تسويق منتجاتهم ، لأن هـذا يلقى ضوءا على ما يلاحظ اليـوم من تفوق الأوروبيين علينا فى مجال التسويق والتجارة .

— يجب أن تعلمْ أن المسلمين كانوا متفوقين فى المجال التجارى ، يشهد بذلك أحـد الأوروبيين فى معرض حديثه عن ازدهار التجارة فى العالم الاسلامى فى عصر لم يكن لها أثر يذكر فى أوروبا ، فقد قال بالحرف الواحد :

« بينما كانت الطبقات الحاكمة فى أوروبا تنظر الى التجارة نظرة ازدراء واحتقار سيطر العالم الاسلامى على شئون التجارة ، فأصبح التبادل التجارى محتكرا فى أيدى المملكة الاسلامية . اذ لم يكن بين أقطارها الشاسعة حواجز جمركية ، ولا حدود مانعة أمام تبادل البضائع اللازمة لضرورة الحياة ، فازدهر الاقتصـاد فى ظل قواعد التجـارة وشـئون المواصلات التى بلغت حد المثالية لدرجة أن النشاط التجارى سار فى البر والبحر بأقصى سرعة دون هدوء أو توقف ، واستطاعت العقلية التجارية عند التجار المسلمين فى ذلك الوقت الحصـول على أرباح طائلة » .

لعل هـذه الشـهادة من أوروبى تجيب على ما فى ذهنـك من استفسارات حول هـذا الموضوع .

* * *

(ز) فيم تحب أن نتحدث اليوم ؟ ..

● لقد ذكرت أن الأمة الاسلامية . تفوقت على الأمم السـابقة واللاحقة فى التقدم الحضارى ، مع أننا نرى اليوم أمما قطعت شوطا كبيرا على طريق الحضارة ، فهل يمكن أن توضح لى جانب تفوق الحضارة الاسلامية على الحضارة الحديثة ؟ .

— نعم .. يمكنك أن تفهم ذلك اذا عرفت معنى التقدم .

● وما معنى التقدم ؟ .

— التقدم نوعان : تقدم مادي ، وتقدم انسانى .

فالتقدم المادى : هو ما تراه من اختراعات حديثة وتكنولوجيا متقدمة ووسائل مادية معقدة ، أي هو السيارة التى تستعملها ، والطائرة التى تنقلك الى الأماكن البعيدة فى أسرع وقت وغير ذلك مما تستعمله فى المجالات المادية ، والأمم الحديثة قد تقدمت بلا شك فى هذا المجال تقدما لم يسبق له مثيل .

أما التقدم الانسانى : فهو بلوغ الانسانية سن الرشد فى السلوك والمعاملات ، فلا يستغل الانسان ما أنتجه العلم فى التدمير والتخريب ، بل فى البناء والتعمير ، ولا تسيطر عليه المادية ، فتنبعث فيه حب الذات ، فلا يطغى على حقوق الغير ، ولا يبخل بالعطاء لمجتمعه . فهو انسان سوى بلغ سن الرشد فى علاقاته مع الدولة ، ومع بنى وطنه ، لأن التقدم منحه استقامة فى التفكير ، وفى العواطف ، والسلوك ، فلا يبغى الا الخير فى تجاربه العلمية والعملية وفيما توصل اليه من اختراعات ، وقد توفرت هذه الناحية فى الحضارة الاسلامية فميزتها عن جميع الحضارات التى ظهرت حتى الآن على سطح الأرض .

● ما مدى تأثير التقدم الانسانى على الانتاج المادى للحضارة ؟

— لا يمكن بيان هذا فى الوقت القصير المسموح به لنا ، ولكن سأتلو عليك ما قاله أحد العلماء الأوروبيين ، حول الصلة بين التعاليم الروحية والحضارة المادية ، يقول المفكر الانجليزى هيلير بيلوك Hilere Belloc : **« لا يساورنى أدنى شك ، فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الاسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه .**

ومن الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى : بأن الاسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث .

لا أستطيع أن أدرك ، لمــاذا لم يعوض الشرق الاسلامى ما فاته فى هــذا الميدان ؟

فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة الى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمــام بها والتفوق فيها الى الخبرة وتوجيه الخبراء .

ومن الأمور المؤكدة ، أنه غالبا ما يحدث أن تكون حضارة أخرى ، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى ، أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هــذا المجال ما بلغته الأولى .

اذن ، فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة ، فى المستقبل ســيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره — فلم ينقذه أحد — وتحكمت فى ســلوكه النظريات التى تسلب الانســان الاحساس بالطبيعة . لــماذا لا يتعلم العالم الاســلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هــذا ، سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية — وهى من العوامل الأساسية لوحدة أوروبية — التى فقدتهــا المسيحية ، بينما لم يزل الاسلام يحافظ عليها » .

* * *

٣ ـ عناصر القوة فى الاسلام

(أ) ان عناصر القوة التى وهبها الاسلام للمسلمين كثيرة ومتعددة ، لا نستطيع حصرها فى الوقت الضيق المتاح لنا ، ولذا فاننا سوف نتحدث بايجاز عن أربعة عناصر رئيسية منها فى الوقت الحاضر ، وهى : الموقع الاستراتيجى ، والموارد المادية ، والكثافة البشرية ، والرابطة الروحية بين المسلمين •

أما الموقع الاستراتيجى فيسكن المسلمون منطقة من أهم المناطق فى العالم ان لم تكن أهمها ، ولا توجد منطقة فى العالم تحولت تحولا جذريا بعد الحرب العالمية مثل منطقة الشرق الاسلامى ، التى يسيطر فيها المسلمون على الطريق العالمى الممتد من شمال افريقيا بامتداد شاطىء البحر الأبيض المتوسط الى الهند ، وجنوب آسيا حتى الشرق الأقصى ، اذ لعبت هذه المنطقة ـ ولا زالت ـ دورا هاما على مسرح السياسة العالمية • فقد عرفت أهمية العالم الاسلامى على مدى القرون الطويلة ، ذلك أنه يمثل جزءا من شبكة المواصلات العالمية • لأن الطرق العالمية الكبرى من الغرب الى الشرق الأقصى ، تمر بأرضه ؛ فهو يسيطر عليها ويتحكم فيها ، وبالتالى يلعب دورا هاما فى مسار السياسة العالمية والتجارة الدولية •

لم يحتل العالم الاسلامى مكانا أسمى ، ولا أوضح أهمية ، ولا أحسن وصفا ، مما ناله عندما أقيمت شبكة مواصلات جوية من أوروبا الى الشرق الأقصى • ومنها الى وسط وجنوب القارة الافريقية • فاحتلت مصر ، وهى زعيمة العالم الاسلامى ، بأزهرها ، وتراثها الاسلامى ، المكان الأول فى عالم المواصلات الجوية ، والنقل بالطائرات • لأنها نقطة ربط فى هذا المجال ، ولم ينل أى مكان فى العالم مثل هذه الدرجة • فشركات الطيران العالمية على اختلاف جنسياتها ومذاهبها السياسية ، تجوب أجواء الشرق الاسلامى • وتهبط فى مطاراته المتعددة ، فتربط الغرب بالشرق ، مارة بهذه المنطقة الحيوية بالنسبة للخطوط

الجوية ، التى أصبحت تنافس الطرق البحرية ، فأصبحت البلاد الاسلامية بذلك ركائز الطريق الجوى الى الهند ، واستراليا ، والشرق الأقصى ، وجنوب القارة الافريقية .

لقد أحدثت ثورة المواصلات فى القرن العشرين بعدا جديدا لأهمية العالم الاسلامى بالنسبة للتجارة الدولية ، وجعلته يحتل مركزا هاما وحساسا لجميع دول العالم ، كذلك أضفت على أجزاء العالم الاسلامى المتباعدة الأطراف حيوية ، جعلته ذا تأثير فعال فى مجال السياسة الدولية ، اذ قربت بين أطرافه المتباعدة ، فأصبح صغيرا أو متقاربا مما زاد الشعور بصلة الجوار ، التى تربط المسلمين ، وان تباعدت أوطانهم جغرافيا ، فمن فى بغداد جار لمن فى مكة ، ومن فى طهران جار لمن فى كابول .

لقد أرسى ربط الأقاليم ببعضها ، والتغلب على الحواجز — التى عاقت المواصلات فيما مضى — أسس الشعور الجماعى بمصير هذه المنطقة ، وكانت مقدمة لشرعات جماعية فى المجالات الاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية ، وأصبح واضحا ظهور معالم لقيام وحدة تقف على قدم المساواة مع القوى العظمى فى العالم .

بدأت بثورة المواصلات حقبة جديدة فى تاريخ العالم الاسلامى ، وسوف تشهد — كما يقول بعض الخبراء — صراعا مرا بين الشرق والغرب ، مثل الصراع الذى قرر مصير هذه المنطقة فى القرون الماضية ، والتاريخ يعيد نفسه ، فقد أدرك المسلمون مرة أخرى أنهم يحتلون مركز قوة فى العالم ، لأنهم شعروا أنهم يسيطرون على أكثر مناطق العالم حساسية ، وأهمها فى مجال المواصلات والتجارة الدولية .

* * *

(ب)حدثتكم فى الأسبوع الماضى عن الموقع الستراتيجى الذى يمثله العالم الاسلامى وبينت لكم أن بامكان المسلمين بفضل هذا الموقع السيطرة على التجارة الدولية ، وبالتالى التأثير على صنع القرار فى مجال السياسة الدولية ، واليوم سأتناول معكم موضوعا طال حوله الجدل وكثر ، واختلفت فيه الآراء وتنافرت ، ألا وهو الزيادة المطردة

فى عدد السكان فى العالم الاسلامى ، ولما كان الاختلاف حادا بين المؤيدين لتحديد النسل . والمعارضين له رأيت أن أقرأ عليكم رأيا لكاتب أوروبى حول هذا الموضوع ، ثم أترك لكم الحكم بالتأييد أو الانكار • يقول مؤلف كتاب : « الاسلام قوة الغد العالمية » •• :

عادت الحياة الى طريق المواصلات العالمية القديمة •• واتصل الشرق مرة أخرى بالتجارة العالمية • واحتلت الطرق التى تخترق بلاده مركزا مهما وحساسا فى شبكة المواصلات العالمية ، ونتيجة لذلك التقى الشرق الاسلامى بالقوى الاستعمارية وجها لوجه ، اذ بدأت البلاد الأوروبية فى القرن الماضى تولى وجهها شطر الشرق ، فتأخذ من ثرواته ما تحتاجه صناعتها ، ولتحتكره سوقا للفائض عن حاجتها ، وبجانب هذا الوضع الذى أكسب الشرق وضعا استراتيجيا فى السياسة الدولية، يوجد لديه عنصران آخران ، يؤثران تأثيرا كبيرا فى السياسة والتعاون بين الأقطار الاسلامية ، الأمر الذى يؤدى به الى أن يصبح غدا قوة عالمية ، والعنصران هما :

الزيادة المطردة فى عدد سكانه ••

وما يملكه فى باطن أرضه من مواد خام ، تكفى لقيام صناعة تضارع مثيلاتها فى أوروبا • بل سيكون لدى الشرق فائضا من المواد الخام ، يجعله من أولى المناطق المصدرة لها فى العالم •

أى أن الزيادة المطردة فى السكان ، والمواد الخام ، هما مصدرا القوة النامية فى العالم الاسلامى ••

ثم يمضى المؤلف فى الحديث عن نمو السكان فيقول :

تشير ظاهرة نمو السكان فى أقطار الشرق الاسلامى الى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق والغرب ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية ، تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية ، وسوف تمكن الزيادة فى الانتاج البشرى الشرق من نقل السلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود — أى عشرات قليلة من السنين — وسوف ينجح فى ذلك نجاحا ، لا نرى من أبعاده اليوم الا النذر

اليسير ، ولكي تتضح أهمية الزيادة في السكان ، وخطر الخصوبة الطبيعية لدى سكان هذه المنطقة ، نورد هنا بعض الأمثلة ، ثم يمضي فيبين الزيادة المطردة لدى السكان في مصر ، عام ١٨٨٧ حتى عام ١٩٣٧ ، ثم يقيس عليها ، فيتوقع أن العدد الذي يمكن أن تصل اليه مصر بعد ٤٢٥ سنة هو مليار ، ثم يعقب على ذلك قائلا :

أي أنه سيكون في مصر أعدادا من البشر تساوي ما هو موجود الآن على ظهر الأرض ، وسيصبح في مصر في مدى ٩٦٨ سنة — أي أقل من ألف عام — أمة تعدادها ٩٧٣ مليارا من البشر أي أنها سوف تنمو بشريا الى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيارة الأخرى •

وبعد أن يبين نسب الزيادة في السكان في عدد من أقطار العالم الاسلامي ، يقول : لقد دفع الصراع بين القوى الأوروبية العظمى ، وبين الشعوب الاسلامية ، الى ضرورة القيام بدراسات مقارنة في المجال السكاني للوقوف على اتجاه ميزان القوى — من الناحية البشرية — بين الطرفين ، فتوصل الباحثون الى نتيجة تدعو الى التفكير والتأمل ، فقد أثبتوا أن بين كل ٣ر١٣ من البالغين في أوروبا ، يوجد شاب واحد تحت الخامسة عشرة ، أما في مصر ، وتركيا ، وايران ، فقد أثبت الاحصاء الذي جرى في نفس العام ، أن فيها شابا تحت الخامسة عشر بين كل ٣٨ر١ من البالغين ، وطبقا لهذه النتيجة التي تبين اختلاف نسبة الأطفال الى البالغين بين أوروبا والعالم الاسلامي ، أمكن للمرء أن يتنبأ بأن تفوق الانتاج البشري في المنطقة الاسلامية سوف يؤثر تأثيرا بالغا على العلاقة بين الشرق والغرب في عشرات السنين القادمة •

لا يمكن أن يغيب عن المرء — اذا قارن أسباب القوة بين الشرق والغرب في الوقت الحاضر — أنه سيتضاعف عدد السكان في العالم الاسلامي ، في مدى عشرات قليلة من السنين ، ولا ينبغي أن ينسى أن الداعين الى الأخذ بأسباب نمو القوة البشرية — عن طريق تشجيع النسل ، ومحاربة الدعوة الداعية الى تحديده — يزيدون يوما بعد يوم وأن تفوق

أوروبا فى التكنولوجيا على الشرق ينقص عاما بعد آخر ، لأن الشعوب الاسلامية اتجهت الى تطوير نفسها ، وبناء حضارتها الحديثة بالوسائل الهندسية الأوروبية وتكرس جهودها اليوم لزيادة انتاجها ، يساعدها فى ذلك وجود المواد الخام بكثرة فى بلادها •

فلو رتب المرء ما يملكه الشرق من أسباب القوة ، لبدا له أن الخصوبة البشرية ، التى تسبب النمو السريع فى زيادة عـدد السكان ، تأخذ مكانا لا يستطيع المرء اغفاله بسهوله فكثرة السكان لها آثارها البعيدة ، لأنها وان كانت لا ترى أبعادها بالعين المجردة فى الوقت الحـاضر ، ستحدد بطريقة حاسمة المستقبل السياسى للعالم الاسلامى ، وستكون من أهم العوامل التى يرتكز عليها أمنه وسلامته •

أيها المستمع الكريم : أتركك للتفكير فى هذا الكلام ، لتقرر بنفسك الى أى الفريقين تنحاز الى من ينادون بتحديد النسل ، أم الى من يشجعونه •• وبعد أن نترك لك وقتا كافيا للتفكير فى هذا نعود اليك فى الأسـبوع القادم لنحدثك عن عنصر آخر من عناصر القـوة فى العالم الاسـلامى ••

* * *

(ج) تحدثنا فى المرة الماضية عن الزيادة المطردة فى عدد السكان ، كمصدر من مصادر القوة فى العالم الاسلامى ، واليوم نتناول عنصرا آخر ، ألا وهو المواد الخام فمما لا شـك فيه الآن أن منطقة العالم الاسلامى لديها من المواد الخام ، ما يمكن المسلمين من بناء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات العالمية — ان لم تتفوق عليها — وسوف تزداد هـذه الثروات فى وقت تقل فيه فى البـلاد الأخرى ، مما يجعلهم يتحكمون فى توجيه الصـناعة فى العالم ، وليس هـذا كلاما عاطفيا دفعتنا اليه عاطفتنا نحو وطننا الاسلامى ، بل هو ما توصل اليه خبراء الاقتصاد فى العالم ، اسمع ما يقوله أحدهم :

ان تصفية امتياز البترول فى غربى آسيا ، وانتقال هذه التركة الى الدول الاسلامية ، تديرها ذاتيا ، ولا تحتاج فيها الى مساعدة أجنبية ،

وتوجه انتاجها مستقلة دون أن تخضع لادارة خارجية سيحدث فى الوقت ، الذى يصبح فيه ــ طبقا لما أثبتته الأبحاث الدقيقة ــ مخزون البترول الأمريكى ضعيفا • ويوم يقل الانتاج الغزير لهذا البترول الذى يغزو أسواق العالم اليوم ، سيحتل البترول الاسلامى ــ حسب التقديرات المتحفظة جدا ــ بعد اكتشاف باقى حقول الحزام البترولى فى غرب آسيا مركزا دوليا هاما ، وسيصل انتاجه رقما لم يعرف بعد ، ولا يستطيع الخبراء التكهن به ، لأنه قد يفوق كل تقدير •• يجب ألا نغفل عن دلالة هذا التغيير ، وتأثيره اقتصاديا فى مركز العالم الاسلامى على مسرح التبادل التجارى العالمى •

اذا كان البترول من المواد التى بعثت فى العالم الاسلامى حيوية اقتصادية ، جعله يحتل مركزا دوليا فى عالم التجارة • فان القطن يقف بجانبه فى دعم اقتصاد الدول الاسلامية ، وقد رسمت الدول الاسلامية سياستها الاقتصادية ، على أساس تصنيع موادها الخام فى أوطانها حسب احتياجاتها ، كى تتخلص من التبعية للبلاد الصناعية الغربية وهى تمضى فى هذا الطريق بأقصى ما يمكنها • فتوفر فرص العمل للسكان الذين يتزايد عددهم زيادة مطردة ، كما تقضى على احتكار العالم الغربى للصناعات التى يصنعها من المواد الخام والتى يستوردها من العالم الاسلامى ، وعليه فتصنيع المواد الخام فى العالم الاسلامى أدى الى :

(١) تحرير البلاد الاسلامية من التبعية للبلاد الغربية المتقدمة فى الصناعة •

(٢) خلق فرص للعمل وتهيئة جو اقتصادى يكفل الحياة للزيادة المطردة اطرادا كبيرا فى عدد السكان •

(٣) خفض أسعار السلع المنتجة ، لأن تصنيع المواد الخام فى مكان استخراجها يحررها من مصاريف الشحن الى البلاد الصناعية ، كذلك يساعد انخفاض أجور الأيدى العاملة فى العالم الاسلامى عنه فى البلاد الغربية على خفض الأسعار ، وهذان أمران يؤثران تأثيرا كبيرا على

أثمان البضائع المصنعة ، الأمر الذى يضع الصناعة الغربية فى مركز حرج ، اذ يلقى فى طريقها جملة من المصاعب تحمل القائمين عليها على التفكير طويلا وبعمق •

لقد ازدهرت صناعات عدة فى منطقة العالم الاسلامى ، مثل صناعة النسيج ، وصناعة التعدين (الحديد والفحم والكوك والنحاس والكبريت) وصناعة السليولوز — الخليات النباتية (مثل الورق والكرتون والحرير الصناعى) وصناعة الزجاج ، والصناعات الكيماوية وهى كلها قائمة على مواد خام مستخرجة من باطن الأرض التى يسيطر عليها العالم الاسلامى ، فهى لا تخضع لاحتكار أجنبى ولا يتحكم فيها مورد من خارج العالم الاسلامى ، فلديهم البترول ، والقطن ، والحديد ، فقد اكتشف خام الحديد فى تركيا ، وأثبتت الأبحاث أن الحقول المكتشفة من أغنى مناطق الحديد فى الكرة الأرضية ، فهو يحتوى على ٦٨٪ حديد خالص ، فى حين يوجد فى العالم كله منطقتان فقط ، تحتوى المادة الخام المستخرجة منها على ٦٥٪ حديد فقط ، وفى العالم الاسلامى أيضا : النحاس ، والذهب ، والزنك ، والمنجنيز ، وغيرها •

وجملة القول : ان العالم الاسلامى ، يملك من المواد الخام ، ومن الطاقة ما يمكنه من انشاء أقوى قلعة صناعية فى العالم ، فاذا فعل ذلك ، فسوف يحتل مركزا هاما على مسرح السياسة الدولية ، لأن اتخاذ القرارات السياسة فى مجال الأحداث العالمية يعتمد اليوم كثيرا على قوة الدولة الاقتصادية •

فهل يدرك المسلمون ذلك ، فيستخدموا ما وهبهم الله من طاقات ، لخدمة أوطانهم • •

أرجو أن يوفقهم الله الى ما فيه خير الاسلام والمسلمين •

* * *

(د) تحدثنا فى الأحاديث الثلاثة الماضية عن ثلاث من عناصر القوة فى العالم الاسلامى وهى : الموقع الاستراتيجى . والزيادات المطردة فى عدد السكان ، ووفرة المواد الخام فى منطقة العالم الاسلامى ،

واليوم نتحدث عن العنصر الرابع وهو أهمها ، ألا وهو : العقيدة التى تربط المسلمين جميعا برباط واحد ، تجمعهم تحت راية واحدة ، وتصهرهم فى بوتقة واحدة ، فتقضى على أسباب التنافر والتناحر ، وتذيب بواعث البغضاء والكراهية ، وتمحو الحقد والكراهية من قلوبهم فيصبحون أمة متماسكة مترابطة ، يحب بعضهم بعضا ، ويتألم الواحد لما يصيب الآخر من سوء ، تحقيقا لقول رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ان الاسلام هو العامل الوحيد لوحدة الشعوب التى تدين به ، اذ له من القوة على تجميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية واحدة ما يفوق العقائد الأخرى ، فهو يزيل الشعور بالتفرقة العنصرية فى نفوسهم ، ويغرس فى أفئدتهم حبا وعطفا لبعضهم البعض مما يجعلهم قادرين على الدفاع عن أرضه ، وثرواته بكل ما يملكون ، يقول الله تعالى : **« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا »** [1] ..

وقال : **« وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »** [2] ..

فالوحدة ، والتماسك ، والتعاطف من أهم ما تحتاج اليه الأمة فى بناء كيانها الاقتصادى والعسكرى ، بل هى الركائز التى يقوم عليها وجودها ، لأن فى التمزق ضعف ، وفى التنافر انهيار ، وفى النزاع فشل ، حذرنا الله منه فى قوله تعالى : **« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »**[3].

وقد أدرك الغربيون هذه الناحية فطفقوا يبينونها لزعمائهم ، كى يضعوا أيديهم على أهم عناصر القوة لدى المسلمين ، تلك التى فقدتها

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢) الأنفال : ٦٣ .
(٣) الأنفال : ٤٦ .

أوروبا ، ولم — ولن — تستطيع استردادها ، بينما هى عند المسلمين .
يقول باول شمتز :

قضت الحرب العالمية على الأفكار الانسانية ، ودفنتها فى ساحة القتال ، فلا يوجد اليوم مبدأ يجمع الدول الغربية على طريق العمل المشترك والتعاون لحماية مصالحها فى افريقيا وآسيا ، حتى من الناحية الدينية ، اذا نظرنا من جانبها الى ما يمكن الاستفادة منه لتجميع أوروبا اذ لم يعد للوحدة وجود بين الدول الغربية .. ولم يبق لأوروبا اليوم من عوامل ارتباطها بهذا العالم الآخر ، أو من القوى التى كانت تدفعها الى التشييد والبناء سوى الخوف :

الخوف من الشعوب الآسيوية التى تهدد النظام الأوروبى .

الخوف من الشعوب الافريقية ونموها البشرى نموا مطردا ألقى الرعب فى قلوب المراقبين السياسيين .

وهكذا يرى المسلمون اليوم حالة تفكك الأوروبيين — أعداءهم بالأمس — فتستيقظ أمام هذه الصورة الثقة بالنفس ، وتزداد مطامعهم ، وينسج خيالهم آمالا عريضة يندفعون الى تحقيقها فينمو لديهم حب المغامرة ، واشعال النضال والكفاح ضد أوروبا .

وبينما تزداد صورة البلاد العربية تمزقا ، يقترب الشرق الاسلامى من الوحدة التى ينادى بها المسلمون ، فيتفادى السقوط فى هوة الصراع السياسى التى سقطت فيها أوروبا اليوم ، ثم يستخلص باول شمتز : من ضعف الغرب فى تمزقه السياسى ، وقوة المسلمين فى تماسكهم الايمانى بالاسلام ، عودة المسلمين الى القوة ان هم أحسنوا استثمار مواردهم الطبيعية وموقعهم الجغرافى فى العالم ، وان هم تعلموا التكنولوجيا كما تعلمها الأوروبيون فيقول : « وسيعيد التاريخ نفسه ، مبتدئا من الشرق الاسلامى ، عودا على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة الاسلامية العالمية فى الصدر الأول للاسلام ، وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الاسلام ، ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها اذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها ، والعمل على

الافادة منها، وستنقلب موازين القوى ، لأنها — أى قوة الاسلام — قائمة على أسس لا تتوفر فى غيرها من تيارات القوى العالمية ، وقد أدرك الكاتب الانجليزى « بيلوك » مدى فاعلية هذه القوة حين كتب يقول :

« لا يساورنى أدنى شك ، فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الاسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون خطرا على أعدائه ، ومن الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى ، بأن الاسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث » ..

ولا أستطيع أن أدرك : لماذا لم يعوض الشرق الاسلامى ما فاته فى هذا الميدان ، اذ لا تحتاج علوم الهندسة الحديثة ، الى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمام بها والتفوق فيها الى الخبرة وتوجيه الخبراء • ومن المؤكد أنه غالبا ما يحدث أن تكون حضارة ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى هى أقل درجة من حضارة أخرى ، لم تبلغ تطورها بعد فى هذا المجال ما بلغته الأولى •

اذن ، فهناك احتمال كبير فى أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة سيدا على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره ، فلم ينقذه أحد . وتحكمت فى سلوكه النظريات التى تسلب الاحساس بالطبيعة •

يا أيها المسلمون : لقد من الله عليكم بالاسلام ، تلك العقيدة التى لها فاعلية كبرى فى خلق الوحدة التى هى أساس كل تقدم الشعوب ، فكونوا كما أرادكم الله ، اخوانا متحابين ، كى تسودوا على من حرموا هذه النعمة الكبرى ، وتذكروا قول الله تعالى : **« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »**(٤) ..

***

(٤) محمد : ٧ .

٤ ـ موقف الاسلام من المال

لا توجد على وجه الأرض مشكلة أكثر تعقيدا من مشكلة الانسان نفسه وعلاقته بما حوله ومن حوله، فعلى الرغم من محاولات العلماء والمتخصصين فى البحث عن أنسب الطرق وأفضلها لضمان حياة فيها استقراره نفسيا وروحيا ، وتؤمن له أسلوبا سليما نسبيا فى الحصول على ضروريات الحياة المادية ، فلا زال الاختلاف على أشده ، ولم يتمكن أى نظام من تحقيق ما يصبو اليه الانسان أو تتطلع اليه المجتمعات ، ذلك أن مشاكل الانسان معقدة ، ومتطلباته أكثر تعقيدا ، وأهدافه لا زالت بعيدة عن متناول العقل البشرى ، •• وذلك يرجع الى تعقيد الانسان نفسه ، وعدم قدرة العقل البشرى على الوصول الى فهم هذه التركيبة البشرية ، وطريقة اشباعها نفسيا وبدنيا وروحيا ، دون أن يكون لهذا الاشباع آثار جانبية على الفرد أو المجتمع •

وما نسمعه ، ونراه اليوم من تقدم علمى فى جميع المجالات ، فهو لم يصل بعد الى صيغة تجمع شمل الانسانية حول أسلوب واحد فى الحياة ، قد يقال : ان هذا من البراهين والبديهيات العلمية ، ومن يطلب أو يهدف الى جمع البشرية على مبدأ واحد أو أسلوب واحد فى الحياة ، فهو : اما غير مدرك لطبيعة الحياة الانسانية ، لنقص معلوماته، أو قصور فى تفكيره ، واما مغرق فى الخيال ، فان هذا القول يكشف جانبا من الحقيقة ، ألا وهى أن الانسان ـ مهما تطور الفكر ، وتقدمت العلوم ، وكثرت المعلومات والتقارير ـ لا يستطيع بعقله المحدود أن يقدم شيئا يرضى أكثر الناس ، أو يتناسب مع ميولهم وطبائعهم ، لأن قدرته عاجزة عن فهم نفسه من جميع جوانبها ، وقاصرة عن ادراك متطلبات الجنس البشرى والتوفيق بينها ، بحيث يكون هناك خطأ يلتقى عنده الجميع ، ويرضى به كل الناس أو معظمهم ويحقق معظم أهدافهم ويسبغ عليهم الراحة النفسية والبدنية •

فعقل الانسان وان أثبت وجوده فى الاكتشافات العلمية ، وفى

المجالات المادية ، الا أنه لا زال عاجزا عن اجراء تقدم شامل فى مجـال الانسان نفسه ، ولهذا نرى ــ نحن المسلمين ــ أن من الأضمن والأسلم فى هذا المجال ، أن نلجأ الى مصدر يمتاز عن غيره فى الحجية ، ويرتكز على قاعدة تاريخية فى اثبات صلاحيته ، وهذا المصدر : هو الاســـلام ، أى ما جاء فى القرآن الكريم من مبادىء وتشريعات ، ذلك أنه وحى الله الذى يعرف أسرار البشرية ، فهو قادر على تشريع ما يوافقها ويلائمها ، وما يبدو للانسان غير هذا فهو راجع الى عدم فهمه الغاية من التشريع أو وقوعه تحت تأثير أهواء انسانية وغايات بشرية أو مطالب فردية ، وتلك أمور يتجاوزها الشرع السماوى ، لأنه للمجموع كله لا لفرد بعينه ؛ فلا يراعى فيه جانب فردى ، أو مطالب وقتية تتأثر بالزمان والمكان .

أما الجانب الآخر الذى يمتاز به الاسلام عن غيره ، فهـو الصلاحية التاريخية ، فقد ثبت تطبيقه تاريخيا ، وأنبأتنا الأحداث التـى رواها المؤرخون عن صدر الاسلام أنه حقق العدالة بين أفراد الأمـة ، وأسبغ عليهم طمأنينة وأمنا ، كانتا ــ ولا زالتا ــ مضرب الأمثال فى ذلك العصر وما تلاه من عصور ، ورغم ما يقال عن أحوال المسـلمين المعاصرة ، وما يشاع عن الربط بين تخلفها وانحطاطها ، وبين الاسلام ؛ فانه يكفي للتدليل على أن الاسلام نظام صالح لتقويم أحوال المجتمعات والأخذ بيد الضـعيف منها ودفعه على طريق التقدم ، انه اسـتطاع أن يخرج من صحراء قاحلة على أيدى عرب لم يكن لهم أدنى درجـة فى التقدم ، الى آفاق العالم الواسـع فيؤسـس ملكا لم نر مثـله فى التاريخ القديم والحديث على السواء ، ويبنى حضارة لا زالت معالمها شامخة الى اليوم ، ولا ينكر أثرها على الحضـارة الحديثة ، الا جاحد للفضل ، منكر للجميل .

● اذا كانت الشريعة الاسلامية تمتاز عما عداها بهاتين الناحيتين ، فما هو موقفها من الانسان ؟ أتنظر اليه على أنه بشر له من الخصـائص البشرية ما يدفعه الى أن يعيش على وجه الأرض ، مستمتعا بما فيها من لذائذ العيش وأطايبه ؟ ، أم ترفعه عن الأرض فتطلب منه الابتعـاد عن الدنيا وما فيها من متاع مادى ، وتنصحه بأن يعيش روحانيا مترهبنا

ينظر الى المال وما يحيط به ، على أنه نجس ورجس ، يجب اجتنابه ؟

— الانسان فى نظر الاسلام مركب من مادة وروح ، ولكل رغباته واتجاهاته ، ولذا فهو مطالب شرعا بألا يكون سلوكه مؤديا الى طغيان جانب على آخر ، فلا يستغرق فى الروحانية ويترك الجانب المادى ، كذلك لا ينبغى أن ينغمس فى المادية انغماسا يقتل فيه الجانب الانسانى ، وعليه فهو مطالب بالموازنة بين الاثنين ، أى بالاعتدال فيهما ، لأنه ليس ملاكا يمكنه الاستغناء عن الجانب المادى ، وليس حيوانا يكتفى فقط بالاستمتاع بالأكل والملذات الشهوانية •

فاذا بحثنا فى القرآن الكريم عن الآيات التى تدعو الانسان الى مراعاة الجانبين ، نجدها كثيرة ، وسنكتفى بذكر بعضها ، يقول الله تعالى : **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »** (١) ••

ويقول : **« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم »** (٢) ••

ويقول : **« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم »** (٣) ••

بل انه استنكر مبدأ تحريم التمتع بما فى هذه الحياة من مظاهر وملذات ، فقال تعالى : **« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »** (٤) ••

وقال : **« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم »**(٥)•

فهذه الآيات دليل قاطع يرد على ما أشيع فى المجتمع الغربى من أن الاسلام ينظر الى المال على أنه رجس ، ويأمر أتباعه باجتنابه • فالمال فى نظر الاسلام ركن أساسى فى الحياة لا يمكن الاستغناء عنه ، وهو أحد الجوانب التى يقوم عليها استمتاع الانسان بحياته •

يقول الله تعالى : **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »** (٦) ••

---

(١) القصص : ٧٧ •
(٢) البقرة : ١٧٢ •
(٣) البقرة : ٢٦٧ •
(٤) الأعراف : ٣٢ •
(٥) المائدة : ٨٧ •
(٦) آل عمران : ١٤ •

بل اننا نجد أمر الله للمسلم أن يستمتع بهذا المال فى قوله تعالى : **« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »**(٧) ..

فالأمر باستخدام الزينة،وبالأكل والشرب يظهر بوضوح أن الاسلام يدفع المسلم الى الاستمتاع بالماديات ، ولن تتاح فرصة الاستمتاع الا لمن يعمل ، ولهذا حث الاسلام فى كثير من آياته على السعى لكسب المال ، فقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »** (٨) ..

فنلاحظ فى هذه الآية أنه يأمرهم بمغادرة المسجد عقب الصلاة مباشرة لكى يقوموا بأعمالهم التى تدر عليهم أموالا ، فمن يمكث فى المسجد ، ويؤدى عبادات غير مفروضة عليه تاركا عمله الدنيوى الذى يدر عليه ربحا ، فهو مخالف لتعاليم الاسلام ، ولا يكون مسلما كامل الايمان .

وما يعرف عن المسلمين اليوم من التكاسل فى العمل والتراخى فى أداء واجباتهم فى مجالات العمل الدنيوى ، فلا يمثل الاسلام بحال من الأحوال ، اذ لم يوجد دين من الأديان اشتمل على نصوص تحبذ العمل الدنيوى وتحث عليه مثل الاسلام ، فالقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تدفع المسلم الى الاجتهاد فى العمل ، والانتاج ، والابتكار أذكر منها قوله تعالى : **« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »**(٩) ..

وقوله : **« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »** (١٠) ..

---

(٧) الأعراف : ٣١ .
(٨) الجمعة : ٩ ، ١٠ .
(٩) الملك : ١٥ .
(١٠) فاطر : ١٢ .

فهذا توجيه للانسان الى استغلال البحر واستخراج ما فيه من كنوز ، لتضفى على الحياة البشرية نوعا من السعادة والابتهاج •

وهناك آيات كثيرة ، تدعو الانسان الى التفكير الذى هو أساس الابتكارات والاختراعات فى مجالات الحياة المختلفة ، منها قوله تعالى : « **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** » (١١) ••

« **قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون** » (١٢) ••

« **أو لم يتفكروا فى أنفسهم** » (١٣) ••

« **كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** » (١٤) •

● فاذا كان الاسلام قد أباح استخدام المال ، بل وحث عليه ودفع الانسان الى جمعه واقتنائه ، ودعا الى استعمال قدراته الفكرية فيما حوله ليخضعه له ، ولينتفع به فى جمع المزيد من المال ، فهل اطلق حرية جمع المال وربحه دون قيود ؟

ــ لا يوجد مجال على وجه الأرض يمكن أن تطلق فيه الحرية دون حدود تحدها أو معالم تحصرها داخل اطار محدود لا تتجاوزها ، فجميع الأنشطة الانسانية مشتركة فى هذا التحديد والتقييد ، غير أنها تختلف فى الكم والكيف ، وفى الآثار التى تترتب على تحديد مسارها ، وطبقا لهذا المبدأ العام المعترف به من الجميع ، يوجد لنشاط المسلم فى مجال المال حدود ترسم له طريق الحصول عليه ، ومعالم تحدد له طريق انفاقه والتصرف فيه ، وقوانين تضبط علاقته كصاحب مال بمن حوله ، وما حوله •

أطلق الاسلام حرية الملكية الخاصة ، فللمسلم أن يمتلك ما شاء دون تحديد لكمية ما يملك ، غير أنه ألزمه بأن تكون الملكية قد آلت اليه عن طريق شرعى ، بمعنى أنه قد بذل جهدا ، وسلك الطرق القانونية فى سبيل الحصول على المال ، طرقا لا تتسبب فى ايذاء الناس ، ولا تلحق

---

(١١) البقرة : ٢١٩ •
(١٢) الأنعام : ٥٠ •
(١٣) الروم : ٨ •
(١٤) يونس : ٢٤ •

الضرر بالمجتمع • ومن هنا وضع ضوابط المعاملات التجارية التى منها : تحريم الاتجار فيما يضر الناس كالمخدرات على سبيل المثال لا الحصر ، فكل مال ربحه المرء عن هذا الطريق فهو حرام ، يحق للدولة أن تصادره وتعاقب صاحبه •

كذلك أوصى الاسلام بالبعد عن الغش فى المعاملات التجارية • فحرم العقود على شىء مجهول ، لما فيه من غبن متوقع ، وغش مستور ، ومنع احتكار السلع لرفع الأسعار • وليس معنى هذا أن الاسلام يسمح بتدخل الحكومة تدخلا مباشرا فى تحديد الأسعار ، لا ! فقد روى أن الناس شكوا الى رسول الله من غلاء السعر ، وقالوا له : سعر لنا فقال : « أن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ، وانى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبنى بمظلمة فى دم أو مال » ••

ومعنى هذا الحديث أن النبى ﷺ يعلن أن التدخل فى حرية الأفراد بدون ضرورة يعد ظلما من الحاكم ، فلا ينبغى لحاكم أن يتدخل فى السوق ما لم تكن هناك ضرورة تدفعه الى ذلك ، كأن يدفع بهذا التدخل ضررا عاما يلحق بالأمة ، أو استغلالا مفتعلا من التجار للمواطن • وذلك يكون اذا ظهرت عوامل غير طبيعية فى السوق ، كأن يحتكر التجار سلعة ما ، ويتلاعبون بأسعارها • اذ تقدم هنا مصلحة المجموع على حرية بعض الأفراد ، فتدخل الدولة فى هذه الحالة واجب لدفع ضرر عام يصيب مجموع الأمة ، ويكون عملها هذا طبقا لما جاء فى الحديث : « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » ••

فاذا التزم المسلم بهذه الحدود ، وهى عدم الاتجار فيما يضر الأفراد أو المجتمع وعدم الغش فى المعاملات مع من يتعاملون ، وعدم التدخل فى حركة السوق لخلق ظروف غير طبيعية لرفع الأسعار بطريقة تلحق الضرر بالمجتمع ، اذا التزم المسلم بهذا كله فى تعاملاته المالية ، فما يكسبه حلال له ، لا يحق لأحد أن ينتزعه منه ، مهما كانت سلطته ، ولا يجوز لأى حكومة أن تحدد ملكيته ، غير أنه ملزم بأن يؤدى حقوق هذا المال •

وتنقسم هذه الحقوق الى جزئين :

الجزء الأول : كيفية الانفاق من هذا المال : اذ يلاحظ فى المجتمعات المعاصره أن الرأى العام يرى أن صاحب المال حر فى ماله ، ينفق منه ما شاء ، وكيف شاء ، فله أن يستمتع به على أى وجه يراه ، وبأى أسلوب يرتضيه • قد يكون هذا مقبولا كمبدأ عام ، ولكننا اذا درسنا هذه الظاهرة دراسة أعمق لوجدنا أن اطلاقها يؤدى الى بعض سلبيات تضر بصاحب المال نفسه ، اذ لو أطلق العنان له فى الانفاق ، فقد يترتب على ذلك ضياع رأس ماله ، وقد يترتب عليه تدمير نفسه بسبب اغراقها فى الملذات والشهوات ، وقد يثير حقد من حوله عليه ، اذا رأوه يعيش فى بذخ سافر وترف خيالى ، بينما هم لا يجدون ما يسدون به رمقهم •

ولهذا أمر الاسلام بالاعتدال فى الانفاق فقال تعالى :

« **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لايحب المسرفين** » (١٥) ••

وقال فى وصف المؤمنين الملتزمين بأنهم هم : « **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (١٦) ••

أى كما أن الاسراف مدمر ، كذلك التقتير أيضا ، لأنه لا ينبغى أن يكون للمرء مال ثم يعيش دون أن يتمتع به ، فالمطلوب هو الوسط ، لا تقتير يصل الى حد الحرمان من التمتع بما ربح من مال ، ولا الاسراف الذى يؤدى الى تدمير الشخص بماله الذى كسبه بجده وجهده وعرقه •

ولذلك يقول الله تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك** (وهذا كناية عن الشح وعدم الانفاق) **ولا تبسطها كل البسط** (أى تطلقها بالانفاق اطلاقا عاما بحيث لا يبقى شىء مما ربحه) **فتقعد ملوما محسورا** » (١٧) ••

أما الجزء الثانى : من حقوق المال على صاحبه فيتعلق بمن حوله ، وهم ينقسمون الى قسمين : قسم يعمل معه وهم العاملون الذين يشتغلون

---

(١٥) الأعراف : ٣١ •   (١٦) الفرقان : ٦٧ •

(١٧) الاسراء : ٢٩ •

معه فى تجارته أو مصنعه أو مؤسسته .. الخ فيجب على صاحب المـال أن يعطيهم أجرهم كاملا بحيث لا يكون هناك استغلال لهم أو احتكـار لجهودهم ، فحقهم عليه أن يأخذوا أجرا مساويا لما يقومون به من عمل، وأن تؤمن حياتهم صحيا واجتماعيا وثقافيا .

أما القسم الثانى فهم الفقراء المحتاجون ، فقد ألزم الله صاحب المال بأن يعطيهم جزءا من مالهم ــ وهو الزكاة التى فرضها الله عليه ــ كى يستعينوا به على مواجهة مطالب الحياة الضرورية .

قد يقال : ان هذا اعطاء بدون مقابل ، اذ لم يقدم الفقير شـيئا مقابل ما يأخذه من مال ، وبالتالى لم يستفد صاحبه فائدة مقابل ما يعطى، وهذا فهم غير سليم ، ذلك أننا حتى لو تجاوزنا الجانب الانسانى ، الذى لا يفهمه بعض أصحاب المال ، فان هناك مقابلا ماديا يعود عليه ويتمثل هذا فى أنه لا يمكنه كسب المال وجمعه الا فى مجتمع ، فالمجتمـع عامل من العوامل المسـاعدة ــ ان لم يكن العامل الرئيسى له ــ فى تكوين رأس المال واستمرار الربح الذى يعود عليه بدون انقطـاع ، ولا يمكن للمجتمع المحافظة على كيانه وتماسكه الا اذا كانت لبناته صحيحة ، فاذا اختل جزء منه ــ والاختلال هنا يتمثل فى انتشار الفقر والجهل والمرض بين أفراده ــ اصيبت باقى أجزائه بالشلل ، ومنها الجانب الاقتصادى .

وعليه فمن الفوائد التى تعود على أصحاب المـال بالكسب الوفـير أن يكون المجتمع قادرا على استيعاب ما ينتجونه ، وتطرد الزيادة بمقدار ما يتمتع به المجتمع من سلامة أفراده وتقدمهم ثقافيا واقتصاديا .

فقدرة النظام المالى الاسلامى على المحافظة على الموازنة بين أفراد الشعب ترفع عنه سلبيات النظام الشيوعى التى تتمثل أسـاسـا فى حرمان الانسان من الملكية التى هى غريزة طبيعية عنده ، وفى تمتع حفنه من الحكام بخيرات الأمة ، بينما يحرم منها السواد الأعظم من المواطنين .

كما يحمى المجتمع من ظواهر الاستغلال والتحكم الديكتاتورى الجشع فى النظام الرأسـمالى ، اذ هو ــ أى النظام الاسلامى ــ لا

يعطى الحاكم الحق فى أن يتمتع بما تنتجه الأمة على نحو يحرم الآخرين من حقوقهم فى هذا الانتاج ، كما يحرم جميع أنواع الاستغلال التى يمارسها أصحاب المال فى النظام الرأسمالى، بل انه يفرض عليهم اخراج جزء من أموالهم سنويا لمساعدة المحتاجين وتأمين المرافق التى تخدم هؤلاء المحرومين ، وبذلك يحافظ المجتمع على وحدته ، حيث يعيش أفراده متماسكين ، يعطف الغنى منهم على الفقير ، كما يحافظ الفقير على أموال الغنى ويرعاه ، لأنه يناله جزء منه ٠

وقبل هذا كله يرعى الحاكم حق كل مواطن فيما أسند اليه تدبيره ، فلا يستغل مركزه فى أخذ ما ليس له حق فيه ، ولا فى مساندة القوى الاقتصادية على حساب المحتاجين من أبناء المجتمع ، فان أساء صاحب المال فى التصرف ، فيجب على الحاكم أن يتخذ من الاجراءات ما يحول بينه وبين الاضرار بالمجتمع ، مع الاحتفاظ بحقه فى ملكية المال ٠

* * *

٥ ــ مكانة العمل فى الاسلام

تقوم الحياة على اختلاف أنواعها وأشكالها وتعدد صورها وهيئاتها على العمل ، فهو الأساس الأول والركيزة الهامة لاستمرارها ، سواء أكان ذلك على مستوى الشعوب والأمم ، أو فى مجال الأفراد والمجتمعات ، كما أنه عنصر هام فى بناء الحضارات ، وانشاء المرافق الهامة التى تعود على الانسان بالخير فى مجال حياته الخاصة ، وبالعزة والكرامة فى مجال الانتماء الوطنى ، لأن الأمة لا تستطيع الاحتفاظ بحريتها وكرامتها بين الأمم الا بمقدار ما يعمل أبناؤها فى تشييد دولتهم فى المجالات المادية والروحية والثقافية ، اذ كلما ارتفع بناؤها فى هذه المجالات اكتسبت قوة ومنعة ضد من يريد الاعتداء عليها ،أو يفكر فى اذلالها واخضاعها لمشيئته وارادته •

وعليه فان أى دين لا يقدس العمل ولا يحث أتباعه عليه ، فهو دين بعيد عن واقع الحياة الانسانية ، ويتنافر مع طبيعة واقع الوجود ، وغيرمنسجم مع قوانين الحياة التى ترتكز هيئة الكون كلها عليها ،فالدعوة الى تجنب العمل مرض ، مهما كانت الأسباب التى تستند اليها والدوافع التى تبرزها الى الوجود فى المجتمع الانسانى ، ونظرة احتقار العمل نزعة مدمرة لحياة الفرد والجماعة ، فالخروج من ميدان العمل بدعوى الرهبنة ظاهرة تضفى على الانسان ثوب الاغتراب الاجتماعى ، وتفصله عن واقعه الانسانى ، وتقضى على قدرته الخلاقة ، ونشاطه المثمر لنفسه ولأسرته ولوطنه ، بل لجنسه البشرى كله ، ولهذا لم يأمر الاسلام بشىء يبعد الانسان عن مجال العمل •

فقال تعالى ، مؤنبا من اتخذ الرهبنة طريقا له فى حياته : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »[1] ••

ولما أخبر الرسول ﷺ عن رجل يقوم الليل ويصوم النهار ، سأل عمن يكفله فى معيشته،فقالوا له : أخوه ، فقال رسول الله ﷺ : « أخوه

---

(١) الحديد : ٢٧

خير منه » .. أى أن من يعمل ليكسب قوته خير ممن يعبد الله آناء الليل وأطراف النهار ، ويعيش عالة على غيره ، وتلك هى روح الاسلام فى نظرته الى العمل ، اذ حث عليه فى أكثر من مائتى آية فى القرآن الكريم ، وجاء تعبيره فيها عن العمل غير مقيد بما يفيد قصره على العبادة أو العمل الدنيوى ، بل أطلقه ليشمل كل ما من شأنه أن يؤدى الى الخير للفرد والناس جميعـا .

فثمرة العمل — أيا كان نوعه — تعود على الجميع بالخير بطريـق مباشر أو غير مباشر .

يقول الله تعالى : **((من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها))**(٢) .. أى من عمل صالحا فى مجال العبـادة ، أو فى المجال الدنيوى ، سيعود نفعه عليه ، لأن العمل الصالح فى مجال العبـادة يهذب النفس ، ويطهر القلب ، فيعود أثر ذلك على أسلوب الناس فى حياتهم ، ولكنه لا يغنى عن العمل الدنيوى ، أى السعى لكسب القوت وتحقيق مطالب الحياة الدنيوية، فالعمل فى هذا المجال يساعد على بناء حياة كريمة لمن يسعى ، وبالتالى لأسرته ولمجتمعه ، بل للانسانية كلها ، لأنه يسهم فى بناء الحضـارة الانسانية التى يعم نفعها جميع بنى البشر فى أى مكان على وجه الأرض.

ولذا وعد الله من يعمل صالحا فى كلا المجالين : الدينى والدنيوى بالأجر والثواب فى الآخرة ، يقول الله تعالى : **((ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا))**(٣) ..

فأطلق العمل هنا ليشمل كل عمل ، سواء أكان عبادة لله ، أم سعيا لطلب الرزق ونشاطا فى مجال التقدم البشرى ، بل انه رأى — أى الاسلام — وضع الناس فى درجات متفاوتة حسب أعمالهم فى الدنيا .

يقول الله تعالى : **((ولكل درجات مما عملوا))** (٤) ..

فنظرة الاسـلام الى العمل وتقديسه والحث عليـه أوجب على

---

(٢) فصلت : ٤٦ ، الجاثية : ١٥ (٣) الكهف : ٣٠
(٤) الأنعام : ١٣٢ ، الأحقاف : ١٩

الدولة توفير أسباب القيام بالأعمال التى لا تقوم الحياة الا بها ، ولا يتسع العمران بدونها ، ولا يتقدم المسلمون ويرتقون بسواها ، فجعل ذلك فرض عين على القائمين على الدولة ، ووضع تلك القاعدة الواضحة لقيم الأفراد فى المجتمع ، وهى أن : « قيمة كل امرىء ما يحسنه » ..

فصار هذا الاتجاه دعوة الى كل فرد بألا يكون سلبيا أو عالة أو عقيما لا ينتج ، أو معتمدا على حسب أو مال موروث بدون جهده أو انتاج ذاتى نافع صادر من امكاناته وقدراته الشخصية .

وكان مصدر هذا الاتجاه فى الاسلام آيات عديدة من القرآن الكريم ، تحث على العمل ، وتنفر من الكسل وعدم الاسهام فى الانتاج الذى يقوم عليه البناء الحضارى للمجتمع البشرى ، ولعل أوضح آية فى هذا المجال قوله تعالى : « **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** »[٥] ..

ففى هـذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى قيمة العمل وأثره على وضع المرء فى المجتمع ، اذ وضح فى المثل أن قيمة الفرد فى عمله ، وأن من لا يحسن عملا لا يساوى شيئا ، وأنه لا يمكن أن يسوى بينه وبين الفرد الايجابى فى المجتمع ، ذلك الفرد الذى يعمل فينتج لينتفع هو وبنو وطنه من نتائج مجهوده فى ميدان العمل ، وهذه قضية تنسجم مع واقع الحياة ، وتتفق مع العقل ، اذ لا يمكن لعاقل أن يسوى بين الشخصية السلبية العاجزة عن فعل الخير أو قوله ، العقيم العالة على المجتمع ، التى لا يجدى معها التوجيه الى سبيل الخير ، وبين الشخصية الايجابية التى يفيض منها عمل الخير ، وتوجه غيرها اليه ، وتمضى عمليا على الطريق المستقيم الى وجهات النفع والانتاج فى الحياة .

فاذا كان القرآن الكريم يدعو المسلمين الى العمل ويحثهم على بذل كل ما فى استطاعتهم فى مجال الانتاج ، ليصبحوا فى عزة ومنعة من

---

(٥) النحل : ٧٦

أعدائهم ، وبيين لهم أن من لا عمل له لا قيمة له ، فمـا بالهم اليـوم يعيشون فى وسط هذا العالم الصناعى المعقد عيشة بدائية ، ويستنكفون من العمل فى مجالات الحياة المختلفة ، بل ان رجال الدين منهم ينفرون من العمل المـادى الذى به قوام الحياة ، اذ قل أن تجد فيهم من يحسن عملا ماديا لخدمة البيت أو البيئة ، بل حصروا أنفسهم فى دائرة ضيقة ، وضربوا حولهم سياجا يفصلهم عن كل ما يتصل بالاسهام فى مجالات الصـناعة وغيرها مما يعود على المجتمع بالخير المادى الذى يؤدى الى الاستقرار الاقتصادى فى الدولة ؟

لم يقف المسلمون من مزاولة الأعمال المـادية موقفا سلبيا الا فى عصور الانحطاط الفكرى وتسلط من لا يفهم روح القرآن الكريم على مقدراتهم ، الأمر الذى جعل فجوة سحيقة بين المجتمعات الاسلامية ، وبين ما فى كتاب الله من سير الأنبياء والصالحين الذين كانوا يمارسون الأعمال المـادية بجانب مهمتهم الروحية فى تبليغ رسالة الله ، بل انهم كانوا روادا فى مجالات الأعمال الدنيوية المختلفة . وقد قص القرآن الكريم كثيرا من هذا الجانب ، فبين أن نوحا كان رائدا فى صناعـة السفن ، حينما صنع سفينته بوحى من الله ليحمل فيها من آمن معـه من قومه ومن كل حيوان زوجين اثنين ، لينجو من الطوفان .

وان ابراهيم وابنه اسماعيل كانا بناءين ماهرين ، فهما اللذان رفعا قواعد البيت الحرام ، يقول الله تعالى : « **واذ يرفع ابراهيم القواعـد من البيت واسماعيل** »(٦) ..

وكذلك كان النبى يوسف رائدا من رواد التدبير المالى والاقتصادى فى مصر ، فحماها وما حولها من البلاد من المجاعة ، اذ يحكى القرآن الكريم عن وجهة نظره الاقتصادية فى المحافظة على الانتاج ، حتى لا تتعرض البلاد لمجاعة مهلكة فيقول : « **قال تزرعون سبع سـنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون** »(٧) . .

---

(٦) البقرة : ١٢٧ (٧) يوسف : ٤٧.

وكان موسى من الممارسين للأعمال التى تحتاج الى قوة العضلات وشدة البأس مما مكنه من أن يدافع عن بنى قومه ، وأن يساعد ابنتى النبى شعيب على سقى قطيعهما ، فكان ذلك من الأسباب التى رشحته للزواج من احداهما عند أبيها . يقول الله تعالى : **« قالت احداهما يا أبت استأجره ، ان خير من استأجرت القوى الأمين »** [٨] . .

وكان النبى داوود وابنه سليمان رائدين فى الصناعة ، يصنع أولهما الدروع السابغات ويأكل من عمل يده ، فيحكى القرآن الكريم عن ذلك فيقول : **« وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد »** [٩]

ويشرف ثانيهما : على الصناعات المتعددة فى الدولة ، ويجند كل طاقات الدولة فى سبيل الانتاج الصناعى ، يحكى القرآن الكريم عنه فيقول: **« ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكرا »** [١٠] . .

وكان ذو القرنين رائدا فى اقامة السدود بجانب ريادته لحياة العدل والاصلاح يحكى القرآن الكريم عنه فيقول : **« قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد ، حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا »** [١١] . .

بل ان خاتم الأنبياء محمدا ﷺ كان لا يستنكف من العمل ، اذ يروى أنه «كان فى مهنة أهله» أى خدمتهم ، وكان يخصف نعله ، ويذبح ذبيحته ، ويرقع ثوبه ، كما كان تاجرا أمينا ، محاربا شجاعا ، وقائدا مظفرا ، ومربيا حليما ، وبالاختصار فقد كان رجل دين ودولة ، وكان أصحابه أيضا تجارا ورعاة ومحاربين وممارسين لكل أنواع الحياة . فلم يقفوا من الأعمال

---

(٨) القصص : ٢٦

(٩) سبأ : ١٠ ، ١١

(١٠) سبأ : ١٢ ، ١٣

(١١) الكهف : ٩٥ ، ٩٦

الدنيوية موقفا سلبيا ، ولم يكونوا متواكلين ولا عجزة ، بل كانوا عمالا مهرة فى جميع مجالات الحياة ، بجانب التزامهم بتأدية واجباتهم الدينية.

وسار على دربهم المسلمون الأوائل ، فبنوا حضارة اسلامية ، شع نورها على جميع أقطـار الأرض ، لكن الظروف التى منيت بها الأمـة الاسلامية فيما بعد أبعدتها عن هذه الروح الخلاقة .

فاذا ذكر اليوم تخلف المسلمين فى المجال المادى ، فينبغى ألا يفهم أن مرده هو تعاليم الاسلام ، فقد ظهر واضحا أن الاسلام يدعو الى العمل ويحث عليه ، بل يجب أن يبحث العلماء عن الأسباب الأخرى التى أدت بالمسلمين الى هـذا الوضع ، ولا شك أن منها بعد المسلمين عن روح التعاليم الاسلامية ، ويوم يعودوا الى فهم تعاليم دينهم فلسوف يدركون أن العمل عبادة ، وأن السعى الى الرزق مقدم على الاستغراق فى التأمل والتفكر فى ملكوت الله ، وصدق الله اذ يقول فى كتابه المنزل على رسـوله : ((**فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله**))[١٢] ..

وقد مكن الله للانسان فى الأرض ، وأوسع له ما فيها ، وأعطاه من الدنيا على قدر اجتهاده ونشاطه فى ميادين الحياة ، فمنحه كنوز الأرض المخبوءة ، يأخذ منها ما يستطيع ويمتلك منها ما يكسبه عن طريق عمله ، وصدق رسـول الله ﷺ حيث يقول : ((ان الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته)) ..

فلم ينظر الاسلام الى الدنيا على أنها سجن ، أو دار عذاب وألم ، كما هو موجود فى بعض الأديان الأخرى ، وانما أخبرنا بأنها دار مؤقتة للاختبار ، ولا يكون الاختبار كاملا اذا منح العبد مباهجها ونعمها ، وطلب منه أن يرعى الله فى هذه النعم ، فلا يقتنصها من حرام ، ولا يمارسها بأسلوب يغضب الله ، فالحياة فى نظر الاسـلام ممزوجة فيها المباهج بالآلام ، وهى آلام العمل والسـعى الى الرزق ، والنشـاط الدائم

(١٢) الجمعة : ١٠

للحصـــول على مباهج الحيـــاة ونعمها ، فهى ليست آلاما خالصة ، كما أنها ينبغى ألا تكون اغراقا فى الملذات دون الشـــعور بالمســئولية فى تحصيلها ، أو دون أن يكون التمتع بحســـاب حتى لا تدمر الملـــذات الفرد والمجتمع •

فحين حث الاسلام على العمل فى المجالات المـــادية ، انما قيده بأن يلتزم العامل بالمبادىء الأخلاقية فى عمله ، وحين أباح له التمتع بما كسبه من عمله ، فقد حدده بما يعود على الفرد والأمة بالخير ، بحيث لا تدمر الملذات نفس الانســـان ، وبحيث لا يطغى الاستغراق فى المادة على ما عداها فينحل المجتمع وينهار ، وتلك هى الآفة المدمرة للمجتمعات الانســـانية وصدق الله اذ يقول : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحيـــاة الدنيـــا خالصة يوم القيامة** »[١٣] ••

فالعمل واجب ، والاستمتاع بما فى الدنيا مباح فى الحدود التى لا تؤثر على كيان الفرد والأمة •

فاذا وقف المسلمون موقفا سلبيا من الأنشطة المـــادية فى المجتمع ، فلا يعتبر هـــذا دليلا على أن الاسلام حرم العمل فى هـــذا المجال ، بل مؤشرا على عدم فهمهم لروح تعاليم الاسلام •

* * *

(١٣) الأعراف : ٣٢

٦ — مفهوم الحرية الشـخصية فى الاسـلام

ينبعث من كلمة الحرية رنين له صوت الموسيقى فى آذان الجماهير المستعبدة ، وأصـداء تتراقص أمام أعين البؤساء الذين غابت الحرية عن أوطانهم ، فطحنوا تحت عجلات الديكتاتورية والاستعباد ، وامتصت ريح الجبابرة والطغاة دماءهم ، فعاشوا فى ظلام حالك ، يتحسـسون طريقهم الى النور فلا يجدون مخرجا ، وينساقون وراء كل من ينـاديهم بنغمات الحرية ولو كان كاذبا ، ويثقون فيمن ينشد أنشودة الخلاص من الاستعباد قبل أن يتبينوا صدق دعواه واخلاصه ، ومدى تضحيته فيما ادعاه •

ويجرى الناس وراء المنادين بالحرية ، دون أن يعرفوا حدودها وأبعادها ويدركوا مجالاتها وسماتها ، فنراهم يظنون أنهم سيحصـلون على كل شىء عندما ينتصرون على جلاديهم ، ويصبحون سـادة فى تسيير أمورهم وشئونهم ، غير مدركين أن الحرية المطلقة لم — ولن — توجد فى عالم الانسـان ، لأنه لا يمكن تطبيقها فى المجتمع الانسانى المتشابك المصـالح والمنافع والمتداخل فى جميع شـئونه المختلفة وفى ظروفه المتعددة ، فلو فرضنا جدلا أن انسانا ما استطاع أن يحصل على ما يمكنه من التصرف بحرية مطلقة ، لا حدود لها ، فان ذلك سوف يؤثر على حياة من يعيش معه فى أسرته ، أو مجتمعه ، وربما يبلغ هـذا التأثير حـد الاضرار المـادى بالآخرين ، أو سلبهم حريتهم بحيث يعيشون مسلوبى الارادة ، فيفقدون كرامتهم ، وربما حياتهم أيضا •

ولذا يجب على الانسان أن يدرك أن هنـاك قيودا تقيد الحرية ، وتختلف هـذه القيود من مجتمع لآخر ، كمـا تخضع لظروف العصر والتقاليد الاجتماعية ، وقبل هـذا كله فان الأحكام والمعتقدات الدينية تحددها وترسم معالمها • فحرية الفرد كما رسمها الاسلام تنحصر فى أربعة مبادىء أساسية : أولاها : حقه فى اختيار العقيدة التى يدين بها ، بشرط ألا يكون لها آثار مدمرة لمن يعيشون معه ، أو جوانب تهدد سلامة

المجتمع وأمنه ، اذ لا يجبر أحد على اعتناق شيء بالاكراه حتى ولو كان هـذا الشيء الاعتراف بالاسلام دينا ، يقول الله تعالى : **« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى »**(١) ..

ويقول مخاطبا نبيه عليه الصلاة والسلام : **« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »**(٢) ..

فهو هنا يستنكر اكراه الناس على الدخول فى الاسلام . ولكن ليس معنى اعطاء الحريـة للانسـان فى اعتناق ما يشـاء من عقائـد أن حريته مطلقة فى هـذا المجال ، لا ! بل هى مقيدة ـ طبقـا للمبادىء العامة ، والمسلمات الأولية التى تؤكد أنه لا توجد حرية مطلقة فى أى مكان على وجـه الأرض ـ بما يحفظ على المجتمع أمنه وسلامته ، وبما يدفع عن الفرد والأسرة الأخطار التى تهدد أسس الحيـاة الانسانية ، فللفرد أن يعتنق ما يشـاء ، بشرط ألا يكون هنـاك ضرر بين له ولغيره ، ممن يعيشون معه ، ولا ينتج عن اعتقاده ما يسىء الى شعور المسـلمين أو يهدد كيان عقيدتهم .

والمبدأ الثانى من المبادىء التى أرساها الاسلام فى مجال الحرية الشخصية : هو حرية الرأى ، فهى من القواعد العامة فى التشريعات الاسلامية ، اذ يرى المرء كثيرا من الأحكام الفقهية التى تؤمن للفرد الطريق السـليم للتعبير عن رأيه ، وتهيىء له الظروف الصحية للاعراب عما فى نفسه فى جميع مجالات الحيـاة ، فعقد المكره باطل ، ولا يحاسب المجبر على ما يقترفه من سـيئات ، حتى ولو كان الكفر بالله ، يقول الله تعـالى : **« انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان »**(٣) ..

بل انه سفه أحلام قوم سكتوا فلم يعبروا عن آرائهم ازاء ما يدور

---

(١) البقرة : ٢٥٦ (٢) يونس : ٩٩
(٣) النحل : ١٠٥ ، ١٠٦

حولهم من أحداث ، يقول رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة .. قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله وأئمة المسلمين » .. فالنصيحة هى تعبير عن رأى الناصح ازاء ما يشاهده من أعمال وسلوك ، فان لم يقم بها فقد أثم اثما مبينا ، لما روى عنه ﷺ أنه قال : « اذا هابت أمتى أن تقول للظالم : يا ظالم ، فبطن الأرض خير لهم من ظهرها » .. ، كما اشتهر بين المسلمين : أن الساكت عن الحق شيطان أخرس .

غير أن الذى يتجاوز الحدود المشروعة فى التعبير عن رأيه آثم أيضا اثما كبيرا ، اذ لا ينبغى أن يكشف الأسرار العائلية ، ولا أن يفشى ما اؤتمن عليه من متعلقات شخصية أو يشيع افتراءات لا أصل لها ، سعيا وراء تدعيم رأيه فى مجال الصراع الفكرى ، أو الاجتماعى أو السياسى ، فالتعبير عن الرأى مباح فى حدود الموضوعية وداخل اطار المصلحة العامة ويجب أن يكون على قدر ما يعبر به عن الظلم الواقع على الفرد أو الجماعة ،أو ما يوضح حقا يجب أن يصان ، سواء أكان ذلك متعلقا بفرد واحد ، أو يمس طائفة من طوائف المجتمع ، أو كان متعلقا بالمجتمع كله ، فلا يسىء الى أحد خارج اطار الموضوع ، أى لا يتناول سيرته الشخصية ، أو يجرح شعور أسرته ما دام ذلك بعيدا عن مجال النزاع ، كذلك حرم الاسلام استعمال العنف فى فرض الرأى ، فلا يجوز ايذاء المخالفين للرأى بدنيا أو نفسيا ، فلا يتهكم عليهم تهكما بذيئا ، ولا يسبهم بما يجرح شعورهم أو ينقص من كرامتهم ، ومن باب أولى لا يستعمل معهم أى وسيلة تؤذيهم فى بدنهم ، سواء أكان ذلك ضربا أو قتلا .

كذلك أباح الاسلام للمرء أن يختار العمل الذى يرتضيه — بخلاف الأديان الأخرى كالبراهمانية التى حددت لكل طائفة من طوائف المجتمع عملا لا يتجاوزه الى غيره — ما دام ملتزما بعدم ايذاء الآخرين ، فان ترتب على عمله ضرر بالمجتمع أو بأشخاص بعينهم ، فان الاسلام يحرمه ، فالتجارة فيما يضر الصحة العامة حرام ، والتعامل التجارى مع من يشهرون السلاح فى وجوه المسلمين اثم ، وكل عمل يجر وراءه ضررا فهو داخل فى الدائرة التى حرمها الاسلام ، وما عدا ذلك فللانسان مطلق

الحرية فى ممارسة المهنة التى يقدر عليها ويرتضيها لنفســه ، ولكنه عندما يشرع فى مباشرة عمله ، فان حريته تتقيد بالقيود التى ارتضاها المجتمع — طبقا للأحكام الاسلامية — لهذه المهنة ، فلا ينبغى أن يخرج على مبدأ أقره المجتمع ، كما لا يجوز له أن يهمل فى عمله الذى أسند اليه بنـــاء على رغبته .

فالانسان حر حرية مطلقة ابتداء فى اختيار العمل الذى يناسبه ، ولكنه بعد أن يباشر العمــل ، يصبح ملتزما بقيود هــذه المهنة التى اختارها ، فلا تصبح حريته مطلقة بل مقيدة بالنظم واللوائح والقوانين التى وضعت لتحديد معالم العمل فى هــذه الوظيفة .

والمبدأ الرابع الذى أرساه الاســلام فى مجال الحرية : هو حرية الانسان فى مسكنه .. اذ هو المكان الخاص الذى يمارس فيه حريته كما يشاء ، ولذلك أوصى الاســلام بعدم انتهاك حرمة المساكن ، ووضع قيودا تمنع الآخرين من مضايقة الانســان فى مسكنه ، ولهذا أمر بعدم الدخول دون اذن لمن يقيمون معه من الخدم ، وصغار السن فقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشــاء ، ثلاث عورات لكم »** (٤) ..

فاذا كان هــذا بالنسبة لمن يعيشون معه من الخدم وصغار السن ، فمن باب أولى ينبغى على غيرهم أن يمتنعوا عن مضايقة النـــاس فى مساكنهم فى هــذه الأوقات ، بل وفى غيرها دون اذن ســابق ، لأن ذلك ينغص على الساكنين لحظات قد يكونون فى احتياج الى الانتاج فيها ، فيقلب برامج حياتهم رأسا على عقب .

ولذا يجب على المسلم أن يحترم حرمة المساكن ، فلا يزعج الساكنين بزيارة غير متوقعة ، وفى أوقات غير مناسبة .

يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم**

---

(٤) النور : ٥٨

حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ٠ فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم »[٥] ٠٠

فطريقة الاستئذان تختلف من عصر لعصر ، ومن مجتمع لآخر ، ولذا يجب على من يريد الزيارة أن يتبع الطريق المعهودة فى المجتمع فى مثل هـذه الظروف ٠

كما لا ينبغى له أن يضايق جيرانه بالأصوات الصاخبة ، لأن من حق كل انسان أن يستريح فى بيته ، فلا ينبغى لأحد أن يقلق راحته بأى نوع من أنواع المزعجات ، وليس من حق أحد أن يدعى حريته فى ممارسة ما يشاء ، ولو كان فيما يزعج الآخرين ، لأن الحرية المطلقة لا توجد فى أى مكان على وجه الأرض ، ولذا ينبغى أن يراعى كل حقوق اخوانه وبنى وطنه فى سلوكه ، وفى تعامله معهم ، بحيث يصبح واقع المجتمع الاسلامى صورة مطابقة لحديث رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ٠٠

* *

---

(٥) النور : ٢٧ ، ٢٨

٧ — منهج الاسلام فى تقييم الأنباء

يميل الانسان بطبعه الى الجرى وراء ما يكشف له غموض المستقبل ، لأن غريزة الخوف عنده تستحوذ على مشاعره ، فتدفعه الى الجرى وراء كل صوت يعطى له الأمل فى معرفة ما يحدث فى الغد ، وتسلب ارادته أمام الذين يدعون أنهم قادرون على كشف غموض المجهول، فيسير وراءهم دون اعتراض على مسلك يسلكونه حتى ولو كان مضادا للعقل ، أو متناقضا مع نصوص الأدلة الشرعية التى يؤمن بصحتها ويعتقد فى سلامتها من التناقض أو التنافر مع متطلبات الحياة .

وقد أورثته هذه الغريزة حب الاستطلاع ، فاندفع فى سبيل اشباعها فى كل طريق يوصله الى المعرفة ، أيا كانت هذه المعرفة ، فهو دؤوب فى الكشف عن أسرار الطبيعة ، ومجد فى معرفة ما يدور حوله من أحداث ، وحريص على الوصول الى كنه الوجود وعلته وحقيقته ، مهما كلفه ذلك من جهد ومال ، فهو يركب الصعاب فى سبيل الحصول على معلومة توضح له جانبا من جوانب الغموض فى حياته ، ويتحمل المشاق جريا وراء حل لغز من ألغاز الأحداث التى تدور حوله ، ويستصغر المخاطر اذا بدت له بارقة أمل فى ازاحة الستار عن شىء يجهله .

ولم يقتصر الانسان فى اشباع هذه الغريزة على تتبع مصادر المعرفة التى تتعلق بالوجود وبأسرار الطبيعة فقط ، بل جاوزها الى السعى الى كل مصدر يعطيه نبأ لم يعرفه ، ويمده بخبر يسلط أضواء على جانب مجهول لديه ، أيا كان نوعه سواء أكان متعلقا بأحداث الدول والشعوب ، أو بأحوال الأمم والمجتمعات ، أو كان متصلا بأسرار الأسر وخصوصياتها ، أو بحياة الأفراد وعلاقاتهم الشخصية ، فهو يميل الى التجسس لمعرفة ما يدور خلف الأبواب ، وينصت بسرور الى من يمده بأخبار الناس ، خاصة اذا كانت هذه الأخبار تتعلق بشخصيات عامة فى مجتمعه ، أو لها علاقة به ، وفى نشوة سروره بسماع هذه الخصوصيات يصدق كل ما يقال له دون تمحيص أو تدقيق ، بل قد

تدفعه دوافع خفيه فى نفسه الى ترديد ما سمعه مؤكدا على ما يدفع السامع الى تصديقها ، وان اقتضى الأمر الاعتراف بأنه شاهدها بنفسه فانه لا يتردد فى ذلك •

تنكب الانســان الطريق فى سـبيل اشباع هــذه الغريزة ، فسلك طرقا غير مستقيمة قادته الى مسالك الضياع والهلاك ، وقذفت به الى واد سحيق ، لا يهتدى فيه الا الى التخبط فى الظلمات ، والتردد بين أمواج الشك والتشكيك ، والوقوع فى مآزق لا يستطيع التخلص منها الا بعد أن يفقد المــال والجاه ، ويضحى بالنفس والنفيس ، ويتجرد من السمعة الطيبة والصفات الحميدة ، فيقف عاريا من كل ما يستره من ثبات فى القلب ، وأمان فى مصدر المعرفة ، وفضيلة وكرامة بين أهله وبنى وطنه •

ففى جانب الجرى وراء معرفة المجهول ، لم يجد ما يبتغيه ، ولم يحصل على ما يزيل عنه الخوف من المستقبل ، بل وقع فى حبائل المنجمين الذين لا يعرفون شـيئا مما يقولون ، انما هى ألفاظ غامضة ، وعبارات لا تؤدى معنى ، وأحكام لا تتفق مع مقتضيات العقل ومتطلبات الحياة ، امتلأت بالأوهام ، وخلت من الحقائق ، فغلفت بالأمانى الكاذبة والآمال الخادعة ، فمن يصدقها هوى الى ظلمات بعضها فوق بعض ، فقذفت به أمواج الضياع والهلاك •

وفى مجال البحث عن أسرار الطبيعة وكنه الوجود ، تجاوز حدود القدرة الانســانية فصدق ما يقال له عما وراء الطبيعة ، ناسيا أن من يخبره عن ذلك عاجز عن الوصــول الى المجال الذى يتحدث عنه ، فليس ما يقوله سوى استنتاجات لا أصل لها ، وأقيسة لم يتوصل الانســان بعد الى التأكد من صدقها •

أما فى المجال الثالث — وهو المتعلق بسعى الانســان وراء معرفة الأنباء التى تتعلق بالحياة الانسانية وتصديقها دون تمحيص أو تدقيق ، فقد ارتكب الانســان فيه حماقات أثرت على سلوكه فى المجتمع ،

اذ مال الى تصديق كل ما يقال له ، فوقع بذلك فى مشــاكل اجتماعية وأخلاقية لا حصر لها ، وتسبب سلوكه هــذا فى تدمير سمعة أشخاص ظلما وعدوانا ، وفى اشعال معارك بين الأفراد والأمم أتت على الأخضر واليابس ، وسقطت فيها ضحايا بريئة ، فتحطمت بسببها نظم دوليــة ثابتة ، وأسر ذات قدم راسخ فى ساحات الفضيلة والشرف والكرامة .

وقف الاسلام من هــذه الظاهرة بشعبها الثلاث موقف المعالج للانسان ، فلم يأمره بانتزاع هــذه الغريزة ، لأن ذلك محال ، ولم يفرض عليــه من الوسائل ما يكبتها كليــة ، لأن ذلك ضد الطبيعة البشرية ، بل هذبها ووجهها الى طريق يعود على الانســان بالخير وعلى المجتمع البشرى بالنفع العام . فبين له أن هؤلاء الذين يوهمونه بأنهم يعرفون أنباء المستقبل غير صادقين ولا يستطيعون دفع الشر عن أنفسهم ، اذ لو كانوا صادقين ما وقعوا فى المآزق التى تصادفهم فى حياتهم ، وصدق الله اذ يقول موجها الخطاب لنبيه ﷺ : **« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شــاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »**[1] ..

فاذا كان النبى ﷺ لا يعلم ما يدفع عنه السوء المخبوء له فى صفحات المستقبل المجهول فكيف بهؤلاء الذين لا يملكون من المؤهلات ما يمكنهم من معرفة الغيب ؟! وصدق رســول الله ﷺ حيث يقــول : « كذب المنجمون ولو صدقوا » .. أى ولو جاءت الأحداث مصــادفة طبقا لمــا قالوا . وذلك لأن الله لم يطلع أحدا على الغيب الا من ارتضى من رسول ، وفى حدود ما يريد الله اعلامه به ليبلغه لقومه ، يقول الله تعــالى : **« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رســول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم »**[2] ..

أما ما يدعيه بعض العلماء من تصور ما يدور فيما وراء الطبيعة ،

(١) الأعراف : ١٨٨ (٢) الجن : ٢٦ — ٢٨

فذلك محال .. لأن قدرة الانسان عاجزة عن الوصول الى كنه ما يدور حولها ، فكيف يستطيع معرفة ما يحدث فى مجال لا يستطيع تصـــوره فضلا عن الوصـــول اليه ، فهو من الأشـــياء التى استأثر الله بعلمها يقول تعـــالى : « **ولله غيب الســـموات والأرض** »[٣] ..

ويقول : « **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** »[٤] ..

فمن يدعى معرفة ما وراء الطبيعة فهو كاذب لا يجوز لمسلم أن يصدقه فيما يقول حتى لا يقع فى ضلالات تتنازعه ذات اليمين وذات الشمال ، فتعكر عليه صفو حياته .

وفى مجال تلقى الأنباء ـــ سواء أكانت تتعلق بالأمم والشعوب ، أو كانت تمس الأشخاص والأفراد ـــ فقد أوصى الله المؤمنين بعـــدم تصديق الخبر قبل التأكد من صحته ، فقال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاســـق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** »[٥] ..

أى اذا سمعتم خبرا فلا تسارعوا بتصديقه قبل أن تتثبتوا من صحته ، وذلك لا يكون الا بفحص جميع الجوانب التى تؤدى الى التأكد من صدق المصدر الذى خرج منه الخبر أو التثبت بصورة أو بأخرى بأن ما يحتويه الخبر من معلومات مطابق للواقع ، بحيث لا يشوبه شائبة تلقى ظلالا قاتمة على حقيقته ، لأن تصديق كل ما يقال دون تمحيص يوقع فى مآزق لا مخرج منها الا بآثار بعيدة المدى على من له صلة ـــ أيا كان نوع هذه الصلة ـــ بالأخبار الكاذبة .

بل ان الاسلام أغلق كثيرا من المنافذ التى قد تنفذ منها أخبار تسىء الى المسلم أو تؤدى الى تقطيع أواصر الرحمة بين الناس ، وتمزيق حبال الصداقة بينهم ، وطمس معالم التعاطف والتآلف والتعاون بين المسلمين ، فأمرهم باجتناب الظن الذى يصور لهم صورا غير حميدة عن اخوانهم ، كما حرم التجسس ، لأنه ـــ بالاضافة الى أنه وسيلة لكشف

---

(٣) النحل : ٧٧
(٤) آل عمران : ١٧٩
(٥) الحجرات : ٦

سوءات الناس — فهو باب لاختلاق الأقاويل ، التى لا أساس لها من الصحة ، وطريق تهمد لتصديق ما لا يمكن تصديقه ، وقد صور الله سبحانه وتعالى من يسلك هذين المسلكين — وهما الظن والتجسس — بأبشع صورة ، حيث وصفه بأنه مثل من يأكل لحم أخيه ميتا فقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنـوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، فكرهتموه ، واتقوا الله ، ان الله تواب رحيم »**[٦] ..

وجملة القول ان حب المعرفة غريزة فى الانســان ، وهى — ككل الغرائز الانســانية — تدفع صاحبها الى اشباعها ، وفى ســبيل ذلك سلك الانســان مسالك ثلاثة ، فحاول كشف المستقبل ، وبحث عن كنه الوجود وحقيقة الحيــاة ، كما حرص على ســماع الأخبار العــامة والشخصية ، غير أن خوفه من المجهول وميوله الى البحث عن مصادر معرفة الأسرار ، يحمله دائمــا على تصديق كل ما يقال له دون تمحيص ، مما يوقعه فى أخطاء تؤثر تأثيرا ســيئا على عقيدته وسلوكه ومركزه الاجتماعى ، الا أن من يعى أوامر الاســلام ، ويلتزم بها فى مجــال المعرفة ، فلا يصدق من يدعى معرفة المستقبل ، ولا يسلم بما يقال عن ادراك أسرار ما وراء الطبيعة ، ولا يسرع فى تصديق ما يلقى اليه من أنباء دون تمحيصها ، والتدقيق فى مصادرها ، فانه يكون بهذا قد سار على الطريق المستقيم ، حيث لا تهتز عقيدته ، ولا تلوث سمعته بــين الناس ، فيعيش فى اطمئنان يحب الجميع ، كما يسعى هو فى الخــير لكل النــاس .

***

---

(٦) الحجرات : ١٢

٨ — حرية الرأى بين الشجاعة والتهور

تختلف القدرات الفكرية من شخص لآخر ، بل نتميز طريقة التفكير بين المجتمعات الانسانية تبعا لظروفها الثقافية ومعتقداتها الدينية ؛ فبينما نرى مجتمعا يفسر الظراهر الكونية ، ويحلل الاحداث الاجتماعية على أسس عقلية بحتة ، نشاهد مجتمعا آخر يخضع كل ما حوله لقوى أخرى خفية لا يمكن للعقل أن يتصورها ، فضلا عن ادراكها وتحليلها ، ومن هنا نشأت الاختلافات فى التصور والتفسير ، فتعددت الآراء ، وتباينت الاجتهادات حتى أصبحت أساسا خرجت منه المذاهب المتعددة سواءأكان ذلك فى مجال العقيدة والمذاهب ذات الطابع الفلسفى ؛ أو داخل اطار الحياة الاقتصادية والسياسية أو فى أروقة الأدب والثقافة العامة .

ولم يخل عصر من العصور من تعدد الاراء حول تقييم الأحداث التى تباشرها وتعيشها المجتمعات البشرية ، لأنه من الظواهر الأساسية فى حياة الأفراد والمجتمعات ، فلا يخلو منه مجتمع الا ويصاب بالعقم فى انتاجه ، وبالشلل فى مسيرته على درب التاريخ ، واذا كان لزاما على كل فرد أن يدلى بآرائه فيما يدور حوله من آحداث ، وأن يعبر عن تصوراته للمنهج الأمثل فى أسلوب الحياة فى جميع المجالات ، وألا يتقاعس عن نقد ما يراه من أخطاء مهما كان مصدرها ، اذ من الواجب عليه أن يبدى رأيه فى جميع ما يعرض على الساحة القومية والدولية من خطط واقتراحات فى شتى المجالات المختلفة ، ما دام قادرا فكريا ونفسيا واجتماعيا على ادراك جوانب المسائل المعروضة للبحث ، وبيان الخطأ والصواب فيها ، دون خوف أو وجل من صاحب نفوذ أو سلطان ، ودون مبالاة لما ينتج عن ذلك من حرمان من المكاسب المادية أو بعد عن المناصب القيادية ، أو التضييق عليه فى أى مجال من مجالات حياته .

فالتعبير عن الرأى وسيلة من وسائل الوصول الى الحقيقة ، بل هو الوسيلة الرئيسية لضبط مسيرة الحياة وحفظها من الضياع

فى دهاليز اللامعقول ، وصيانتها من التخبط فى ظلمات الرأى الواحد ، أو متاهات الديكتاتورية ، حيث يقضى على كل صاحب رأى حر بوسائل جهنمية لا تعرف للرحمة طريقا ، ولا تدرك للانسانية منهجا • ولذا كان لزاما على كل مواطن أن يواجه بشجاعة كل من تسول له نفسه أن يكبت الرأى الاخر ، أو يضعفه ، أو يحاول تعكير الجو المناسب لسماع الآراء المتعددة ، والأفكار المختلفة فى جميع مشاكل الحياة ، والا أصبحت حياتهم عدما ، ومقامهم فى المجتمع لا معنى له ، لأن المسلم اذا خانته شجاعته عن ابداء رأيه ، والتعبير عما يدور فى نفسه ازاء الأحداث التى تجرى حوله على مسرح الحياة القومية والدولية ، صار دمية يحركها الغير ، وفردا من قطيع يسوقه من لا هم له الا استغلال الناس كما يستغل الراعى حيواناته ، اذ يقرر مصيرها دون أن يأخذ رأيها أو يستمع لشكواها •

ولهذا صور رسول الله ﷺ حال من يخشى مواجهة الظالم أبلغ تصوير حين قال : « اذا هابت أمتى أن تقول للظالم : ياظالم •• فبطن الأرض خير لهم من ظهرها » •• أى أن حياتهم أصبحت لا معنى لها فصاروا فى وضع يكون فيه الموت أكرم وأشرف من هذه الحياة التى لا يملكون فيها شيئا حتى ابداء رأيهم فى القرارات التى تشكل مصيرهم ، كذلك أنكرت آيات عدة من القرآن الكريم على الناس خضوعهم للرأى المستبد دون محاولة تغييره أو معارضته ، اذ يحكى القرآن الكريم مشهدا من الحوار بين ابراهيم عليه السلام وقومه ، فيقول : « **ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين • اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون • قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين • قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين** »[1] •• أى أنهم وقفوا معهم فى ساحة الضلال لأنهم اتبعوهم دون أن يبدوا رأيا فيما يطلب منهم عبادته ، فلو لم يجبن الناس عن ابداء رأيهم فى هذه الأصنام لوجد من يرفع رأيه مستنكرا هذا الضلال الذى

---

(١) الأنبياء : ٥١ — ٥٤

يسيرون عليــه ، ولتعير الوضع بحيث أصبح هنــاك من يعارض هــذه العبادة التى لا تتفق مع العقل الناضج ، ولكنهم بصمتهم عن ابداء الرأى صاروا جميعا على طريق الضلال ، حتى بعث الله ابراهيم عليه السلام ليطهر لهم عقيدتهم من هــذا الفساد الذى انتشر فيها •

فالشجاعة فى ابداء الرأى صفة من صفات المسلم ، لأن الاسلام فرض عليــه الجهر بالحق ، فلا يتستر على جريمة ، ولا يشايع ظالما ، أو يمالىء ذا نفوذ على حساب مصالح الناس ، فهو لا يخشى الا الله فى تقييم ما يراه طبقا للقوانين الاسلامية والشرائع السماوية،فان حاول وعجز عن تأدية هــذا الواجب بالصورة التى تؤثر تأثيرا ايجابيا ، فعليه أن ينكر الفســاد بالصورة التى يستطيعها لقول رســول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، مان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » •

غير أن الشجاعة فى ابداء الرأى ليس لها نموذج واحد فى كل الظروف والأحوال فهو يختلف من وقت لآخر ، ويتنوع لمقتضيات الأحوال والملابسات ، فقد تكون مطلوبة فى وقت بحيث يكون النكوص عنها جبنا ، والعدول عنها اثما ، والهروب من مواجهة الظالم خيانة للدين وللأمة ، بينما تكون فى ظروف أخرى تهورا ، والقاء بالنفس الى التهلكة ، ولا يوجد مقياس معين يبين للانسان متى يكون ابداء الرأى شجاعة ومتى يــكون تهورا ، ولكن هنــاك خطوط عامة تحدد معالم التهور ، بحيث يعد من يجاوزها خارجا عن المعقول فى ابداء الرأى ومتجاوزا ما تعارف عليــه الناس من سمات الشجاعة فى مواجهة الظالمين ، فالتطرف فى النقد تهور ، ومجاوزة حدود الموضوعية فى ابداء النصح يبعد الناصح عن منطقة الأمان ، والتطاول على الناس بحجة الشجاعة فى ممارسة النقد يثير مشاكل يعجز المرء عن مواجهتها فتؤدى به الى دروب ملتوية وطرق وعرة لا يستطيع الخلاص منها فيقضى عليــه دون أن يحقق هــدفه أو يصل الى مبتغاه •

وعليه •• فان الشجاعة فى ابداء الرأى مطلوبة ، ولكن بشرط أن

تكون داخل اطار المعقول ، وفى الحدود التى توصل الى الهدف المطلوب ، والا كانت تهورا يؤدى الى التهلكة ، وهو ما حذرنا الاسلام من الوقوع فيه حيث يقول : « **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وَأحسنوا ، ان الله يحب المحسنين** »[٢] ..

فالاحسان لا يقتصر على انفاق المال فقط ، وانما هو مطلوب فى كل عمل ، فهو فى مجال الرأى وضع ممارسة النقد وضعها الصحيح بحيث لا تنتج آثارا تدمر من يباشرها .

فعلى المسلم أن يوازن بين السلبيات والايجابيات فى هذا الميدان . فان طغت الأولى فان سلوكه يعتبر تهورا ، وان رجحت كفة الثانية فان عمله يظل فى دائرة الشجاعة .. ولا ينبغى أن ينسى المرء أن تقدير هذا راجع للظروف والمناخ العام فى المجتمع .

* * *

(٢) البقرة : ١٩٥

٩ — الدين والسياسة

(أ) سوف أحدثك اليوم عن موضوع يظن كثير من المسلمين أنه بعيد عن الدين •

● وما هو هذا الموضوع ؟

— هو ارتباط الدين بالسياسة •

● وهل توجد علاقة بين الدين والسياسة ؟

— نعم •• فالاسلام دين ودولة ، وتعاليم الاسلام تنظم حياة الانسان فى جميع جوانبها ، ومن بينها ارتباطه وعلاقته بمؤسسات الدولة ، فليس هناك انفصال بين ما هو دينى ، وبين ما من شأنه أن يتعلق بشئون الحكم والادارة • واذا تصفحت تاريخ الدولة الاسلامية ، لوجدت أن الدين كان العامل الرئيسى فى توجيه الأحداث السياسية ، وقد أدرك ذلك الأوربيون ولا زالوا ينظرون الى الشرق الاسلامى من هذه الزاوية ، تلمس ذلك فى كتاباتهم وأفعالهم ، فاسمع ما قاله « **جوتشالك** » الألمانى فى كتابه : « **الاسلام قوة عالمية متحركة** » **يقول** فى هذا الكتاب :

« لازال الشرق الاسلامى يكون وحدة سياسية وثقافية ودينية ، على الرغم من ظهور الاتجاهات القومية المتعددة فى أقطاره منذ نهاية القرن التاسع عشر ، اذ يشعر المسلمون أن ترابطهم يتجاوز حدود الدولة السياسية ، فالدين بالنسبة لهم ليس أمرا شخصيا ذاتيا ، ينفصل عما عداه من النظم الاجتماعية التى ترتضيها الأغلبية أساسا لحياتها داخل اطار الدولة السياسى ، بل هو القانون الأساسى الذى يشكل كل جوانب حياة المسلمين ، وعليه فمن يتحدث عن روح الاسلام ، فيجب عليه أن يراعى الوحدة الكلية : الروح أو العقل ، والطبيعة أو الجسد ، والثقافة • فحياة المسلمين التى تحكمها التعاليم الدينية ، تختلف عن حياة الناس خارج المجتمعات الاسلامية ، سواء فى الشرق أم فى الغرب ، فطبيعة المسلم ترفض المادية المجردة ، رفضها لانكار وجود الله » •

● هل يفهم من ذلك أن الاسلام له نظام خاص فى أسلوب الحكم ؟

— ماذا تقصد من هذا ؟

● أقصد أن هناك نظامان يسيطران على العالم ، النظام الشيوعى ، وهو نظـام الحزب الواحـد الذى يرسـم سياسة الدولة فى التعليم والاقتصاد والتجارة ... و ... و ... الخ .

والنظام الرأسمالى القائم على تعدد الاحزاب ، وانتخاب نواب عن الشعب يراقبون السلطة التنفيذية ، ويشرعون لها فى جميع المجالات ، فهل للاســلام نظام كهـذا أو ذاك ، يلتزم المسـلمون بتطبيقه فى مجال الحـكم ؟

ــ اعلم أن الاسلام لم يذكر فى هـذا الصدد الا مبادىء علمة ، يجب على المسلمين التزامها وهى :

أن يكون الحكم بما أنزل الله امتثالا لقوله تعالى : « **فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم** »(١) ..

وأن يكون الأمر شـورى بينهم ، تنفيذا لقوله تعالى « **وأمرهم شـورى بينهم** »(٢) ..

وأن يكون العدل بين الناس هو أساس الحياة فى المجتمع الاسلامى ، كما قال تعـالى : « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** »(٣) ..

فاذا تحققت هـذه المبادىء فى المجتمع ، كان ملتزما لمـا أمر به الله ، سواء أكان تطبيقها على هيئة برلمـان ، أو مجالس منتخبة ، أو هيئة شورى ، فذلك كله متروك لظروف العصر والبيئة ، فقد يناسب مجلس الشورى مجتمعا فى زمن معين ، ولا يحقق مبدأ الشورى فى زمن آخر ، بل ينبغى استبداله بمجلس نواب ، أو بمجلس شـيوخ أو كليهما .

اذن ، فالمدار هو تحقيق المبـادىء الثلاثة التى ذكرتهـا لك ، والوسيلة متروكة للمجتمع يطبق ما يشاء من النظم بشرط أن يكون الحكم بما أنزل الله ، وتتحقق العدالة للمجتمع ، ويكون الأمـر شـورى بين الناس ، فلا ينفرد به شخص أو مجموعة أو طائفة .

* * *

(١) المائدة : ٤٨
(٢) الشورى : ٣٨
(٢) المائدة : ٨

(ب) تحدثنا فى الأسبوع المــاضى عن ضرورة التزام المجتمع الاسلامى فى مجال الحكم بمبادىء ثلاثة •• هى :

الحكم بما أنزل الله ••

وأن يكون الأمر شــورى بين الناس ••

وأن يكون العــدل هو الهدف الذى يســعى الى تحقيقه كل فرد فى الدولة •

فهل وضح هــذا فى ذهنك ؟

● نعم •• ولكن أريد أن أستفسر منك عن شىء دار فى خاطرى ، ألا وهو : ما الحكم لو تحقق فى نظام الحكم شرط أو شرطان من الشروط الثلاثة التى ذكرتها وهى :

الحكم بما أنزل الله والشورى والعدل ، أى ما الحكم لو حكم الحاكم بغير ما أنزل الله ، ولكنه توخى العدل فى قضائه بين الناس ، أو لو حكم حكما ديكتاتوريا عادلا ؟

ـــ أحب أن ألفت نظرك الى أن دعوى العدل فى الحكم الديكتاتورى مرفوضة ، ذلك أن الناس تتفاوت فى التفكير والسلوك ، ومن هنا يأتى حكمهم على الأشــياء مختلفا ، ولا يوجد انســان معصوم من الخطأ ، فمبدأ الشورى هو تأمين ضد خطأ الانسان ، لأن الحكم الصادر عن الجماعة أقل تعرضا للخطأ من الحكم الصادر عن فرد واحد ، لأن للجماعة تقلب الأمر على جميع جوانبه ، فتظهر ملابساته وظروفه وتتضح جميع جزئياته ، وتبدو كل أبعاده ، فاذا اتخذ فيه قرار بعد كل هــذا كان احتمال الصواب فيه راجحا على احتمال الخطأ ، أما اذا انفرد واحد فقط بالدراسة والحكم على الأشياء فكثيرا ما يقع فى الخطأ لأن امكاناته محدودة مهما بلغ من العبقرية والذكاء ، فهو وان فذ الجميع فى هــذا ، فلن يبلغ درجة النبــى ﷺ ، الذى رباه الله فأحسن تربيته ، وأيده بالوحى ، ومع ذلك أمره الله سـبحانه وتعالى أن يستشير أصــحـابه فقال تعالى : **« وشاورهم فى الأمر »** (٤) ••

---

(٤) آل عمران : ١٥٩

وما ذاك الا ليعطى لنا المثل الذى يجب أن يحتذى فى كل أمر يحتاج الى قرار ، أى أنه تشريع للشورى فلا ينبغى لأحد أن ينفرد باتخاذ القرار وخاصـــة اذا كان يتعلق بمصير أمة ، ومستقبل دولة ، وبحياة المسلمين على اختلاف مواقعهم ومراكزهم •

أما الدعوى بأن فى الامكان تحقيق العدالة بدون الحكم بما أنزل الله ، فليست صحيحة دائما • لأن عقول البشر متفاوتة ، وامكاناتهم فى فهم ما يعود بالمصلحة على الفرد والأمة محدودة ، وتخلصهم من المؤثرات الزمانية والمكانية شـبه مستحيل ، وخضـوعهم للأهواء وللاعتبارات الشخصية والعرفية يكاد يكون هو القاعدة العامة ، ولذا فاذا تحقق العدل فى ناحية من نواحى الحيــاة عن طريق القوانين التى وضعها الانسان ، فانما يغيب فى كثير من النواحى ، واذا حصلت طائفة أو مجموعة من الشعب على حقوقها بواسـطة ما شرعه الانسان فان هنـاك طوائف وجماعات كثيرة لا تستطيع الوصول الى حقوقها عن طريق هذه التشريعات الانسانية ، لأن واضعها عاجز الى حد ما عن تلبية متطلبات كل الطوائف ، وتحقيق العدل لكل انسان يعيش فى المجتمع ، لأنه لا يلم الالمـام الكامل بنفسيات كل الناس وطبائعهم •

أما الله سبحانه وتعالى فهو خالقهم ، ويعرف كل ما فى الانسان من غرائز وطبائع ويدرك ما يضرهم وما ينفعهم ، ولذلك كانت تشريعاته عامة تلبى كل الاحتياجات ، وتركت التفصيل حسب ظروف كل أمـة واحتياجاتها •

وعليـه ، فما أنزل الله هو الدستور ، وتفسير الناس له هو القواعد الجزئية التى تحقق الهدف من وضع الدستور ، ألا وهو وضع ما أنزله الله من أحكام موضع التنفيذ ، وتحقيق مبدأ الشورى فى تفسير هذه المبادىء بحيث لا يخرج هـذا التفسير عن هدف التشريع السـماوى وهو اقامة العدل فى المجتمع •

* * *

١٠ — الشـــورى فى الاســـلام

أودع الله فى الانســـان قدرات تعينه على مواجهة مشاكل الحياة ، بحيث يستطيع اخضاع ما يمكن اخضاعه لتسير حياته فى خط منسجم مع طبيعة الوجود ، فان لم يمكن تطويع ناحيـــة ما من نواحى النظـــام الاجتماعى ، فقد أعطاه القدرة على تطويع نفســـه لتعيش فى ســـلام نفسى مع الظروف التى تتطلبها طبيعة بناء المجتمعات وتقتضيها ظروف العيش داخل الهيكل الاجتماعى وتفرضها أنظمة الحيـــاة مع آخرين يختلفون معه فى الاتجاهات والميول والأهواء ، فتتشابك هواياتهم ، وتتعارض اهتماماتهم ، وتتصارع آراؤهم حولمفهوم العلاقاتالاجتماعية، وتتصادم نظراتهم حول أسلوب العيش تحت ظل نظام واحد ، وداخل اطار يحيطهم جميعـــا •

ومن هنا كان لابد من الاتفاق على أسلوب ينسق بين الآراء المختلفة ، بحيث يؤدى الى اختيار أصلح الصور للوصول الى وضع يعيش فيـــه أفراد المجتمع فى ظل نظام يكفل لهم حقوقهم ، ويهيىء لهم أحسن الظروف لتأدية ما عليهم من واجبات ، نظـــام لا يفرق فيه بين فـــرد وآخر على أساس عنصرى ، أو طبقـــا لأهواء فردية ، ونزوات غريزية ، ولا تضيع فيه حقوق الآخرين ارضاء لطبقة معينة ، أو اشباعا لرغبـــة صاحب نفوذ أو سلطان •

ولمـــا كان تحقيق وجود مثل هـــذا النظام للمجتمع ، هو الرغبـــة الملحة عند الغالبية العظمى ، ان لم يكن عند جميع أفراد البشر ، فقد جد كثير من المصلحين فى البحث عن أحسن الطرق وأسلمها لتحقيق هذا التصور المنشـــود للمجتمع ، فجربت البشرية كثيرا من الأســـاليب والأنظمة سعيا وراء ايجاد مثل هـــذا النظام وتطبيقه ، بحيث يكون المنار الذى يهدى الناس الى الطريق السليم فيخرجون من الأوضاع التى عانى منها الضعفاء كثيرا ، وجاهد فى سبيل تغييرها كثير من دعاة الاصلاح فى عالم البشرية •

فاذا نظرنا الى الأساليب التى طبقت فى مختلف العصور والأزمان ، وبين المجتمعات المتعددة فى الميول والاتجاهات ، لوجدنا أن المجتمع الصالح يدور مع الشورى وجودا وعدما ، بمعنى أنه كلما مارس الناس حقهم فى ابداء الرأى وكشف جوانب الضعف فى الظواهر الاجتماعية وبيان ما يقع فيه الناس من أخطاء ، ومحاولة اصلاحها ، وعـدم التوانى فى نقد من بيدهم الأمر والسلطان ، والجد والمثابرة فى اعطاء البديل لكل ما يرونه غير صالح ، سلم المجتمع من الأمراض ، وقوى تماسكه ، وسار على الطريق الصحيح الذى يؤدى الى تحقيق العدالة الاجتماعية ورفع الظلم عن المستضعفين ، وتخفيف العبء عن الضعفاء والمسـاكين ، ذلك أن الفرد مهما بلغ من النبوغ الفكرى ، والقوة فى النشاط العضلى ، والحرص الشديد على سلوك الطريق الصحيح ، فلن يستطيع وحـده الاهتداء الى ما هو أصلح للمجتمع فى كل الأحوال ، ولهذا فهو محتاج الى الاستعانة بآراء الآخرين ، بل لابد له من اللجوء الى الطريق الذى يعرف به تصورات الناس على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم لأى مشكلة من مشاكل المجتمع ، وهو ما يطلق عليـه : مبدأ الشورى .

فالشورى مبدأ من المبادىء التى يقوم عليها بناء المجتمع ، بل هى المبدأ الأساسى فى نظم الحياة الاجتماعية على اختلاف أشكالها وألوانها ، سواء أكانت نظاما عاما فى الدولة أو قواعد تنظم الحياة داخل الأسرة ، أو مبادىء يلتزم الناس بها فى سلوكهم ومعاملاتهم فى جميع نواحى الحيـاة المختلفة ، ولهذا وصف الله المؤمنين بأنهم هم الملتزمون بهـذا المبدأ الذى تتطلبه الحيـاة الاجتماعية . فقال : ((**وأمرهم شـورى بينهم**))[1] ..

لأن الانفراد بالرأى ، واتخاذ القرارات على أساس وجهة نظر شخص واحد ، أو طبقـا لهوى مجموعة معينة ، أو تحقيقا لاتجاه طائفة من طوائف المجتمع ، يودى بالأمة الى واد سحيق تتنازع فيه الجماعات ،

---

(١) الشورى : ٣٨ .

فتتطاحن كل مجموعة مع الأخرى فى سبيل فرض ما تراه صالحا لها ، أو سعيا وراء تحقيق مصالحها المـادية والفكرية ، دون مراعاة مصالح الآخرين ومن غير اعتبار لصالح الأمة ككل ، ضاربة بالوحدة الاجتماعية عرض الحائط ، اذ هى لا تهتم الا بما يعود على أفرادها بالخير ، غير مدركة أنه خير مؤقت ، ومحدود فى دائرة ضيقة ، اذ سرعان ما يجر هـذا التنازع والشقاق على الأمة كلها الفشل والانهيار ، فتعجز عن مواصلة السير على طريق التقدم ، وتلك آفة تصيب من حصل من وراء هـذا التطاحن على شىء ، كما تضر أيضاً بالفريق الذى وقع عليه الظلم .

ولأجل أن يسير المجتمع فى طريق الحيـاة آمنا من هـذه الهزات ، ومحصنا ضد تلك الضربات القاصمة التى تصيبه من جراء الانفراد بالسلطة ، أو الاستحواذ على مغالبة الأمور .. بين الله تعالى فى كتابه العزيز أهمية الشورى لسلامة المجتمع ، فعدها من الأوصاف الأساسية التى ينبغى أن يتصف بهـا المؤمنون ، حيث قال : **« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون »**[٢] ..

فاذا كان تارك الصلاة يعتبر عند فقهاء الشريعة فاسقا ، أو كافرا ان تركها عمدا فان من ينكر الشـورى فى المجتمع الاسلامى يعد من الفاسقين الذين لم يلتزموا بما أمر الله به،لأن عطفها فىالآية على فريضة الصلاة التى هى عماد الدين يكسبها أهمية ، ويبين لنا أنها من الأمور التى يجب اتباعها ، وما ذاك الا لأن الشـورى تحمى المجتمـع من الديكتاتورية الفـردية ، وتحفظه من تسلط أصحاب الأهواء ، وحاملى الشعارات التى تضر بالمجتمع وتسد الطريق أمام المغامرين الذين يريدون الانفراد بالسلطة ليتحكموا فى مصائر الناس ، وليذيقوا الأحرار سوء العذاب .

---

(٢) الشورى : ٣٦ — ٣٨ .

ولم يستثن الاســلام أحدا من الالتزام بمبدأ الشورى ، حتى ولو كان نبيا يوحى اليه ، فقد ضرب الله لنا الأمثال فى سلوك النبى ﷺ فيما لم يوح اليه به ، حيث وجهه الى مشاورة أصحابه ، فتذكر المصادر التاريخية أنه شاور أصحابه فى كثير من القضايا التى كانت تواجه المسلمين ، اذ ثبت أنه استشارهم فى الخروج لملاقاة عير قريش قائلا : « أشيروا على أيها القوم » .. فتكلم أبو بكر ، وتكلم عمر ، فلما كرر قوله : « أشيروا على أيها القوم » ، قام ســعد بن عبادة فقال : ايانا تريد يارسول الله ، والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها الى برك الغماد لفعلنا » ..

فيستفاد من هــذا الحوار الذى دار بين محمد ﷺ وبين أصحابه أنه لم يرد الانفراد باتخاذ قرار ملاقاة قريش ، بل أشرك معه فى الرأى كبار الصحابة ، وذلك ليضرب للمسلمين المثل فى أنه لابد من مشــورة أصحاب الرأى عند اتخاذ القرارات فى المســائل التى تهم المسلمين ، فلا ينبغى لأحد ، مهما كان مركزه فى الدولة أن ينفرد بتحديد مسار عمل الدولة واتجاهاتها ، بل لابد من طرح الأمر أمام القادرين على الاسهام بالرأى البناء ، لأن ذلك هو الأسلوب الذى يحمى الأمة من التخبط بين القرارات الفردية الهوجاء ، ويحفظها من الأخطار التى تصيبها من جراء الانفراد باتخاذ القرارات .

كذلك أمر الله رســوله محمدا ﷺ بأن يســلك مع قومه طريق الحسنى — أو بالتعبير العصرى طريق الديمقراطية — ليجمع شتاتهم ، ويؤلف بين آرائهم ، كى يسيروا على نمط يؤدى بهم الى الخير لمجتمعهم ، والى الصالح لحياتهم ، يقول الله تعالى فى وصف أسلوب النبى ﷺ فى قيــادة الأمة : **« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »**[1] .

أى لو كنت متبعا طريق الديكتاتوريين الذين يقسون على شعوبهم ،

---

(٣) آل عمران : ١٥٩ .

ويتحكمون فى مصائر الناس . دون شفقة عليهم ولا رحمة بهم لانهارت الجماعة ، وأصبحت شيعا وأحزابا ، لا يجمعهم طريق ، ولا يؤلف بينهم مبدأ ، ثم يعقب الله على هذا التقرير لحالة قيادة محمد ﷺ للأمة ، فيأمره بتطبيق مبادىء لا زالت هى السمات الأصيلة فى حكم الشعوب حكما ديمقراطيا فيقول : « **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله** »(٤) ..

أى فاذا استقر الرأى على قرار فلا تتردد فى تنفيذه لأنه يعبر عن ارادة الجماعة .

ولو تصفحنا سنة رسول الله ﷺ ، لوجدناها مليئة بالأحاديث التى توصى المسلمين بالشورى وتحذرهم من الانفراد باتخاذ القرارات فيما يجد من أحداث .. نذكر منها على سبيل المثال ما روى عن على رضى الله عنه أنه قال : « قلت يا رسول الله .. الأمر ينزل بنا بعدك ، لم ينزل فيه قرآن ، ولم يسمع منك فيه شىء . قال : « اجمعوا له العابد من أمتى ، واجعلوه بينكم شورى ، ولا تقضوه برأى واحد »فهذا الحديث يدل على وجوب أخذ رأى المختصين ، ويلزم المسلمين بالخضوع لرأى الأغلبية ، كما أخرج الحاكم عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لو كنت مستخلفا أحدا من غير مشورة ، لاستخلفت ابن أم عبد » فهذا بيان للمسلمين يدل على أنه وهو نبى لم يكن من حقه استخلاف أحد من غير مشورة،فمن الأولى ألا يكون لمن سواه الحق فى ذلك ، وهو تأكيد على أن تولية الحاكم لا تكون الا عن طريق الانتخاب ، وذلك غاية ما تتمناه الشعوب فى اختيار حكامها .

سار الخلفاء الراشدون من بعده على أسلوب الشورى فى الحكم ، فنرى أن تولية أبى بكر رضى الله عنه لم تتم الا عن طريق الشورى فى اجتماع ضم كبار المسلمين فى المدينة ، فقد روى أنه لما توفى الله نبيه اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ليختاروا خليفة لهم ، فذهب اليهم

(٤) آل عمران : ١٥٩ .

أبو بكر وعمر وأبو عبيدة من المهاجرين ، وحصل نقاش طويل بين الفريقين، فكان الأنصار يرون أنهم أحق بالخلافة على أســاس أنهم هم الذين دافعوا عن الاســلام ، وحموه بأنفسهم وأموالهم ، وأنهم أصــحاب الدار ، وهم الأكثرية •

بينما رأى الفريق الثانى أنهم أحق بهذا الأمر ، على اعتبار أنهم أول من آمن بالاســلام ، فهم أولياء الله ورســوله ، وهم الذين صبروا معه على شــدة أذى قومه ، وبعد أخذ ورد استقر الرأى على مبايعة أبى بكر خليفة ، ثم أخذت له البيعة من المسلمين جميعــا ، وأسلوب أخذ البيعة قريب الشــبه بالاستفتاء الذى يجرى فى بعض النظم السياسية فى عصرنا الحاضر •

وكذلك كان الأمر فى تولية عمر رضى الله عنه ، فيذكر الرواة أنه لمــا شعر أبو بكر بقرب وفاته رشح عمر لخلافته ، بعد أن استشار أولى الرأى مثل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وغيرهم، ولم يكتف بهذا ، بل خاطب الناس جميعا قائلا : « أترضون بمن أستخلف عليكم •• فانى والله ما آلوت من جهد الرأى،ولا وليت ذا قرابة •• وانى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب •• فقالوا : « سمعنا وأطعنا » •• ولم يصبح عمر خليفة بمجرد هذا الترشيح ، الا بعد أن بايعه المســلمون فى المســجد فى اليوم التالى •

ومثله حدث فى تولية عثمان وعلى ، وان اختلفت طريقة الاختيار تبعا لتغير الظروف والملابسات •

● فاذا كان هذا هو وضع الشورى فى الاسلام ، فلماذا نرى معظم العالم الاسلامى اليوم قد تنكر للديمقراطية •• اذ نرى معظم أنظمة الحكم فيه أقرب الى الديكتاتورية منها الى حكم الشــورى الذى وصى الله به نبيه ﷺ ؟ •

— ان الوضع الموجود اليوم فى العالم الاسلامى له خلفيات تضرب بجذورها الى أعماق التاريخ عبر قرون مضت • فالتمزق الذى يســود

المجتمعات الاسلامية ، والخلافات التى تسيطر على الحياة العامة فيها ، والمنازعات الاقليمية والسياسية التى تطغى على كل ما حولها من مظاهر الحياة ، نتجت عن عوامل عدة ، بعضها يرجع الى أسباب دينية ، والبعض الاخر سياسى أو اقتصادى •

أما المؤثرات الدينية فتتلخص فى أن المسلمين تعرضوا لهجمات من أصحاب الأديان الأخرى ، تركزت حول اقامة فواصل بين الاسلام والمسلمين ، ويبدو ذلك واضحا فى الموجات الفكرية التى تعرضت لها المجتمعات الاسلامية منذ الحروب الصليبية حتى اليوم ، فقد كان من أهداف دراسات المستشرقين فى العالم الغربى محاولة اقناع الشباب المسلم بأن مبادىء الاسلام لا تصلح اليوم للتطبيق فى المجالات السياسية والاقتصادية ، ونجحوا فى تربية جيل لا يعرف عن الاسلام شيئا فى هذا المجال • ومن هنا اتجهت الصفوة الحاكمة — وهم من الذين تتلمذوا على الفكر الأجنبى عن الاسلام — الى تطبيق النظريات الأجنبية عن العالم الاسلامى ، فوقعت بينهم وبين شعوبهم منازعات ، أدت الى فرض نظم ديكتاتورية لقمع المعارضين لهذا الفكر المستورد •

اما الجانب السياسى الذى أبعد العالم الاسلامى عن منابع فكره ، وأغرقه فى نزاعات لا آخر لها ، فقد خلقه الاستعمار الذى سيطر على العالم الاسلامى فترة من الزمن حاول خلالها أن يقطع أوصال المسلمين ، ويمزق حبال الاتصال بينهم . فسيطر عليهم سيطرة كاملة ، وأكد هذه السيطرة بالنظم الاقتصادية التى استخدمها ، فتحكم بها فى توجيه سير الحياة فى جميع المجالات ، وبهذا فقد المسلمون هويتهم وأصبحوا يطبقون نظما ديكتاتورية ، أو شبه ديكتاتورية اليوم فى مجتمعاتهم ، فلا ينبغى أن ينسب هذا الى الاسلام ، وانما الى الظروف التى خلقها الاستعمار لهم . فهو الذى هيأ الجو لهذه النظم ، وهو الذى ساعد على وجودها •

أما ما يسمع اليوم عن انتفاضات اسلامية ، هنا وهناك ، فليست

الا تعبيرا عن الضغوط التى يتعرض لها المسلمون ، فاذا نجحت بعض هذه الانتفاضات فى السيطرة على مقاليد الحكم ، فلا يعتبر منهجها فى الحكم اسلاميا ، لأن القائمين عليها لا يزالون تحت تأثير ثورة الانتفاضة ضد الظلم ، فهم لا يتحكمون فى قراراتهم بحيث تخرج طبقا للتعاليم الاسلامية ، وفضلا عن هذا فان الجو لم يهيىء لهم بعد معرفة مبادىء الاسلام فى السياسة والحكم على الوجه الصحيح ، لأنهم تربوا فى جو غير اسلامى ، فهم اما متطرفون يمينيون ، سيطرت عليهم العاطفة الدينية دون أن يكون لهم دراية بفقه الاسلام وشريعته ، واما متعصبون سلكوا هذا المسلك كرد فعل لما وقع عليهم من الظلم قرونا طويلة .

وعليه .. فليس ما يجرى فى العالم الاسلامى اليوم حجة على الاسلام ، فمن يريد معرفة مبادئه فعليه بدراسة نصوصه وقراءة ما طبقه المسلمون الأوائل فى مجتمعاتهم ، وقد وضحنا ذلك فى صدر حديثنا فيما يتعلق بالشورى ، فبينا أنها مبدأ من مبادىء الاسلام الذى نص عليه فى القرآن الكريم ، وفى سنة رسول الله ﷺ القولية والفعلية .

فاذا اعتبرت الديمقراطية اليوم فى العالم الغربى مظهرا من مظاهر التقدم فى العصر الحديث ، فليعلم أنصار التقدم أن الاسلام طبقها قبل أربعة عشر قرنا .

* * *

١١ — رأى الاسلام فى الديمقراطيات المعاصرة

يميل الانسان بطبعه الى حب التملك ، وممارسة السيطرة على ما حوله ، ومن حوله ، فهو يتجه منذ طفولته بدافع الغريزة الى الاستحواذ على ما يقع فى يده ، ولا يقبل أن يشاركه فيه طفل آخر ، بل قد تدفعه هذه الغريزة الى محاولة سلب ما بيد الأطفال الآخرين والاستيلاء عليه ، ويرفض كل محاولة لاستخلاص ما ليس له حق فيه من يده ، وتظل هذه الغريزة مسيطرة عليه حتى مماته ، وان اختلفت صورها وأشكالها ، فهى تتحول بعد مرحلة الطفولة الى السعى وراء جمع المادة ، أو الجرى وراء ما يضفى عليه ثوب الشهرة ، أو التزاحم والتقاتل على السلطة •

فهذه الميادين الثلاثة هى ساحات المنافسة بين الناس جميعا ، غير أنهم يختلفون فى سلوك الطرق المؤدية الى بلوغ الأهداف فى كل ميدان ، فبعضهم يركب الصعاب ويرتاد المفاوز والقفار للحصول على المادة ، غير عابىء بما يرتكبه من سيئات فى حق بنى وطنه ، وما يقترفه من فواحش مع من يعترضون سبيله ، لأن هدفه هو المزيد من المال ، مهما كلفه ذلك من مجاوزة الحدود المشروعة ، والقوانين التى تحفظ حق الآخرين • والبعض الآخر يسلب حقوق الناس فى سبيل الوصول الى مركز يضفى عليه هالة الشهرة وبريقها ، ويشبع عنده غريزة حب الظهور والتعالى على من حوله • وهناك فريق ثالث استعبدته غريزة الحكم والسلطة والسلطان ، فملكت عليه حواسه ، وسيطرت على مشاعره وعواطفه ، وأخضعته لهواجسها وتخيلاتها ، فاندفع وراء كل صوت يعطيه أملا فى هذا المجال ، فهو يبذل أقصى ما فى وسعه فى سبيل الوصول الى مراكز الحكم ، مسترخصا كل ما لديه ، حتى وان اقتضى الأمر المجازفة بكل ما يملك ، لأن غريزة حب السلطة عنده خدرت مشاعره وأحاسيسه ، فحولته الى انسان لا يبالى بما يصيبه فى سبيل ما يعتقد أنه موصل الى الهدف الذى سيطر على جميع حواسه ، وبالتالى فهو لا يعبأ

بحقوق الآخرين ، اذ يرتكب جنايات ، فيصادر أموالا ويسلب حريات في سبيل الاحتفاظ بحكمه وسلطانه ٠

ولهذا عنيت المناهج التربوية — سواء أكانت دينية أو مدنية — بالطفل ، فركزت على غرس الفضيلة في نفسه ، وحاولت تعويده على حب الغير ، وتهذيب غريزة حب التملك عنده بحيث يستقر في نفســه أن للآخرين حقوقا أيضا ، فلا ينبغي أن يعتدى على هــذا الحق ، مهما كانت الظروف والملابسات ، فالمـال وان كان لازما للحياة ، الا أنه يجب على المرء أن يجمعه من طرق مشروعة حتى لا يظلم أحدا ، والشهرة وان كانت غير مذمومة ، فلا يجوز سلب حقوق الآخرين في سبيل الوصــول اليها ، والسلطة وان كانت لازمة في المجتمع ، الا أنه لا يجب التنافس عليهـا بأسلوب غير انساني ، فلا يضار أحــد في نفسه أو ماله أو حريته ، بحجة تأمين الطريق الموصل الى الحكم والسلطان ، أو تحت شــعار تدعيم نظم الحكم ومؤسساته أو في ظل ســتار المحافظة على سطوة الدولة وهيبتها ٠

غير أن تأثير المناهج التربوية ، والمؤسسات التعليمية في سلوك الفرد محدود بالظروف الاجتماعية ، وبالأحوال السياسية ، اذ سرعان ما ينسى الانســان ما تلقاه في هــذه المؤسسات من مبادىء تدعو الى الفضيلة ، وتنفر من الرذيلة ، لو لم يجد مجتمعا صالحا يرعى حقوق الناس ، ويحافظ على حرمات المواطنين ، ولن يبلغ هذه الدرجة الا اذا التزم أفراده بالتواصي بالحق فيما بينهم ، واتبعوا الطريق التي تؤدي الى حفظ الحرمات ، وتأمــين الممتلكات ، وترســيخ قواعد الحريات في المجتمع ، فلا يطغى أحــد على آخر ليســلبه حريته ، ولا يعتدى مواطن على أخته ، فيهتك عرضه ، أو يسرق ماله ، أو يجرده من حقوقه المشروعة كمواطن ، فيحرم عليه ممارسة نشــاطه في أي مجــال من مجالات الحيــاة في المجتمع ٠

ولمـا كان الانســان يميل بطبعه الى الاعتداء على حقوق الآخرين في سبيل اشباع غرائزه ، فقد فرض الله على المسلمين التواصي بالحق ،

حتى لا يتمادى المعتدى فى بغيه وعدوانه ، فحثهم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا تشيع الفاحشة بين الناس ، أو ينتهك أحد حرمات الضعفاء والمساكين ، أو يستغل قوى العامة والدهماء فى سبيل مصلحة فرد أو طائفة ، أو يستعمل مواقع السلطات فى الدولة وسيلة للبطش بالأبرياء أو لاقصاء أصحاب الرأى الحر ، والداعين الى الفضيلة من ساحة الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فالتواصى بالحق ، أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الفرائض التى فرضها الله على المسلمين ، حتى تتحقق العدالة الاجتماعية ، ويسود الحق ، وترسخ الفضيلة فى نفوس الناس ليصبح المجتمع الاسلامى متماسكا قويا ، بعيدا عن مواطن الضعف والهلاك لأن اعتداء الأفراد بعضهم على بعض نذير بالانهيار والضياع ، وصدق الله اذ يقول :

« والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[1] ..

ويقول : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »**[2] ..

ويقول : **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »**[3] ..

ومما يصور لنا أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حياة المجتمعات قول رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده . ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ..

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — أو بالتعبير المعاصر : حرية النقد وممارسته ، أو افساح المجال لسماع الرأى المعارض — هو الركن الأساسى فى قيام الدولة التى تظل مواطنيها جميعا بمظلة الأمن والطمأنينة ، وتهيىء لهم الظروف التى تساعد كل فرد فى الحصول

---

(١) سوة العصر .
(٢) آل عمران : ١١٠ .
(٣) آل عمران : ١٠٤

على حقوقه ، كما يطالب فيها كل فرد بتأدية ما عليه من واجبات ، بحيث لا يستغل فرد أحد المواطنين ، ولا تستأثر طائفة أو جماعة بخيرات الوطن دون غيرها من الطوائف والجماعات ، ولا يضطهد فيها انسان ، مهما كان موقعه فى سلم الحياة الاجتماعية والسياسية فان تحقق ذلك فى أى نظام من النظم التى تطلق على نفسها « النظام الديمقراطى » أو « الحكم البرلمانى أو الدستورى » .. فالاسلام يقره ، بل يدعو المسلمين الى الوقوف وراء كل ما من شأنه أن يحقق العدالة بين الناس جميعا ، لا فرق فى ذلك بين حاكم ومحكوم ، ولا بين سيد ومسود .

وما ذاك الا لأن الاسلام دعا الى التراحم والتعاطف بين الناس ، والى عدم الظلم واستغلال الضعيف ، والى أن يؤدى كل واجبه ، ويأخذ كل ذى حق حقه ، ولم يحدد لنا صورة معينة لتحقيق هذه الأهداف ، بل ترك ذلك لظروف العصر والبيئة ، وعليه فان ارتضت الأمة نظاما خاصا ، رأت فيه أنه يحقق هذه الأهداف ، فلا حرج عليها من تطبيقه ما دامت قد اتبعت فى الموافقة عليه القاعدة العامة التى أوصى بها الله فى كتابه العزيز حيث يقول : **« وأمرهم شورى بينهم »**[٤] ..

أما اذا كان النظام الديمقراطى يحرم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — أو كما يقال فى لغة السياسة المعاصرة لا يسمح بقيام معارضة فى الدولة ، فيعاقب أصحاب الرأى الحر أو يتعقب الذين ينتقدون أصحاب السلطة فى الدولة — أو يميز طائفة على أخرى ، كما هو الحال فى النظام الشيوعى ، فان الاسلام يرفضه ، بل يدعو المسلمين الى التكاتف والتساند للخلاص منه .

واذا ساعدت الديمقراطية على خلق مناخ يساعد أصحاب الثروات الضخمة على استغلال من بيده السلطة فى سبيل الحصول على المزيد من المال ، أو على تهيئة ظروف تمكنهم من السيطرة على مؤسسات التوجيه والاعلام فى الدولة ، كما هو واقع فى بعض البلاد الرأسمالية ،

---

(٤) الشورى : ٣٨ .

فان الاسلام يرفض هـذه الظواهر ، لأنها تؤدى الى استغلال الضعفاء ، وضياع حقوق المواطنين •

وعليه •• فالديمقراطية التى يقبلها الاسـلام ، هى التى تحافظ على التوازن بين أفراد المجتمع ، فلا يطغى انسـان على حق آخر ، ولا يستغل مواطن موارد الدولة لنفسه ، غير عابىء بما للآخرين فيها من حقوق ، ولا يتحقق ذلك الا اذا قام كل واحد بالواجب الذى فرضه الله عليـه ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو بتعبير السـياسيين : اذا تحقق لكل مواطن الحق فى النقد ، واسماع رأيه بالطرق المشروعة الى من بيدهم تصحيح الأوضاع التى تحتاج الى تغيير •

أما صيغة ممارسة هـذا الحق ، كأن يكون أحزابا أم جماعات ، أو عن طريق مؤسسات برلمانية ، أياً كان اسمها وشكلها ، فذلك راجع لظروف العصر والبيئة ، ولا اعتراض للاسـلام على أى شـكل من الأشـكال البرلمانية ، ما دام هو الوسـيلة الصحيحة لبلوغ الأهداف التى يريد الله أن تتحقق فى المجتمـع الاسـلامى ، وهى : العـدالة الاجتماعية ، وحرية الرأى بحيث لا يرتكب أحـد مظالم فى حق الأمة ويفلت من العقاب ، أو يحال بين أحد وبين الوصول الى حقه فى جميع مجالات الحيـاة •

* * *

١٢ — موقف الاسلام من التسليح النووى

يخضع سلوك الانســان لجملة من الغرائز المعقدة يمكن أن تندرج تحت نوعين أساسيين ، وهما : غريزتا الخير والشر ، فأى عمل يقوم به الانســان — سواء أكان على المستوى الفردى ، أى يتعلق بذاته هو لا يتعداه الى غيره ، أو على مستوى الجماعة ، بمعنى أن آثاره تتعداه الى من يعيشون معه فى الأسرة ، أو فى الوطن ، أو فى المجتمع الانسانى كله — لا يخرج عن دائرتى الخير والشر ، ولمـا كان الانسان واقعا تحت سيطرة غرائز متنوعة أخرى ، تدفعه دفعا الى اشباعها ، كغريزة التملك ، أو السيطرة ، أو الشهرة ، أو الشهوة ، أو الجاه والسلطان ، وما أشبه ذلك من اتجاهات وميول ، فقد يرتكب فى سبيل ذلك جرائم فى حق نفســه وغيره ، أو يباشر أعمــالا تضر بمصالح الآخرين وتســلبهم حقوقهم الطبيعية .

فان فعل ذلك فقد انحدر فى هاوية الشر ، وغاص فى بحور الأشرار ، واتبع نداء غريزة الشر فيه ، وعندئذ يموت جانب الخير فى نفســه ، وتنفرد غريزة الشر بالسيطرة على جوارحه والتمكن من توجيهه نحو الطريق الذى يشبعها ، ويجسدها فى أعماله اسيئة التى يرتكبها ضد الآخرين ، وفى هــذه الحالة لا يستطيع أحد أن يردعه الا بالتحذير من سوء العاقبة أو بتنفيذ العقوبة المشروعة لردع من يرتكبون مثل هــذه الأعمال الســيئة .

وتتنوع العقوبة طبقا للجريمة التى ارتكبها المذنب ، كما تتعدد أداة العقاب تبعا لســطوة وقوة من اعتــدى على الآخرين ، يقــول الله تعالى : **« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص »**[1] ..

فلو اتخذ المعتدون أسلوبا بربريا فى اعتدائهم على المواطنين ، فعلى ولى الأمر أن يوقع عليهم جزاء يناســبه . يقول الله تعــالى :

(١) المائدة : ٤٥ .

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورســوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(٢) ..

لأن ذلك هو الوســيلة الفعالة فى محاربة الشر والقضاء عليــه فى المجتمع • يقول الله تعالى : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »**(٣) ..

ولا يقتصر قانون دفع الشر بالعقوبة المناسبة له على سلوك الأفراد فى المجتمع فقط ، بل هو السلاح البتار أيضا فى وقف اعتداءات الدول على بعضها ، اذ لو لم تتخذ كل دولة من أسباب القوة ما يرهب الدولة الأخرى ويخيفها من عواقب الاعتداء على حقوق جاراتها ، لأكل القوى منها الضعيف ، ولهلكت شــعوب تحت سنابك خيــول الــدول الكبرى ، وصدق الله اذ يقول : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيــل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »**(٤) ..

فاذا تسلحت دولة بسلاح ما ، كان على الدول الأخرى أن تعمل جاهدة للتسليح بمثله ، أو أكثر فتكا منه ، حتى لا يغرى ضعفها الدولة ذات السلاح الفتاك بالاعتداء عليهــا وسلبها حقها فى الحيــاة الحرة الكريمة ، وتسرى هــذه النظرية على السلاح النووى ، اذ لا يتحقق التخويف الذى تحدثت عنه الآية الســابقة الا اذا كان لدينا أسلحة تضارع الأسلحة التى تملكها الدول الأخرى ، بما فيها السلاح النووى •

وليس معنى هــذا أن الاســلام يبيح صــنع الأسلحة القتالية اباحة مطلقة ، وانما أباحها لردع من يملكها ، أو منعه من أن يقوم بعمليات ضد المسلمين ، فهى اباحة مشروطة ، فلو اتفقت الدول على تحريم صنع هــذه الأسلحة ، وكانت هنــاك ضمانات أكيدة لتنفيذ هــذا التحريم ،

---

(٢) المــائدة : ٣٣ .
(٣) البقرة : ٢٥١ .
(٤) الأنفال : ٦٠ .

فان الاســـلام يحث المسلمين على الانضمام الى مثل هـــذه المعاهدات ، لأن علة الاباحة امتنعت فى هـــذه الحالة ، أما اذا لم يتحقق ذلك فعلى المسلمين انتاج هـــذه الأسلحة امتثالا لقوله تعالى : **« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليـــه بمثل ما اعتدى عليكم »**[٥] ..

اذ لا يتحقـــق ذلك الا اذا كان عنـــد المسلمين ســـلاح يضارع ماعند أعدائهم .

ولمـــا كان الاسلام دين الســـلام ، فيجب على المسلمين أن يكون سلاحهم أقوى مما لدى الآخرين ، لأن الســـلام لا يتحقق الا اذا أدرك الأشرار أن اعتداءهم على الآخرين سيقابل بمثله ، أو أكثر منه ، فعمليـــة التسليح هى فى حد ذاتها دعامة من دعامات الســـلام ، لأن الانســـان خاضع فى معظم أحواله الى غريزة الشر التى تدفعه الى سلب حقوق الآخرين ، فينبغى ردعه وايقافه عند حده ، فذلك عقاب له ، ووســـيلة لتحرره من تسلط غريزة الشر عليه ، كما هو درس للآخرين كى يمنعوا التفكير عندما تحدثهم أنفسهم بالاعتداء .

* * *

---

(٥) البقرة : ١٩٤ .

١٣ — رأى الاسلام فى غزو الفضاء

سيطرت أبحاث الكون على عقول العلمـاء فى العصر الحديث ، فاندفعوا وراءها فى كل مكان يبحثون عن الجديد فيها ، وينقبون فى صفحات الطبيعة المجهولة عن تفسير للظواهر الكونية المتعددة ، محاولين كشف أسرارها الغامضة ، وتوضيح عجائبها التى بهرت — ولا زالت — عقول البشر ، وخلبت أفئدتهم ، وحركت مشاعرهم ، تارة نحو الاعجاب الذى يوحى الى الانسان بالعجز أمام هذا الكون ، وأخرى نحـو الخوف من الظواهر التى فهمها الانسـان على أنها تعبير عن غضـب الطبيعة عليـه ، أو نوع من عقاب الله له على ما ارتكبه من ذنوب وآثام •

وقد قطعت هـذه الأبحاث شوطا كبيرا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فدار الانسـان بمركبته الفضائية حول القمر ، وهبط على سطحه ، كما أرسلت المركبات الفضائية الى كواكب أخرى ، لاكتشاف طبيعتها ، والبحث عن امكانية الحيـاة فيها ، كذلك غاصت الأبحاث فى باطن الأرض سعيا وراء اكتشاف ما فيها من معادن ومواد تسـاعـد على تطوير الحيـاة فوق ظهرها •

غير أن بعض المسـلمين يتساءلون عما اذا كان الاسـلام يبيح للانسان أن يخوض بآلاته فى مثل هذه المجالات أم لا (؟ !) وقد أحدثت هـذه التساؤلات ردود فعل متفاوتة فى أوساط علماء الدين ، فذهب البعض الى أن من العبث أن ينفق الانسـان أموالا طائلة على هـذه الأبحاث التى لا تعود بالخير — حسب مفهوم هـذا البعض من علماء الدين — على البشرية ، بينما ترى الأكثرية منهم أن الاسـلام لا يحرم على الانسـان البحث فى أى مجال ، مادام ذلك سيعود بالخير فى أى ناحية من نواحى الحياة على مجموع الناس ككل •

ومما لا شـك فيه أن هنـاك فوائد جمة تعود على الانسـان والمجتمعات البشرية من هـذه الأبحاث ، فبواسطتها توصل الانسـان الى كشف جوانب كثيرة من جوانب ابداع الخلق ، ورأى شواهد تدل

دلالة قاطعة على وجود مبدع لهذا الكون ، وخالق نظمه على هــذا النحو من الدقة التى تعجز عنها عقول البشر قاطبة ، مما يعمق الايمان فى النفوس ويثبت اليقين بالله فى القلوب ، فيستقيم سـلوك الناس ، وتستقر حياتهم على أسس من الرحمة والتعاطف والتآلف ، تقربا الى الله ورجاء فى ثوابه ، وخوفا من عقابه .

كما أسهمت هــذه الأبحاث فى دفع عجلة التطور والتقدم فى جميع المجالات ، فأخضــعت كثيرا من الظواهر الكونيــة للانسان ، فاستخدمها فى التغلب على كثير من آلامه وفى السيطرة على ما كان يخيفه من مظاهر الطبيعة ، وفى تسخير ما فى الكون لخدمته ، وبذلك يــحقق قــول الله تعــالى : « **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السـموات وما فى الأرض** »[1] ..

فكل ما يكتشفه العلم من جوانب الكون ومظاهر الطبيعة ليستفيد منه الانسان فى حياته ، فهو بيان وكشف جديد لجوانب تسخير الله له ما فى السموات وما فى الأرض .

ولهذا حث الاســلام فى كثير من آيات القرآن الكريم على النظر فى ملكوت الله ، فقال تعــالى : « **قل انظــروا ماذا فى الســموات والأرض** »[2] ..

وقال : « **أو لم ينظروا فى ملكوت الســموات والأرض** »[3] ..

وقال « **أفلم ينظــروا الى الســماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج** »[4] ..

وقال « **أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى الســماء كيف رفعت** »[5] ..

فليس النظر قاصرا على المشاهدة والتأمل بالعين المجردة ، بل يشمل البحث بكل ما أوتى الانســان من آلات ومعدات ، تساعده على الكشف

---

(١) لقمان : ٢٠ .
(٢) يونس : ١٠١ .
(٣) الأعراف : ١٨٥ .
(٤) سوة ق : ٦ .
(٥) الغاشية : ١٧ ، ١٨ .

عن جوانب الاعجاز فى ملكوت الله ، وهو بهذا يستخدم ما آتاه الله من عقل للتفكير فى خلقه ، فيدخل بذلك فى عداد المؤمنين الذين وصفهم الله بقـــوله : « **ويتفكرون فى خلق الســـموات والأرض** »(٦) ..

فاهمال المسلمين هـــذا الجانب فى حياتهم يعد تقصيرا فى حق أنفسهم بالبعد عن اظهار عظمة الله ، لتطمئن فى ايمانها وتستقر فى عقيدتها ، فتبتعد بذلك عن عواطف الأفكار الهدامة ، وموجات الالحاد المدمرة ، بالاضافة الى أنهم بهذا الاهمال يتخلفون عن ركب الحضارة والتقدم ، فتضعف شوكتهم ، ويصبحون لقمة سائغة لأعدائهم .

فضلا عن أنهم بتجنبهم البحث فى ملكوت الله ، يكونون قد عصوا أمر الله وخالفوا تعاليمه ، فلم يمتثلوا لمـــا جاء فى القرآن الكريـــم من آيات عدة تحث على البحث والنظر فيما يحيط بالانسان من ظواهر كونية ، وتغيرات طبيعية ، يقول الله تعـــالى : « **ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من الســـماء من ماء فأحيا به الأرض بعـــد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين الســـماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** »(٧) ..

اذ لا يظهر جانب الاعجاز فى هـــذه الظواهر بشكل واضح الا بعد دراستها دراسة علمية ، تبرز ما خفى منها للنفس الانســـانية ، حتى تطمئن الى أنها من صنع العليم الحكيم .

* * *

---

(٦) آل عمران : ١٩١   (٧) البقرة : ١٦٤ .

الفصـل السـادس

في مجال التيّارات الفكرية

١ ـ خواطر داعية حول ما يثيره أعداء الاسلام

(أ) يعانى العالم الاسلامى اليوم من انقسامات فكرية حادة ، اذ يتنازعه تياران متطرفان :

أحدهما : تيار علمانى ، وهو يدعو الى بناء الحياة على أسس علمانية متحررة من كل قيود التقاليد والعادات الاجتماعية القديمة ، لأنها فى رأى أصحاب هذا التيار والداعين اليه من أكبر العوائق للتقدم والانطلاق نحو بناء حضارة تساعدنا على اللحاق بركب التقدم الذى تخلفنا فيه قرونا .

ثانيهما : تيار دينى .. وهو يعارض كل ما يتصل بالتقدم الحضارى ، فأصحابه يرون أن : مظاهر الحضارة فى المجتمع ليست الا فسادا فى الأخلاق ، وتفككا في الأسرة ، وتوهينا للعلاقات الاجتماعية . فالفرد فى المجتمع الحضارى الحديث يعيش لنفسه ، وينشد المنفعة الحسية لذاته ، لا يمنعه عنها دين ، ولا يحرمها عليه أخلاق ، فهو حر يفعل بنفسه ما يشاء فى اطار القوانين التى سنها نظام تنكر للآداب والفضيلة التى دعت اليها الأديان وصانها المجتمع بتقاليده القديمة .. ومن أجل هذا يرفضون الحضارة ، حتى لا تفسد الأخلاق ، وتمحو الدين من حياة المجتمع .

ويرفض كل جانب ما يراه الآخر أساسا للحياة فى العصر الحديث .

فالعلمانيون يهاجمون رجال الدين .. ويرجعون سبب التخلف الى آرائهم التى أعاقت حركة التقدم الحضارى .

ورجال الدين يرمون أصحاب التيار العلمانى بأنهم يدعون الى الفساد والفوضى الأخلاقية فى المجتمع .

ولن يجتمعا ما دام كل فريق ينظر الى آراء الآخر نظرة ارتياب وشك ، دون أن يمحصها ويقيمها ، ليصل الى المبادىء الأساسية فيها ، ويقارنها بما عنده من أصول ومبادىء عامة .

ولن تهـدأ نار العـداوة المتأججة بينهمـا ، مادام هنـاك من يمدّها بالوقود .

فكتاب الغرب — المهتمون بشئون المناطق الاسلامية ، والذين يكتبون عن الاسلام — يغرسـون فى نفوس العلمانيين ، أن الاسـلام هو العقبة فى طريق التقدم الحضارى فى الشرق ، وأنه لن يستطيع التغلب على المشاكل الحضارية التى تواجهه اذا ما نحا المسلمون نحو حيـاة حضـارية .

كما يدفع سلوك عشاق تقليد ظواهر الحياة الأوروبية فى مجال الحرية الشخصية رجال الدين الى التصدى لكل ما يأتى من الغرب ، ومعارضته معارضة مطلقة دون تمييز بين ما يصلح وما يضر .

أوحى هـذا الوضع — أو على الأقل ، زرع الشك فى قلوب كثير من المسلمين ، وخاصـة من يتولون مراكز قيادية فى الدول الاسلامية — بأن الاسلام يرفض الحضارة الغربية وينكرها ، لأن ما فيها يهدد وجوده ، وينقض تعاليمه فى المجتمع ، أو يعجزه عن التغلب على ما تخلقه هـذه الحضارة من مشاكل للمسلم الذى يتمسـك بتعاليمه الدينيـة ، ومن ثم تتنازعه رغبتان :

رغبة الاستمتاع بما أنتجته الحضارة الغربية ..

ورغبة التمسك بتعاليم دينـه الذى يستولى على مشـاعره .. ويمتلك عواطفه .

وبين الشـد الى هـذا ، أو الجذب الى ذاك ، يسلك طريقا لا يقره دين ، ولا يتفق مع هدف الحضارة .

اذ يصبح الدين عنده عبادة جافة ، لا روح فيها ، وان دبت فيه — حينا — مشاعر دينية ، فليست الا ثورة عاطفية ، وحماسا وقتيا .

ويبدو سلوكه الحضارى ممسوخا ، فهو يقتفى مظاهر الحضارة السـلبية ، ويـجرى وراء مخلفاتها الفرعية التى تدمر الفرد أكثر مما تصلحه ، وتهدم كيان المجتمع بدل أن تسـاعد على تقويته وتماسكه .

● لقد بينت طبيعة التيارين المتنازعين فى العالم الاسلامى ووضحت الدوافع التى ساعدت على ظهورها على هذا النحو ، دون أن تشرح لى ما يجب عمله ، حتى تصحح أخطاء كلا الفريقين ؟

— هذا هو موضوع حديثنا المقبل ان شاء الله ..

***

(ب) بعد أن عرفت فى الحديث الماضى ، أن أصحاب التيارين الفكريين الرئيسيين فى العالم الاسلامى خاضعان لمؤثرات أبعدت كلا منهما عن الآخر ، أحب أن أبين لك نواحى غابت عن أذهان أولئك الذين يخوضون فى هذا المجال ان عمدا أو سهوا ، فلو عرفوها لقربت المسافة بينهما .

فلو أن الأوروبيين الذين كتبوا عن الاسلام وعلاقته بالتقدم الحضارى التزموا الجانب الايجابى فى البحث ، وتثبتوا من مصادر معلوماتهم ، ونفضوا عنهم كلية آثار العداوة القديمة ، لتبين لهم أنه لا يقف عقبة فى طريق التقدم ، بل يدعو اليه ، ذلك أن التقدم نوعان .

تقدم مادى ، وهو القائم على التفكير والعلم . والحضارة المادية قوامها العلم فى منهجه وتجاربه ومعالمه ومصانعه .. الخ . ولم يحرم الاسلام العلم ، بل دعا اليه ، وحث عليه .

وتقدم بشرى ، وهو وصول الانسان فى الخصائص الفكرية ، والوجدانية ، والسلوكية ، الى مرحلة أكثر تقدما من ذى قبل ، والاسلام كما يصوره القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الصحيحة عبارة عن جملة من المبادىء ، لو اعتقدها الانسان ، وآمن بها ، وطبقها فى حياته تطبيقا عمليا واضحا ، لسار فى نموه حتما الى المرحلة الأخيرة من الاكتمال الانسانى وهى مرحلة التقدم .

ولما كان التقدم المادى يحتاج الى ضوابط تضبط سلوكه وتكبح جماحه ، فلابد أن يصاحبه تقدم بشرى ، وهو ما عنى به الاسلام فى تعاليمه وأحكامه .

ولما كان الاسلام قد أباح التقدم المادى ، وأرسى قواعد التقدم البشرى ، فهو بهذا لا يعارض الحضارة الا فى جوانبها السلبية المدمرة لحياة الفرد والأمة •

فلو عرف العلمانيون هذا ، لأدركوا أن ما يقرأونه فى كتب الغربيين من تعارض بين التمسك بالاسلام ومباشرة الحياة الحضارية ، هو رأى خاطىء لا يصدر الا من جاهل بالتعاليم الاسلامية ، أو عدو للاسلام يريد أن يتنكر المسلمون لدينهم عن طريق الايحاء لهم بأنه لا يصلح للحياة العصرية •

ولو اهتم علماء الدين بدراسة الفكر الحضارى ، لأدركوا أن للحضارة ناحيتين :

أولاهما : ايجابية بناءة تخدم الانسان فى حياته ، وتساعده فى التغلب على مشاكل العصر •

وثانيتهما : سلبية مدمرة •

ولو عقلوا هذا ، لميزوا بين ما هو نافع فيقبلوه ، وما هو ضار فيرفضوه ، وبذلك يقطعون الطريق على أولئك الذين يأخذون رفضهم الكلى للحضارة دليلا على رفض الاسلام للتقدم ، لأن رفض رجال الدين المطلق ، أدى الى ظهور جبهتين ، اتخذتا هذا الرفض سلاحا تحارب به الاسلام :

الجبهة الأولى : المفكرون الغربيون الذين يكتبون عن الاسلام ، فهم يستندون الى موقف رجال الدين من قبول الحضارة الحديثة فى بيان أن الاسلام يرفض التقدم ، ويعارض كل ما أنتجته النهضة الحديثة ، وهو بهذا — هكذا يستنتجون — سبب من أسباب التخلف ، ومن الطبيعى أن يكون لهذا الرأى أثر كبير فى توجيه العلمانية فى العالم الاسلامى •

الجبهة الثانية : رجال الحكم فى العالم الاسلامى ، فهم ينهجون فى الدولة منهجا علمانيا ، لأنهم رأوا أن موقف رجال الدين من المتطلبات العصرية فى الدولة يعوق حركة التقدم •

ولهذا كله ، فان رجال الدين مطالبون اليوم بتحديد مفاهيم الحضارة والتقدم ، مع القيام بشرح القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية شرحا غير مقيد بعصر معين ، ولا يرتبط باتجاه خاص ، بل طبقا لروح الوحى ، وأهداف الرسالة السماوية التى أرادها الله لعباده .

وليست هذه المهمة من السهولة بمكان ، بحيث يستطيع القيام بها أفراد ، بل لابد من هيئات تتكاتف وتتساند فى انجازها ، والا فسوف تعصف بنا رياح العصر الى مجهول لا يعلم ما فيه الا الله سبحانه وتعالى .

وفق الله المسلمين الى ما فيه خير دينهم ودنياهم .. انه سميع مجيب .

* * *

(جـ) يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول »[1] ..

ويروى المفسرون في شرحهم لهذه الآيات :

أن جيش الحبشة قدم مكة لهدم الكعبة المشرفة ، بقيادة أبرهة الأشرم الحبشى أمير اليمن من قبل النجاشى ملك الحبشة ، ومعه الفيل ، فسلط الله عليهم طيرا جاءتهم من جهة السماء جماعات متتابعة ، بعضها فى اثر بعض ، هبت عليهم من كل اتجاه ، فرمتهم بحجارة من سجيل فأهلكتهم .

غير أن بعض الباحثين يرى أن الذى أصاب جيش أبرهة ، انما هو وباء الجدرى تفشى بالجيش ، وبدأ يفتك به ، وكان فتكه ذريعا لم يعهد من قبل قط ، واعتمدوا فى ذلك على رواية لابن اسحاق وهى :

« حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث : أن أول ما رئيت الحصبة والجدرى ، بأرض العرب ذلك العام — أى عام الفيل — .. » .

---

(١) سورة الفيل .

وعلى رواية عن ابن عباس : « كان الحجر اذا وقع على أحدهم نفط جلده ، فكان ذلك أول الجدرى » ..

وعن عكرمة : « كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة ، فاذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى .. وكان أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب » ..

ويفسر أصحاب هـذا الرأى — معتمدين فى ذلك على جزء من الرواية .. وهو ظهور الجدرى ، متجاهلين الجزء الآخر ، وهو رمى الطير الحجارة على جيش أبرهة — ظاهرة الفتك بجيش أبرهة ، بأن جراثيم الجدرى جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصابت العدوى أبرهة نفسه ، فأخذه الروع ، وأمر قـومه بالعـودة الى اليمن ، وفـر الذين كانوا يدلونه على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكان الوباء يزداد كل يوم شـدة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب . وبلغ أبرهة صنعاء — وقد تناثر جسمه من المرض — فلم يقم الا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشـه .

وهـذه الدعوى تشتمل على عنصرين :

أولهما : أن ما نزل بجيش أبرهة هو وباء الجدرى ..

والثانى : أن الريح حملت هـذا الوباء من ناحية البحر ..

والعنصر الثانى ليس صحيحا لسببين :

الأول : أن القرآن الكريم أخبرنا بأن الطير رمتهم بحجارة من سجيل ، فوقع لهم ما وقع .

والثانى : أن الريح اذا كانت قد هبت على المنطقة حاملة الوباء ، فلم أصـاب جيش أبرهة ولم يصب قريشـا مع أنهم كانوا فى مهب الريح أيضـا ؟

وما قيل من أن الأمراض التى ظهرت فى جيش أبرهة — من تسـاقط الجسم وظهور القيح والدم — هى أعراض الجدرى — لا يصلح دليلا على أن الريح هى التى حملت الوباء ، وليس الطير ، لأن مرض

الجدرى — اذا سلمنا بأنه هو الذى أصاب جيش أبرهة — ينتقل الى الشخص بالملامسة ، فالطير رمت الأحجار التى تحمل الوباء على الجيش، فانتقلت العدوى الى الشخص بمجرد أن مس الحجر جسمه ، ولما كانت قريش بعيدة عن مرمى أحجار الطير ، ولم تقترب من جيش أبرهة ، فقد سلمت من الوباء .

وبهذا يتبين أن من يذهب الى أن سبب هزيمة جيش أبرهة ، هو الجدرى فقط ، دون أن يبين مصدره ، أو يرجع مصدره الى الريح التى حملت الوباء دون ذكر الطير التى تحدث عنها القرآن الكريم ، فهو واحد من رجلين : ان كان غير مسلم ، فمصدر ثقافته عن الاسلام مؤسسات تربوية فى مجتمع يتخذ من الاسلام موقف المعارض أوالمناوىء ، أو اغفال كل ما يدل على أن القرآن الكريم من عند الله .

وان كان مسلما ، فهو يردد ما يقوله المستشرقون دون بحث أو تمحيص ، وذلك ما نقرؤه لبعض المعاصرين .

وفقنا الله الى الحق والصواب .. انه سميع مجيب .

* * *

(د) تنتشر اليوم فى المجتمعات الاسلامية نغمة ، تدعو الى عدم التعصب ضد أتباع الأديان الأخرى ، مع أن المسلمين لم يكونوا فى يوم من الأيام متعصبين بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لدى أصحاب هذه الدعوة ، ولا يقصد من هذا سوى توهين العلاقة بين المسلمين ودينهم ، وفصل المسلم عن عاداته وتقاليده الدينية ، تحت ستار مسايرة العصر ، والا كان رجعيا متخلفا ، ويعيش بعقلية القرون الوسطى ، وقد انزلق كثير من أرباب الفكر فى العالم الاسلامى فى هذا المجال ، فطفقوا يدعون الى التنازل عن الأفكار الدينية فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، ويستند المعتدلون منهم الى أن الظروف الدولية تستدعى منا أن ننهج هذا السبيل ، والا كنا شواذ فى المجتمع الدولى ، لا نستطيع أن نتحرك بحرية فنفشل وتضيع حقوقنا بين التيارات السياسية المعاصرة .

ويدللون على ذلك بأن الساسة العربيين — وهم مسيحيون — طرحوا مسألة الدين جانبا وتصرفوا — ولا زالوا — على أساس علمانى بحت .

ونسى هؤلاء أن تصريحات السياسيين العلنية فى تلك البلاد تختلف الى حد ما عما يرسمونه من خطط تهدف الى السيطرة — بل القضاء — على العقائد والمذاهب التى تقف عقبة فى سبيل ما يتخذونه عقيدة ومذهبا ، والا فهل يستطيع هؤلاء أن يفسروا لنا مغزى زيارة رؤساء الدول الكبرى للبابا ، ويبينوا لنا مضمون الأحاديث التى تدور بينه وبينهم فى الاجتماعات التى تستمر أحيانا وقتا طويلا ؟ .

وما هو السبب فى أن الأحزاب المسيحية لازال لها السيطرة فى معظم بلاد الغرب ولم تستطع الأحزاب الليبرالية أن تحرز نصرا فى مواجهتها ، الا بعد أن أظهرت عطفها على الكنيسة وتأييدها لها ؟ .

ومن الافتراء على الحقائق ما تردده بعض أجهزة الاعلام فى الدول الاسلامية ، من أن قيام دولة فى هذا العصر على أساس دينى — كما هو الحال فى اسرائيل ، وكذلك الصراع الدينى بين الكاثوليك والبروتستانت فى أيرلندا — من الأمور الاستثنائية ، لأن الصراع فى كثير من بقاع العالم يحمل — فى صور متعددة وأشكال مختلفة — طابعا أيديولوجيا — دينيا أو مذهبيا — ويظهر ذلك واضحا فى الأمثلة الآتية :

١ — اتفاق روسيا مع الهند على ضرب الجيش الباكستانى ، للقضاء على واحدة من أكبر الدول الاسلامية .

٢ — تجرى دماء المسلمين فى الفيلبين على يد القوات الحكومية ، دون أن تغطى وسائل الاعلام العالمية هذه الأحداث ، ولو كان ما يقتل أبناء دين من تدين به وسائل الاعلام العالمية لملئت الدنيا صياحا وعويلا .

٣ — محت روسيا معالم الاسلام فى المناطق التى احتلتها ، مثل طشقند وبخارى والقرم وغيرها ، فقد حولت مساجدها الى مسارح ، ويجرى الآن — بطريقة منظمة وشاملة — استئصال العقيدة الاسلامية

من الأجيال الناشئة ، وسوف ينقرض ما تبقى من الاسـلام فى هـذه المناطق بانقراض الجيل القديم ، ونفس الأسلوب يجرى فى ألبانيا — ومعظم سـكانها مسـلمون — ومع جميع الطوائف الاسـلامية فى البلاد الشـيوعية .

٤ — قضت العلمانية على الطابع الاسلامى فى تركيا التى كانت مركز الخلافة الاسـلامية فى القرون الماضية ، وصار الطابع الدينى فى البلاد التى نشأت فيها العلمانية أكثر ظهورا منه فى تركيا . ولا يوجد تفسير لهذه الظاهرة سوى تصميم المعسـكر الغربى على محو كل مظاهر الاسـلام فى تركيا .

٥ — تتسم الحرب الدائرة بين « أريتريا » والسلطات الأثيوبية بطابع دينى .

٦ — ذبح كثير من المسلمين فى احدى دول شرق افريقيا فى ستينات هـذا القرن ، وكان الدافع الرئيسى لهذه المذابح نزعة عنصرية دينية .

٧ — عندما قامت حركة انفصالية فى احدى دول غرب افريقيا تلقت مساعدات من الفاتيكان ومن معظم الدول الأوروبية المسيحية ، لأن معظم سـكان المنطقة التى أعلنت الانفصال مسيحيون ، ولم تخف وسـائل الاعلام الغربيـة وجههـا عنـدما كانت تدعـو مواطنيها الى التبرع « للدولة المسيحية » الناشئة ، رغم أنها لم تكن سـوى مجموعة تمردت على السلطة الشرعية ، كذلك اعترفت بعض الدول المسيحية فى افريقيا بدولة الانفصاليين .

وكان هنـاك الكثير من الأحداث العالمية التى تأخذ الطابع الدينى وتحركها وتوجهها عواطف العقيدة — دينا أو مذهبا — وتتلقى التأييد من ساسة الدول الأخرى على أساس علمانى بحت ، ولو رمت حصر ما يقع منها فى العالم لطال الحديث .

وينبغى ألا يفهم من هـذا ، أن على زعماء الدول الاسـلامية أن يكونوا جامدين فى تحركاتهم السياسية ، فيقطعوا كل صلة بتلك الأمم

التى تنهج هـذا السبيل ، بل عليهم — طبقا لما نفهمه من روح التشريع الاسلامى — أن يسايروا العصر فى مجال السياسة •

ولا يألوا جهدا فى بناء دولهم على أسس حديثة عصرية لتتقدم علميا وفنيا وعسكريا ، وفى الوقت نفسه لا يكونوا سذجا يتبرأون من الدين ، ويتنكرون لمن ينادى بالتمسك به بحجة أنهم تقدميون ، والا دارت عليهم الدائرة ، كما حدث لأمراء المسلمين فى الأندلس ، ولن يشفع لهم يومئذ كفرهم بكل ما يمت الى الاسلام بصلة •

وفقنا الله واياهم لما فيه خدمة الاسلام والمسلمين •

* * *

٢ — خواطر داعية حول القاديانية

(أ) تموج المجتمعات البشرية اليوم بظواهر فكرية متعددة المناهج والأساليب ، ومختلفة المناحى والاتجاهات ، ومتنوعة الأهداف والأغراض ، ويجيء هـذا التباين طبقـا لاختلاف العوامل التى ساعدت على ظهور هـذه التيارات الفكرية ، فان من المسـلم به فى قانون هـذا الكون أن كل حدث — سواءأكان وجودا أو عدما — لابدله من سبب ، سواءأكان هذا الحدث ماديا حسيا ، أم معنويا مجردا ، فكما أن نوع البذرة ، وعناصر عضوية التربة ، وطبيعة الطقس عوامل مؤثرة فى نوع النبات وتكوين براعمه وتحديد ثماره ، فان للظواهر الفكرية أيضا تربة ومُناخا يـؤثر فيهـا فتتشـكل وتتـجـه طبقـا للعـوامل التى دفعت الى ظهورها وتكوينها .

ولهذا كان من أهم نقاط منهج المشتغلين بدراسة التيارات الفكرية ، هو البحث عن منابعها والكشف عن المؤثرات التى توجهها ، كى يستطيعوا مواجهتها ان كانت فى نظرهم ضارة بالمجتمع ، أو تدعيمها ان كان وجودها خيرا للفرد والأمة .

ذلك هو أسلوب المصلحين والداعين الى سـبيل الحق فى مواجهة التيارات الفكرية ،ومنهج القائمين على الدراسات الجامعية لتخريج دعاة قادرين على المواجهة ، أكفاء فى المحاورات والمساجلات الأيديولوجية ، لأن من لم يدرس التيارات الفكرية دراسة عميقة تحولت مواجهته لها الى مماحكات لفظية ، وشقشقات لغوية ، وأسلوب يدور فى فراغ ، فتكون النتيجة أن يتخذ عمله هـذا سـلاحا ضده ، وخنجرا يغمد فى قلبه ، فيصبح عمله وسـيلة ضده لا له ، فتنتكس الدعوة الى الله ، ويكون سبب هـذا الانتكاس هم الدعاة أنفسهم من حيث لا يدرون .

ولهذا ينبغى البحث عن الأسـباب التى أدت الى ظهور المذاهب والاتجاهات الدينية الهدامة حتى نستطيع مواجهتها والتصدى لهـا ، وسـوف أتناولفى حديثى مذهبا له طابع خاص خرج به عن الدائرة

الاسلامية ، ألاوهو مذهب القاديانية ، فقد نهج مؤلفه منهج التلفيق بين العقائد الدينية المختلفة فخرج مذهبه من ذلك صورة مهلهلة لا هى اسلام، ولا مسيحية ، ولا براهمانية ، بل هى خليط من ذلك كله •

وقبل الحديث عن الأسباب التى دعته الى ذلك نروى جانبا عن حياة مؤسس هذا المذهب ، فهو ميرزا غلام أحمد ، ولد عام ١٨٣٩ فى آخر عهد حكومة السيخ فى بنجاب بالهنـد فى قرية قاديان التابعة لمديرية « كرداسبور » التى وقعت بعد التقسيم فى المنطقة الخاضعة لدولة الهند •

كان جده صاحب قرى وأملاك ، وصاحب امارة فى بنجاب ، ولكنه خسرها فى حرب دارت بينه وبين طائفة السيخ التى اسـتولت على البنجاب فى فجر القرن التاسع عشر •

تلقى غلام أحمد مبادىء العلوم ، فقرأ الكتب فى المنطق والحكمة والعلوم الدينية على أسـاتذة عصره ، وعرف الطب القديم من والده الذى كان طبيبا ماهرا •

ثم اشتغل فى دواوين الحكومة فترة ، استقال بعدها ، وشـارك والده فى أعماله •

أما عن معيشته ، فيروى أنه كان متقشفا فى حياته ، لأن دخله لم يكن كبيرا ، واسـتمر على ذلك حتى بـدأ دعوته فاتسـع له العيش وأقبلت عليـه الدنيا ، وقد ذكر ذلك بنفسه حين قال :

« اننى لم أكن آمل — نظرا الى حياتى وامكانيتها — أن يحصل لى عشر روبيات شهريا ، ولكن الله الذى يرفع الفقراء من الحضيض ، ويرغم المتكبرين قد أخذ بيدى ، وأنا أؤكد أن ما جاءنى من الوارد ، ومن الاعلانات ، والتبرعات الى هذا الوقت — وكان ذلك فى عام ١٩٠٧ — لا يقل عن ثلثمائة ألف روبية ، وربما يزيد على ذلك » •

هـذه كانت حياته ، تعليم متوسط ، وفقر مدقع ، يعقبه غنى فاحش من المساعدات التى يأخذها من أتباعه •

أما عن طبيعة دعوته فسوف نبينها فى حديث قادم •• ان شاء الله•

****

(ب) أحدثت القاديانية فى المجتمع الاســلامى بدعا لم تكن موجودة من قبل ، فاعتنقت مبادىء لا يقرها المسلمون ، لأنها لا تتفق مع مبادىء الاســلام ، وأخص بالذكر منها ثلاثة مبادىء رئيسية وهى : ادعاء ميرزا غلام أحمد أنه المسيح الموعود ..

وابطاله الجهاد فى سبيل الله ..

وادعاؤه النبــوة ..

أما ادعاؤه بأنه المسيح الموعود ، فقد ظهر اثر اقتراح قدمه له صديقه الحكيم نور الدين ، اذ اقترح عليــه أن يظهر فى مظهر المسيح ، ويدعى أنه هو المسيح الذى أخبرت النصوص الدينية بنزوله ، وسرعان ما تلقف ميرزا هــذا الاقتراح ، ونفذه ، فادعى بأنه المسيح الموعود ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « ان المسلمين والنصارى يعتقدون باختلاف يسير أن المسيح ابن مريم قد رفع الى السماء بجسده العنصرى ، وأنه سينزل من الســماء فى عصر من العصور ، وقد أثبت فى كتابى — يعنى كتابه « فتح الاسلام » — أنها عقيدة خاطئة ، وقد شرحت أنه ليس المراد من النزول هو نزول المسيح ، بل هو اعلام على طريق الأستعارة بقدوم مثل المسيح ، وان هــذا العاجز — يعنى نفســه — هو مصداق هــذا الخبر حسب الاعلام والالهام » .

ثم بدأ يفسر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى عليه السلام على نحو يجعل الأوصاف الواردة فيها مطابقة لأوصافه ، فعلى سبيل المثال ، جاء فى الأحاديث أن المسيح ينزل فى دمشق عند المنارة ، وعليــه رداءان أصفران ، فبنى منارة فى قاديان ، ليبرر تفسيره للحديث ، وادعى أن قاديان مشابهة لدمشق ، ثم يقول : « فأنزلنى الله لأمر عظيم فى دمشق هــذه — يعنى قاديان — بطرف شرقى عند المنارة البيضاء من المســجد الذى من دخله كان آمنا ، فتبارك الله الذى أنزلنى هذا المقام » .

أما الرداءان الأصفران فقد قال فيهما : « جاء فى الحديث أن المسيح ينزل عليــه رداءان أصفران ، وهــذا شأنى ، فانى أعانى علتين : احداهما فى مقدم جسمى ، وهو الدوار الشديد الذى قد أخر به على الأرض .

والعلة الثانية فى أسفل الجسم : وهى كثرة البول ، والذين يرفضوننى يؤمنون بأن المسيح يحمل هذه الآية من السماء ، وهى علتان ، احداهما فى مقدم الجسم والأخرى فى مؤخره » ..

وبدعواه أنه المسيح الموعود يكون قد خرج عن اجماع المسلمين ، وهو أمر يخرجه عن دائرة الاسلام أراد أن يتقرب به الى الاستعمار ، وبهذا يكون مذهبه قد نحا نحوا خرج به عن طريق الاسلام .

أما الاتجاه الثانى : فكان نتيجة لادعائه أنه المسيح الموعود ، ويتمثل هذا الاتجاه فى تحريمه الجهاد فى سبيل الله ، وقد نص على ذلك صراحة حين قال : « لقد ألغى الجهاد فى عصر المسيح الموعود الغاء باتاً » ..

وقال فى خطبته الالهامية : « لقد آن أن تفتح أبواب السماء ، وقد عطل الجهاد فى الأرض ، وتوقفت الحروب ، كما جاء فى الأحاديث أن الجهاد للدين يحرم فى عصر المسيح فيحرم الجهاد من هذا اليوم ، وكل من يرفع السيف للدين ، ويقتل الكفار باسم الغزو والجهاد يكون عاصيا لله ولرسوله » ..

ويقول فى « ترياق القلوب » : « ان الفرقة الاسلامية التى قلدنى الله امامتها وسيادتها تمتاز بأنها لا ترى الجهاد بالسيف ولا تنتظر ، بل ان الفرقة المباركة لا تستحل ذلك ، سرا كان أو علانية ، وتحرمه تحريما باتاً » ..

وبهذا الفهم أمدت القاديانية الحكومة الانجليزية بخير جواسيس لمصالحها وأصدقاء أوفياء متطوعين متحمسين كانوا موضع ثقة الحكومة الانجليزية ، وبذلك تكون خالفت نصا من نصوص القرآن الكريم وهو قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن**

يفعله منكم فقد ضل سـواء السبيل ٠ ان يثقفوكم يكونوا لكم أعـداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون »[١] ..

أما ادعاؤه النبوة فسوف نتناوله فى الحديث القادم ان شاء الله ..

***

(جـ) خرجت القاديانية عن اجماع المسلمين ، فأصبحت بذلك مذهبا غير اسلامى ، والدليل على ذلك دعواها التى لا يوافقها عليها مسلم ، وهى :

ماجاءوا به من التفسير المبتدع — « ختم النبوة » ، فقد خالفوا فيه تفسـير جميع المسـلمين ، اذ ما زال المسـلمون يعتقدون منـذ ثلاثة عشر قرنا — ولا يزالون حتى اليوم — أن سـيدنا محمد ﷺ هو خاتم النبيين ؛ فلا نبى ولا رسـول بعده الى يوم القيامة ، وهذا هو المعنى المفهوم من قوله تعـالى : « **ما كان محمـد أبا أحد من رجالكم ولكن رسـول الله وخاتم النبيين** »[٢] ..

أما القاديانيون فقد فسروا خاتم النبيين — لأول مرة فى تاريخ المسلمين — بأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء ، أى طابعهم ، فكل نبى يظهر الآن بعده تكون نبوته مطبوعا عليها بخاتم تصديقه ﷺ ، وهاكم بعض نصوصهم التى توضح هذا الرأى عندهم ، فقد قال زعيمهم :

« ان المراد بخاتم النبيين أنه لا يمكن أن تصدق الآن نبوة أى نبى من الأنبياء الا بخاتمه (ﷺ) ، وكما أن كل قرطاس لا يكون مصدقا الا حين يطبع عليـه الخاتم ، فكذلك كل نبوة لا تكون مطبوعا عليهـا بخاتمه وتصديقه (ﷺ) تكون غير صحيحة » .

ويقول فى موضع آخر : « لا ننكر أن الرسـول (ﷺ) هو خاتم النبيين ، ولكن الختم ليس المراد به ما يفهمه السـواد الأعظم من الناس ، اذ هو يخالف كل المخالفة عظمة الرسـول (ﷺ) ، وجلالة شـأنه ، وعلو منزلته ، ذلك أن معناه أن النبـى (ﷺ) قد حرم أمته من نعمة النبـوة العظمى ..

---

(١) الممتحنة : ١ ، ٢ (٢) الأحزاب : ٤٠

وانما المراد به (ﷺ) خاتم الأنبياء ، أى طابعهم ، فلا نبى الآن الا من يصدقه هو (ﷺ) وبهذا المعنى نؤمن بأن الرســول الكريم (ﷺ) هو خاتم النبيين » ..

ويفهم من هــذه النصوص أنه يرى أن باب النبوة مفتوح ، وذلك ليتسنى له ادعاء النبوة وقد أفصح عن ذلك بقوله :

« الخاتم هو الطابع ، فاذا كان النبى الكريم طابعا ، فكيف يكون طابعا اذا لم يدن فى أمته نبى » ؟ .. وهكذا فتح ميرزا غلام أحمد القاديانى باب النبوة ، ليمهد الطريق للخطوة التالية ، ألا وهى ادعاؤه النبوة ، وقد صرح بذلك فى قوله : « أنا نبى وفقا لأمر الله ، وأكون آثما ان أنكرت ذلك ، واذا كان هو الذى يسمينى بالنبى فكيف لى أن أنكر ذلك ، اننى سأقوم بهذا الأمر ، حتى أمضى عن هــذه الدنيا » ..

وقد كتب هــذا قبل موته بثلاثة أيام فقط ، أى أنه لم يرجع قبل موته عن هــذه الدعوى الكاذبة ، التى خرج بها عن الاسلام .

وقد تمادى أتباعه فى هذا الغى ، فاعتقدوا بأن من لم يؤمن بنبوة ميرزا غلام‌أحمد كافر ، ويســـتدل على ذلك من صريح عبارتهم حيث يقــولون :

« ان جميع المسلمين الذين لم يشتركوا فى مبايعة المسيح الموعود كافرون ، خارجون عن دائرة الاسلام ، ولو كانوا لم يسمعوا باســم المســيح الموعود ..

كل رجل يؤمن بموسى ولا يؤمن بعيسى ، أو يؤمن بعيسى ولا يؤمن بمحمد ، أو يؤمن بمحمد ولا يؤمن بالمسيح الموعود ، فما هو بكافر فحسب ، بل هو راسخ فى الكفر ، وخارج عن دائرة الاسلام » .

ولا يقتصر القاديانيون على قولهم بأنهم مخالفون للمسلمين فى أمر نبوة ميرزا غلام أحمد ، بل هم يقولون أيضا بأنه ليس هناك من شىء يجمع بينهم وبين المسلمين ، فربهم غير رب المسلمين ، واسلامهم غير اسلامهم ، وقرآنهم غير قرآنهم ، وصلاتهم غير صلاتهم ، وصومهم غير صومهم .. وغير ذلك كثير مما يخالفون فيه المسلمين .

وقد أدى هـذا الخلاف بينهم وبين المسلمين الى النتيجة النهائية المنطقية ، ألا وهى قطع صلاتهم بالمسلمين ، حيث نظموا أنفسهم تنظيما مستقلا عنهم ، كجماعة لا صلة لها بالمسلمين على الاطلاق ، ويشهد بذلك أحكامهم التى منها أنه لا يجوز للقاديانى أن يصلى خلف رجـل لا يعتنق مذهب القاديانية •

ومن هـذا يتبين أن القاديانية مذهب خارج عن الاسلام ، فلا يجوز لهم أن يمثلوا المسلمين فى أى محفل من المحافل ، ولا ينبغى لهم أن يدعوا أنهم طائفة اسـلامية ، لأنهم قطعوا كل الوشائج التى تربطهم بالاسلام •

● ولكن ما هى الأسباب التى دفعت ميرزا غلام أحمد الى هذا الطريق ؟

— ذلك سوف نتناوله فى الحديث القادم ان شاء الله ••

* * *

(د) لم تستطع القوة العسـكرية الاستعمارية أن تحرز نصرا عسـكريا شاملا على المقاومة الاسـلامية اذ لم تتمكن من القضاء التام عليها ، وظل نشاط هـذه المقاومة مسموعا ومرئيا فى مناطق العـالم الاسلامى ، وان فتر أحيانا تحت ضغط التفوق العسـكرى للمستعمر ، فانها كانت دائمـا شوكة فى جنب المستعمر ، لا تدعه يهدأ ، أو يغمض عينيه ، مما جعله يعتقد اعتقادا جازما بأن القوة العسـكرية ليست هى الوسـيلة الوحيدة لاخضاع العـالم الأسلامى ، فأبدى اهتماما أكثر بنواحى أخرى ، تؤدى الى اضعاف المصـدر الذى يدفع المسلمين الى مقاومة الأجنبى ، ألا وهو الدين •• وسلك للوصول الى هذا الهـدف مسالك متعددة •

أولها : الدراسات الاستشراقية : التى كان الغرض من انشائها وتدعيمها استخدامها كوسيلة لحماية المستعمر عن طريق تهيئة نفوس المسلمين لقبول النفوذ الأجنبى والرضا بولايته ، ولهذا نزع المستشرقون فى دراستهم للاسلام الى اضعاف القيم الاسلامية ، ليضعفوا فى المسلم تمسكه بالاسلام ، ويبعثوا فى نفسه الشك فيه كدين ، وليوهموه أن الاسلام لم يعد منهجا سلوكيا يتفق وطبيعة الحياة المعاصرة •

ثانيها : انشاء المدارس الأجنبية : اذ عندما أدرك المستعمر أن الدراسات الاستشراقية فى المجتمع الاسلامى لم تؤد الغرض المطلوب منها كما تصوره ، عمد الى انشــاء مدارس فى المجتمعات الاسلامية ، لتعلم أبناء المسلمين ثقافة الاستعمار ، وتلقنهم الفكر الأجنبى ، وتعدهم اعدادا عاليا ، لتولى مقاليد الأمور فى بلادهم ، وهم بحكم تشربهم الثقافة الأجنبية فى هــذه المدارس ، سوف يتبنون منهجه فى التعليم والثقافة ، وفى اسلوب الحكم والسياسة ، وبذلك يكونون خير ممثل للاستعمار ، ينفذون ما عجز هو عن تنفيذه ، بطريق مباشر .

ثالثها : خلفاء الاستعمار : ذلك أن المستعمر عندما أيقن أن قواته سترحل يوما ما عن منطقة العالم الاسلامى ، لجأ الى خلق طبقة من المسلمين تتبنى آراءه ، وتدافع عنها ، وتتولى تنفيذ ما عجز هو عن تنفيذه ، وقد تضافرت عدة جهات على تكوين عقلية هذه الطبقة ، وتغذيتها بالآراء والأفكار التى ينبغى أن تنادى بهــا فى العالم الاســلامى ، اذ غرس المستشرقون فى أذهانهم عــدم امكانية تطبيق بعض النظم الاســلامية فى السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وفى مجالات العلوم المختلفــة فى الحيــاة المعاصرة .

كما علمتهم المدارس الأجنبية التى أنشأها الاستعمار فى العالم الاسلامى نظريات فى التاريخ ، والعلوم الاجتماعية ، تدور كلها حول مفاهيم تدفع الطالب الى الاعتقاد بأن العصر لم يعد صالحا لتطبيق تعاليم الاسلام فى مجالات الحكم والتوجيه .

وعن طريق هؤلاء امتد نفوذ الأفكار الاستعمارية فى جميع مؤسسات المجتمع الاسلامى ، فأصبح من النادر وجود مؤسسة سياسية تلتزم خطا اسلاميا بعيدا عن تأثير القوى الأجنبية ، سواء أكان تأثيرا مباشرا أو غير مباشر ، لأن نفوذ تلك القوى تغلغل فى جميع المؤسسات فى العــالم الاسلامى ، حتى المؤسسات الدينية ، اذ دخل فى كثير منها ليوجهها — من وراء الستار — الى طريق فيه اضعاف العقيدة ، وتفكيك الوحــدة

الانسلامية ، وقد وضح هـذا الدور فى القاديانية ، فقد كان ميرزا غلام أحمد — مؤسس هـذه الطائفة — خاضعا للانجليز خضوعا كليا ، فقام بدور فى المجال الدينى يخدم مصالحهم ، دور لم يستطيعوا القيام به ، اذ لم يكن فى استطاعتهم تبنى دعوة تحريم الجهاد فى وقت كان المسلمون فى أشـد الحاجة اليـه لدفع غارة الاستعمار عن بلادهم ، ولم يكن وضعهم يسمح بتبنى مزج المسيحية بالاسلام ، كما دعا الى ذلك ميرزا غلام أحمد ، ولهذا كانوا له سـندا ، وكان هو خادمهم ينفذ لهم ما عجزوا هم عن تنفيذه ، وقد عبر بنفسه صراحة عن هـذا الدور حين قال : « لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الانجليزية ونصرتها ، وقد ألفت فى منع الجهاد ، ووجوب طاعة أولي الأمر — ويعنى بهم الانجليز — من الكتب والاعلانات والنشرات ما لو جمع بعضها الى بعض لملأ خمسين خزانة • وقد نشرت جميع هـذه الكتب فى البلاد العربية ، وتركيا ، وكان هدفى دائمـا أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة ، وتمحى من قلوبهم قصص المهدى السفاك ، والمسيح السفاح ، والأحكام التى تبعث فيهم عاطفة الجهاد وتفسد قلوب الحمقى » •

وقال فى آخر كتابه « شـهادة القرآن » :

« ان عقيدتى التى أكررها أن الاسلام جزئين : الجزء الأول : اطاعة الله ، والجزء الثانى : اطاعة الحكومة التى بسطت الأمن وآوتنا فى ظلها من الظالمين ، وهى الحكومة البريطانية » •

ويقول فى رسالة قدمها الى نائب حاكم المقاطعة عام ١٨٩٠ :

« لقد ظللت منـذ حداثة سنى — وقد ناهزت اليوم الستين — أجاهد بلسانى وقلمى ، لأصرف قلوب المسلمين الى الاخلاص للحكومة الانجليزية ، والنصح لها والعطف عليها ، وألغى فكرة الجهاد التى يدين بها جهالهم ، والتى تمنعهم من الاخلاص لهذه الحكومة ، وأرى أن كتاباتى قد أثرت فى قلوب المسلمين ، وأحدثت تحولا فى مئات الآلاف منهم » ••

وهكذا يبدو واضحا أن الانجليز هم الذين دفعوا ميرزا غلام أحمد

الى اعتناق مثل هـذه المبـادىء المخالفة للاســلام والدعوة الى الله والترويج لهـا .

ونكتفى بهـذا القدر اليوم على أن نواصل الحديث عن أسباب ظهور القاديانية فى حديث قادم ان شاء الله .

* * *

(هـ) بينا فى حديث سـابق طرفا من آراء ومعتقدات القاديانية ، ووضحنا جانبا من الدوافع التى دفعت ميرزا غلام أحمد الى اعتناق هذه الآراء وترويجها والدفاع عنها .

واليــوم نواصل معا الكشف عما وراء هـذه الظاهرة الفكرية ، وسوف أقصر حديثى على جانبين فقط .

أولهما : ادعاؤه بأنه المسيح المنتظر .

وثانيهما : ادعاوه النبــوة .

مبينا المؤثرات التى كان يقع تحتها ، والظروف التى أثرت فى فكره ودفعته الى اعتناق هذين المبدأين ، ولكى تتضح الصورة أمامنا ، ينبغى أن نلقى نظرة على الأفكار التى كانت موجودة فى عصره ، وكان لهـا تأثيرها فى توجيهه فكريا ، وأخص بالذكر تيارين فكريين رئيسيين وهما :

الدين الهندوسى ، وعقيدة رجعة المسيح عليــه السلام .

• أما ما تأثر به من الدين الهندوسى ،فهو أنه دين لا يعرف له مؤسس واحد ، ولهذا يعتقد الهندوس أنه يظهر فى كل زمان حكماء وأناس تحــل فيهم الروح الالهيــة ليجددوا الرســالة ويقوموا بنشرها ، ومما لا شك فيه أن المعالم الفكرية للعصور المختلفة وجدت طريقها الى الدين الهندوسى عن طريق هؤلاء الحكماء ، فالمفكر ابن عصره ، مهما بولغ فى عزله عن المنابع الفكرية غير الدينية ، كما يتأثر نسبيا بتعاليم الأديان الأخرى ، ان سمحت الظروف بوصولها اليه ، ســواء أكان عن طريق الدراسة لاشباع رغبة عنده ، أو المجادلة مع بنى وطنه .

وطبقا لهذا ، فقد ظهرت حركات اصلاحية ، حاولت مزج التعاليم الهندوسية بتعاليم الأديان الأخرى مثل حركة « براهما سماجا » وحركة

« الربانيون » فى الهنـد الحديثه ، كما حاول بعض المسلمين المنحرفين مزج بعض تعاليم الهندوسية بالاســلام ، مثل « كبير » الذى دعا الى مذهب مزج فيه بين الهندوسية والاســلام ، فآمن بتناسخ الأرواح ، وقانون الجزاء الأخروى ، والايمان بأن محبه الله هى الطريق الوحيد للخلاص كما أخذ عن الاســلام تحريم عبادة الأصنام •

ومثل « جلال الدين أكبر » •• و « جوروناناك » مؤسس جماعة التسيخ ، وهى طائفة مزجت تعاليم الاسلام بتعاليم الهندوسية •

وكان لهذه الظاهرة الهندية ــ ظاهرة التلفيق والمزج بين الأديان المختلفة لنسج دين أو مذهب جديد ــ أثر كبير على ميرزا غلام أحمد ، فادعى أنه نبى أتى ليجدد رسالة الاســلام ، وكانت هــذه الدعوى رد فعل لتأثره بما عند الهندوسية من الاعتقاد بأنه يظهر فى كل زمان زعماء مصلحون حلت فيهم الروح الالهية لتجديد الرسالة •

أما التيار الآخر الذى تأثر به ميرزا غلام أحمد فهو عقيدة رجعة المسيح ، فهى عقيدة يؤمن بها جمهور أهل السنة استنادا الى ما ورد فى الكتاب والسنة ، أما فى الكتاب فقول الله تعالى : **« وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته »**(١) ••

فأرجعوا الضمير فى « به » و « موته » الى عيسى ، والمعنى ما من أحد من أهل الكتاب يهودييهم ونصرانييهم الا ليؤمن بعيسى قبل موته •

وأما فى الحديث ، فقول رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المــال حتى لا يقبله أحد » •

استغل ميرزا غلام أحمد هذه العقيدة ، فادعى أنه المسيح الموعود ، وقد عبر عن ذلك مرارا وتكرارا فى كتبه ، وفى خطبه ، فهو يقول فى احدى هــذه الخطب :

« أيها الناس •• اذا كنتم أصحاب ايمان ودين ، فاحمدوا الله

---

(١) النساء : ١٥٩

واسجدوا له شكرا ، ان العصر الذى قضى آباؤكم حياتهم فى انتظاره ولم يدركوه ، وتشوقت اليه أرواح ولم تسعد به ، قد حل وأدركتموه ، والكم وحدكم أن تقدروا هذه النعمة ، وتنتهزوا هذه الفرصة ، سأكرر ذلك ، ولا أفتأ أذكره •• اننى ذلك الرجل الذى أرسل لاصلاح الحق ، ليقيم هذا الدين فى القلوب من جديد •• انى لى شبها بفطرة المسيح ليدك العقيدة الصليبية ، فقد أرسلت لكسر الصليب وقتل الخنازير » •

وكان الانجليز وراء هــذه الدعوة ، اذ كان غرضهم أن يؤمن الناس به ويلتفوا حوله ، فيكون زمام الأمر بأيديهم — أى بأيدى الانجليز — لأنهم سوف يملون على زعيم المسلمين الروحى — لو آمن الناس بصدق ادعائه بأنه المســيح — ما يريدون •• وبذلك تتحقق سيطرتهم على المسلمين ، اذ بعد ما فشلت محاولة الاســتعمار فى ابعاد المسلمين عن الاسلام سلك أسلوب تبنى الحركات الاسلامية — بل هو الذى دفع بعض الأشخاص الى انشائها — ليوجهها نحو الهدف الذى يريده ، وكانت القاديانية هى احدى هــذه الحركات التى تبناها الانجليز ، وأوعزوا الى مؤسسها ليدعو الى مزج الاسلام بالمسيحية ، كى تضعف مقاومة المسلمين للمستعمر المسيحى ، فوجد ميرزا فى عقيدة رجعة عيسى عليه السلام خطوة أولى على هــذا الطريق ، ثم حاول مزج الاسلام بالمسيحية فى تعاليمه ، ودفعه الى ذلك أيضا ما شــاهده فى الدين الهندوسى من مزج للآراء المختلفة المصادر ، فسار على هــذا الدرب مقلدا وللانجليز معاونا •

ولو لم توجد عقيدة رجعة عيسى عليه السلام عند المسلمين ما ادعى ميرزا غلام أحمد بأنه المسيح ، ولو لم ينشأ قريبا من المجتمع الهندوسى ما حاول مزج الاسلام بالمسيحية ، ولو لم يوجد الاستعمار الانجليزى فى الهند ما نحا ميرزا غلام أحمد فى دعوته نحو هــذا الاتجاه لتأويل النصوص الاسلامية تأويلا متعسفا ، ارضاء للاستعمار •

ونكتفى بهــذا القــدر عن القاديانية ، راجين من الله أن يحفظ المسلمين من الوقوع فى ضلالتها •• انه سميع مجيب •

* * *

٣ — فى مواجهة الشيوعية

(أ) يموج العالم الاسلامى اليوم بتيارات فكرية ، متعددة فى الاتجاهات ، ومختلفة فى الأهداف ، ومتنافرة فى المنهج والمضمون ، ويتساءل المسلم المعاصر ازاء هذا الاضطراب عن أسباب هذا التناحر الفكرى ، والتطاحن المذهبى ، والتعصب الممقوت لهذا التيار أو لذاك الاتجاه ، فلا يسمع جوابا شافيا ، ولا يرى ملامح عمل يقوده الى حيث الاستقرار النفسى ، أو يهديه الى طريق يضمن له مستقبلا سعيدا ، مع احتفاظه بتعاليم دينه •

● وما علة هذا الداء الذى أصيب به العالم الاسلامى ؟

— علته أن المجتمع الاسلامى — فى جميع أقاليمه — قطع طريقا طويلا ، امتد أكثر من مائة سنة ، تجاذبته فيها تيارات أقضت مضاجعه ، فلم تترك له فرصة البناء والتعمير وأهلكت أعصابه ، فلم يعد يقوى على التفكير بموضوعية فيما يعرض عليه من « أيديولوجيات » ولم يستطع الاحتفاظ بما عنده من عقائد وعبادات ، فتهاون فيها وأهملها ، أو أولها فألغاها أو أداها عادة وتقليدا ، فصارت :

صورة لا حياة فيها ، ومصدرا للرزق والتكسب ، لا عقيدة يدافع عنها بالروح والمال ، ووسيلة يخدع الحكام شعوبهم بالتظاهر بها ، لا منارة يسير على هديها رجال السلطة ، وأسلوبا يختفى وراءه الدجالون والمنافقون • ولباسا يرتديه الماركسيون ليدنسوه كى يمزق الحكام ما بقى من خيوطه ، فتقتلع الجذور الباقية ، فلا يجرؤ أحد على الجهر بالدعوة •

● لقد ذكرت فى كلامك قضايا تحتاج الى توضيح ، فهلا تفضلت بالاجابة على هذه الأسئلة لتتضح هذه القضايا فى ذهن السامع •• ولنبدأ بالسؤال الأول : كيف يرتدى الماركسيون لباس الدين فى المجتمع الاسلامى ؟ •

— قبل أن أبين لك هذا ، ينبغى أن تعرف تاريخ علاقة الماركسيين

بالعالم الاســـلامى فمن خلاله تســـتطيع أن تتصور تكتيك السوفييت وأساليبهم مع المســـلمين .

● ومن أين نبـــدأ ؟ .

— نبـــدأ من ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، أى بعد مرور أقل من شهرين على وقوع الانقلاب الذى جاء بالبلشفيين فى روســـيا الى الحكم .

● وماذا حدث فى هـــذا اليوم ؟ .

— وجهت الحكومة السوفييتية نداءها الرسمى الأول الى كل العمال المسلمين رسمت فيه الخطوط العريضة لموقف الماركسيين تجاه الشرق ..

● كيف كان ذلك ؟

— أخذت موسكو شعارات القومية التى انتشرت آنذاك فى الشرق بعد انهيار الخلافة الاسلامية فى تركيا ، فصاغتها فى صورة نداءات للتحريض ضد الاستعمار العربى فى العالم الاسلامى .

● وماذا قالت لهم ؟

— كان مما قالته لهم فى هـــذا النداء حرفيا : « لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين ، وان الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين . يا مسلمو روسيا ، يا من خربت مساجدكم ، وهدمت بيوت عبادتكم .. نعلن لكم : أن عقائدكم الدينية ، وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ، ستصبح ابتداء من اليوم مصونة ولن تمتد اليها يد آثمة ، أقيموا حياتكم القومية فى جو من الحرية دون أن يعوقها عائق فلكم الحق فى ذلك » ..

● يبدو من هـــذا أنهم لم يحاربوا الاسلام داخل روسيا !

— لا تتسرع فى الحكم !! ، فهذا جزء من مخطط رسمه الماركسيون ليمهدوا الطريق فى العالم الاســـلامى أمام مبادئهم الالحادية ، ولن يدرك الســـامع هدفهم الا اذا عرف بقية الأحداث ..

● ومتى سنسمع ذلك ؟

— فى الأسبوع القادم ان شاء الله ٠٠

***

(ب) لقد استمعت أيها الأخ الكريم فى الأسبوع الماضى الى ما قاله الماركسيون للمسلمين داخل الاتحاد السوفييتى بعد استيلائهم على الحكم فى روسيا ، ولم يقتصر نداءهم الأول على مخاطبة المسلمين داخل حدود روسيا ، بل تعداه الى توجيه نداءات الى المسلمين خارجها ، ومما جاء فيها :

« يا مسلمو الشرق : يا ايرانيون ، يا أتراك ، يا عرب ، يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوروبا التجارة قرونا بأرواحكم وأموالكم وحرياتكم وأوطانكم ، يا من قسم هؤلاء المغتصبون دياركم ٠٠ نعلن لكم : ان معاهدة القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مزقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية ٠ ان معاهدة تقسيم ايران قد مزقت وأزيلت من الوجود ، فبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستنسحب القوات الروسية من ايران ، وستكفل الحرية للشعب الايرانى ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر » ٠٠٠

● وماذا كان رد فعل هذا البيان فى العالم الاسلامى ؟

— تجاوبت أصداؤه فى العالم الاسلامى ، وأحدث رجع صوته دويا فى أرجاء المنطقة الاسلامية ، فتزايدت أصوات التهليل له فى تركيا وايران ، ووصفه البعض بأنه وثيقة الحرية الكبرى ٠ وبدا لهم وكأنه مبادىء أساسية لعمل مشترك بين روسيا البلشفية والمسلمين الذين يئنون تحت وطأة المغتصبين الأجانب ، ويشربون كأس عبودية الاستعمار الغربى ، كما خيل للمسلمين أن الظروف أصبحت ملائمة لتوحيد الجهود ضد المستعمر ، فأثر ذلك فى الفكر الاسلامى تأثيرا كبيراً ، وظهرت معالمه فى كثير من أوجه النشاط الفكرية والسياسية ٠

● وما هى الخطوة التالية التى اتخذتها موســكو فى هذا الاتجاه ؟

ــ كونت فى يناير ســنة ١٩١٨ لجنــة مركزية اســلامية أطلق عليها « المجلس الأعلى للشئون الاسلامية » واهتمت الحكومة السوفييتية اهتماما خاصا بها ، فمنحتها الحماية ودعمتها ماليا ، وكانت مهمة هــذه اللجنــة فى بادىء الأمر محصورة فى رعاية شــئون المسلمين داخل حدود الاتحاد السوفييتى ، ولكن سمح لها فيما بعــد بتوسيع دائرة اختصاصاتها لتشمل المسلمين فى أرمينية ، فأصبحت مسئولة عن تيسير شــئون المسلمين فى هــذه المنطقة وبهذا تدخلت هيئة سوفييتية لأول مرة فى شــئون اقليم يقع خارج حدود الاتحاد السوفييتى ثم دعت هــذه اللجنــة الى عقــد مؤتمر فى ديســمبر ســنة ١٩١٨ ، وكان الهدف الأساسى من وراء عقــده أن تتوصل الدعاية السوفييتية الى انشــاء تنظيمات ، وهى ما يطلق عليــه خلايا شــيوعية فى العــالم الاسلامى ، ففى أثناء انعقاد المؤتمر تكونت « رابطة تحرير الشرق » وصيغ برنامج عمل لها فى مذكرة تحت عنوان « الشرق والثورة » • وقد دار الحديث فى هــذه المذكرة حول توضيح منهجى للسياسة السوفييتية فى الهند وايران والعالم العربى •

● وما مدى نجاح هــذه الرابطة فى العالم الاسلامى ؟

ــ هــذا ما سوف نتحدث عنه فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(ج) وقفنا فى الأســبوع الماضى عند سؤالك عن مدى نجاح « رابطة تحرير الشرق » التى كونها الشيوعيون فى المؤتمر الذى عقــد فى ديســمبر ١٩١٨ ، ولكى يقف كل مسلم على تحركات الشيوعيين فى العالم الاســلامى ، ينبغى عليه أن يعى هــذه الأحداث :

دب النشاط فى هــذه الرابطة ، فأسست فى ســنة ١٩٢٠ مدرسة عليا فى طشقند لتدريب الطلائع الثورية فى العالم الاســلامى • ففى هــذه المدرسة يدرب حملة سياسة البلشفيين بكل ما يحتاجونه للقيام

بالثورات ، كما يتعلمون كل لغات الشرق ، ثم يرسلون الى كل اتجاهات ومراكز المناطق المغربية فى آسيا ، كى يضعوا أسس ترابط السوفييت مع الشـــعوب التى دبت فيها حركة الثورة •

وفى خريف العام نفسه — أى سنة ١٩٢٠ — كانت مرحلة وعود السوفييت — التى تحدثنا عن بعضها فى البيان الرسمى الأول — قد انقضت ، ثم بدأوا تنفيـــذ مخططاتهم فى العالم الاســـلامى ، اذ دعت الحكومة السوفييتية الى عقد مؤتمر عالمى لشعوب الشرق فى باكو ، ووجهت الدعوة الى أكثر من ٢٥٥٠ عضوا من كل بلاد العالم الاسلامى ولبى الدعوة ١٨٠٠ عضوا • وفى أثناء انعقاد المؤتمر فطن الأعضاء الى المناورات السوفييتية •

● وما هى هـــذه المناورات ؟

— كانت مناوراتهم عديدة •• أذكر لك مثلا منها : أرادوا انتزاع الموافقة من المؤتمر على أن الشيوعية تشبه الاسلام ••

● من أى وجـــه ؟

— قالوا : بما أن الاســـلام يدعو الى المســـاواة بين أتباعه ويؤاخى بينهم ، والشيوعية من مبادئها أن يرتبط كل المؤمنين بها برباط واحد ، وهم يدعون أيضا الى المســـاواة فى توزيع الثروة ، فكلاهما يشترك فى هذين المبدأين : الاخوة والمســـاواة ••

● وماذا كان هدفهم من هـــذا ؟ •

— كان هدفهم احتواء الحركات الاســـلامية توطئة للسيطرة عليها ، حتى لا تقف فيما بعد فى وجـــه انتشار الأيديولوجية الشـــيوعية فى العالم الاســـلامى •

● وماذا كان موقف المؤتمرين ؟

— رفضوا هـــذا الاقتراح رفضا مطلقا ، لكنهم انقسموا الى فريقين ازاء اقتراح ربط الحركات الثـــورية فى العالم الاســـلامى بالحركة الشـــيوعية ، فقد رأى الفريق الشـــيوعى منهم أن التمهيد للثورات

الوطنية فى الشرق الاسلامى يمثل مرحلة على الطريق الى الثورة الاشتراكية . أما الفريق الآخر فقد رحب باعتراف السوفييت بالثورات الوطنية وتأييدهم لحركات التحرر فى الشرق ، وفيما عدا هذا ، رأى أنه يجب أن تبتعد الثورات الوطنية عن الأفكار الثورية الاشتراكية التى تطبقها روسيا داخل أقاليمها ، بمعنى أن الروس فى نظر هذا الفريق ليس الا مساعدا لهم ضد الاستعمار ، وما عدا هذا فلا ينبغى لهم أن يطلبوا الاعتراف بمبادئهم ، أو السير فى فلكهم فى مقابل هذه المساعدة .

● وماذا كان أثر موقف هذا الفريق على السياسة البلشفية فى الشرق ؟

ـ كان له أثر بعيد المدى ، ذلك أنه جمدها ، وأعاقها عن الوصول الى أهدافها الأصلية التى أرادها الشيوعيون يوم أن ولوا وجوههم شطر الشرق لاشعال الثورة فيه .

● وهل تعلم الماركسيون من هذا الدرس ، فأدركوا أن لا مجال لهم فى أرض العالم الاسلامى ؟ .

ـ المعروف أنهم لم ييأسوا من الفشل ، فحاولوا مرة أخرى ، ولكن مع تعديل فى أسلوب تحركهم ..

● وماذا كان أسلوبهم الجديد ؟

ـ كان أسلوب المساعدات .. وعقد المعاهدات مع الحكومات الاسلامية .

● وهل أوصلهم هذا الأسلوب الى نتيجة ؟

ـ ذلك ما سنتحدث عنه فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(د) لقد تبين لنا فى الأسبوع الماضى أن الماركسيين عندما فشلت محاولتهم فى احتواء الحركات الاسلامية ، اتجهوا الى أسلوب تقديم المساعدات للحكومات الاسلامية ، محاولين عن طريقها بث الدعاية البلشفية فى كل اقليم قدمت له مساعدة سوفييتية ، ومحاولة استخدامها

للوصول الى أغراضهم ، وسوف نعرض أولا جانبا من تحركاتهم فى أفغانستان وايران وتركيا وهى الأقاليم الاسلامية المتاخمة لحدود الاتحاد السوفييتى •

أما فى أفغانستان فقد هزت الدعاية الشيوعية موقف الأمير حبيب الله ، عندما أشاعت بأنه آلة فى يد الساسة البريطانيين اشتروه بثمن بخس ، ثم أمدت روسيا عملاءها الشيوعيين بالمساعدات المادية ، فأسسوا حركة الاستقلال الوطنى الأفغانية ، وظهر على رأسها أخو الأمير ، ولم يمض وقت طويل حتى اغتيل الأمير ، فملك أصدقاء الروس زمام الأمور وتدفقت الأسلحة الى داخل البلاد •

وبعد أن أعلن استقلال أفغانستان وقيام المملكة الأفغانية ، وتوقيع المعاهدة الأفغانية الانجليزية فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ — تلك المعاهدة التى نصت على انهاء الوصاية الانجليزية على أفغانستان — بعد توقيع هذه المعاهدة سارعت روسيا باصدار بيان قالت فيه :

« ان مجلس الوزراء السوفييتى يعلن : أن حكومة العمال والفلاحين بكل هيئاتها تعترف باستقلال أفغانستان ، وأن على أفغانستان المستقلة ابتداء من الآن واجب التحالف مع روسيا ، لمساعدة شعوب الشرق الاسلامى التى لا زالت ترزح تحت نير العبودية فتنال حريتها الوطنية والاجتماعية » •

● أسمع نغمة غريبة فى هذا البيان !!

— نعم •• تبدو فيه نغمة الثورة الاشتراكية التى تحاول موسكو أن تلزم الحكومات الجديدة فى المنطقة المستقلة حديثا باتباع النموذج المطبق فى موسكو ، وأن تحذو حذو البلشفيين فى روسيا ، أى اتخاذ موسكو كعبة لها فى الاصلاح السياسى والاجتماعى •

● وهل نجح هذا الأسلوب مع أفغانستان ؟

— نجح فى بادىء الأمر نجاحا محدودا ، ولكن لم ييأس الشيوعيون من تعثر انتشار مبادئهم ، فثابروا واستمروا فى مخططاتهم حتى قاموا بالانقلاب الأخير •

● وضح لى مدى النجاح المحدود الذى حصلت عليـه موسكو فى بادىء الأمر ؟

ــ أعنى بالنجاح المحدود : أن ما نادت به موسكو من تحالف مع أفغانستان أصبح أمرا واقعا فى فبراير ١٩٢١ ، اذ وقعت معاهدة الصداقة الروسية الأفغانية فى ذلك التاريخ ، ومما يلفت النظر أنه نص فيها على انشـــاء خمس قنصليات لروسيا فى أفغانستان ، بجانب سفارتها فى كابول ، ولا شك أن المقصود من وراء انشـــاء هذا العدد من القنصليات هو تطوير وتركيز النفوذ السوفييتى الذى يسهل عملية نشر العقائد الماركسية ، ولكن لم تصل الى هذا الهدف ، كما أنها لم تحقق هدفهـــا الحقيقى ، وهو قيام الثورة الاشتراكية ، وذلك بسبب معارضة الحكومة ، تلك المعارضة التى كانت من العوامل الأساسية فى ســـد الطريق أمام الدعاية الشيوعية ، حتى لا تنفذ الأقاليم الأفغانية ، فانحصر نشـــاط الشيوعيين فى العاصمة كابول •

● ولكن كيف تمكن الشيوعيون من الوصول الى الحكم بعد ذلك ؟

ــ هذا هو موضوع حديثنا فى الأسبوع القادم ان شاء الله ••

* * *

(هـ) لعلك تنتظر الآن الرد على سؤالك الذى طرحته فى الأسبوع الماضى ، عن كيفية تمكن الشيوعيين من الوصول الى الحكم فى أفغانستان على الرغم من وقوف الحكومة فى وجه دعاتهم حتى لا ينتشروا فى الأقاليم ، فاعلم أن معارضة الحكومات فى العالم الاسلامى للأيديولوجية الماركسية لم تكن هى العقبة الوحيدة أمام انتشارها ، بل هناك ما هو أهم منها ، ألا وهو موقف الماركسيين من الدين ، ذلك أنهم ينكرون الأديان فلا يعترفون بوجود الله ، وتلك هى العقبة الرئيسية أمام تقبل المسلمين للأفكار الماركسية •

● وكيف تغلبوا عليها ؟

ــ أوهموا العامة بأن الشيوعية لا تحارب الاسلام ، ثم ركزوا فى دعايتهم على مبدأ العدالة فى توزيع الثروة ، وتلك مسألة تلقى رواجا

كبيرا فى كثير من مناطق العالم الاســلامى حيث توجد فوارق طبقية كبيرة ، كما اعتنوا بالتجمعات البشرية ، كالعمال فى المصانع والموظفين فى النقابات ، فان صادفوا قطرا لا توجد فيه تجمعات عمالية أغروا الحكم بانشــاء صناعات ، كى تهيأ الظروف لتجمعات عمالية ، وفوق هذا كله فهم منظمون تنظيما دقيقا .. والمعروف أن كل جماعة تعرف هدفها وتنظم نفسها تنظيما يتفق مع متطلبات هذا الهدف ، تصــل اليه ان عاجلا أو آجلا ، بصرف النظر عن قيمة هذا الهدف ومكانته فى حياة الأمــة أو الجماعة ، كان هــذا هو أسلوبهم فى أفغانستان : تنظيم الصفوف تنظيما دقيقا ومحاولة نشر أفكارهم بين العمال والطبقات الفقيرة ، وايهام العامة بأن الشيوعية لا تحارب الاسلام ، والتركيز بين هذه الطبقــات على مبدأ العــدالة فى توزيع الثروة ، واغراء العناصر ذات التطلعات بأن أهدافهم فى الوصول الى المراكز العليا سوف تتحقق فى ظــل سيادة الأفكار الاشتراكية ، ولذا ينبغى العمل على نشرها وسيطرتهــا على المجتمع . وساعدهم أيضا فى تحقيق أغراضهم غفلة المسلمين عما يدور حولهم ، وعدم ادراكهم للخطر الذى يمكن أن يحيق بهم لو استمروا سلبيين ازاء النشــاط الشيوعى .

وأذكر أن وفدا أفغانيا على مستوى عال زار المملكة العربية السعودية فى أوائل عام ١٩٧٨ ، وأقيم له احتفال فى المعهد العالى للدعوة الاسلامية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، وكان لى شرف القاء كلمة للترحيب بهم حذرتهم فيها — آنذاك — من الدسائس التى تحاك فى بلدهم لتحويلها الى الشيوعية ، فانفجرت مناقشات حادة على اثر هذه الكلمة اشترك فيها أعضاء الوفد ، كما أسهم فيها لفيف من طلبة المعهد من الجنسيات المختلفة ، وكانت الغالبية العظمى تــرى أن دولة أفغانستان فى مأمن من الشــيوعية لأن الاســـلام — هــكذا صرح أعضاء الوفد وأيدهم كثيرون — فيها بخير ، والحكومة لا تألوا جهدا فى مطاردة الشيوعيين والقضاء عليهم ، وليس لهم أى نفوذ على الاطلاق .. و .. الخ .. ولم يمض على هذه المناقشة سوى فترة وجيزة ،

الا وقام الانقلاب الشيوعى فى افغانستان ، فهرع الى بعض الذين عارضونى فى أثناء زيارة الوفد — طلابا وأساتذة — يعربون لى عن اعجابهم بما تنبأت به ، فأفهمتهم أنى لم أتنبأ ، لأن خبر السماء قد انقطع بعد محمد ﷺ ، ولكنها استنتاجات من ظواهر متعددة تبدو على مسرح الأحداث العالمية ، لا تحتاج الى قوة خارقة ، بل الى اهتمام بما يجرى فى العالم ، ويجب على المسلمين أن يهتموا باللعبة السياسية والاقتصادية بين الدول ، لأن لها ارتباطا وثيقا بأديان ومذاهب اللاعبين .. والا عندما يفاجأون بانقلاب فى قطر من أقطار العالم الاسلامى ، أو يشاهدون تحولا فى المجتمع ، فغروا أفواههم ، ورددت ألسنتهم كلاما أقرب الى ما نقرؤه فى الأساطير منه الى تحليل الواقع واستنتاج ما يترتب عليه من أحداث .

● لقد طال بنا الحديث عن نشاط الشيوعيين فى أفغانستان .. ولم تذكر لى شيئا عن نشاطهم فى ايران ؟ .

— سوف نتحدث عن ذلك فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

***

(و) أين وقفنا فى الأسبوع الماضى ؟

● عند وعدك بالحديث عن نشاط الشيوعيين فى ايران ..

— نعم .. فاعلم أن السوفييت اعتبروا المنطقة الفارسية ذات أهمية بالغة ، باعتبارها من الناحية الجغرافية مركز العالم الاسلامى فى غرب آسيا ، فهى تهم روسيا بنوع خاص لأن حدودها معها تمتد مسافة كبيرة . ولهذا حاولت روسيا بعد أن بلشفت منطقة بخارى أن تطوى هذه الدولة أيضا عن طريق مساعدة الجيش الأحمر للحكومة ضد انجلترا ، وقد قوبل دخول هذا الجيش بالترحيب فى بادىء الأمر ، لأنهم اعتبروه حليفا ومساعدا لهم على التخلص من الاستعمار ، ولكن عندما لاح فى الأفق أن هذه القوة المسلحة تحاول اشعال نار الثورة الاشتراكية — أى بلشفة ايران — انتشرت معارضة هذا الاتجاه وازدادت مقاومته ، فاضطرت الدعاية السوفييتية الى مراجعة مخططها ،

وتبين لها أن الوقت لم يحن بعد للقيام بهـذه الخطة ، وقد عبرت صحيفة أزفستيا عن ذلك قائلة : « ان من الخطأ أن نعتقد أن الثوار الفارسيين شيوعيون ، وأنهم النموذج الذى يلتزم بقواعد ثورتنا الاشـتراكية ، فليس فى فارس عمال مصانع ، بل هو بلد زراعى متخلف ، ولا ينبغى أن نحاول القيام بثورة هنـاك ، لأن الظروف لم تتهيأ بعد ، ولم يوجد المناخ الذى يسـاعد على نجاح الثورة » •

هـذا هو أسلوب الشيوعيون فى كل بلد ، يختفون تحت الشعارات الوطنية ، ثم يحاولون الوصـول الى هدفهم عن طريق اشـعال نار الثـورة ، مستخدمين القوات المسـلحة ووسائل الاعلام ، والتجمعات العمالية ، فاذا لم ينجحوا تراجعوا لمراجعة خططهم ، واعداد العـدة لمحاولة جديدة •

ومن الخطأ الاعتقاد بأنهم اذا فشلوا فى منطقة ، يئسوا من النجاح فيها ، وصرفوا النظر عنها •• لا •• انهم يحاولون المرة بعد الأخرى ، بأساليب مختلفة ، وطرق شتى متخفين وراء وجوه جديدة على المجتمع ، ويرتكبوا كل شىء يوصلهم الى هدفهم ، حتى ولو وصل الأمر الى الكفر بمبادئهم ومهاجمتها علنـا ، فى بعض المواقف ان كان ذلك سيوصلهم الى هدفهم ، فالغاية عندهم تبرر الوسـيلة •

اكتفت موسكو بعد هزيمتها أمام الثوار الايرانيين بتقديم المساعدات الدبيلوماسية والأدبية والمـادية لهم ، وكانت تأمل أن يتحول المجتمع الاسـلامى فى ايران عن طريق المساعدات الدبيلوماسية والأدبيـة والمـالية لهم ، الى اعتناق الأيديولوجية الشيوعية ، لتضمن بقاءه فى فلك الجبهة الماركسية الى الأبد ، ولكنها لم تصل الى هـذا الهدف على الرغم من أنها حاولت — بعد أن عقدت معاهدة صـداقة مع الحكومة الايرانية — أن تتجاوز موقف المساعد فى المسائل السياسية والعسكرية ، لأن المقاومة ضد الأفكار التى خرجت من موسكو نمت بسرعة واشتدت ، فتعقبت الحكومة كل المحاولات اليسارية التى تسـاعد أصدقاء البلشفيين على القيام بثورة بأسلوب لا هوادة فيه ، وكادت احـدى هذه المحاولات

أن تنجح فى الخمسينات ، لولا أن قيض الله لها رجالا قضوا عليهـا قبل أن يستفحل أمرها •

● وهل استسلم الشيوعيون بعد القضاء على هـذه المحاولة ؟

ـ لا لم يستسلموا ، فلهم فى الداخل تنظيم سرى يقوم بعمليات تخريب واغتيال ، وفى الخارج يحاولون تجميع الطلاب الايرانيين الذين يدرسون فى البـلاد الأوروبية حولهم ويلقنونهم المبادىء الماركسية ، ويعلمونهم أساليب الدعاية التى تساعد على اعداد الرأى العام الايرانى لتقبل قيام ثورة اشتراكية •

● ألا تعتقد أن ثورة الخومينى الدينية قضت على آمالهم ؟ •

ـ لا •• لأنهم يحاولون الآن خلق المتاعب لها على الصعيدين : الدولى والمحلى ليجهضوها ، فاذا تم ذلك قفزوا الى مراكز السلطة ، ويومها لن تأخذهم شفقة ولا رحمة فى القضاء على كل من لا يؤمن بعقيدتهم ، والى اللقـاء فى الأسـبوع القادم لنتحدث عن نشاطهم فى تركيـا •

* * *

(ز) تواعدنا فى الأسبوع الماضى على تخصيص حديث اليـوم عن نشـاط الشيوعيين فى تركيا ••

● هل يختلف أسلوبهم فى تركيا عن أسلوبهم فى ايران ؟

ـ لا •• لم يختلف نشاطهم فى تركيا كثيرا عن الطابع الذى ميز تحركاتهم فى ايران ، ذلك أن السياسة السوفييتية بدت فى سعيها لتوطيد العلاقة مع تركيا ، وكأنها تسـير نحو نفس الهدف الذى سعت موسكو لتحقيقه فى ايران ، فقد اتخذت نفس الطريق ، وسلكت نفس الأسلوب : صـداقة ، فتقديم مساعدات ، فعقد معاهدة ، فمحاولة لقيـام ثورة اشتراكية : ففى صيف عام ١٩٢٠ زار أنور باشا موسكو للتفاوض مع الشيوعيين بشأن تقديم مساعدة روسية لدولة تركيا الحديثة • ثم كتب عن نجاح هـذه الرحلة التى أطلق عليهـا بعضهم « رحلة الحج الى موسكو » ما يلى :

« لقد توجت هـذه الرحلة الى موسكو بنجاح لم نكن ننتظره ،

اذ تعمقت جذور الصـــداقة بيننا وبين روســـيا ، فالمدافع التى عبئت بالذخيرة ، توشك أن تطلق من تلقاء نفسها ، ومعنى هذا نهاية ســـلطة الاستعمار الانجليزى ، وحق للعالم الاســـلامى ، أن يرفع رأسه معتمدا على روسيا ، كى يتخلص من العبودية الاستعمارية » •

● ثم ماذا حدث ؟

ـــ وصلت الصداقة السوفييتية التركية فى عام ١٩٢٠ الى الحد الذى عرضت فيه موسكو على كمال أتاتورك ـــ وكان يحارب فى جبهات متعددة لتأمين قيام تركيا الحديثة ـــ أن ترسل له قوات روسية لمساعدته •

● وهل وافق كمال أتاتورك على ذلك ؟

ـــ بالطبع رفض هـــذا •• لأنه يعلم أنها وســـيلة لوضع أقدامهم فى تركيا ، لكن الاتصال زاد بين الدولتين ، وتعمقت صلة الترابط بينهما بواســـطة المعاهدة التى عقدت فى مارس سنة ١٩٢١ ، والتى قررت مصير أرمينية بتقسيمها بين تركيا وروسيا •

● اذا لم تخنى الذاكرة فلقد ذكرت لى فى بدء مناقشاتنا أن روسيا تعهدت فى بيانها الأول الذى أذاعته بعد قيام الثورة البلشفية بأن تكفل حرية شعب أرمينية فى تقرير مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر ، وتقول الآن انها عقدت معاهدة بين تركيا وبينها نص فيها على تقسيم أرمينية بين روسيا وتركيا •• أليس هـــذا مناقضا للبيان الأول ؟ •

ـــ نعم••هو مناقض••ويبين لك أيضا طبيعة السياسة الشيوعية ، تعدك بأن تقف فى صفك لتنال حريتك ممن سلبوها ، ثم بعد أن تتخلص ، تفرض سيطرتها عليك ، وهـــذا ما حدث فى كثير من مناطق العالم ، ساعدتهم على التخلص من الاستعمار ، ثم جثمت على صدورهم وفرضت عليهم قيودا أقسى من قيود الاستعمار القديم •• نعود الى موضوعنا وهو الحديث عن نشاطهم فى تركيا • حاولت روسيا اضرام نار الحركة الشيوعية داخل تركيا ، فكلفت عملاءها بتأسيس الحزب الشيوعى التركى، وقدمت لهم مساعدة مالية كبيرة ، غير أنهم اصطدموا بالحقيقة التى غابت

عن أعينهم ، وهى أن الفلاحين الأتراك محافظون ، يتمسكون بالتقاليد الاسلامية تمسكا لا يسمح لهم بالتجاوب مع شعارات الثورة الأشتراكية المستوردة من موسكو •

● وماذا كان رد الفعل عند الشيوعيين ؟ •

ــ لم تتراجع روسيا أمام هذه العقبة ، فهى تحاول بث دعايتها وتتحين الفرصة لتحويل تركيا الى دولة ماركسية ، ولولا دخول تركيا فى حلف شمال الأطلسى لشهدت البلاد تحركات أوسع لعملاء الماركسية الالحادية •

● أراك تؤكد مرارا على الحاد الماركسيين ، بينما أسمع نغمات اليساريين فى العالم الاسلامى تميل الى الاعتراف بالدين ، ويحرصون على الظهور بمظهر المتدينين ، فهلا أتيت لى بدليل شاف فى هذه المسألة ؟

ــ سأذكر لك دليلا يبين لك كذب ادعائهم بأنهم لا يحاربون الاسلام •• ولكن فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(ح) وعدتك فى الأسبوع الماضى بالحديث عن دليل يبين كذب ادعاء اليساريين فى العالم الاسلامى بأن الماركسية لا تعادى الاسلام •

● ولكن اذا ذكرت لى كتابا شيوعيا أو تصريحا من مسئول ماركسى •• فأرجو أن يكون حديث العهد ، حتى لا نترك لهم ثغرة للتعليل بأن ذلك كان طابع السياسة القديمة ؟

ــ سوف أذكر لك كتابا صدر فى عام ١٩٦٨ وأظن هذا التاريخ حديث العهد بالنسبة لما وصلت اليه علاقة بعض الأقطار الاسلامية بالاتحاد السوفييتى •

● نعم هو ذلك ، فهو تاريخ لاحق لظهور الاتحاد السوفييتى فى الشرق كمؤيد للحق العربى فى النزاع مع اسرائيل •

ــ فاليك خبر هذا الكتاب وما جاء فيه : نشرت الجمعية الاتحادية لنشر العلوم السياسية والفنية فى موسكو فى عام ١٩٦٨ كتيبا بقلم : كليموفيتش •• تحت عنوان « الاسلام نشوءه ومستقبله » • يقول

فيه مؤلفه : « ان شعوب الاتحاد السوفييتى العائشين مع بعضهم بمودة وأخوة ، تغلبوا على التأخر الاقتصادى والثقافى الذى كان مضروبا عليهم فى الماضى ، وأحرزوا تقدما اقتصاديا لم يسبق له مثيل ، وثقافة زاهرة شأن البلاد الاشتراكية .

وقد تغير أيضا المظهر الأدبى للشعب السوفييتى فأصبحت تعاليم ماركس ولينين العظيمة الخاصة بطبقة العمال أساسا لا ينقض لفكرتهم عن الهيئة الاجتماعية .. ولكن لا يمكن الانكار بأنه لا يزال راسخا فى ذهن بعض الناس بقايا من النظام الاستغلالى الذى لا يلائم المظهر التقدمى للشعب السوفييتى المستند على العلم والاختبار . ان محاربة هذه البقايا التى لا تختص بطبقة معينة من الشعب فى بلادنا ، هى جزء لا يتجزأ من التعاليم الشيوعية للعمال ، ولها أهمية عظمى فى وقت تتحول فيه تدريجيا من الاشتراكية الى الشيوعية ومن ضمن هذه البقايا الخرافات الدينية المخالفة للعلوم » ..

● هل تسمح لى بابداء بعض الملاحظات على هذا النص ؟ .

— تفضل !

● أولا : يدعى كليموفيتش أنهم تقدموا فى ظل مبادىء ماركس ، لكن الواقع يؤكد أن كل دولة تعتنق هذه المبادىء تجنى على ازدهارها الاقتصادى ، اذ ينحدر مستوى المعيشة انحدارا أكثر من ذى قبل ، وما لنا نذهب بعيدا والاتحاد السوفييتى الآن يعيش على القمح الذى تقدمه له أمريكا ، على الرغم من المساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية التى يملكها .

ثانيا : يعترف مؤلف الكتاب بأن محاربة الدين من المبادىء الأساسية فى النظام الشيوعى ، وهى أيضا من الأمور التى لا تختص بها طبقة دون أخرى ، فالكل مطالب بمحاربة هذه البقايا ، كما يسمونه .

ثالثا : يدعى أن الدين يناقض العلوم ، وهذه دعوى خلت من الروح العلمية ، لأن العقيدة الصحيحة هى من أكبر الحوافز التى تدفع

الانسان الى البحث العلمى ، لأنه يرى أنه بعمله هذا يخدم اخوته فى العقيدة ، ويسهل عليهم — باختراعاته — سبل العيش ، فيكون بذلك قد طبق روح التعاليم الدينية •

أما الملاحظة الرابعة — فهى استفسار : لقد ذكرت فى مبدأ حديثك عن هذا الكتاب أنك ستأتى بدليل واضح يبين محاربة الماركسيين للدين الاسلامى ، ولكن ما ذكرته يتعلق بالدين عموما •

— لو صبرت لحظة لجاءك النص الدامغ لهم ، فمؤلف الكتاب يعطيك الدليل المطلوب بعد النص الذى ذكرته مباشرة ، فاسمع •• يقول مؤلف الكتاب : « ويمثل الدين الاسلامى احدى هذه البقايا الدينية المحافظ عليها من قبل جزء من سكان جمهوريات آسيا الوسطى فى القوقاز والقفقاز ، وتاتارية ، وباشكيرية ، وكذلك فى بعض مناطق الجمهوريات السوفييتية الفيدرالية الاشتراكية الروسية • وينتشر هذا الدين فى الخارج ، وعلى الأخص فى عدد من البلاد الآسيوية والافريقية » •

● هذا دليل واضح جدا •

— هناك ما هو أوضح ستسمعه فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

***

(ط) نواصل حديثنا اليوم عما قاله « كليموفيتش » الشيوعى عن الاسلام ، لأن كلامه يعتبر حجة ضد الشيوعيين الذين يحاولون خداع المسلمين بادعائهم أن الشيوعية لا تحارب الاسلام •

● وماذا قال بعد الذى ذكرته فى الحديث السابق ؟ •

— لقد هاجم القرآن والسنة اذ قال عنهما : « يعتبر القرآن والسنة والشريعة كتب الإسلام المقدسة ، وقد ألفت هذه الكتب فى القرون الوسطى فى زمن سيادة الاقطاع ، وتبرز هذه المؤلفات الجو الطبقى ، وظلم الشعوب المغلوبة ، وليست هذه المؤلفات الدليل الوحيد على الماضى الأليم ، اذ لا تزال مبادئها تطبق كقوانين فى البلاد التى تتخذ الاسلام دينها الرسمى •• » •

● ليس هناك أوضح من هذا على أن الشيوعية ضد الاسلام !

ـ بل هناك ما هو أخطر من هــذا ، انه يصرح بأن الشيوعيين فى العالم الاسلامى يعارضون القرآن الكريم حيث يقول : « وقد اختلف التقدميون الشرقيون فى آرائهم مع تعاليم القرآن » ..

ثم يرمى بالتأخر كل من يتمسك بالتعاليم الدينية حيث يقــول : « ويجب الملاحظة هنا بأن أى دفاع عن الأفكار الدينية ليس الامجهودا لمعاضدة التأخر الاجتماعى ، الذى أصبح ـ أو على وشك أن يصبح ـ من ذكريات الماضى » . ثم أعلن صراحة الدعوة الى الكفر بالله حيث قال : « ولا تتفق مع التقدم الفكرة القائلة بأن الاعتقاد بالله له قيمة فى الحياة الاجتماعية ، فان لينين قد أوضح البيان الحقيقى لهذه الفكرة فقال : « ان فكرة وجود الله كان مفعولها دائما اخماد الحس الاجتماعى ، وتبديل شىء حى بشىء ميت ، وما هى الا عبودية من أسوأ الأنواع ، ولم تربط فكرة الله الفرد بالمجتمــع ، بل قيدت الطبقــات المظلومة بالاعتقــاد بألوهية الظالمين » ..

● ماذا كان هدفه من الهجوم على الاسلام بهذه الطريقة التى لا تتفق مع أبسط قواعد البحث العلمى ؟ .

ـ يعتبر الشيوعيون أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى يقف حجر عثرة أمام انتشار مبادئهم ، ولهذا لا يألون جهدا فى الهجوم عليه ومحاربته بكل الطرق والوسائل ، وقد أعرب كليموفيتش عن شــكوى الشيوعيين من عنف معارضة الاســلام لهم فقال : « ويستنتج من دروس ظهور تاريخ الاســلام وماهيته الاجتماعية ، بأنه عبارة عن فكرة محافظة تعارض نشر المبادىء السوفييتية الحيوية فى العالم ، أى الماركسية اللينينية ، ويمكن ارجاع ذلك الى جميع عقائد وطقوس الاسلام ، وأعياده العديدة ، وصيامه ، والزيارة التى يقوم بها المسلمون للأماكن المقدسة وغيرها من العبادات والتقاليد الاســلامية واعتقاد المسلمين بأن الله هو الذى يضمن برحمته حياة هادئة ومرفهة للبشر ، ولا أحد غيره » .

● والسؤال الذى أطرحه الآن هو : هل قصد بهـذا الكتاب التأثير على الشباب الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى ؟ ••

ــ لا •• فقد قصد به محاولة نشر الالحاد فى البلاد الاسـلامية بين الشبان الذين وقعوا فريسة الدعاية الشيوعية التى أوهمته فى بادىء الأمر أن الشيوعية لا تحارب الاسلام ، حتى اذا ما انخرط فى التنظيم واستولت الدعاية البراقة على مشاعره أعطيت له هذه الجرعة لتفصله كلية عن تقاليده ، وتدفع به الى دوامة الماركسية ، وليس من السهل عليـه التراجع ، كما أنه ليس من اليسـير على نفسه الكفر بالماركسـية اذا أظهرت له الأيام أن واقع تطبيقها يخالف ما جذبه اليها من شعارات •

● ما هو الدافع الذى جعلك تقرر أن الكتاب ليس موجهـا الى الشباب المسلم الذى يعيش داخل حدود الاتحاد السوفييتى ؟

ــ سأحدثك عنه فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(ى) سألتنى فى الأسبوع الماضى عن الدافع الذى جعلنى أقرر أن الكتاب الذى كتبه « كليموفيتش » عن الاسـلام ، لم يكن المقصود به الشباب المسلم الذى يعيش فى الاتحاد السوفييتى •

● نعم ••

ــ فلتعلم أنه قد تم ابعاد الشـباب فى الاتحاد السوفييتى عن الدين كلية ، فأصبح ملحدا بلا استثناء •

● هل لديك دليل على هـذا ؟

ــ عندى الدليل الواضح ، وعلى لسان أحد الشيوعيين الذين تربوا على الأيديولوجية الماركسية ، ورضعوها ممزوجة بلبن أمهاتهم ، ألا وهو ليونهارد الألمـانى ، فقد تحدث فى كتابه : « حقائق عن نظـام الحكم الشيوعى » عن التنظيمات التى التحق بهـا أثناء وجوده فى الاتحاد السوفييتى فقال . « كان التنظيم الثالث الذى كنت عضوا فيه ــ كما كان ينتمى اليه كل طلبة المعهد الذى كنت أدرس فيه ــ يسمى « اتحاد الملحدين المناضلين » والحقيقة أن هـذا التنظيم كان قد فقد أهميته كلية ، أصبح لا لزوم له ، فقد كانت مهمة هـذا التنظيم بالنسبة لنا

نحن الشباب ، لا مكان لها من الناحية العملية ، لأننا تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا واحدا ، فعقولنا خاوية من هـذا الجانب ، وأقل ما يتصور أن مهمة هـذا الاتحاد لم يعد لها وجود • فانني لم أقابل فى مدى العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى انسانا واحدا من جيلى ليس ملحـدا •

● اذا كان كل شباب الاتحاد السوفييتى ملحـدا ، فمن المقصود بهـذا الكتاب ؟

ـ المقصود به هو شباب العالم الاسلامى • فقد ترجم هـذا الكتاب الى اللغة العربية ، وأظن أنك لاحظت من النصوص التى التزمت بنقلها حرفيا أن ترجمته ضعيفة مما يدل على أن المترجم اما أن يكون من غير أبناء العربية ، أو من العرب الذين لم يبلغوا درجة من الثقافة تؤهلهم لهذا العمل على الوجـه الأكمل •

● وما الذى منعهم من اختيار الأكفاء للقيام بهذا العمل ؟ •

ـ يبدو أن ذلك لم يتيسر لهم ، لأن غالبية من يؤمنون بالماركسية من متوسطى الثقافة •

● وكيف يوزعونه على شباب العالم الاسـلامى ؟ •

ـ عن طريق أعوانهم فى البلاد الاسلامية ، فأنا شخصيا ، وجدت هـذا الكتاب فى يد طالب فى جامعة أحمدو بللو بنيجيريا ، ولما سألته عن مصـدره ، أجاب بأنه يوزع فى العاصمة لاجوس ، وقد حصل عليـه من أحـد زملائه •

● ألاحظ أن مؤلف الكتاب انطلق فى هجومه على الاسـلام من مبادىء اتخذتها الشيوعية وسـيلة لجذب الشباب الى صفوفها ، وهى : التقدمية ، والعدالة الاجتماعية ـ أو الغاء الطبقات كما يسمونها ـ والحرية والوعد بغد أفضل ـ أى الوعد بجنة على هذه الأرض ـ ، فهلا بينت لى خداعها فى هذه الادعاءات ، لأن ذلك سوف يصور للسامع ما معنى التقدم ، أو ما هى الحرية ، وموقف الاسـلام منها ، وبذلك لا ينخدع

بهذه الشعارات البراقة التى مثلها كمثل سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شـيئا •

ـ سوف أبين ذلك بعد أن أعطيك صورة مختصرة عن نشاط الشيوعيين فى المنطقة العربية ، وموعدنا فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(ك) اتفقنا فى الأسبوع الماضى على أن نتحدث اليوم عن نشاط الشيوعيين فى المنطقة العربية •• أليس كذلك ؟ •

● بلى !

ـ اذن فلتعلم أن موسكو لعبت دورا نشطا فى البلاد العربية ، اذ استغلت الحركات الوطنية التى هبت فى المنطقة للمطالبة بالاستقلال ، فسعت الى اقامة ترابط بينها وبين الحركات الشيوعية ، وأعطت الاشارة لعملائها الشيوعيين من مواطنى تلك البلاد بأن يتحركوا بحرية ودون توقف ، فليست هناك مواقف دوليـة تجبرهم ـ كما هو الحال مع السلطة المعترف بها دوليا ـ على الحد من نشاطهم ، فهم ليسوا حكومات أو منظمات دولية ملتزمة بقانون وقواعد دولية معينة •

تحرك الشيوعيون فى شـمال افريقيا ، ونجحوا فى اجتذاب بعض المسلمين اليهم ، وكانوا فى دعوتهم لهذا الشباب يتسترون وراء الشعارات القومية ، لأنهم يعلمون أنهم لو أفصحوا عن أنفسهم لنفر منهم الناس نظرا لمـا يعرفونه عنهم من انكار للدين ، كذلك استغل السوفييت الوضع فى فلسطين ، فحاولوا كسب أتباع لهم فى صفوف العرب معتقدين أن الفلاح العربى الفقير حقلا مناسبا لبذر بذور الاشتراكية ، فتصوروا أنه انسـان يمكن اقناعه بتعاليم الشيوعية ، لم يكن هـذا سوى تخيلات فقط ، فالواقع أن عملاء موسكو لم يصادفوا آذانا صاغية بين المسلمين •• اللهم الا حفنة قليلة لا وزن لها ، لأن العرب يتمسكون بدينهم ويرتبطون بتعاليم الاسلام ، ويتصدون لكل اغراءات موسكو ، وكان ذلك هو الصخرة التى تحطمت عليهـا محاولات الشـيوعيين للنفـوذ الى المجتمع الإسـلامى •

غير أنه عندما ازدادت حدة النزاع بين العرب واليهود ، بدا لموسكو أن الوقت قد حان لتنظيم أتباعها فى جناحين متباعدين ، أحدهما يتخذ طريقه بين اليهود ، والآخر بين العرب ، وكانت شعارات الجناح اليهودى الاشتراكية ، أما الشعارات فى الجناح العربى فهى التحرر الوطنى .

وعندما ألغى الانتداب البريطانى ، وطرحت المسألة على هيئة الأمم المتحدة ظنت موسكو أن الأمل فى قيام الاشتراكية فى الدولة اليهودية الجديدة ، أقرب الى التحقيق منه فى دولة عربية فى فلسطين ، فانحازت فى المناقشات الى جانب اسرائيل ، وهاجم مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة — وكان يومئذ « أندريه جروميكو » وزير خارجيتها الحالى — العرب بألفاظ يعف لسان رجل الشارع العادى عن التلفظ بها ، فضلا عن مندوب دولة كبرى فى هيئة دولية .

● يفهم من كلامك أن منهج الشيوعيين يتلخص فى التغلغل فى صفوف الوطنيين المنادين بالاستقلال ، وتقديم المساعدة لهم ، ثم محاولة السيطرة عليهم ، والقفز الى مناصب الحكم بعد الاستقلال ؟ .

— بالضبط .. هذا هو أسلوبهم فى كل مكان : فى افريقيا ، وفى آسيا ، وفى أمريكا اللاتينية ، يتظاهر أتباعهم بالوطنية ، ثم بالحصول على مساعدة من موسكو للتخلص من الاستعمار ، فاذا ما حان الوقت ، تسلطوا ، وفرضوا قيودا أقسى من قيود الاستعمار القديم .. ونكتفى بهذا القدر اليوم ، فالى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(ل) لا أريد الاسترسال معك اليوم فى الحديث عن نشاط الشيوعيين وتحركاتهم بالشرح والتحليل داخل كل قطر عربى ، لأنه تطويل يؤخرنا عن الوصول الى الحديث عن مفهوم التقدم عندهم ، وحقيقة الموقف الاسلامى بالنسبة للتقدم .

● معنى ذلك أننا سنترك هذا الموضوع جانبا ؟

— لا .. ليس هذا غرضى .. وانما أريد بيان الطابع المشترك

انشاطهم فى جميع الأقطار . بل انك ستلمح من خلال هذا أنه أيضا هو المطبق فى كل افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

● وما هو هـذا الطابع ؟ .

ــ كانت المنطقة العربية ــ شأنها شأن كل البلاد والأقطار التى كانت ترزح تحت نير الاستعمار ــ مسرحا لحركات تحررية على مدى المـائة سنة الماضية ، واتخذت هـذه الحركات طابع القومية شعارا لها ، تقليدا لمـا حدث فى أوروبا فى عصر القوميات ، وتجنبا للوقوع فى صراع دينى قد يعيق مسيرة التحرك نحو التخلص من الاستعمار الذى كان يتعقب كل انتفاضة دينية بطريقة أكثر شراسة ودهاء من أسلوب قمعه للحركات القومية ، لأنه كان يرى أن زعماء الحركات القومية أقرب اليه من زعماء الاصلاح الدينى ، وأن كثيرا من المفكرين القوميين يميلون الى تطبيق النظم الغربية فى مجالات السياسة والتعليم والقضاء ، أما رجال الدين فيرفضون كل ما هو غربى رفضًا باتا .

وعندما حصلت البلاد العربية على نوع من الاستقلال ، مكنها من المشاركة فى تسيير شئونها ، أتيح لحركات الاصلاح الدينى فرصة الظهور على مسرح الأحداث ، فتكونت الجمعيات الدينية ذات الطابع السياسى ، وكان من الطبيعى أن تخوض صراعا مع الحركات القومية التى كانت قد نمت ونضجت فى ذلك الوقت ، كذلك اصطدمت أيضا مع أصحاب الاتجاه اليسارى الذين ساعدتهم ظروف بعض الأقطار على الظهور على المسرح السياسى .

● وماذا كانت نتيجة هـذا الصراع ؟ .

ــ ساعدت الظروف التى مرت بهـا المنطقة على تمكين الاتجاه اليسارى بمساعدة روسيا التى ارتبطت بها بعض أنظمة الحكم عن طريق تقديم المساعدات ، فاستغل عملاء المـاركسية هذه الظروف وبدأوا يتغلغلون فى طبقات المجتمع عن طريق السيطرة على وسائل الاعلام ، ولكنهم لم يصادفوا نجاحا الا فى مجال واحد .

● وما هــو ؟ .

— ضرب الحركات الدينية ، وساعدهم على ذلك عدم دراية القائمين على الحــركات الدينيــة بالمناورات السياسية ، فوقعوا فى أول شرك نصب لهم .

● ألم تكن الساحة خالية للشيوعيين بعد القضــاء على المتطوعين فى الحركات الدينية ؟

— نعم .. ولكنهم لم يستطيعوا كسب الجماهير ، اللهم الا حفنة قليلة فى الأوساط العمالية ، وبين شباب الجامعات .

● وما السبب فى هــذا ؟ .

— السبب يكمن — كما ذكرت سابقا — فى أن المسلمين يرفضون الشيوعية ، لأنها تحارب الاســلام ، وفى أن تجربة الأقطار التى طبقت بعض المبادىء الماركسية كانت قاسية وقد أدرك هــذا كثير من شــعوب العالم اليوم ، فحيثما حلت الشيوعية تدهور الاقتصــاد وانخفض مســتوى المعيشة .

● أظن أن هــذا كاف عن تاريخ الشيوعية فى العالم الاسلامى ، فلنتركها الآن وان كنا سنعود الى بيان الخداع فى شعاراتها فيمــا بعــد ، ولتحدثنى عن أهــم التيارات الفــكرية التى تجتاح العــالم الاســلامى اليوم ..

— سأحدثك عنها فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(م) وعدتك فى الأسبوع المــاضى بالحديث عن أهــم التيارات الفكرية ، التى تجتاح العالم الاسلامى ، فاعلم أنهما تياران متطرفان :

أحدهما : علمانى وينقسم الى قســمين : علمانى متطرف ، ويمثله الشيوعيون ، وعلمانى معتدل ، وهو الطابع المميز لنظــام الحــكم والمجتمع فى العالم الغربى .

— أليس شقاء العامل من الأسباب التى دعت ماركس الى التفكير فى هذا المذهب الذى يسمونه الشيوعية ؟

● نعم ..

— اذن فلتعلم أن التقدم التكنولوجى قد قضى على شقاء العامل ، وأراحه من المجهود المضنى الذى كان يبذله فى عمله .

● كيف ذلك ؟

— لقد نقل التقدم التكنولوجى العامل من مرحلة استعمال عضلاته الى مرحلة يستعمل فيها عقله بدل قدميه ، ويستخدم تفكيره وعلمه وفنه ، قبل أن يستخدم يده وساعده .

وقد حلل كاتب ألمانى مدى تأثر العمل بالآلية فى الصناعة فى المجتمع التكنولوجى المعاصر . وتساءل :

« هل انتشار الآلية سيزيد فى البطالة فى العمل ، أم سيخلق فرصا أخرى حديثة واسعة فى مجالات الكسب والعمل مما تستلزم حتما زيادة فى عدد الموظفين الفنيين ، وان كانت ستنقص من عدد العمال العضليين » ؟

واذا كانت نتيجة التوسع فى المجال الآلى فى الصناعة والخدمات معا ، هى زيادة الثقافة الفنية لمواطنى المجتمع المعاصر التكنولوجى ، وبالتالى زيادة عدد الموظفين عن العمال ، وانكماش الثقافة العمالية التقليدية المحدودة ، وبالتالى انكماش عدد العمال اليدويين ، فان ذلك ينذر بانتهاء عهد النقابات العمالية التى جاء تأسيسها عقب الأزمات المتكررة بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، ومعنى ذلك أن فلسفة « العمل » التى قامت عليها الفلسفة الماركسية ستنتهى قيمتها كلية ، عند انتشار الآلية فى الصناعة والخدمات فى المجتمع .

- ان كارل ماركس قد ربط تفكيره الفلسفى بأوضاع القرن التاسع عشر ، فاذا نودى اليوم فى المجتمعات الماركسية ، أو فى المجتمع الاسلامى بالتقدمية فى نظام الحكم عن طريق التبشير بالقوة العمالية العالمية ، وأيضا بثورة الطبقة العاملة ، فذلك ينطوى على دعوة الى رجوع التطور الاجتماعى والتكنولوجى ، والوقوف به عند حد القرن التاسع عشر حتى يمكن أن

ينكشف الظلم فى استغلال العامل من صاحب العمل ، ويبدو البعد فى الهوة السحيقة فى وضع كل من العامل ، وصاحب العمل ، فى الحياة ، والشقاء ، والاستمتاع فيها •• وعندئذ فقط يكون لفكر ماركس مكان فى حل ما بـين العامل وصاحب العمل من مشاكل ، هى مشاكل الظلم والانحراف فى استثمار المـال •

فاذا وصف الماركسـيون التمسك بالدين بأنه « رجعية وتخلف » فلا ينطبق هـذا الوصف الا على الماركسية ، لأن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ، ولا بمشاكل لا تتكرر ، اذ هو للطبيعة الانسانية بمالها من خصائص ، أينما وجدت ، وفى آى وقت كانت ، وهدفه أن يحول دون الانحراف فى السـلوك سواء فى المـال أو فى العلاقات البشرية ، بينما الفلسفة الماركسية قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة ، وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصة ، ليس لها طابع الاستمرار ، وهى ظروف القرن التاسع عشر ، والثورة الصناعية التى تبدلت تماما فى القرن العشرين •

من أحق بوصف الرجعيـة ؟ •

أهو الماركسى الذى يدعو الى فلسفة ارتبطت بأوضاع انتهت ، أم المتدين الذى يتمسك بتعاليم تتعلق بتقويم أخلاق الانسان ، والانسان هو هو لم يتغير عن الماضى ، ولن يتبدل فى المستقبل ؟ !

والى لقاء آخـر ••

* * *

(ص) حدثتك فى الأسبوعين المـاضيين عن خداع الشيوعيين فى ادعائهم بأنهم تقدميون وأن المتدينين رجعيون ، فتبين لك أن فلسفتهم رجعية وتخلف ، لأنها ارتبطت بظروف القرن التاسع عشر ، أما الدين فهو للانسـان ، وهو لا يتغير ولا يتبدل ، ولذا فوصفه بالرجعية محض افتراء ، وقلب الحقائق ، فالرجعيون هم الشـيوعيون ، والرجعية هى الفلسفة الشيـوعية لأنها تنادى بحل مشاكل انتهت وطواها التاريخ •

هـذا ما يتعلق بشـعار التقدمية عند الشيوعيين ، أما المجتمع الرأسمالى فقد اعتنق سياسة مفادها عزل الدين عن الحيـاة العامة ، وحصره فى أروقة المعابد ودهاليز الكنائس ، وقد تأثر بهـذه الدعوة كثير من المسلمين فى المجتمع الاسـلامى ، فنادوا بأن الاسـلام يجب أن يقتصر على المسجد ولا يتعداه الى شـئون الناس وحياتهم العامة • وهـذا أيضا عدم فهم أدى الى قياس مبادىء الاسـلام على تعاليم الكنيسة الغربية •

● أرجو أن توضح هـذه المسألة ، لأن كثيرا من المسلمين يربطون بين ما يحدث فى الغرب من صراع بين الكنيسة والدولة ، وبين ما يطفو على السـطح أحيانا من معارضة رجال الدين الاسـلامى لما يطبق فى المجتمع الاسـلامى من شئون سياسية واقتصادية واجتماعية وغيرها •

ـ اعلم أن معارضة الكنيسـة فى أوروبا ، ومحاولة فصلها عن الشئون الدينية جاء نتيجة لتسلط الكنيسـة ، وفرض سيطرتها على المجتمع ، مدعية أن ذلك حق الهى لها ، وزاعمة أن قرارها الهى لا يقبل المعارضة وبالاضافة الى هـذا أعطت نفسها حق مصادرة كل ما لا يتفق مع رأيها المقدس ، فمنعت التفكير الحر — استنادا الى حقها الالهى — وتصدت لكل ما هو جديد فى المجالات السياسية والاقتصادية فتفاقم النزاع بينها وبين الدولة ، أو بتعبير آخر بين الأمور الدنيوية ذات الصبغة البشرية ، والأوامر الكنسية التى اكتسبت صفة التقديس ، مما دفع بعض المفكرين الى الدعوة بفصل الدين عن الدولة ، وتقسيم السلطة الى مجالين ، فيكون للدولة الشـئون السياسية والاقتصادية والتعليمية والتشريعية بما لا يمس الكنيسة ، ويكون للكنيسة شئون الأسرة فى مراسم الزواج وطقوس الوفاة ، ونظام الرهبنة •

لم توجد هـذه الظروف فى المجتمع الاسـلامى ، فلم يدع رجال الدين أنهم يكونون حكومة الهية ، أو أنهم يصدرون أحكاما منزهة عن الخطأ كما كان يفعل رجال الكنيسة فى أوروبا ، فرجال الدين فى نظر الاسلام بشر ، يخطئون ويصيبون ، والحكومة أيضا انسـانية تخضع للخطـأ

والصواب ، فاذا حدث نزاع بين الطرفين فيجب عليهم أن يعودوا الى القرآن الكريم والسنة النبوية •• يقول الله تعالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به ، ان الله كان سميعا بصيرا • يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** »[٢] ••

فهنا يأمر القرآن الكريم المؤمنين جميعا من أولى الأمر وغيرهم بأربعة مبادىء :

أولا : بأداء الأمانات الى أهلها ، وفى مقدمتها أداء صاحب الولاية العامة أمانة ولايته لمن يولى عليهم ، وبالأخص العمل طبقا لما جاء فى كتاب الله •

ثانيا : بمباشرة العدل فى الحكم والقضاء بين الأطراف المعنية فى الخصومة •

ثالثا : بالطاعة لما لله من قوانين ومبادىء فى صورة أوامر أو نواهى ، أو وصايا ، وطبقا لما جاء فى كتابه ، وفى سنة رسوله قولا وعملا •

رابعا : بالاحتكام الى الله فى القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ من مبادىء وأحكام وتطبيق عملى عند التنازع بينهم وبين أولى الأمر منهم •

ومن هذا يتبين أن الظروف التى دعت المفكرين فى الغرب الى المناداة بفصل الشئون الدينية عن المسائل الدنيوية لم توجد فى المجتمع الاسلامى ، وليس هناك ما يؤدى الى وجودها فى المستقبل ، فدعوى الفصل بين الأمرين لا مجال لها هنا ، وبالتالى ليس هناك ما يدعو الى القول بأن الاسلام يقف عقبة فى سبيل ممارسة الدولة لشئونها ، مادام ذلك لم يصطدم بنص صريح أو رأى مجمع عليه •

---

(٢) النساء : ٥٨ ، ٥٩

لكنا نرى بعض المسلمين — ومن بينهم أفراد من رجال الدين — يعارضون كثيرا من الأمور الحيوية واللازمة للمجتمع بحجة أنها لا تتفق مع الاسلام ، وذلك راجع الى عدم فهمهم للاسلام •

***

(ق) سأبين لك اليوم جانبا آخر من خداع الشعارات التى يرفعها الشيوعيون فى العالم الاسلامى ، ألا وهو دعواهم بأن تطبيق الماركسية يؤدى الى الغاء الطبقات ، فتصبح المساواة بين أفراد المجتمع حقيقة واقعة ، فلا ترى فرقا بين غنى وفقير ، وذلك أنهم يدعون أن الفلسفة الماركسية تدعو الى نقل الملكيات الى الدولة ، كى تزول الفوارق بين الأفراد ، فيتساوى الكل فى الانتفاع بالدخل القومى •

وقد جذب هذا الشعار عددا كبيرا من الطبقة العمالية والأوساط الفقيرة فتعاطفوا مع دعاة الماركسية ، أو انضموا اليهم فى البلاد الاسلامية ، الا أن واقع البلاد التى تطبق الماركسية يكشف النقاب عن الخداع فى حمل هذا الشعار ، فالطبقية موجودة فى الاتحاد السوفييتى بصورة أفظع مما هى فى المجتمع الرأسمالى ، فليس لأصحاب الطبقة الدنيا من فرص فى الحياة مثلما لأصحاب الطبقات العليا ، فلا يتساوى أولادهم فى مجال التعليم ، ويتضح لنا هذا من وصف أحد الشيوعيين لحالة الطلبة فى معهد المعلمين العالى فى موسكو ، بعد أن صدر قرار بقطع المنح الدراسية عنهم فيقول :

« رأيت فى تلك الأيام عيونا باكية ، اذ حتمت تلك الظروف على كثير من الطلبة أن يفارقونا ، وكان الموقف الدرامى الذى تأثرت به بنوع خاص وداع طالب أحمر الشعر ينحدر من أسرة فقيرة تشتغل بالزراعة ، فقد كان مجتهدا فى دراسته ، يحرص أشد الحرص على تحصيل العلوم ، والقيام بالواجبات الدراسية ، لأنه كان يتمنى أن يصبح مدرسا لتلاميذ المرحلة المتقدمة فى المدارس ، وكانت تبدو عليه — قبل صدور هذا القرار — علامات السرور كلما تذكر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أماله •

ولم يكن هو الطالب الوحيد الذى حيل بينه وبين التعليم بسبب الفقر ، فقد كان عدد الطلبة الذين يتركون المعهد — لأنهم من أسر فقيرة لا تستطيع أن تصرف عليهم — فى ازدياد مستمر ، والحقيقة أنه لم يبق فى المعهد الا أبناء وبنات الطبقة الحاكمة والضباط والموظفين الكبار » •

ثم بين هـذا الشـيوعى أن تولى الوظائف العليـا فى الاتحاد السوفييتى كان مقصورا على خريجى المعاهد العليـا وبصدور هـذا القرار أصبحت تلقائيا مقصورة على أبناء الطبقة الحاكمة •

استمع اليه حين يقـول :

« فالطبقة البيروقراطية الحاكمة التى تكونت منـذ نهاية العشرينات وثبتت سلطتها بحركة التطهير التى امتدت من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ فأطاحت بالمجموعة القـديمة ، بدأت فى عام ١٩٤٠ فى اتخاذ تطبيق وسـائل احتكار السلطة ، ومنع دخول الطبقات الأخرى لمشاركتها فى الحكم ، وبهـذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة والامتياز الطبقى وقفا على أبنائهم يرثونه من بعدهم » •

بلغ الامتياز الطبقى فى المجتمع الشيوعى أقصى ما يتصور العقل وجوده فى أى مجتمع آخر ، فبينما ذكرت الأنباء أثناء الحرب العالمية الثانية أن تشرشل كان يعيش أثناء الحرب مثل مواطنيه ، ينقل لنا هـذا الشيوعى صورة أخرى عن حياة الطبقة العليـا فى الاتحاد السوفييتى فيقول : « لم يشعر أعضاء الحزب ولا كبار موظفى الحكومة ولا العاملين فى المؤسسات الاقتصادية بنقص فى المواد الغذائية فى بيوتهم فى هـذا الوقت العصيب ، بل كانوا يعيشون كما لو كنا فى حالة السـلم ، لأنهم كانوا يحصلون على كل شىء من المحلات المتوارية خلف الكواليس » •

« وبجانب هـذه المحلات المقصورة على الطبقة الممتازة الخاصة » وجدت أيضا أماكن خاصـة للحصول على الحاجيات المعيشية للمهندسين ، ونساء الضباط ، وأفراد الطبقة المتوسطة « المفضلة » الذين لم تفرض عليهم حياة مثل حياة الجماهير ، ولكن وضعهم الطبقى فى الحـزب لم

يمكنهم من الوصـــول الى المنـــابع التى توزع على الطبقة الممتـــازة « الخاصـــة » ..

أما بقية الشعب فكان مجبرا على أن يعيش على أية كيفية .

كذلك ظهرت المعاملة الطبقية فى الاتحاد السوفييتى مع عمـــلاء الماركسية من الدول الأخرى ، فقد تكون ما تسمى بـــ « جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » وعومل أعضاؤها — وهم من جنسيات مختلفة معاملة متفاوتة — : « فقد وزع هؤلاء على أماكن الســـكن ، طبقا لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحا بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت معاملاتهم بالنسبة للخدمات الأخرى ، فكل الأعضاء الذين كان نشاطهم داخل الجبهة فى المقر الرئيسى ، كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يوميا ، والزعماء الكبار يحصلون — بالاضافة الى الوجبات الثلاثة — على طرد كبير ملئ بأصناف الفواكه والحلوى مرسلا الى محل اقامتهم .

أما الباقون من أعضاء الجبهة ، فكانوا يحصلون على ما يحتاجون اليه من أغذية بمقدار ما يأخذه عامل فى بطاقة التموين وبين الحين والآخر يوزع عليهم بعض المأكولات الخاصـــة » .

كان هذا هو وضع العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .. كل على حسب قيمة ما يقدمه فى العمل السياسى ، نظام التقسيم الى طبقات فى كل شىء ، فى المســـكن والأكل ، وفى كل ما يتعلق بشئون الحياة ، طبقة تعلو الأخرى ، حتى القمة .

والى اللقاء فى الأسبوع القادم .. لأحدثك عن الطبقية فى البلاد الشيوعية الأخرى ثم عن موقف الاسلام من هـــذه الظاهرة .

***

(ر) بينت لك فى الأسبوع الماضى أن الطبقية موجودة فى الاتحاد السوفييتى بأقصى صورها ، وأن الشعب الذى تطبق عليه فلسفة ماركس ، لم يعرف المســـاواة التى ينادى بها دعاة الشيوعية ، بل على العكس من ذلك ، فهو يرى بعينيه التمييز الطبقى قائما على أساس الولاء للحـــزب وليس على أساس ما يقوم به الفرد من عمل ، ولا يقتصر التمييز بين

الطبقات على المجتمع السوفييتى ، بل تراه فى كل دولة قلدت روسيا فى تطبيق الشيوعية ، يصف الشيوعى القديم « ليونهارد » التمييز بين طبقات الحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية فيقول :

« كان تمييز القياديين وتفضيلهم على الآخرين إحدى المساوىء الكبرى ، والسبب الدائم الذى كان يسبب لى المغص السياسى ، فلم أعرف أنا ولا أصدقائى — الذين نشأنا فى الاتحاد السوفييتى — أن هناك شيئا آخر ، ولم نر فى بادىء الأمر غضاضة فى التفضيل المادى لقادة الحزب فى الدولة ، وفى المجالات الاقتصادية .

نعم .. تبين لى قبل ذلك وبالتحديد فى عام ١٩٤٢ — عندما كنت فى كاراجندا — أن من الظلم أن يكون هناك فى زمن الحرب فرق شاسع ، فالجماهير العريضة من العمال — كذلك أيضا كثير من أعضاء الحزب الذين يحتلون الدرجة السفلى فى درجات تصنيف الطبقات فيه — كانوا يعانون من ألم الجوع القاتل ، بينما لا يشعر القياديون بأى نقص فى المواد الغذائية عندهم ، ولكننى أخذت المسألة آنذاك من زاوية أن تفضيل القياديين جاء نتيجة انحراف غير متعمد ، وليس هو طابع النظام الشيوعى ، الى أن دفعتنى المصادفة الى التفكير فى هذه المظاهر ، وكان ذلك فى أكتوبر ١٩٤٥ عندما كنا فى بداية الحملة الدعائية الكبرى للوحدة ، وحدة الأحزاب الألمانية فى حزب واحد ، هو الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

فقد كنت فى أحد الأيام آتيا من مكتبى ، متجها الى صالة الطعام فى اللجنة المركزية ، فاستوقفنى على السلم رجل متوسط العمر ، ويبدو من حسن مظهره أنه غريب ؛ قال لى هذا الرجل :

لا تؤاخذنى أيها الرفيق : هل تعمل هنا ؟

فقلت له : نعم ! فى قسم الدعاية السياسية .

فقال : هذا ما أريده بالضبط .. واستطرد قائلا : أنا عضو فى الحزب الشيوعى فى ألمانيا الغربية ، جئت الى هنا بناء على دعوة وجهت الى ، وقد تسلمت منذ لحظة « ماركة » للأكل ، ولكنى لا أعرف أين صالة الطعام ؟ .

فقلت له : هــذا يتوقف على نوع الماركة التى معك ، فنظر الى مندهشا ، ثم أطلعنى على نوع « ماركته » لقد كانت واحدة من الطبقة رقم ٣ ، وهو نوع يعطى للعاملين غير المهمين ، فشرحت له كيفية الوصول الى مكان تناول الطعام •

فقال لى : أخبرنى •• هل يوجد أربعة أنواع من « الماركات » ؟

فقلت له : طبعا يوجد أربعة أنواع مختلفة من «الماركات» تبعا لعمل القيادي ، فالاثنان الأخيران هما للعمال الفنيين والمستخدمين •

فقال لى : نعم ! ولكن •• أليس الكل رفقاء ؟

فقلت له : طبعا •• أيضا عاملات النظافة والسائقون والحراس ، كل أولئك أعضاء فى الحزب ، انضموا اليه بعد اختيار •

فنظر الى فزعا ثم قال :

« ماركات » مختلفة وطعام مختلف •• ولكن الكل رفقاء !

ثم أدار ظهره دون أن يتفوه بكلمة وذهب ، وبعد لحظات سمعت صرير الباب الخارجى •• لقد غادر مبنى اللجنة المركزية •

اتجهت الى صـالة الطعام ممعنا التفكير فيما حدث ، فاخترقت الحجرات التى تتناول فيها الطبقتان رقم ٣ و ٤ — وهمـا السفليتـان — طعامهم ، فاعترانى شـعور بالانقباض عنـدما فتحت باب القسـم الخاص بطبقتنا ••

فهنا — على المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء — يتناول العاملون من الطبقة العليا طعامهم المكون من أصناف متعددة •• غريب أنى لـم ألحظ ذلك قبل اليوم قط » !!

ثم يستطرد الشيوعى القديم فى وصف حياة القادة فى « فيلاتهم » الفخمة ، وفى بيان الطبقية فى الامتيازات المـادية التى تقدم للقياديين فى الجهاز الادارى والاقتصادى وللعلماء ، والأخصائيين ، والشعراء ، والفنانين ، ويعلق على ذلك بقوله :

« لم يصدر بيان رسمى اطلاقا ، فاذا تحدث المرء مع « أحد المخلصين للينينية » حول هذا الموضوع يجيبه ببساطة :

« حماة الدولة ، فالرفقاء ، يكلفون بعمل كبير ، ولذا فمن المسلم به أن يتخلصوا من الهموم المادية » •

من الممكن أن يكون هـــذا صحيحا ، ولكن ألم يكلف العمـــال فى المصانع والمناجم والقياديون من الطبقة الدنيا الذين لا يحصلون على هـــذه « الامتيازات » أيضا بعمل شـــاق يؤدونه ببذل كل ما عندهم من طاقة ؟ •

هـــذا هو الوضع فى المجتمع الشيوعى •• طبقات بعضها فوق بعض ، لا على أساس قوى الفرد الذاتية ، ولكن طبقا لولائه للحزب ، فالدولة ، وهى عدة أفراد قليلة صادرت الأموال مدعية أنها ستزيل بذلك فوارق الطبقات ، فاذا بها تتحكم فى مصير أفراد الشعب ، تتخم عملاءها بالأموال ، وتترك الآخرين يصارعون البؤس والفقر والحرمان ، بعد أن سلبَتهم أموالهم وسدت فى وجوههم طرق تحصيل الرزق •

والى حديث قادم ان شاء الله •• حول أسلوب الاسلام فى معالجة مشـــكلات الثروة •

* * *

(ش) بعد ما بينت لك فى حديثين سابقين أن دعوى الشيوعيين بأن فلسفة ماركس تؤدى الى الغاء الطبقات وتذويب الفوارق بين الناس هى دعوى كاذبة ، فالطبقية البغيضة القائمة على أساس الولاء للحزب ـــ وليس على أساس الانتاج للدولة ، وبذل المجهود لبناء الأمة ـــ موجودة فى الاتحاد السوفييتى ، وفى كل البلاد الخاضعة للنظام الشيوعى ، فقد صادر رجال الحكم الأموال ، ونصبوا أنفســـهم عليها يعطون من يشاءون ، ويحرمون من يشاءون ، وبذلك خلقت طبقات فى المجتمع تتمتع بكل المتع المـــادية ، وأخرى لا تجد من القوت الا ما يقيم أودها • وقد تفتقده أيضا فتموت جوعا اذا غضب عليها سادة الحكم •• بعد ما بينت لك هذا أحب أن أوضح لك أسلوب الاسلام فى معالجة مشكلات الثروة •

فقد عالج الاسلام هـــذه المشكلة بأسلوب يقضى على الطبقية ، ويحول دون ظهور الحقد الطبقى فى المجتمع ، فالمسلمون أمة واحدة ،

يقول الله تعالى : **« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »**[٣] ..

اذ يشعر الأفراد فيها بأنهم جسد واحد ، يتألم كل لما يصيب أخاه من سوء ، يقول النبى ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » ..

ولا يقف الأمر عند الشعور ، بل هو مسئول عن تخفيف الآلام عن أخيه بازالة أسبابه سواء أكانت نفسية أو مادية .

فأزال الاسلام التوتر النفسى الذى قد يحدث لبعض الأفراد ، عندما يفكر فى وضعه الاجتماعى . يقول الله تعالى : **« انما المؤمنون اخوة »**[٤] ..

وقال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »**[٥] ..

ويقول ﷺ : « أوحى الى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد » ..

وقضى على حقد الفقير على الغنى ففرض له نصيبا من ماله . يقول تعالى : **« آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »**[٦] ..

ويقول : **« ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم »**[٧] ..

وتوعد الغنى الذى لا يعطى الفقير حقه من هذا المال . فقال تعالى : **« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم**

---

(٣) الأنبياء : ٩٢
(٤) الحجرات : ١٠
(٥) الحجرات : ١١
(٦) الحديد : ٧
(٧) المعارج : ١٩ — ٢٥

وظهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »[٨] ..

كما حرم الربا حتى لا يتحكم الأغنياء فى رقاب أصحاب الحاجة ..

قال تعالى « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسـوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »**[٩] ..

ولم يقف الأمر عند هـذا الحد ، بل أراد الاسـلام أن يجعل مستوى المعيشة متقاربا بين المسلمين ، فحارب الترف ، يقول الله تعالى : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »**[١٠] ..

بل ان الترف قد يؤدى الى هلاك المجتمع ، فيقول الله تعـالى : « **واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »**[١١] ..

فوجوب الزكاة ، وتحريم الاكتناز والترف والربا ، أسس يراد بها رفع مستوى الطبقات الفقيرة ، وخفض مستوى معيشة الأغنياء لتكون الحيـاة سعيدة بتقاربها وتناسقها •

فتحريم الترف يوجه المـال الى انتاج أكثر فائدة للجميع ، وتحريم كنزها يوجب تداولها ، وتداولها من غير ربا يؤدى الى المشاركة فيها ، واذا لم يجد الناس فى الترف لذتهم وجاههم وجدوها فى الاحسان والبر ، واذا لم يجدوا فى الكنز ضمانا لهم ، وجدوه فى المجتمع الاسلامى المتكافل ، الذى لم يهمل أحدا ، ولم يحتقر أحدا ، واذا لم يجدوه فى الربا ، وجدوه فى لذة الكسب والمشـاركة مع اخوانهم الذين يعملون فى أموالهم •

● وهل يمكن أن تسرد لى بعض الأمثلة التى توضح أثر هذه المبادىء فى المجتمع الاسلامى ؟ ..

راجع موقف الاسلام من المـال فى باب « القضايا المعاصرة » تجد ما يبين لك ذلك بوضوح ..

* * *

(٨) التوبة : ٣٤ ، ٣٥
(٩) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩
(١٠) الأعراف : ٣١
(١١) الاسراء : ١٦

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ٨٣/٤٩١٣
الترقيم الدولى ٧—٢٤—٣٠٧—٩٧٧